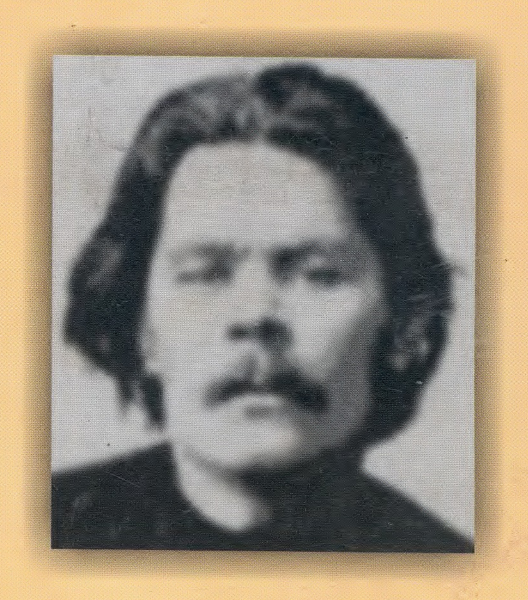
طبعة جديدة

ماكسيم غوركي

الأم





01 10 22/07
الإيداع القانوني : 2007 - 1300
ردمك : 9 - 530 - 62 - 9961 - 978

الأم

الأنيس

السلسلة الأدبية

تحت إشراف محمد بلقايد

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة

الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

ماكسيم غوركي

الأم

رواية

تقديم ف . عماري



من مؤلفات ماكسيم غوركي

الروايات

أبناء الشمس

الهمجيون

دار أرطامونوف

هم ونحن

المسرح

الحصيد

البرجوازيون الصغار

تقديم

لو سألنا أحد الرّوسيين من هو الأديب الذي يمثل الآداب الروسية في القرن الماضي أحسن من غيره من أدباء بلاده ، ما من شك أنه يجيب أن ذلك الأديب هو بوشكين (Pouchkine) ، والاسم هذا ليس مألوفا لدينا نحن معشر القراء الأجانب ، وقد نذكر نحن تلقائيا طولستوي (Tolstoï) أو دوستويافسكي (Dostoïevski) مع أن الآداب الروسية بلغت في ذلك العهد قدرا كبيرا من الازدهار . ولئن كان لا يمكن ذكر كل الأدباء فلا بد من رسم مسار تطور تلك الآداب من خلال بعض هؤلاء .

كانت الحركة الأدبية في ذلك العهد حركة مزدوجة بحيث نجد من ناحية الأدباء المؤيدين للتبادلات مع الخارج ومن الناحية الأخرى الأدباء الذين يعتبرون أن الأصالة الوطنية التقليدية هي المصدر الوحيد الذي يمكن لروسيا أن تستمد من استقلاليتها وتوازنها معتمدين في ذلك على آثار بوشكين . ولقد كان نيقولا غوغول (Nicolos Gogol) من أتباع هذه النزعة الثانية مما جعله يساهم في رد الاعتبار لروسيا وحمل فيودور دستويافسكي (Fedor Dostoievski) إلى القول بخصوص «المعطف» Le manteau، وهي واحدة من أشهر مؤلفاته : «إننا جميعنا خرجنا من معطف غوعول» ابراز لما لهذا الأديب من أهمية ضمن الحركة الأدبية التي

شهدها عصره . وأما دوستويافسكي ، ذلك القلق ، فإن إنتاجه القوي المأساوي يجعل منه أحد عمالقة الآداب الروسية . وأما ليون طولستوي (Léon Tolstoï) فإن له نفس التمسك بالقيم التقليدية . إن أجاد وأبدع في وصف روسيا لكنه مسح على إنتاجه مسحة دولية بفضل عالمية مواضيعه وتنوعها . ثم جاء إلى هذه الحركة مثقفون كانت تحذوهم رغبة الاحتكاك بالشعب فقضوا شبابهم متقلبين بين المنفى والسجون .

إن ماكسيم غوركي (Maxime Gorki) واحد من بين هؤلاء ، ويعد بحكم مشاركته النشيطة في الصراع الطبقي وما لأبطاله من حماس معا ، بمثابة المؤسس لمدرسة الواقعية – تم تأسيس المدرسة الواقعية الروسية سنة 1920 – وتتمثل المواضيع التي تعالجها في استحضار تاريخ الثورة أو تاريخ الفترة ما قبلها ، وفي وصف الحياة التي تدور في المصانع والمزارع ، وفي رسم نماذج نفسية ، وكانت تعمل بمبدإ نقل الواقع بأمانة حتى يتسنى إدراكه للجميع . والحقيقة أننا لما نقرأ آثار ماكسيم غوركي نلمس ذلك الجو . ولكن من هو ماكسيم غوركي ؟

لقد ولد سنة 1868 في مدينة نيجني نوفغورود (Nijni Novgorod) التي غير اسمها فيما بعد وأصبحت تسمى «غوركي» تخليدا لذكراه ، وعاش عيشة ضنك منذ نعومة أضافره مترحلا طلبا للرزق على طول مجرى نهر الفولغا (volga) إلى تخوم روسيا الجنوبية وأكرانيا (Ukraine) . إنه كان أساسا عصاميا ينهل المعرفة حيثما وجدها . نشر أول ما نشر في سنة 1892 ثم كتب لاحدى المجلات قصصا ذات حلقات ، وإلى جانب نشاطه الصحفي كان يكافح النظام القيصري القائم آنذاك كفاحا عنيفا ساقه عدة مرات إلى السجن والمنفى ، إلى أن اضطر إلى مغادرة بلاده سنة 1906 فكان له أن يتعرف على لنين (Lénine) في لندن ويقيم في مدينة كابري (Capri) بإيطاليا حتى سنة 1916 . ثم عاد إلى روسيا للمشاركة في ثورة

1917 ، وسيضطلع منذ ذلك الحين إلى أن وفاه أجله سنة 1936 بدور هام ثقافيا وسياسيا معا إذ ضمن مؤلفاته وصف أحوال الطبقة الشغيلة في عهده والآلام الانسانية والنضالات الثورية التي ، كما أسلفنا ، شارك فيها مشاركة فعلية .

من جملة آثاره نجد تمثيليات مثل «الحضيد» (Les bas fonds) ، وروايات مثل «الأم» ، و «أبناء الشمس» (Les enfants du soleil) ، و«الممجيون» (Les Barbares) ، و«دار أرطامونوف» (Le Maison Artamonov) ، و«كليم صامغين» (Klim Samguine) ، و«هم ونحن» (Eux et nous) ، وسير ذاتية دون أن ننسى حكايات كابري (Les Condes de Capri) .

كيف إعتنق ماكسيم غوركي تلك الأفكار الثورية وما هي الظروف التي كتب فيها رواية «الأم» .

كانت بواكير إنتاج غوركي بدأت بَعْدُ تعكس علاقات القوة الجديدة التي أخذت تنشأ داخل المجتمع الروسي عند نهاية القرن الماضي . إنه كان في أول أمره اشتراكيا بالعاطفة ولكن تشبعه بالنزاهة والشهامة والأنفة الإنسانية والبطولة الفردية من أجل مصلحة الجماعة كلها قد تمخض مبكرا عن نضج روحه الثورية في مؤلفاته .

وعلى سبيل المثال ، كان ظهور الوعي الإشتراكي في وسط عمالي من بين القضايا التي تعالجها رواية «الحظوظ الثلاثة» (Les trois destinées) الصادرة في 1900 ، وفي سنة 1902 جاءت تمثيلة «البرجوازيين الصغار» (Les petits bourgeois) هي الأخرى بنموذج للعامل الواعي بالمأساة الثورية. وفي ذلك العام ذاته بدأ مشروع الرواية التي ستصبح فيا بعد «الأم».

إنه كان آنذاك يقيم في نيجني نوفغورود وكان على صلة بالتنظيمات الإشتراكية المحلية ، وتؤكد شهادة المعاصرين أن ماكسيم غوركي كان

يساعد الثوار ماليا ويوفر لهم المخابئ ويتوسط في نقل بريدهم ، ويساعدهم بنصائحه وبقلمه (كان على شبَهٍ بالشخص الذي وصفه في روايته تحت اسم نيقولا (Nicolas) الذي جعل منه موظفا للدولة وعرف كيف يحببه لنا غاية التحبيب . ولقد تمثلت براعته في تحويل كل نشاط مشروع إلى نشاط ثوري (كما هو الحال في الرواية) .

وبسبب ذلك ألقي القبض عليه سنة 1901 وبعد ستة أشهر قضاها في السجن وبضغط من المظاهرات التي قام بها عمال وطلبة أُذِن له بالذهاب للاستشفاء في القرم (Crimée) إذ كان شديد المرض ، ولم يعد منها إلى نيجني نوفغورود إلا في سنة 1902 . فحدث ، وهو غائب من مسقط رأسه في يوم أول مايو ، أن رفع أحد صُنَّاع الأقفال ، عضو في اللجنة التي ألفت في العام المنصرم ، العلم الأحمر وسار في طليعة موكب المتظاهرين .

إن غوركي تأثر إيما تأثر لهذه القصة مما جعل ذلك الفتى يصبح تحت اسم بول (Paul) البطل الرئيسي في الرواية إلى جانب الأم التي صار بالطبع إبنا لها . فمثل صانع الأقفال الشاب يلقى القبض على بول ويحاكم فيحكم عليه بالاعتقال خارج موطنه . ولقد سعى غوركي من أجل تخفيف وطأة الإعتقال عن ذلك الفتى ولكنه اعتقل هو بدوره سنة 1905 ثم هرب إلى فنلندا حيث ظل على صلة بالمنظمات الثورية . ومن هناك جاز عبر ألمانيا للإلتحاق بالولايات المتحدة الأمريكية حيث باشر جولة دعائية . ولقد كان عمله الدعائي والمقالات التي نشرها فيما بعد سببا في معاداة الأمريكيين والفرنسيين له (رسالته الهجائية «فرنسا الجميلة» La belle France) .

وطوال تلك الفترة كان يعد ويكتب رواية «الأم» التي بدأها في يوليو 1906 وأتمها في ديسمبر في إيطاليا . ولقد نقح نصها خمس مرات على

الأقل وترجم إلى عدة لغات ، ولم ينفك المؤلف يعدل روايته إلى أن استقرت على شكلها النهائي في سنة 1922 . وبذلك إنه سعى إلى إضفاء المزيد من القوة على بطله «بول» فقام بتحويل مشهد جلسة المحاكمة بالتقليل من دور المحامين ، وذلك لمضاعفة عنف التضاد بين عالم العمال وعالم القضاة . كما حور في الخصائص مما جعل بول يصبح أقوى وعيوبه أقل بروزا . وأما الأم فقد جدد من شبابها وخفف من تدينها لكي يصبح لسخطها على القضاة أكثر وزنا . وأما «أندريه» (André) رفيق لول ، فإن غوركي نقله إلى الصف الثاني توضيحاً للطبع الثوري عند بول .

فلما هذه التغييرات ؟ لأن غوركي لم تكن غايته أن يقص مقطعا من النضال الثوري بالاقتصار على الوقائع المعروفة والتي شهدها هو ذاته، بل كانت غايته أن يبين أيضا أن الحركة العمالية قد بلغت النضج ومن ثمة إنها تختار لها سبيلا سياسيا . وبالفعل كان لينين (Lénine) قد أنشأ الحزب سنة 1903 أثناء مؤتمر الحزب الإجتماعي الديمقراطي ، ومنذ ذلك الحين تهيكل ذلك الحزب وصار قادراً على قيادة الثورة في نضالها ضد الحكم . وهكذا سبك ما كسيم غوركي في روايته التجربة السياسية لسنوات الثورة ومصدر عظمة أبطالها من ذلك الوعي السياسي .

وذلك ما يمنع القول بوجود عقدة في الرواية ، إذ لا يوجد فيها سوى وصف لتطور العلاقات الطبقية ، وتطور تفكير كل واحد ونضج الأمزجة مع مر الزمن . فبداية الرواية تطلعنا بالأم من خلال همومها الزوجية وهي تتقرب من ابنها بدافع حاجتها إلى العطف ، وتقدم له المساندة في نشاطه السياسي من دون أن تدرك له معنى ، وذلك في نفس الوقت الذي تبدي فيه إيمانا ساذجا بالله وبعدالة البشر . ثم نراها تتغير شيئا فشيئا فتتحول شفقتها على المضطهدين إلى حب عميق وتظل على

صلة دائمة بهم فتصير تلك الشفقة بغضا لكل ظالم وتأتي نهايـة الروايـة على درجة عالية من القوة .

كما أن الفتور يعتري العديـد من المضطهـدين في البـدايـة ثم سرعـانمـا ينقلب إلى تعـاطف فـإلى تضـامن طبقي وإلى تـواطـؤ بـالنسبـة لممارسي النشاط النضالي ، مما يجعلهم كلهم أو جلهم يباشرون النضال .

فلا يوجد إلا القليل من خونة القضية ، وإن كانوا فـإنهم يلتحقون – كلهم أو جلهم – بـالحركـة . والواقـع أن روايـة «الأم» تعـد من بين عـداد الروايات المتفائلة والمجنّدة في آن واحـد التي كتبهـا مـاكسيم غوركي الـذي يفسر موقفه في تصدير «حكايات إيطاليا» قائلا : نحن في حاجـة العتـاب ولكننا أحوج إلى الثناء ، إنه أكثر الاثنين فائدة ...» ، فإنه اختـار لنفسـه إذن أن يكون متفائلا ومجنّـدا في نفس الوقت ، في المرحلـة العصبيـة التي شهدت رد الفعل والقمع الـذين عقبا ثورة 1905 ، ونيـة مـاكسيم غوركي كانت أن يـدرأ إنهيـار العـزائم الـذي كان من الممكن أن يعتري المنـاضلين العماليين وينمى لدى الجماهير روح التضامن الطبقي ضد الحكم . لقـد فعل ذلك استجابة لدعوة من لينين الذي طلب منه الاتيان بما يرفع معنويات المناضلين ، ويبدو أنه وفق في مهمته .

فحبذا لو وجدنا من حيث الواقعية السفياتية أكبر قدراً من الدقـة في وصف الحيـاة اليوميـة وشضف العيش الـذي كان يتخبـط فيـه الفلاحـون والعمال في بداية هـذا القرن ، إذ يبـدو للقـارئ الأجنبي – ولكن الحقيقـة أن مـــاكسيم غـوركي كان يكتب لقرائـــه الروسيين – أن هـؤلاء الروسيين يتمتعون بالكفاف من حيث المأكل ومن حيث وسـائل التـدفئـة مهما كانت بساطتهـا ، بمـا أن السَمَـاوَر يُغلى في كل مكان لشرب الشـاي وأكل بعض الطعـام ، وأن أحقر المسـاكن يحتوى على سرير للنوم وليس بـالضرورة في غرفـة واحـدة حيث أن بعض المنـاضلين يسكنون مسـاكن فسيحـة يعزف

فيها على البيانو ، وأن البيوت لا تخلو من الكتب حيث أن العديد منها يحتوي على رفوف ملأى بالكتب المعتمدة في التعليم العام . إن روسيا ذلك العهد تبدو من خلال تلك الأوساط أكثر تعليما من العديد من بلدان أوروبا .

ومن البديهي أن البواعث التي كانت تحذو ماكسيم غوركي كانت سياسية وليس إقتصادية بالتخصيص . فالمهمة التي كان عليه أن يضطلع بها كانت مهمة ناجحة : إن الرواية التي تنتهي بإدانة بول وأندريه ، واعتقال الأم لا تعبر عن إخفاق حيث أنها لا تقلل في شيء من حتمية إنتصار ما يحمله أولائك الأشخاص من قيم إنسانية في نهاية المطاف . ولقد كان أولائك في واقع الأمر يعلمون دائما أن مصيرهم المعتقل والمنفى وأن المثل الذين يعطونه كفيل بخدمة القضية وتعزيزها . فعلى خلاف ذلك كانت إذن خاتمة الرواية خاتمة إيجابية ومتفائلة .

لقد كانت نية ماكسيم غوركي أن يجعل من هذه الرواية أداة تجنيد ، وذلك ما حمله على الإسراع في تأليفها وإذا بلينين يخاطبه قائلا : «لقد أحسنت صنعا إذ عجّلت به . إنه لكتاب مفيد علما أن العديد من العمال انضموا في الحركة الثورية وهم بلا وعي حقيقي . والآن إنهم سيقرأون «الأم» من تلقاء أنفسهم وتحصل لهم فائدة جمة من ذلك » . وأضاف : «إن الكتاب هذا لجد مواتٍ لوقته» .

ونقول نحن إنه لا يزال كذلك .

ف . عماري

ترجمة : محمد بن عمرو الزرهوني

القسم الأول

1

في كل يوم ، في دخان زيت الضاحية العمالية ورائحته ، كانت صافرة المعمل تزأر وترتعش .

وكالصراصير المروّعة ، يخرج على عجل ، ومن منازل صغيرة رماديّة ، رجالٌ كئيبو الوجوه ، ما يزالون هلكى العضلات ؛ وفي الظهيرة الباردة ، ينطلقون ؛ ينطلقون في الشوارع غير المبلطة ، نحو القفص الحجري الشاهق الذي ينتظرهم بهدوءٍ ولا مبالاة ، بعيونه المربعة اللزجة التي لا عداد لها ولا حصر .

تحت أقدامهم يفرقع الوحل ، وهتافات مبحوحة ، هي هتافات الأصوات النعسى كانت تسعى لاستقبالهم ؛ وسبابٌ بذيٌ كان يمزق الهواء ، ثم تأتي أصوات أخرى الآن ، هي ضجيج الآلات الأخرس ، وبغام البخار .

وعلى الضاحية تشرف المداخن العالية السوداء ، عبوسة قاتمة ، كالأعمدة الجبارة .

وفي المساء ، عندما تغرب الشمس ، وتلمع أشعتها الحمراء على زجاج النوافذ ، نوافذ البيوت ، يقيء المعمل من أحشائه الحجرية ، حثالاته البشرية ، وينتشر من جديد في الشوارع ، العمال الملطخو الوجوه بسواد الدخان ، العمال ذوو الأسنان اللامعة ، أسنان الجياع ؛ ينتشرون ليثقلوا الهواء بالعبق الرطب ، عبق زيوت الآلات .

إن أصواتهم تنطلق الآن نشيطة ، بل فرحة ، فلقد انتهت سخرة اليوم ، وفي المنازل ينتظرهم العشاء والراحة .

لقد ابتلع المعمل النهار ؛ وامتصت الآلاتُ من عضلات الرجال ما تحتاج من قوى ، وامّحى هذا النهار دون أن يترك وراءه آثاراً ؛ وخطا المرء نحو قبره خطوة ... ولكن عذوبة الراحة بدت له قريبة المنال ، وكذلك لذة الملهى العابق بالدخان ... وإنه لسعيدٌ من أجل ذلك !

وفي أيام الأعياد ينام الناس حتى العاشرة ، ثم يرتدي المترصنون منهم والمتزوجون أبهى ملابسهم ، ويذهبون إلى الصلاة ، وهم ينعون على الشباب استهتاره بالأمور الدينية ؛ وعندما يعودون من الكنيسة ، يأكلون ثم يستسلمون إلى الرقاد حتى المساء .

ولما كان الانهاك المتكدس خلال السنين يفسد الشهية ، فإن الكثيرين منهم يلجأون إلى الشرب ، ليثيروا نشاط معدهم بالاحتراقات الكحولية الحادة .

وفي المساء يتنزهون في الشوارع بكسل : يلبس الذين يملكون جزمات جزماتهم ، حتى ولو كان الطقس صاحياً ، ويحمل الذين يملكون مظلات مظلاتهم ، حتى ولو كانت الشمس مشرقة .

وعندما يتلاقون يتحدثون عن المعمل ، عن الآلات ؛ ويكيلون الشتائم لرؤسائهم . إن أحاديثهم وأفكارهم لا تتعدى الأشياء المتعلقة بالعمل ؛ وقليلاً ما تند خاطرة مسكينة سيئة الأداء ، فتلقي التماعةً فريدة في رتابة أيامهم الدكناء .

وعند العودة ، يتجادلون مع نسائهم ، ويضربونهن غالبا دون أن يزعجوا قبضاتهم .

أما الفتيان فإنهم يمكثون في المقهى ، أو ينظّمون سهرات قصيرة متناوبة ، يعزفون خلالها على الأكورديون ، ويغنون الأغاني الماجنة ، ويرقصون ؛ وينثرون النكات ويشربون .

... ويثورون بسهولة لأنهم منهكون بالعمل ؛ فالشراب يثير فيهم حنقاً لا سبب له ، حنقاً مَرَضياً ينشد المبرر ؛ ولكي ينفسوا عن

كزبهم ، يشتبكون تحت ستار مبرر تافه ، يشتبكون بضراوة وحشية ، فإذا هي معارك دامية ، يخرج البعض منها مشوهاً ، وقد تنجلي بعض الأحيان عن ضحايا .

أما علاقتهم فإن شعور الحقد ، حقد الكائدين هو الذي يسودها في الغالب ؛ وهو حقد أكثر عراقة من نصب عضلاتهم .

لقد ولدوا وهو يحملون هذا الداء النفسي الذي ورثوه عن آبائهم ، والذي يلازمهم كالشبح الأسود ، حتى القبر ، ويحملهم على اقتراف أعمال بغيضة هي ابنة الفظاظة التافهة .

وفي أيام الأعياد يعود الشبان ، في ساعات متأخرة من الليل ، يعودون وثيابهم ممزقة ، ملطخة بالوحل والغبار ، ووجوههم مثخنة بالجراح ، يتباهون بلؤم بما سددوا إلى رفاقهم من ضربات ، أو يهتاجون ويبكون للاهانات التي لحقت بهم ؛ حتى إذا وصلوا إلى منازلهم ، وصلوها ثمالى تعساء ، بشكل يثير الشفقة ، والقرف .

وأحياناً يقود الأهل فتاهم إلى البيت ، إذ يعثرون عليه منطرحاً من السكر عند قدم سياج أو في حانة ؛ فيمطرون الجسد الساكن بشتائمهم وضرباتهم ، ثم يلقونه في سريره ، كيفما اتفق ، ليوقظوه في ساعة مبكرة من الغد ، وليرسلوه إلى العمل ، عندما ترسل الصافرة ، كالسيل المظلم ، هديرها الخانق .

وإذا كانت الاهانات والضربات تنهمر قاسية على الفتيان ، فإن سكرهم وهذيانهم يبدوان ، في نظر الشيوخ ، شيئاً مباحاً مغتفراً ، فلقد كانوا ، في شبابهم يثملون مثلهم ويُضربون ... وكان ذووهم أيضا يضربونهم .

إنها الحياة ، كالماء العكر تنساب رتيبة بطيئة ، سنة بعد سنة ، وكل يوم يمر وهو يحمل نفس العادات القديمة اللازبة ، في التفكير والعمل ، وما من أحد يستشعر رغبة للتغيير فيها .

وقد يظهر في الضاحية أحياناً ، غرباء لا يدري أحد من أين أقبلوا ، فيسترعون الانتباه ، أول الأمر ، لأنهم ، بكل بساطة ،

مجهولون ؛ ويثيرون قليلًا من الفضول بعد ذلك ، بحديثهم عن الأماكن التي عملوا فيها من قبل ، ثم يتلاشى جاذب الجديد ، ويتعودهم الناس ، فيدخلون في النسيان ، وتظل أحاديثهم تحمل حقيقة واحدة هي أن حياة العامل هي هي في كل مكان ... فلِمَ التحدث عنها إذن ؟

غير أنه قد يوجد بعض الأحيان ، من ينقل إلى الضاحية أشياء جديدة بالنسبة لها ، وهؤلاء لا يناقشهم أحد فيما ينقلون ، بل يُصغى ، دونما تصديق ، إلى أقوالهم الغريبة التي تثير عند البعض سخطاً أخرس ، وعند البعض الآخر كآبة . ويشعر فريق ثالث بأن هناك أملًا غامضاً يقلقهم ، فينصرفون إلى الإسراف في الشراب ، ليطردوا هذا الشعور المزعج الذي لا جدوى فيه .

وكان سكان الضاحية إذا ما لاحظوا على دخيل سمة غريبة ، أخذوه طويلًا بالقسوة ، وعاملوه بازدراء غريزي كأنهم إنما يخشون أن يحمل إلى وجودهم ما يفسد عليه رتابته المتجهمة الأليمة ، الهادئة رغم ذلك .

وكانوا ، وقد تعودوا أن تسحقهم قوة ثابتة لا تتغير ، لا يتوقعون أي تحسن في حياتهم ، بل يعتقدون أن كل تغير قد يطرأ على هذه الحياة ، لن يكون إلا وسيلة تجعل نيرهم أشد وطأة .

وكان أولئك الذين يتحدثون عن أشياء جديدة ، يرون أن سكان الضاحية يتجنبونهم بصمت ، فيتوارون ، ويعودون إلى التشرد ، وإذا ما لبثوا في المعمل ، فإنهم يعيشون في عزلة لا يستطيعون معها أن ينصهروا في كتلة العمال الموحدة .

لقد عاش الرجل في هذا الجو خمسين عاما ثم قضى نحبه .

2

هكذا كانت حياة صانع الأقفال ميشال فلاسوف ، الرجل القاتم الكث الشعر ذي البسمة الشريرة ، والعينين الحذرتين القابعتين تحت حاجبيه الكثيفين .

لقد كان أفضل صانع للأقفال في المعمل ، وجبار الضاحية . وكان

ربحه نزراً لأنه كان فظاً مع رؤسائه ؛ وفي كل أحدٍ كانت له ضحية . وكان الناس جميعاً يكرهونه ويخشونه ، وقد حاول البعض البطش به ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، فكلما كان فلاسوف يشعر بأنه هدف هجوم ما ، يلتقط حجراً أو خشبة ، أو قطعة حديد ، وينتصب على قائمتيه المتباعدتين ، ينتظر عدوه بصمت .

وكان وجهه المكسو بلحية سوداء من عينيه حتى عنقه ، ويداه اللتان يغطيهما الشعر ، مثارَ رعب شامل ، وكان الناس يرهبون ، بصورة خاصة عينيه الصغيرتين النفاذتين اللتين تخترقان الناس كمثقب من فولاذ ؛ فيستشعر من تقع عليه نظراته ، إنه أمام قوة وحشية ، لا يقهرها الخوف ، قوة على أهبة البطش دونما رحمة .

ــ تنحّي أيتها الجيف .

هكذا كان يقول بلهجة صماء . ومن خلال صوف وجهه الكثيف تلمع أسنانه الصفراء ، فإذا بخصومه يتراجعون ، جبناء ، وهم يمطرونه وابلاً من السباب .

ويصيح بهم ثانية :

ــ أيتها الجيف .

... وتبرق نظراته شريرة حادة كالمخرز ، ثم يشمخ برأسه في تحدٍ ، ويتتبعهم ويستفزهم :

ــ حسناً . من منكم يود أن تثكله أمه ؟

ولكن أحداً لم يكن يود ذلك .

لقد كان نزر الكلام ، وكان تعبيره المفضل : « أيتها الجيفة » ينعت بها مدراء المعمل والبوليس ، ويستعملها حين يخاطب زوجته :

ــ ألا ترين أيتها الجيفة أن سراويلي ممزقة ؟

... وعندما بلغ ابنه « بول » الرابعة عشرة ، راق لفلاسوف أن يمسكه من شعره ، ولكن « بول » أمسك بمطرقة ثقيلة وقال بإيجاز :

ــ لا تلمسني .

وتساءل فلاسوف :

ــ لماذا ؟

وتقدم نحو الفتى الرشيق الأهيف ، كالظل الكبير حينما يغمر غصناً طرياً ؛ ولكن بول هز المطرقة وقال :

ــ هذا يكفي . لن أدعك تمسني .

ورنا إليه الأب ، ووضع يديه المكسوتين بالشعر وراء ظهره ، وقال ساخراً :

ــ حسناً .

ثم أضاف وهو يتأوه بعمق :

ــ يا للجيفة النتنة .

وبعد قليل قال لزوجته :

ــ لا تطلبي مني دراهم بعد الآن . إن بول سيعيلك .

وتشجعت زوجته فسألته :

ــ ولكنك ستهدر مالك كله على الشراب !

ــ هذا أمر لا يعنيك أيتها الجيفة ، سأتخذ لنفسي خليلة صالحة .

ولم يتخذ خليلة ، ولكنه منذ ذلك الحين حتى مماته ، أي طوال عامين تقريباً ، لم يلق نظرة على ابنه ، ولم يوجه إليه كلمة .

.. وكان يملك كلباً ضخم الجثة ، كثيف الشعر مثله . وكان هذا الحيوان يرافقه كل يوم إلى المعمل ، وينتظره ، في المساء ، عند بابه .

وفي الآحاد ، كان فلاسوف يجوب المقاهي . يسير صامتاً دون أن ينبس بكلمة ؛ ونظراته تجرّح المارة كأنه إنما يفتش عن أحد ما . وكان كلبه يتبعه طوال النهار يجرجر ذيله المتلبد الضخم .

وعندما كان فلاسوف يعود إلى المنزل ثملًا ، يجلس إلى المائدة ويقدم لكلبه الطعام في طبقه ، وكان لا يضربه أبداً ولا يركله ، ولكنه كان أيضا لا يدلله .

وكان إذا ما تهاونت زوجته برفع المائدة في الوقت المناسب ، يقذف الأطباق إلى الأرض ، ويضع أمامه زجاجة من الكحول ، ويسند ظهره

إلى الجدار ، ثم يعوي بصوت كريه أصم ، يعوي بأغنية ما ، وفمه واسع مفتوح وعيناه مغمضتان .

.. وتعلق كلمات الأغنية الرعاعية الكئيبة بشاربيْه اللذين يتساقط منهما فتات الخبز ، وتنطلق أصابعه الغليظة تمشط لحيته .

ويغني ، فتنطلق الكلمات متساحبة مستعصية على الفهم ، ويذّكر النغم بالعواء ، عواء الذئاب في الشتاء .

ويستمر في الغناء ما احتوت زجاجته شراباً ، ثم يهوي إلى جانب المقعد ، أو يلقي برأسه إلى الطاولة ، وينام على هذا الوضع ، وينام معه كلبه .. إلى أن يتعالى نداء الصافرة .

... وأودى به فتق بعد أن لبث مسوّد الأسارير ، طوال أيام خمسة ، وكان يتقلب على سريره ، مطبق الأجفان ، ويصر بأسنانه ، ويقول لزوجته أحياناً :

ــ إعطني سماً ... سم الجراذين .

ووصف له الطبيب الكمادات ولكنه ، بالاضافة إلى ذلك ، أعلن أن العملية الجراحية ضرورية ، وأن المريض يجب أن يُنقل ، في النهار نفسه ، إلى المستشفى .

وصرف فلاسوف بأسنانه :

.. ــ يا للشيطان . سأموت لوحدي أيتها الجيفة .

وعندما انصرف الطبيب ، أرادت زوجته الباكية أن تقنعه بإجراء العملية ، ولكنه قال لها ، وهو يهددها بقبضته :

ــ سأريك إذا ما شفيت .

... ومات في أحد الأصابيح عندما كانت الصافرة تطلق نداءها إلى العمل .

وعندما كان مسجى في تابوته ، كان فمه مفتوحا غير أن حاجبيه كانا مقطبين مستثارين . وشيعته امرأته وإبنه وكلبه ، ودانيلو فيسوفشيكوف ، اللص السكير الذي طُرد من المعمل ، وبعض البؤساء في الضاحية .

ولم تبكه زوجته كثيراً ، ولم يسفح عليه بول دمعة واحدة . أما أولئك الذين كانوا يمرون بالموكب ، من سكان الضاحية ، فكانوا يتوقفون ويرسمون علامة الصليب ويقولون لجيرانهم :

ــ يجب أن تكون بيلاجي مسرورة بلا شك ... لأنه مات !

ويرتفع صوت آخر مصححاً :

ــ إنه لم يمت ولكنه انفلق .

... وبعد أن أنزل النعش في حفرته ، انكفأ الناس ، ولكن الكلب ظل هناك منطرحاً على الثرى الرطب ، يشم طويلاً ، تراب القبر ، دون أن ينبح .

وبعد أيام قليلة ، صُرع الكلب ولا يدري أحد من الذي صرعه .

3

وفي يوم أحد ، وبعد وفاة أبيه بخمسة عشر يوماً عاد بول فلاسوف إلى المنزل ثملًا ، وولج أول حجرة وهو يترنح ، ثم صاح وهو يضرب الطاولة بقبضته ، كما كان يفعل والده :

ــ إلى العشاء .

واقتربت أمه فجلست إلى جانبه ، واحتضنته ثم جذبت رأسه إلى صدرها ، ولكنه ، وقد كان يسند يده إلى كتفها ، دفعها وصرخ :

ــ ابتعدي يا أماه ، ابتعدي خبباً .

وخاطبته بصوت حزين ملاطف ، منتصرة على مقاومته :

ــ أيها الحيوان الصغير .

وغمغم بول ، ولسانه العصي يدور بصعوبة :

ــ أريد أن أدخن ، إعطني غليون أبي .

لقد كانت هذه هي الأولى التي يثمل فيها ، وكانت الكحول قد أنهكت جسمه ، ولكنها لم تكن قد أخمدت ضميره ، وكان هناك سؤال يضج في رأسه :

ــ هل أنا ثمل ؟ هل أنا ثمل ؟

... وأربكته ملاطفات أمه ، ومسّه الحزن المطل من عينيها ، فشعر برغبة في البكاء ، ولكنه تظاهر ، لكي يقهر هذه الرغبة ، بأنه ثمل أكثر مما هو في الواقع .

ــ وظلت هي تداعب شعره المشعث ، المبلل بالعرق ، وتخاطبه برقة :

ــ ما كان يجب أن ...

... وأخذته نوبة تقيؤ ، فحملته إلى سريره ، بعد سلسلة من التقيؤات العنيفة ، وغطت جبينه الباهت بمنديل مبلل ، فاستعاد نشاطه بعض الشيء ، ولكن كل شيء كان يدور حوله ، وفي محجريه ثقلٌ ، وفي فمه مرارة وتقزز ؛ وكان يرنو من خلال أجفانه إلى وجه أمه الواسع ، ويفكر بلا انقطاع :

ــ أني ما أزال صغيراً على الشرب .. إن الآخرين يشربون فلا يحدث ذلك أي إزعاج لهم .. أما أنا فالشرب يسبب لي التقيؤ .

وتناهى إليه صوت أمه العذب البعيد :

ــ كيف ستتمكن من إعالتي ، إذا ما بدأت تدمن الشراب ؟

فأغمض عينيه وأجاب :

ــ إن الجميع يشربون .

... وتأوهت بيلاجي ، فهو على حق ، وهي تعلم أن الرجال لا يجدون مكانا آخر سوى الحانة ، ينشدون فيه المتعة ، ومع ذلك فقد أجابته :

ــ أما أنت فيجب ألّا تشرب ؛ لقد شرب أبوك كثيرا بالنيابة عنك ؛ وعذبني كثيرا ، وباستطاعتك أنت أن ترفق بأمك .

واصغى بول إلى هذه الكلمات الحزينة الوادعة ، وذكر كيف عاشت أمه في الصمت ، والنسيان ، يعذبها الانتظار الممزق ، إنتظار الصفعات . لقد كان في الفترة الأخيرة لا يمكث في المنزل إلا قليلًا تجنباً للقاء أبيه ، فكاد لذلك أن ينسى أمه ، والآن وقد أخذ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً ؛ ها هو يحدق بها بإمعان .

إنها كبيرة ، مقوسة القامة قليلًا ، وجسمها الذي أنهكه الجهد الطويل المتواصل ومعاملة أبيه السيئة ، يتحرك دونما ضجة ، يتحرك بانحراف ، كأنها حين تخطو ، تخشى الاصطدام بشيء ما . وفي وجهها البيضوي الواسع المنتفخ الذي حفرته التجاعيد تشع عينان قاتمتان ، حزينتان ، تلفهما الكآبة كعيون معظم النسوة في الضاحية . وفوق حاجبها الأيمن يلوح ندبٌ عميق الغور ؛ ويخيل للرائي أن أذنها اليمنى ، أعلى قليلًا من الأخرى ، فهي تبدو أبداً كأنها تنشر في الفضاء أذناً كئيبة ؛ وفي شعرها الكثيف الأسود تلوح خصلٌ بيضاء تتميز بلونها عن الأخريات .

لقد كانت كلها تسيل رقة وحزناً واستسلاماً ؛ وكانت عبراتها تسيل على خديها ببطء .

... وقال لها بول بهدوء :

ـــ لا تبكي ، واعطني ماءً لأشرب .

ـــ سآتيك ببعض الماء المثلج .

وعندما عادت إليه بالماء وجدته قد غفا ، فلبثت جامدة أمامه لحظة ، وفي يدها يرتجف الأبريق ، ويفرقع الجليد على حفافه .

ووضعت الابريق على الطاولة ، وركعت بصمت أمام صور القديسين !

... وهزت زجاج النوافذ صرخات سكرى ؛ وفي الظلمات ، وضباب الليلة الخريفية تعالى نباح أكورديون . وكان أحد المارة يغني بصوت مرتفع جداً ، وآخر يجدف بكلمات بذيئة ، وكانت تُسمع أيضاً أصوات نسوة مستثارة ، نسوة كئيبة منهكة .

وكانت الحياة في منزل آل فلاسوف الصغير ، تتابع سيرها أكثر هدوءاً وسلاماً من ذي قبل ، ومختلفة بعض الشيء عما هي عليه في المنازل الأخرى . وكان منزلهم هذا يقوم في طرف الشارع الكبير ، قريباً من منحني قصير وعر يؤدي إلى مستنقع ؛ وكان ثلث المنزل عبارة عن مطبخ وغرفة صغيرة تنام فيها الأم ، ويفصلها عن المطبخ حاجز رقيق ؛

أما الباقي فيؤلف غرفة مربعة ذات نافذتين ، يقوم في زاوية من زواياها سرير بول ، وفي زاوية أخرى مائدة ومقعدان . ولم يكن في البيت من أثاث سوى بعض الكراسي ، وخزانة فوقها مرآة صغيرة ، وصندوق للثياب ، وساعة جدار ، وأيقونتان في إحدى الزوايا .

وقد فعل بول كل ما يوافق مزاج شاب ناشيء ، فاشترى « أكورديون » وقميصاً منشّى الصدر ، ورباط عنق براقاً ، وجزمة وعصا ، فساوى بذلك أترابه ؛ وكان يسمر ويرقص بعض الرقصات التي تعلمها ، ويعود في الآحاد ، بعد أن يكون قد شرب فأسرف ؛ وكانت « الفودكا » ذات تأثير سيء قوي عليه ، فإذا شرب ، شكا في اليوم الثاني صداعاً وحرقة في المعدة ، وشحوباً في الملامح وخموداً .

وسألته أمه يوماً : ــ قل لي ، هل لهوت جيداً مساء الأمس ؟

فأجابها بحنق قاتم :

ــ لقد تناولت بعض الكافيار الملعون ، وسأذهب غداً لصيد السمك فذلك لي أجمل ، أو فإني سأشتري بندقية .

... وكان يشتغل باندفاع ، دون تغيب عن العمل أو عقوبة ، وكان كثير الصمت ، تعبر عيناه الزرقاوان الواسعتان كعيني أمه ، عن عدم رضاه .

... ولم يشتر بندقية ، ولم يذهب إلى صيد السمك ، ولكنه كان يصدف رويداً رويداً عن الحياة المشتركة التي يحياها الفتيان ، فلا يشهد السهرات إلا نادراً وأنّى كان يذهب ، في الآحاد ، فإنه كان يعود دون أن يكون قد تناول شيئاً من الشراب أبداً .

وكانت أمه التي تراقبه بعين يقظة ، كانت تلاحظ أن وجهه الأسمر المسفوح يهزل ، وأن نظرته تغدو أكثر صرامة ، وشفتيه تحملان تغضّن قسوة غريبة .

وكان يبدو كمن ملأه غيظ أخرس ، أو كمن تلبّسه داء وبيل .

لقد كان رفاقه من قبل يأتون إليه ، أما الآن فقد انقطعوا عن زيارته ، لأنهم لا يجدونه أبداً في البيت ؛ وكانت أمه تلحظ بكثير من

الغبطة أنه لا يقلد أترابه في المعمل ، ولكن إحساساً بخطر مجهول كان يجتاح قلبها ؛ عندما كانت تلمس عناده وتهربه من الانتظام في تيار الحياة العامة .

وكانت تسأله أحياناً :

ـــ إنك لست على ما يرام يا صغيري بول .

فيجيب : ـــ بلى ... إني على ما يُرام .

وتتأوه : ـــ كم أنت نحيل .

وبدأ يحمل كتباً ويقرأها في الخفاء ثم يخبئها في مكان ما ، وكان أحياناً ينسخ فصلاً بكامله على ورقة ، ثم يخبئها هي أيضاً .

وكانا قليلاً ما يتحدثان ، أو يتقابلان ، كان يشرب شايه في الصباح دون أن ينبس بكلمة ، ثم ينطلق إلى عمله . وعند الظهيرة يعود ، لتناول الغداء ، فيتبادلان على المائدة بعض الكلمات المجردة من المعنى ، ويتوارى هو من جديد حتى المساء .

وإذا ما تصرّم النهار استحم بعناية ، وتناول عشاءه ثم انصرف إلى كتبه طويلاً ، فإذا أقبل الأحد ، انطلق منذ الصباح ، كيلا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل .

وكانت بيلاجي تعرف أنه يذهب إلى المدينة ، ويتردد على المسرح ولكن أحداً لم يعد من المدينة ليخبرها أنه رآه . وكان يخيل إليها أن إبنها يغدو على مر الأيام أقل ثرثرة ، ولكنها كانت تلاحظ ، في الوقت نفسه ، أنه كان يستعمل بين الفينة والفينة ، ما لا تدري من ألفاظ جديدة لا تفهمها ، في حين أن التعابير الفجة القاسية التي تعودتها منه ، قد أخذت تختفي من لغته .

وظهرت في سلوكه تفاصيل كثيرة استرعت انتباهها ، فلقد أقلع عن التصنع وطار يظهر عناية أشد بنظافة جسمه وثيابه ، وأصبحت مشيته أشد إطمئناناً وتحرراً ، ومظهره أكثر بساطة ورقة ، وهذا ما كان يقلق أمه .

وكان هناك أيضاً شيء جديد في سلوكه نحوها ، فلقد كان يكنس

أحياناً حجرته ، ويرتب سريره ، أيام الآحاد ، ويجتهد ، على وجه العموم ، في أن يخفف من عبء مشاغلها ، ولم يكن في الضاحية كلها من يتصرف مثل هذا التصرف .

... وفي أحد الأيام حمل بول معه لوحة تمثل ثلاثة أشخاص يسيرون بخفة وجذل ، ويتحدثون ، وثبّت هذه اللوحة في الجدار وعلق عليها قائلاً : ــ هذا هو المسيح الذي بُعث حياً في طريقه إلى عمواس .

وأعجبت اللوحة بيلاجي ، ولكنها اعترضت :

ــ إنك تبارك المسيح ، ولكنك لا تذهب إلى الكنيسة .

... وكان عدد الكتب يتكاثر باطّراد ، فوق الرف الذي صنعه رفيق له نجار ، وكذلك كانت حجرته تأخذ شكلاً لطيفاً محبباً ، وكان يخاطب بيلاجي بتعظيم ويسميها « الأم » ، ولكنه كان في بعض الأحيان يفاجئها متردداً : ــ لا تقلقي يا أماه ... فسأعود متأخراً .

... ومن خلال هذه الكلمات كانت تستشعر أنه ينطوي على شيء قوي جادٍ يثلج صدرها ، ولكن قلقها كان ينمو ، وكان الوقت الذي يمر لا يفلح في تهدئة هذا القلق لأن الاحساس بأمرٍ غريب مجهول كان يسحق فؤادها .

وكان عدم الرضا من ابنها يداخلها أحياناً فتفكر :

« إن الآخرين يعيشون كرجال ، أما هو فيحيا كراهب . إنه مسرف في الجدية والاتزان وهذا ما لا يتلاءم وسنه . »

وكانت تتساءل : ــ أتراه عاشقاً ؟

ولكن الاهتمام بفتاة ما ، يستلزم توفر النقود ، أما هو ، فإنه كان يلقي إليها كل أجره تقريباً .

... وانسلخت على هذا المنوال أسابيع وشهور ، بل سنتان من حياة غريبة صامتة تعج بالخواطر ومشاعر الخوف القلق ... وهي خواطر ومشاعر كانت تنمو بلا انقطاع .

4

وفي إحدى الأمسيات انتحى بول بعد العشاء زاوية ، بعد أن أسدل ستائر النوافذ ، وشرع يقرأ ؛ والقنديل البترولي معلق في الجدار فوق رأسه .

وخرجت أمه من المطبخ بعد أن رتبت الأواني ، واقتربت منه مترددة الخطى ، فرفع رأسه ، ونظر إليها نظرة متسائلة .

وقالت هي : ــ لا شيء يا بول ... هذه أنا ... ثم نأت عنه بانفعال ونمّ عن ارتباكها ارتفاع حاجبيها ؛ ومكثت في المطبخ زمناً ، وهي جامدة ساهمة متشككة تتشاغل طويلاً بغسل يديها ، ولكنها ارتدت أخيراً نحو ابنها لتقول له بهمس :

ــ أريد أن أسألك ... ما هذا الذي تقرأه باستمرار ؟

... وألقى بول الكتاب :

ــ إجلسي يا أماه ..

.. وجلست إلى جانبه بتثاقل ، وتحفزت كأنها تستعد لسماع أمر فظيع . ودون أن يرفع إليها بصرْه ، أخذ بول يتحدث بصوت منخفض ، وقد اتسم حديثه بطابع من خشونة :

ــ إني أقرأ كتباً ممنوعة . إنهم يحرِّمون قراءتها لأنها تنطق بالحقيقة عن حياتنا كعمال ؛ وهذه الكتب تُطبع في الخفاء ، وإذا عثروا عليها في حوزتنا ، فإنهم يزجونني في السجن ، أجل في السجن ، لأني أريد أن أعرف الحقيقة !

ــ أفهمت الآن ؟

... وشعرت بضيق في التنفس ، وجمّدت على ابنها عينين شاردتين :

لقد بدا لعينيها غريباً متغيراً ، وزُين لها أن صوته قد تغيّر ، فهو أكثر خفوتاً ، أكثر امتلاءً ، أكثر رنيناً . وكانت أصابعه النحيلة تمسد شاربيه الناعمين ونظرته الغريبة تنطلق من تحت حاجبيه لتضيع في المبهم .

وداخلها شعورٌ هو مزيج من الخوف والشفقة على إبنها ، وسألته :
ـــ ولِمَ تفعل ذلك يا بول ؟
فرفع رأسه ، وقذفها بنظرة قاسية وأجاب دون أن يرفع من صوته ، أجاب بهدوء : ـــ أريد أن أعرف الحقيقة .
.. وكان صوته خفيضاً ولكنه حازم ، وكانت عيناه تلتمعان عنيدتين .. وأدركت هي أن إبنها قد وهب نفسه ، إلى الأبد ، لأمر غامض رهيب !
لقد كان كل شيء في الحياة بالنسبة لها ، حتمياً لا يمكن تجنبه ، ولقد تعودت أن تستسلم دونما تفكير ، لذلك ، راحت تبكي ، وقلبها فريسة الحزن والغم ، تبكي بهدوء دون أن تجد الكلمات للتعبير .
وقال لها بول بصوت حنون : ـــ لا تبكي يا أماه .
فخيل إليها كأنه إنما يُسمعها كلمات الوداع .
ـــ تأملي أية حياة هي حياتنا . لقد بلغت الأربعين من عمرك ، ومع ذلك هل عشت حقاً ؟ لقد كان أبي يضربك ، وأنا أدرك الآن أنه كان يثأر ، على حساب أضلاعك ، من شقائه ، شقاء حياته التي خنقته ، دون أن يدري من أين جاءه هذا الشقاء ! لقد ناضل ثلاثين عاماً ، وبدأ نضاله عندما كان المعمل لا يزال مؤلفاً من بناءين .. أما الآن فهو مؤلف من سبعة !
.. وكانت تصغي إليه برعب ونهم ، وكانت عيناه تبرقان جميلتين صافيتان ، وكان يقترب من أمه ، وهو يسند ظهره إلى الطاولة ، حتى كاد يلامس وجهها الغارق بالدمع . ولأول مرة ، كان يبوح بما وعى ؛ ويتحدث بكل إيمان الشباب ، وحرارة التلميذ الفخور بمعرفته للحقيقة ، هذه المعرفة التي يؤمن بها كدين . لقد كان يتحدث عما يعتقده جلياً واضحاً ، ولم تكن غايته أن يتحدث إلى أمه فحسب ، بل أن يبرهن أيضاً عن إيمانه .
.. وكان يتوقف بين الفينة والفينة ، إذ تعوزه الكلمات فيرنو إلى الوجه الكئيب الذي تلمع فيه عينان طيبتان غاصتان بالدمع ،

ملفعتان بالرعب والقلق ، يرنو إليه فيشفق عليها ، على أمه ، ويمضي ليتحدث عنها هذه المرة ، عن حياتها :

ـــ أية هنا آت عرفتها ..؟ أتستطيعين أن تحدثيني عن شيء بهيج في حياتك ؟

.. وكانت تصغي ، وتهز رأسها بأسىً ، وتعاني إحساساً بشيء جديد لم تعرفه من قبل ، إحساساً هو مزيجٌ من الغضب والغبطة ، وكان هذا الإحساس يداعب بعذوبة قلبها المتوجع .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها حديثاً كهذا عن نفسها ، عن حياتها ، وكانت تلك الكلمات التي سمعتها توقظ فيها خواطر مبهمة طواها الحذر منذ أمد بعيد ، وتعيد بلطف ، الحياة إلى إحساسها المنطفيء بالحرمان المظلم ، الحرمان من الحياة ، وتبعث من جديد خواطر شبابها البعيد وانطباعاته .

لقد كانت تستعيد قصة طفولتها مع أترابها ، وتتحدث طويلًا عن كل شيء ، ولكنها كانت ، كالأخريات ، لا تعرف إلا التشكي ؛ ولم يكن أحد ليشرح لها لِمَ كانت الحياة شديدة القسوة ، شديدة العسر .

وهو ذا ابنها القابع هناك ، يمس بكل ما تقوله عيناه وملامحه وكلماته ، يمس بذلك كله قلبها ، ويملأ هدا القلب زهواً به ، هو الذي فهم جيداً حياتها ، وحدثها عن آلامها ، ورثى لها كل ذلك ، وما كان لأحد أن يرثي للأمهات !

وكانت تعلم أن ما قاله بول عن حياة النساء هو الحقيقة ، الحقيقة المرة ، وكانت تشعر بفيض من الأحاسيس العذبة يتدفق في صدرها ، وبعذوبة هذه الأحاسيس المجهولة تبعث الدفء في قلبها .

ـــ ثم .. ماذا تريد أن تفعل ؟

ـــ أتعلم ثم أعلم الآخرين . يجب علينا نحن معشر العمال أن ندرس ، أن نعرف ، أن ندرك لِمَ كانت حياتنا هكذا شديدة القسوة !

واستعذبت أن ترى عينيه الزرقاوين القاسيتين الجادتين أبداً ، تومضان الآن بكثير من الرقة والعذوبة ، وبدت على شفتيها ابتسامة

خفيفة ، إبتسامة رضى ، في حين أن عبراتها كانت ما تزال ترتعش في تجاعيد وجهها .

لقد كانت موزعة بين شعورين : كانت فخورة بابنها الذي يدرك جيداً أسباب البؤس في الحياة ، ولكنها كانت لا تستطيع أن تنسى أنه ما فتيء صغيراً ، وأنه لا يتكلم كأترابه ، وأنه قرر أن يخوض المعركة وحده ضد الحياة الرتيبة التي يحياها الآخرون ، والتي تحياها هي أيضاً ، وكانت تود أن تقول له :

« وماذا تستطيع أن تفعل وحدك يا صغيري ؟ » ولكنها كانت تخشى أن تغمطه حقه من الاعجاب ، حقه هو الذي بدا لها بغتة حاد الذكاء ، فيه بعض من غرابة .

ورأى بول البسمة على شفتي أمه ، وقرأ الانتباه في ملامحها والحب في عينيها ، فأدرك أنه استطاع أن يُفهمها حقيقته ، وفجّر الزهو الفتّي ، الزهو بقوة حديثه ، الإيمانَ في نفسه ، فاندفع ، وقد ملأه الحماس ، يتكلم ساخراً تارة ، مقطب الجبين تارة أخرى . وكان الحقد يدوّي بين الفينة والفينة في صوته ، وكانت أمه ، حين تسمع مقاطعه العنيفة القاسية تهز رأسها مذعورة وتسأله بصوت خفيض :

ــ أهكذا إذن يا بول ؟

وكان يجيب بصوت حازم : نعم .

لقد كان يحدثها عن أولئك الذين يبتغون خير الشعب ، عن أولئك الذين يبذرون الحقيقة ، والذين يطاردهم أعداء الحياة من أجل ذلك ، يطاردونهم كالحيوانات المتوحشة ، ويزجونهم في السجن ، وصاح بحدة :

ــ لقد رأيت رجالًا كهؤلاء .. وأنهم لأفضل من في الدنيا .

وأثار « هؤلاء الرجال » رعب أمه ، وودت أن تسأله ثانية :

ــ أهكذا إذن يا بول ؟

ولكنها لم تفعل ، بل راحت تصغي ، مذحورة ، إلى أحاديث بول عن هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع فهمهم ، والذين لقنوا ابنها أسلوباً خطراً في القول والتفكير .

وقالت له : لقد أوشك الفجر أن يبزغ ، فهلّا ذهبت لتنام ؟
فأجاب : سأذهب حالًا ..
ومال إليها يسألها :
ـــ هل فهمتني الآن ؟
وتأوهت : أجل .. وفاضت دموعها من جديد .. وأضافت وهي تشهق :
إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة .
ونهض ، وخطا بضع خطوات في الغرفة :
ـــ حسناً . لقد عرفت ماذا أفعل ، وأي طريق أسلك ، لقد بحت لك بكل شيء ، وإني لأتوسل إليك يا أماه ، إذا كنت تحبينني حقاً ، ألا تحولي بيني وبين ذلك .
وصرخت : ـــ يا عزيزي .
ثم تمتمت : ـــ ليته لم يبح لي بشيء ..
فأخذ يدها ، وشد عليها بقوة بين يديه .
ومستها هذه الكلمة التي لفظها بكثير من الحرارة « يا أماه » ، وهذا الضغط الغريب على يديها ، وهو ما لم تألفه من قبل ، فقالت بصوت لاهث :
ـــ لن أفعل شيئاً لأحول بينك وبين ما تبغي ، ولكني أطلب إليك فقط أن تكون حذراً ، أن تكون حذراً .
ودون أن تدري ممَّ تحذره أضافت بأسىً :
ـــ إنك تزداد نحولاً يوماً عن يوم .
ولفت جسمه القوي المتين بنظرة حادة مدللة ، وقالت له بصوت منخفض ، وعلى عجل :
ـــ ليحفظك الله يا بني . افعل ما تشاء فلن أمنعك أبداً ، ولن أطلب منك إلا أمراً واحداً فحسب ، هو أن تكون حذراً حين تخاطب الناس . يجب أن تتجنبهم . إنهم يكرهون بعضهم بعضاً . إنهم طماعون حسودون ، يسعدهم أن يقترفوا الأذى ، وإذا ما شرعت في

إطلاعهم على حقائقهم ، في الحكم عليهم ، فإنهم سيكرهونك ، سيقضون عليك .

وابتسم بول الذي كان يصغي إلى هذه الكلمات المُرة ، وهو منتصب بالقرب من الباب :

ــ أجل ان الناس أشرار ، ولكنهم أصبحوا ، مذ تعلمت أن هناك حقيقة على الأرض ، خيراً مما كانوا وأفضل .

وابتسم ثانية ثم أردف :

ــ وأنا نفسي لا أدري كيف حصل ذلك . لقد كنت في طفولتي أخشى كل شيء في العالم ، وعندما كبرت هُيئت لأن أكره البعض لجبنهم ، ولأن أكره الآخرين هكذا دون أن أعرف لذلك سبباً ، أما الآن ، فإنهم مختلفون بالنسبة إليّ ، وإني لأشفق عليهم كما أعتقد ، أنا لا أدري كيف ، ولكن قلبي يتفطر عندما أدرك أنهم ليسوا هم المسؤولين عن خساستهم !

وصمت لحظة ، كأنه إنما يصغي لشيء في داخله ، ثم تابع وهو مطرق :

ــ هذا ما تهمس به الحقيقة .

ورنت إليه بعينيها وغمغمت :

ــ لشد ما تغيرت، ولشد ما تخيفني... آه يا ربي.

... وعندما آوى إلى فراشه ونام، نهضت دونما جلبة، ودنت من سريره بهدوء، وكان بول مستلقيا على ظهره، ووجهه الشاحب الصارم يلقي بظله على الوسادة البيضاء، ويداه تنعقدان فوق صدره... وكانت هي إلى جانب السرير حافية القدمين، تتحرك شفتاها بصمت، وتنحدر من عينيها، ببطء، دموع كبيرة عكرة تتساقط دمعه بعد دمعة.

5

... واستمرت حياتهما صامتة ، واستمرا قريبين بعيدين ؛ حتى إذا كان يوم عيد في وسط الأسبوع ، قال بول لأمه وهو يهم بالذهاب :

ـــ سيكون عندي ، نهار السبت ، ضيوف من المدينة ؟
وسألت أمه : ـــ من المدينة ؟
ثم انخرطت في البكاء .
وصاح بها بول محنقاً : ـــ لِمَ تبكين يا أماه ؟
فتأوهت وهي تمسح دمعها بمئزرها :
ـــ لا أدري لماذا ؟
ـــ هل أنت خائفة ؟
فاعترفت : ـــ أجل ... إني خائفة .
فمال إليها ، وقال لها بصوت غاضب كما لو كان يخاطب طفلًا :
ـــ هذا الخوف هو الذي يفجِّرنا جميعاً . أما أولئك الذين يحكموننا فإنهم يستغلون هذا الخوف ، ويزيدوننا به رهبة .
فناحت أمه : لا تغضب . أتريدني ألا أخاف وقد عشت حياتي كلها خائفة ؟
فأجابها بصوت خفيض ناعم :
ـــ إغفري لي ، لا أستطيع أن أفعل غير هذا .
ثم خرج .
وظلت مضطربة طوال أيام ثلاثة ، وكان قلبها يتوقف عن الوجيب كلما تذكرت أن أولئك الناس سيأتون إلى منزلها ... إنهم غرباء لا بد أن يكونوا مخيفين ، ثم إنهم أولئك الذين أوضحوا لإبنها الطريق الذي يسلكه الآن .
وفي مساء السبت عاد بول من المعمل ، فاستحم ، وأبدل ملابسه ، ثم غادر المنزل وهو يقول لأمه دون أن يرفع إليها بصره :
ـــ قولي لهم إذا جاءوا ، إني سأعود في الحال ؛ وأرجوك ألا تخافي .
...وتهالكت على المقعد خائرة القوى، فقطب بول حاجبيه وسألها:
ـــ ربما كنت تودين الخروج !
فأحنقها ذلك ، وهزت رأسها بالنفي :
ـــ لا ، وعلامَ أخرج ؟

... وكان ذلك في نهاية تشرين الثاني ، وكان ثلج خفيف ناعم قد تساقط أثناء النهار على الأرض المتجمدة ، وإنها لتسمعه الآن يفرقع تحت أقدام بول الذي مضي ، وفي زجاج النافذة كانت تزدحم الظلمات الكثيفة البغيضة ، تزدحم دون حراك في الكوى ، في حين ظلت هي جالسة تسند مرفقيها إلى المقعد ، وتنتظر وبصرها مسمّر على الباب .

وكانت تتراءى لها في العتمة كائنات شريرة ، غريبة الأزياء ، تتوافد نحو المنزل من كل صوب ، وكانت هذه الكائنات تمشي بخطىً ذئبية مقوسة الظهور ، تتلفت في كل اتجاه ؛ وهو ذا الآن شخص ما يطوف بالبيت ، ويتحسس الجدار بيديه .

... وتعالى صفيرٌ شق طريقه في الصمت كالخط الدقيق ، حزيناً منغماً ، وتاه متأملاً في فراغ الظلمات ينشد شيئاً ما ، ويدنو ، ثم غار فجأة تحت النافذة ، كأنه إنما غار في خشب الحاجز .

وسمعت وقع خطوات تتساحب في المدخل ، فارتعشت ، ونهضت تمد عينيها الجاحظتين .

وشُرِّع الباب وظهر أولًا رأس يعتمر قبعة واسعة من القطيفة ، ثم انسلت ببطء قامة فارعة محنية ما لبثت أن انتصبت ورفعت ، على مهل ، ذراعها الأيمن ، وتنفس الداخل الصعداء بصوت صادرٍ من أعماق الصدر وحيّا : ــ طبتم مساءً .

فانحنت الأم دون أن تنبس ببنت شفة .

ــ أليس بول هنا ؟

... وخلع الرجل ببطءٍ سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع رجله ، وراح ينكت بقبعته ، ما علق على حذائه من ثلج ، ثم كرر نفس الحركة ونفض الثلج عن حذائه الآخر ؛ وألقى بالقبعة في إحدى الزوايا ، ودخل الحجرة مترنحا على ساقيه الطويلتين .

ودنا من كرسي فتفحصها كما لو كان يتأكد من متانتها ، ثم جلس وتثاءب مغطياً فمه بيده .

وكان رأسه كامل الاستدارة ، نظيفاً من الشعر ، وكان حليق الوجه يحمل شاربين طويلين متهدلي الأطراف .

وتفحص الحجرة بعينيه الواسعتين الجاحظتين كعينيّ نمل ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، وسأل وهو يهدهد كرسيه :

ــ وكوخك ، أهو ملك لك أم أنك تشغلينه بالايجار ؟

وأجابته بيلاجي التي كانت تجلس قبالته :

ــ إننا نشغله بالايجار .

فقال : إنه ليس فخماً .

وقالت بفتور : سيعود بول بعد قليل ، فانتظره .

فأجاب الرجل الطويل بهدوء :

ــ وهذا ما أفعله .

وأعاد هدوءه وصوته العذب وبساطة ملامحه ، الشجاعة إلى نفسها ، وكان هو ينظر إليها بصراحة ووجه عطوف ، وكان شعاعٌ من المرح يتراقص في عينيه الشفافتين ، وكان في هيكله المقرّن المحدودب ، بساقيه الطويلتين ، شيء يثير البسمة ويحببه إلى القلب ، وكان يرتدي قميصاً أزرق ، وبنطلوناً أسود أدخلت أطرافه في الحذاء .

وودت الأم أن تسأله من يكون ؟ ومن أين أقبل ؟ وما إذا كان يعرف إبنها منذ أمد بعيد ، ولكنه تململ فجأة ، وبادرها هو بالسؤال :

ــ ومنذا الذي ثقب جبهتك هكذا أيتها الأم الصغيرة ؟

وكانت لهجته لا كلفة فيها ، وكانت في عينيه بسمة طيبة صافية ، ولكن السؤال أحنقها ، فزمت شفتيها ، وبادهته بعد لحظة من الصمت ، وبتهذيب بارد :

ــ وماذا يعنيك أمر ذلك أيها السيد العزيز ؟

فاستدار نحوها بكل كيانه :

ــ لا تحنقي ، فلقد سألتك هذا السؤال لأن أمي بالتبني كانت هي أيضاً تحمل في جبهتها ندباً كالذي تحملينه ، ولقد أحدثه لها قرينها الذي كان إسكافياً إذ ضربها بأحد القوالب ، لقد كانت هي غسالة ،

وعندما تبنتني كان ذلك السكير قد عثر عليها ، لسوء حظها ، في مكان لا أدريه ، وكان يضربها ولن أقول لك غير هذا ، فقد كان يتولاني خوف منه كخوفي من الشياطين .

وشعرت الأم أن هذه الصراحة قد جردتها من سلاحها ، وفكرت بأن ما أظهرته من طبع سيء تجاه هذا الرجل الشاذ ، سيحنق بول ، فابتسمت ابتسامة المخطيء :

ــ أنا لم أغضب ، ولكنك فاجأتني بالسؤال : إن زوجي ، تغمده الله برحمته ، هو الذي قدم لي هذه « الهدية » ... ثم ألست أنت تترياً ؟

... وارتعشت ساقاه الطويلتان ، وتألق وجهه ببسمة عريضة جداً بحيث تدلت معها أذناه حتى عنقه ثم قال بجد :

ــ كلا ، لست تترياً حتى الآن !

فقالت ، وقد أدركت مغزى مزاحه :

ــ ولكن لهجتك ، كما يقال ، ليست لهجة روسي ...

فصاح الضيف بمرح ، وهو يهز رأسه وقد أدرك نكتتها :

ــ بل أحسن من لهجة روسي . إني « بيلوروسي »[1] من مدينة « كاينيف » .

ــ وهل أنت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال وهو يمسد شاربيه :

ــ لقد حللت في المدينة منذ عام تقريبا ، ومضى حتى الآن شهر على مجيئي إلى المعمل . لقد إلتقيت في المعمل برجال أخيار ، إبنك والآخرين ، وإني أود أن أستقر هنا .

وأثار إعجابها ، وأحست برغبة في أن تشكره للكلمة الطيبة التي أثنى بها على ولدها :

ــ أتود أن تتناول قليلاً من الشاي ؟ فأجاب وهو يهز كتفيه :

ــ ولكن أتريدينني أن أكون المدعو الوحيد ؟ عندما يجتمع الشمل تقومين بواجبات الضيافة !

وعـاودهـا الخوف فهمســت بحـرارة :
« شريطة أن يكونوا جميعهم مثله »
وسُمع من جديد وقع أقدام في الرواق ، وفتح الباب بعنف ، فنهضت الأم ، وأدهشها كثيراً أن ترى أن القادم لم يكن سوى فتاة حديثة السن ، ذات وجه قروي بسيط ، وضفائر كثيفة من شعر متألق :
ــ أحسب أني لست متأخرة ؟
فأجاب البيوروسي الذي كان ما يزال في الحجرة :
ــ كلا .
ــ وهل أتيت مشياً ؟
ــ أجل ... وهل أنت والدة بول ؟ طاب مساؤك ... إني أدعي ناتاشا .
ــ وإسم أبيك ؟
ــ فاسيليفنا . وأنت ؟
ــ بيلاجي نيلوفنا .
ــ ها نحن إذن قد تعارفنا .
وأجابت بيلاجي بزفرة خفيفة :
ــ أجل .
ثم راحت تتفحص الفتاة باسمة .
... وساعد البيوروسي الفتاة على خلع معطفها :
ــ هل الطقس بارد ؟
ــ نعم ... إنه بارد جداً في الحقول .. والريح تصفر ...
... وكان صوت الفتاة صافياً مرناناً ، وفمها صغيراً مكتنزاً ، وجسمها لدناً ملتفاً ، وبعد أن خلعت معطفها ، راحت تفرك بشدة وجنتيها القرمزيتين بيديها الصغيرتين اللتين احمرتا من البرد ، ثم ولجت الغرفة بسرعة ، بعد أن نفضت على العتبة أعقاب حذائها .
ومرت بخاطر الأم هذه الفكرة :

ــ لعلها لا تملك جزمة .

وقالت الفتاة وهي ترتجف ، وتمط كلماتها :

ــ أجل .. إني متجمدة ... يا آلهي .

وقالت الأم بحرارة وهي تتوجه نحو المطبخ :

ــ سأعد لك الشاي بسرعة ، وستشعرين بالدفء .

... وخيل إليها أنها تعرف الفتاة من زمن بعيد ، وأنها تحبها كأم طيبة رؤوم ، وراحت وهي تبتسم ، تصغي إلى الحديث الذي يدور في الحجرة .

ــ أنك لا تبدو منشرحاً يا ناكودكا .

ويجيب البيوروسي بصوت منخفض :

ــ وهو كذلك . إن لهذه الأرملة عينين طيبتين ، وأعتقد أن عيني أمي ربما كانتا شبيهتين بهما . وأنت تعلمين إني كثير التفكير بأمي ، ويخيّل إليّ دوماً أنها ما تزال حية .

ــ أتقول أنها ماتت؟

ــ كلا ... هذه أمي يا لتبني ... وأنا أتحدث عن أمي الحقيقية . إني أتصورها تتسول في ناحية ما من « كييف » ، وتشرب الفودكا ، وعندما تثمل ، يهشم رجال الشرطة وجهها .

وقالت الأم في نفسها : « يا للمسكين » ثم تأوهت .

.. وأخذت ناتاشا تتكلم بسرعة وحرارة ، ولكن بصوت خفيض ، ثم رنّ من جديد صوت البيوروسي :

ــ أنت ما زلت غرة يا رفيقة . إنك لم تتعودي شظف العيش . إن الاتيان بطفل إلى الدنيا أمر عسير ، وتربيته تربية صالحة أمر أشد عسراً .

وقالت الأم لنفسها : أرأيت ؟

وودت أن تتوجه بكلمة لطيفة معزية إلى البيوروسي ، ولكن الباب فتح ببطء ودخل نيقولا فيسوشيكوف ، ابن ذلك اللص العجوز ، لص « دانيلو » . إن الضاحية كلها تعتبره كذب . إنه أبداً مقطب

الجبين ، يعيش في عزلة عن الناس ، وهو دائماً عرضة لسخريتهم بسبب خلقه النفور .

وسألته بيلاجي وقد أخذتها الدهشة :

ــ ماذا تريد يا نقولا ؟

فمسح براحته الواسعة وجهه المجدور الناتيء الوجنتين ، ودون أن يلقي تحية المساء سألها بصوت خفيض :

ــ هل بول هنا ؟

ــ لا .

... وألقى نظرة على الحجرة ثم دخل .

ــ طبتم مساءً أيها الرفاق .

وهمست الأم بحقد : « وهو أيضاً » ؟ وأدهشها أن ترى ناتاشا تمد إليه يدها بوجه طلق ودود .

... ثم أقبل شابان يافعان يكادان يكونان غلامين ، وعرفت بيلاجي أحدهما . إنه « تيو » حفيد عامل في المعمل يدعى « سيزوف » ، وكان ذا وجه مقرّن ، وجبهة عالية وشعر مضفور . أما الثاني فكانت لا تعرفه ، وهو ذو شعر أملس ومظهر متواضع ، وليس في شكله ــ هو الآخر ــ ما يبعث على الخوف .

... وأخيراً أقبل بول يصحبه رفيقان تعرفهما ؛ أنهما من عمال المعمل .

وسألها إبنها بلطف : ــ هل أعددت الشاي ؟ شكراً .

وسألته ، وهي لا تعرف كيف تُعبر له عن شعوره بالتقدير الذي تحسه في لا وعيها :

ــ أينبغي استحضار بعض المشروب ؟

فأجابها بول وهو يبتسم بطيبة :

ــ كلا ... لا لزوم لذلك .

وراودها خاطرٌ بأن إبنها قد بالغ كثيراً في تصوير خطر هذا الاجتماع ، ليسخر منها ، فسألته بصوت هامس :

ـــ أهؤلاء هم الناس الخطرون ؟
فأجاب وهو يلج الغرفة :
ـــ إنهم هم بالضبط .
فقالت بغبطة : حسناً ..
ولكنها غمغمت في سرها :
ـــ إنه ما زال طفلاً ...

6

كان الماء يغلي في ابريق الشاي ، فحملته الأم إلى الغرفة ، وتحلق الضيوف حول الطاولة ... أما « ناتاشا » فظلت ، قابعة ، وفي يدها كتاب تقلبه ، تحت المصباح ، في إحدى الزوايا .

ـــ لكي ندرك لِمَ يعيش الناس حياةً سيئة جداً ...
فقاطعها البيوروسي :
ـــ ولكي ندرك لِمَ يكونون هم أنفسهم أشراراً ...
ـــ يجب أن نعرف كيف بدأوا حياتهم .
وهمست الأم وهي تهيء الشاي :
ـــ إسمعوا يا أبنائي إسمعوا ...
وصمت الجميع وسألها بول مقطب الحاجب :
ـــ ماذا قلت يا أماه ؟
ـــ أنا ؟
ولكنها ، وقد رأت عيونهم جميعاً مركزة عليها ، أجابت بارتباك :
ـــ لقد قلت ما قلته عفواً ، قلته هكذا لنفسي .
وضحكت ناتاشا ، وابتسم بول ، أما البيوروسي فقال :
ـــ شكراً على الشاي أيتها الأم الصغيرة .
وردت :
ـــ أتشكرني ولم تتذوقه بعد ؟
ثم أضافت ، وهي تحدق بإبنها :

ـــ لعل وجودي بينكم يزعجكم .
وأجابتها ناتاشا :
ـــ وكيف تزعجين ضيوفك وأنت ربة البيت ؟
ثم صاحت بلهجة طفولية ضارعة :
ـــ إعطني الشاي بسرعة يا بيلاجي الطيبة ؛ إني أرتجف ، ورجلاي متجمدتان .
وزدت الأم :
ـــ حالًا ، حالًا .
وشربت ناتاشا فنجانها ، وتنهدت بصوت مسموع ، وقذفت ضفيرتها إلى ما وراء ظهرها ، وأخذت تقرأ في كتاب مصور أصفر الجلد .
... وراحت الأم ، وهي تحاول ألّا تحدث بفناجينها أية جلبة ، راحت تسكب الشاي ، وتصغي إلى صوت الفتاة الإيقاعي الصافي النبرة ، هذا الصوت الذي كان يواكب الأغنية العذبة ، أغنية إبريق الشاي .
... وكالثوب الرائع انبسطت أمام عينيها قصة أولئك البدائيين المتوحشين الذين كانوا يعيشون في الكهوف ، ويصطادون الحيوانات الضارية بالحجارة .
لقد كانت القصة ممتعة ، وكانت بيلاجي ، بين الفينة والفينة ، تلقي على إبنها نظرة متسائلة ، تود أن تسأله عما هو محرمٌ في هذه القصة ؛ ولكنها لم تلبث أن تعبت من متابعة السرد ، فراحت تتفحص ضيوفها :
لقد كان بول يجلس إلى جانب ناتاشا ، وكان هو أوسمهم جميعاً ؛ وكانت الفتاة وهي منكبة على كتابها ، ترد ، بين اللحظة واللحظة ، شعرها الذي ينهمر على جبينها .
لقد كانت تهز رأسها ، وتترك كتابها قليلًا ، وتخفض من صوتها لتدلي ببعض الملاحظات الشخصية ، في حين كان بصرها ينزلق

بمحبة ، على وجوه سامعيها . وكان البيوروسي يستند بصدره العريض إلى زاوية الطاولة ، ويلقي نظرة حولاء على شاربيه ، محاولًا أن يرى أطرافهما العصبية . وكان فيسو شيكوف جالساً على كرسيه ، جامداً كالتمثال ، ويداه على ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العطل من الحاجبين ، يبدو بشفتيه الرقيقتين جامداً كالقناع ؛ وكانت عيناه الضيقتان ، تتركزان على ملامحه التي يعكسها النحاس المتألق ، فيبدو كأنه خامد الأنفاس .

وكان «تيو» الصغير يصغي إلى القراءة، وهو يحرك شفتيه بصمت كأنه يستعيد الكلمات، في حين كان رفيقه يبسم بتفكير ، محدودب الظهر ، ويسند مرفقيه إلى ركبتيه، ويحضن خده بباطن كفيّه.

وكان أحد الشابين اللذين رافقا بول أشقر الشعر ، أجعده ، ذا عينين خضراوين مرحتين ، وكان يريد بلا شك أن يقول شيئاً لأنه كان يتململ بصبر نافذ . أما الآخر ، ذو الشعر الأشقر القصير ، فقد كان يمر يده على رأسه المائل نحو الأرض ، ولا يُرى من وجهه شيء . وكان الجو في الحجرة على ما يرام ، وكانت الأم تستشعر إرتياحاً خاصاً تجهل سببه حتى الآن ، وعندما عادت ناتاشا إلى القراءة ، مزهوة ، كانت هي تستعيد أمسيات شبابها الصاخبة ، والأحاديث الفجة ، أحاديث الفتيان الذين كانت رائحة الخمرة تتضوع من أنفاسهم ؛ وتتذكر مزاحهم الوقح الماجن ؛ وهصر قلبها ، وهي تستعيد هذه الذكريات ، إحساسٌ بالشفقة ، الشفقة على نفسها .

... وانبعثت في خاطرها ذكرى خطبتها لزوجها الراحل : لقد أمسك بها في إحدى الأمسيات ، في ظلام المدخل ، وحشرها بالجدار وهو يميل عليها بكل ثقله ، وسألها بصوت مختنق أصم :

ــ هل تريدين الزواج مني ؟

.. وشعرت بأنها أهينت ، وآلمته وهي تعرك صدره ، فنشق مخاطه ، وأطلق في وجهها أنفاسه الحارة الرطبة ، فيما ظلت هي تحاول أن تفلت من بين يديه ، أن تهرب منه . وزمجر :

ــ إلى أين تذهبين ؟ أجيبي .

.. ولم تجب ؛ فهي جريحة الكرامة حتى الأعماق ، يكاد الخجل يخنقها .

وفتح باب الممشى فجأة ، فأفلتها ببطء وقال :

ـــ سوف أبعث نهار الأحد بمن يطلب لي يدك !

... ولم يخلف وعده .

وأغمضت بيلاجي عينيها ، وأرسلت زفرة عميقة .

وبغتة ، دوّى صوت فيسوشيكوف الخانق :

ـــ أنا لست بحاجة لأن أعرف كيف كان الناس يعيشون من قبل ، ولكنني بحاجة إلى أن أعرف كيف ينبغي أن يعيشوا اليوم .

فصاح الفتى الأحمر الشعر وهو يثب واقفاً :

ـــ أجل هذا ما ينبغي أن نعرفه .

ورد تيو :

ـــ أنا لا أوافقكما على ذلك .

واحتدم النقاش ، وكانت صرخاتهم تتدفق كألسنة اللهب ، ولم تكن الأم لتدرك لِمَ يتصايحون . وكان الانفعال يضرج وجوههم جميعاً ، ولكن أحداً منهم ، لم يتلفظ بما تعودت سماعه من خشن الكلام .

ومرت بخاطرها هذه الفكرة :

« لعل وجود الفتاة بينهم هو الذي يهذب ألفاظهم »

ووجدت لذةً في تأمل وجه ناتاشا الصارم ، ناتاشا التي كانت تراقبهم بيقظة كما تراقب الأم أطفالها .

وصاحت بهم الفتاة فجأة :

ـــ إصغوا إليّ أيها الرفاق .

فصمتوا جميعا ، واستدارت نحوها عيونهم .

ـــ إن أولئك الذين يقولون بأنه ينبغي لنا أن نعرف كل شيء هم المصيبون . إن نور العقل يجب أن يهدينا نحن أيضاً ، وإذا كنا نود أن

نمد بالنور أولئك الذين يغرقون في الظلمات ، فيجب أن يكون باستطاعتنا الرد بشرف وأمانة على كل الأسئلة . يجب علينا أن نعرف الحقيقة كلها ، والبهتان كله .

وكان البيوروسي يصغي ، ويهز رأسه على إيقاع كلماتها ، أما فيسوشيكوف والفتى الأحمر الشعر ، والعامل الذي جاء مع بول ، فقد كانوا يشكلون زمرة متميزة . وكان ذلك لا يروق للأم ، دون أن تدري لماذا .

وعندما أنهت ناتاشا كلامها نهض بول ، وسأل بهدوء :

ـــ هل أن ما نبغيه هو أن نأكل حتى التخمة ؟

ورد بنفسه على هذا السؤال ، وهو يحدق ، بثبات ، إلى زملائه الثلاثة :

ـــ كلا ... علينا أن نبرهن لأولئك الذين يمسكون بأعناقنا ويسملون أبصارنا إننا نرى كل شيء ، وإننا لسنا بلهاء ولا بدائيين فطريين . وأن ما ننشده ليس هو أن نأكل فحسب ، بل أن نعيش ككائنات جديرة بالحياة . يجب أن نبرهن لأعدائنا أن حياة الارهاق التي يفرضونها علينا ، لا تحول دون أن نكون في مستواهم ذكاءً ، بل ، وفوق مستواهم .

... وكانت الأم تصغي إليه وترتعش مزهوة إذ تسمعه يحسن الكلام إلى هذا الحد .

وقال البيوروسي :

ـــ في الدنيا أكثر من متخم ، ولكن ليس فيها شرفاء . وعلينا أن نقيم عبر المستنقع الآسن ، مستنقع الحياة ، ممراً يقود خطانا نحو عالم جديد من الطيبة الأخوية . هذه هي مهمتنا أيها الرفاق .

وردد فيسوشيكوف بهدوء :

ـــ عندما تحين ساعة المعركة ، لا يبقى هناك من وقت لتنظيف الأظافر .

.. وكان أكثر من نصف الليل قد تصرّم ، عندما افترقوا ، وكان أول

المنصرفين فيسوشيكوف والفتى الأحمر الشعر ، ولم يعجب أيضاً الأم ، فغمضت في سرها محنقة ، وهي ترد على تحيتهم :

ــ أنظري كم هم متعجلون !

وسألت ناتاشا :

ــ هل ترافقني ياناكودكا ؟

فأجاب البيوروسي : هذا أكيد .

وفيما كانت ناتاشا ترتدي معطفها في المطبخ قالت لها الأم :

ــ إن جواربك شفافة لا تلائم طقساً كهذا الطقس ، وسأصنع لك ، إذا وافقت ، جورباً من الصوف .

فأجابت ناتاشا ضاحكة :

ــ شكراً يا بيلاجي . إن جوارب الصوف خشنة تخز ساقيّ .

ــ ولكني سأصنع لك زوجاً ناعماً لا يخز ساقيك .

فتأملتها ناتاشا بعين غامزة قليلاً ، وأربكت هذه النظرة الثابتة الأم ، وأردفت بصوت خفيض :

ــ إغفري لي بلاهتي ، فلقد قلت ما قلته عن طيبة قلب .

وردت عليها ناتاشا ، برقة ، وهي تشد يدها :

ــ لكم أنت طيبة .

وقال لها البيوروسي وهو ينظر إليها نظرة صريحة :

ــ طابت ليلتك أيتها الأم الصغيرة .

وانحنى ، ليخرج في أعقاب ناتاشا .

ورنت الأم إلى ابنها الذي كان واقفاً على عتبة الحجرة يبسم وسألته مضطربة :

ــ ما الذي يضحكك ؟

ــ أضحك لأنني فرح .

فقالت بعصبية :

ــ إني عجوز بلهاء ، هذا أكيد ، ولكنني ، في الوقت نفسه أدرك ما هو حسن .

فرد عليها :
ـــ إنك على حق ، وعليك أن تنامي فلقد حان وقت رقادك .
ـــ سأذهب إلى فراشي حالًا .
.. ودارت حول الطاولة تقوم بتنظيفها راضية ، ومع ذلك فقد كانت ملامحها تنم بعض الشيء عن القلق الحلو الذي كانت تستشعره . لقد كانت سعيدة ، لأن الأمور قد سارت بهدوء ، وعلى أحسن ما يكون الحال .
ـــ لقد كان رأيك مصيباً يا صغيري بول . إن البيوروسي لطيف جداً ، والفتاة ، يا لها من فتاة ذكية .. فمن تراها تكون ؟
وأجاب بول بإيجاز وهو يذرع أرض الغرفة بخطاه :
ـــ إنها مدرّسة .
ـــ لذلك فهي فقيرة ، ورديئة الثياب جداً . إنها ستصاب بالبرد . وأهلها ؟ أين هم أهلها ؟
ـــ إنهم في موسكو .
وتوقف بول أمامها وقال لها بصوت وقور :
ـــ إسمعي .. إن أباها ثريٌ يبيع الحديد ، ويملك بيوتاً كثيرة ، ولقد طردها لأنها اختارت لنفسها هذا الطريق . لقد نشأت نشأة مرفهة ، وكان ذووها جميعاً يدللونها .. أما الآن فهي كما ترين . أنها ستمشي ، على قدميها ، وفي ظلام الليل ستمشي وحيدة ، أكثر من سبعة كيلومترات .
وأذهلت هذه التفاصيل بيلاجي ، فوقفت في وسط الحجرة تحدق بولدها صامتة ، وقد انشقل حاجباها من الدهشة :
ـــ هل هي ذاهبة إلى المدينة ؟
ـــ نعم .
ـــ آه .. ألا يساورها الخوف ؟
وقال بول مبتسماً :
ـــ كلا . إنها لا تخاف .

ـــ ولكن لِمَ ذهبت ؟ لقد كان بإمكانها أن تقضي الليل هنا ، كان بـإمكانهـا أن تنـام في سريـري .

ـــ ليس ذلك يسيراً ، فلو بقيت لرآها الناس في الغد وهي تخرج من هنا . وهذا ما نتحاشاه ..

وألقت الأم بصرها على النافذة ، بسهوم ، وأردفت برقة :

ـــ لا أفهم يا بول لِمَ كان ذلك خطراً ومحرّماً ، فأنا لا أرى فيه أي ضير .. أليس كذلك ؟

ولم تكن متيقنة ؛ بل كانت تريد من إبنها تأكيداً ، فحدق في عينيها وقال بهدوء :

ـــ أجل . ليس في ذلك أي ضير ، ومع ذلك ، فالسجن ينتظرنا جميعاً ، ويجب أن تدركي هذا جيداً .

وأخذت يداها ترتعشان وقالت بصوت منسحق :

ـــ ولكن قد يساعدهم الله ، فيغيّر الحال .

ورد عليها بحنو :

ـــ كلا ، فأنا لا أريد أن أخدعك . إننا لن ننجو من السجن .

وابتسمت : ـــ إنك مجهد ، فهيّا إلى سريرك . طابت ليلتك .

وعندما أصبحت وحدها ، اقتربت من النافذة ، وتسمرت هناك ترنو إلى الشارع :

لقد كان الطقس في الخارج بارداً ، وكان الظلام مسيطراً ، وكانت الريح ، وهي تلهو ، تكنس الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الهاجعة ، وتلطم الجدران مدمدمة ؛ ثم تهوي إلى الأرض ، وتطارد ، على امتداد الشارع ، السحب البيضاء المتكونة من نتف الثلج المتناثر .

وغمغمت بهدوء : ـــ يا يسوع ارحمنا .

... وأحست بالدموع تتجمع في عينيها ؛ وردف في داخلها البؤس المنتظر الذي حدثها عنه إبنها بكثير من الوضوح والتأكيد ، رفّ ، كفراشة ليل عمياء مهيضة الجناح .

وانبسط أمام عينيها سهل عارٍ تغمره الثلوج ، وكانت الريح تهب

باردة هوجاء بيضاء ، يواكبها صفير خفيف . وفي وسط السهل ، كان يعدو وحيداً متعثراً ، شبح صغير قاتم ، تلتف الريح حول ساقيه ، وتنفخ رداءه ، وتذرو في وجهه ذرات الثلج الوخّازة .

إنها منهكة ؛ يغوص قدماها في الطبقة الكثيفة ، وتعاني البرد والخوف . إنها مقوسة الظهر ؛ انها كعشبة ضعيفة في السهل الأغبش ، في اللعبة المجنونة ، لعبة ريح الخريف .

وعلى يمينها ، عند المستنقع ، كان ينتصب جدار الغابة القاتم ، حيث تنوح أشجار الحور والصنوبر عجفاء عارية .

وأمامها ، في البعيد يلوح ألق باهت من أضواء المدينة .

وغمغمت الأم وهي ترتعد خوفاً : ـــ يا إلهي إرحمنا .

7

... كانت الأيام تنزلق يوماً بعد يوم كحبات السبحة ، وانجمعت أسابيع وأشهراً ، وفي كل سبت ، كان رفاق بول يجتمعون في منزله ، وكان كل اجتماع من اجتماعاتهم كدرجة من سلم طويل ، هين المرتقى ، يفضي إلى البعيد البعيد ، دون أن يدري أحد إلى أين ؛ سلم يرفع ببطء أولئك الذين يتسلقونه .

... وكانت وجوه جديدة تظهر ، حتى ضاقت بهم حجرة آل فلاسوف الصغيرة ، وكادوا يختنقون فيها ، وكانت ناتاشا ، تصل مرهقة مقرورة ، ولكنها مزودة دائماً بمخزون لا ينضب من المرح والحيوية .

وكانت الأم قد حاكت لها جورباً ، وألبسته القدمين الصغيرين بنفسها ، وضحكت ناتاشا باديء الأمر ثم صمتت وقالت وهي مغرقة في التفكير :

ـــ لقد كانت مربيتي أيضا طيبة ، إلى أبعد حدود الطيبة . لكم هو غريب أن يحيا الشعب حياة قاسية مليئة بالخزي والمهانة ، ثم يكون أكثر طيبة ، وأرق قلباً من الآخرين .

وأشارت الأم بحركة من يدها ، إلى مكان مجهول ، في البعيد القصي وقالت :

ــ وإنك لكذلك ، فلقد ضحيت بذويك وبكل ...

ولم تستطع أن تكملَ جملتها ، فتأوهت ، وصمتت ، وراحت تحدق بناتاشا .

إنها تشعر نحوها بعاطفة من عرفان الجميل ، ولا تدري لماذا .

وظلت جالسة أمامها على الأرض ، في حين كانت الفتاة تبتسم حالمة ، محنية الرأس :

ــ ذويّ ؟ إن ذلك لا يهم . فوالدي فظّ شديد الفظاظة ، وكذلك أخي . ثم إنه سكيرٌ يدمن الخمرة . وشقيقتي الكبرى بائسة . فلقد اقترنت برجل يكبرها سناً ، يكبرها بكثير . وهو فوق ذلك ، ثريٌ مملٌ شحيح ، أما أمي ، فواحسرتاه عليها ، إنها بسيطة مثلك ، صغيرة كفأرة ؛ شرودٌ تخشى الناس جميعاً . لكم يجتاحني أحياناً الحنين إلى رؤيتها .

وقالت الأم وهي تهز رأسها حزينة :

ــ أواه يا صغيرتي المسكينة .

فانتفضت الفتاة بغتة ، ومدت يدها كأنها تريد أن تدفع عنها شيئا ما :

ــ أوه ... كلا ... هناك بعض الأوقات أستشعر فيها مثل هذا الفرح ، ومثل هذه السعادة .

وبهت وجهها ، ولمعت عيناها الزرقاوان ، ووضعت يدها على كتف الأم ، وأردفت وهي تهمس بصوت عميق متزن :

ــ ليتك تعرفين ، ليتك تدركين أي عمل عظيم نأتيه .

ومس قلب بيلاجي شعور كالغيرة ، كالحسد ، فنهضت ، وقالت بكآبة :

ــ لقد فات الأوان ، فأنا عجوز مسرفة في الشيخوخة ، جاهلة مسرفة في الجهل .

وصار بول يتولى المبادرة في الحديث ، أكثر فأكثر ، ويناقش بحرارة فائقة ولكنه كان يزداد نحولًا ، وكانت الأم تلاحظ أنه حين يخاطب ناتاشا ، أو حين ينظر إليها ، ترق نظراته القاسية ، ويزداد صوته عذوبة ، ويبدو أكثر بساطة .

وتهمس الأم في سرها وتبتسم :

ـــ إن شاء الله .

... وفي الاجتماعات ، عندما كان النقاش يبلغ أوج حرارته وعنفه ، كان البيوروسي يقف مترنحاً كمضرب الجرس ، ويتكلم بصوته المُرّن الضّاج ، فتطغى بساطته وما يحمله هذا القول من طيبة ، على أصوات الآخرين ، ويعيدهم إلى الهدوء والاعتدال . أما فيسو شيكوف العبوس أبداً ، فإنه كان يثير جواً من التوتر الشامل ، وكان هو والفتى الأحمر الشعر المدعو « ساموالوف » يبدآن العراك ويشد أزرهما أيفان بو كين ، الفتى المستدير الرأس ، الأشقر الحاجبين الذي يبدو كالمغسول .

وكان ي جاك سوموف » الفتى الأملس الشعر ، الشديد النظافة ، يتكلم نزراً دون أن يرفع صوته الممتلىء ، وكان كـ « تيو » ما زين الشاب العريض الجبهة ، يتفق دائماً في وجهة نظره مع بول والبيوروسي .

وأحيانا ، كان نقولا إيفانوفيتش هو الذي يأتي من المدينة بدلًا من ناتاشا ؛ وكان يلبس نظارتين ؛ ويحمل لحية صغيرة صهباء ، ويحتفظ بلهجة الاقليم النائي الذي تحدّر منه ، وكان يبدو دائماً ساهم النظرة ، موزع الفكر ؛ وكان يتحدث عن الأشياء البسيطة ، عن حياة العائلة ، عن الأطفال والتجارة والبوليس ، وثمن الخبز واللحم ، وكل ما يتعلق بالحياة اليومية ، وكان يكتشف في كل شيء النفاق والفوضى ونوعاً من البلاهة المضحكة غالباً ، المؤذية دائماً ؛ وكانت بيلاجي تشعر كأنه آت من بعيد ، من مملكة أخرى يحيا الناس فيها حياة شريفة هينة ، لذلك يبدو له كل شيء هنا غريباً ، فهو لا يستطيع أن

يتعود هذه الحياة ، وأن يتقبلها كضرورة . إنها لاتروق له ، ولا تبتعث فيه أية رغبة مطمئنة ، بل إنه يصر بعناد على أن يعيد صياغتها كما يشتهي .

لقد كان شاحب اللون ، تتوزع حول عينيه تجعدات خفيفة ، وكان صوته عذباً ويداه أبداً حارتين ؛ وعندما كان يصافح بيلاجي ، يحتضن يدها كلها بين أصابعه القوية الخشنة ، وكانت هذه الحركة تبعث في قلبها الراحة والاطمئنان .

وكان بين الذين يقبلون من المدينة أيضاً ، فتاة هي أكثرهم مثابرة على الحضور ، فتاة متناسقة الجسم فارعة القوام ، رحبة العينين ، ذات وجه أصفر هزيل ، تدعى « ساندرين » .

وكان في خطوها وحركاتها شيءٌ من الرجولة ، وكانت تقطّب حاجبيها الأسودين كالمستثارة ، وكانت جوانب أنفها الأقنى ترتعش عندما تتكلم .

وكانت هي أول من أعلن بصوت قويّ أجش :

ـــ نحن إشتراكيون .

وعندما سمعت الأم هذه الكلمة ، رنت إلى الفتاة برعب صامت . لقد سمعت ـــ وكان ذلك في شبابها ـــ إن الاشتراكيين هم الذين قتلوا القيصر ، وشاع يومذاك أن الملاكين ، وقد رغبوا في الانتقام من القيصر لأنه حرر الأقنان ، أقسموا على ألا يقصوا شعورهم إلا إذا صرعوه ، وهم من أجل ذلك سموا الاشتراكيين .

والآن ... لا تستطيع أن تفهم لِمَ كان إبنها ورفاقه إشتراكيين !

... وعندما انصرف الحضور جميعاً كاشفت بول :

ـــ أصحيح إنك إشتراكي يا بول ؟

فأجاب بحزم وصراحة كعادته :

ـــ أجل ، فهل في ذلك ما يضير ؟

فأطلقت زفرة عميقة ، وتابعت ، منكّسة الأجفان .

ـــ أهذا ممكن يابول ؟ ولكنهم ضد القيصر . وقد قتلوا واحداً من

القياصرة . وخطا بول في الحجرة بضع خطوات ، وقال وهو يمرر يده على خده باسماً :

ـــ إنهم شيء لا حاجة لنا به .

... وحدثها طويلًا ، وبصوت رصين مطمئن ؛ وكانت هي تحدق في عينيه وتفكر :

« إنه لن يقترف شراً أبدا ، ولن يستطيعه . »

.. وأخذت هذه الكلمة الرهيبة « إشتراكي » تتردد بعد ذلك كثيراً ، ثم أخذ أثرها العنيف يتلاشى رويداً رويداً حتى غدت شيئاً مألوفاً في سمعها ، تماماً كمجموعة التعابير الأخرى التي تستعصي على فهمها .

ولكن « ساندرين » كانت لا تعجب الأم ، وكانت كلما رأتها ، تشعر بالاضطراب والضيق .

وفي إحدى الأمسيات قالت وهي تقلب شفتيها استياءً :

ـــ إن ساندرين شديدة القسوة . إنها تأمر دائماً : « إفعل هذا وأنت افعل ذاك »

... وأطلق البيوروسي ضحكة مدوية :

ـــ أحسنت ... لقد أصبتِ الهدف أيتها الأم ... أليس كذلك يا بول ؟

ودنا إلى الأم ، وقال ساخر النظرة :

ـــ يا للنبلاء .

ورد بول بجفاف :

ـــ إنها فتاة طيبة .

ـــ حقا إنها لكذلك ولكنها لا تدرك أن عليها هي كنبيلة أن تطيع ، وأننا نحن الذين نشاء ونقدر أن نحقق ما نشاء .

ودخلا في نقاش حول موضوع لم تفهمه .

... ولاحظت الأم أن ساندرين كانت ، بصورة خاصة ، شديدة القسوة بالنسبة لبول . وكانت هذه القسوة تبلغ أحيانا حد العنف ؛

وكان بول يبتسم ويصمت ، ويتفرس في وجه الفتاة بنفس النظرة الوادعة التي كان من قبل ينظر بها إلى ناتاشا ؛ وكان هذا أيضاً لا يروق للأم .

وكانت بيلاجي أحياناً تفاجأ بغمرة الفرح الذي يستخف الفتيان فجأة وينتشر بينهم كالعدوى . وكان ذلك يحدث عادة في الأمسيات ، حين يقرأون في الصحف أنباء تتعلق بالعمال في الخارج . إن عيونهم حينئذ تلتمع بالفرحة ، ويغدون ، وهذا ما يحيرها ، سعداء كالأطفال ، ويضحكون ضحكات صافية مرحة ، ويربتون بحب ، على أكتاف بعضهم بعضا .

ويصرخ أحدهم وقد أثملته الغبطة :

ـــ يا لهم من أبطال ... العمال الألمان .

ويتعالى الهتاف ثانية :

ـــ ليحيا عمال إيطاليا .

وعندما كانوا يرسلون بهتافات الاعجاب هذه إلى البعيد ، إلى رفاق لا يعرفونهم أبداً ، ولا يفهمون لغتهم ، كانوا على يقين بأن أولئك المجهولين سيسمعونهم ، وسيدركون تحمسهم .

ويعلن البيوروسي براق العينين ، طافح القلب بحب يحتضن الكائنات جميعاً ، يعلن :

ـــ أنه لجميل أن نكتب إليهم ، أليس كذلك ؛ لكي يدركوا أن لهم في روسيا أصدقاء يعتنقون نفس العقيدة ، ويعيشون للأهداف نفسها ، ويغتبطون بانتصاراتهم .

ويتحدثون جميعاً ، والنظرة الحالمة في عيونهم ، والبسمة على شفاههم ، يتحدثون طويلاً عن الافرنسيين والبريطانيين والسويديين كأصدقاء شخصيين لهم ، ككائنات قريبة منهم يقدرونها ويقاسمونها أفراحها ، ويستشعرون آلامها .

وفي الحجرة الصغيرة ، كان يولد شعور القربى الروحية التي تربط بين عمال الأرض كلها ؛ وكانت الأم أيضاً تلمس هذا الشعور الذي

يجعلهم جميعاً قلباً واحداً ، تلمسه رغم أنها لا تفهمه بوضوح ، وكانت تستمد منه الفرح والشباب ، وقوة طاغية تزخر بالآمال .

وقالت يوماً للبيوروسي :

ـــ غريب أمركم . إن الجميع بالنسبة لكم رفاق ؛ أرمنيين كانوا أم يهوداً أم نمساويين . إنكم تحزنون لحزن الناس جميعاً ، وتفرحون لفرحهم .

وهتف : ـــ « أجل ، رفاق للجميع أيتها الأم الصغيرة ، رفاق للجميع . ليس هناك بالنسبة لنا أممٌ ولا عروق ، بل هناك أصدقاء أو أعداء ؛ والعمال جميعاً أصدقاء لنا ، أما الأثرياء ، وأولئك الذين يحكمون ، فهم جميعا أعداء لنا .

إننا حين نلقي نظرة مجردة على العالم ، ونرى أية كتلة ضخمة نكوّن نحن العمال وأية قوة مختزنة فينا ، نحس بغمرة من الفرح كأن قلوبنا في عيد . إن هذا الشعور نفسه ، أيتها الأم الصغيرة ، هو ما يحسه الفرنسي والألماني ، والايطالي ، حين يعون الحياة . إننا جميعاً أبناء أم واحدة ، وفكرة واحدة لا تقهر ، هي أخوة العمال في الأوطان كلها ؛ وهذه الأخوة تبعث فينا الحرارة . إنها الشمس المشرقة في سماء العدالة ، وهذه السماء هي في صدر العامل .

إن الاشتراكي ، مهما كان مبتغاه ، وأي إسم اختار ، أخ لنا في الفكر ، أخ لنا اليوم وإلى الأبد ، أخ لنا على مدى الأجيال »

.. وكان هذا الإيمان الطفولي الذي لا يتزعزع ، يعبر عن نفسه يوماً بعد يوم في هذه الشلة القليلة ، وبقوة متنامية ؛ وكانت الأم كلما لاحظت ذلك الفيض من الأمل ، تشعر شعوراً غريزياً بأن هناك شيئاً عظيماً مشعاً قد ولد في العالم ، شيئاً كالشمس ، التي تُرى في كبد السماء .

وكانوا يغنون أحياناً كثيرة ، يغنون بمرح وملء حناجرهم ، أغنيات شائعة ، وأحياناً كانوا يستهلون مرحهم بأغنيات جديدة فائقة الحلاوة ، ولكنها غريبة الألحان كئيبتها ، يخفضون فيها من أصواتهم الجهيرة ،

كأنهم إنما يؤدون لحناً دينياً ، وتصفرّ وجوههم ، وتتأجج باللهب ، وتنساب من الكلمات الرنانة قوة فائقة .

وكانت إحدى هذه الأغنيات الجديدة ، بوجه خاص ، تبعث الكآبة والقلق في نفس بيلاجي . إنها أغنية لا تسمع فيها التأملات الحزينة لنفس جريحة وحيدة ، تائهة في الدروب المظلمة ، دروب الشكوك المعذبة ، ولا شكايات لا وصف لها ولا لون ، شكايات روح هدّها الاملاق والخوف . ولم تكن تزن بالآهات المغمومة ، آهات قلب قوي يشده إلى المدى نهم غامض ؛ ولا بصرخات التحدي من جسور يقف على أهبة الاستعداد ليسحق الخير والشر دونما تمييز ، ولم يكن فيها أبداً ذلك الحقد الأعمى ، حقد المهان الذي يحطم كل شيء ليثأر لكرامته . وبكلمة واحدة .. لم يكن فيها أي صدى للعالم الهرم ، عالم العبيد .

ولم تكن تروق للأم كلماتها القاسية ، ولا نغمها الصارم ، ولكنها كانت مع ذلك ، تزخر بقوة أكبر من الكلمات والأنغام ، قوة تتخطّى الكلمات والأنغام لتوقظ في النفس شعوراً مسبقاً بشيء فائق السمو . وكانت الأم تقرأ ذلك في وجوه الفتيان وعيونهم ، وتحسه يضج في صدورهم ، وكانت ، تحت تأثير تلك القدرة الغامضة الكامنة في الأغنية ، تصغي إليها أبداً ، بانتباه شديد ، وبقلق يفوق كثيراً ذاك الذي تثيره الأغنيات الأخرى في نفسها .

... وكانوا يؤدونها بهدوء أكثر من الأخرى ، ولكنها كانت تضج بالقوة ، وتُسكر كأنسام اليوم الأول من آذار ، كأنفاس أول يوم من أيام الربيع ..

وكان فيسو شيكوف يقول مقطب الحاجبين :

ــ سيأتي اليوم الذي يُتاح لنا فيه أن ننشدها في الشارع .

وفي إحدى المرات التي أدخل والده فيها إلى السجن بتهمة السرقة ، أعلن بهدوء :

ــ نستطيع الآن أن نجتمع في منزلي .

وفي كل مساء تقريباً ، بعد الانصراف من العمل ، كان لا بد لأحد أفراد هذه الشلة من أن يأتي إلى منزل بول ، وكانوا يقرأون معاً ، وينسخون بعض الفصول من الكتب ، ويبدون كثيري المشاغل ، ولم يكن لديهم وقت للاستحمام ؛ وكانوا يتناولون العشاء ، والشاي ، دون أن يتخلوا عن كراريسهم ، وكانت أحاديثهم تزداد استعصاءً على إدراك الأم .

وكان بول يردد دائماً :

ـــ نحن بحاجة إلى جريدة !

وكانت حياتهم تزداد حركة وحرارة ، وكانوا ينتقلون بسرعة من كتاب إلى آخر ، كما ينتقل النحل من زهرة إلى زهرة .

وقال فيسوشيلوف يوماً :

ـــ لقد بدأ الناس يتحدثون عنا . ومن الأكيد أنه سيُقبض علينا عما قريب .

وأجاب البيوروسي :

ـــ لقد وُجد السمّن ليقع في الشبكة .

... وكان إعجاب بيلاجي بالبيوروسي يزداد يوماً بعد يوم ، وكان إذا ما دعاها الأم الصغيرة .. يخيل إليها كأن يد طفل ناعمة تدغدغ وجنتيها ؛ وكان هو الذي يقطع لها الحطب عندما يكون بول مشغولاً .

وفي أحد الأيام أقبل يحمل على كتفيه لوحاً خشبياً ، ثم أخذ الفأس واستبدل بمهارة ورشاقة ، إحدى الدرجات المهترئة أمام مدخل البيت . وفي مرة أخرى ، أصلح السياج المتهدم ، وكان ، وهو يقوم بعمله ، يصفر ألحانا حلوة كئيبة .

وقالت الأم يوماً لابنها :

ـــ لِمَ لا نؤوي البيوروسي في منزلنا ؟ فذلك خيرٌ لكما معاً ، لأنه يوفر على كل منكما الذهاب لرؤية الآخر ؟

فسألها بول وهو يهز كتفيه :

ـــ ولِمَ تزعجين نفسك ؟

ــ إزعاج ؟ لقد كانت حياتي كلها مليئة بالازعاج دون أن أدري سبباً لذلك . وإني لأرى أن بإمكاني أن أؤدي هذه الخدمة لفتى طيب مثله .

ــ إفعلي ما شئت ، وسأكون سعيداً إذا ما رضي بذلك .

... وجاء البيوروسي فأقام في بيتهم !

8

... ولفت البيت الصغير في طرف الضاحية انتباه الناس ، فراحت الأبصار المرتابة تخترق جدرانه ، وأخذت تحوم فوقه أجنحة الشائعات من كل لون .

وكان الناس يحاولون أن يكتشفوا السر الغامض الذي يخفيه ، وكانوا ، في ظلمة الليل يتلصصون ، من النوافذ ، وفي بعض الأحيان كان ينقر الزجاج جبان ، ثم لا يلبث أن يولي الأدبار سريعاً .

واستوقف بيلاجي ، في أحد الأيام ، صاحب فندق يدعى « بيغونتسوف » استوقفها في عرض الشارع. وكان عجوزاً ، ضئيل الجسم ، حسن البزة ، يربط بإحكام حول عنقه الأحمر المترهل ، منديلًا من الحرير الأسود ؛ ويرتدي صدارة سميكة ، خبازية اللون ، وتمتطي أنفه الدقيق اللماع نظارتان من صدف ، وهذا ما أكسبه لقب : « العين العظيمة » ، وبدون أن يتوقف أو ينتظر جواباً فاجأها بسيل من الكلام المفرقع كالحطب اليابس :

كيف أنت يا بيلاجي ؟ وكيف حال صغيرك ؟ ألن تزوجيه عما قريب ؟ لقد أصبح في سن الزواج ، وفي زواج الأبناء راحة الأهل . إن الحياة الزوجية تكسب المرء عافية عقلية وجسدية . إنها تحفظه كما يحفظ الخل الفطر . وأنا لو كنت مكانك لزوجته . في عصرنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجود كل إنسان ، فلقد أخذ الناس يعيشون على هواهم ، وغزت الفوضى العقول ، وصار الناس يأتون أعمالا ذميمة . لقد انصرفت الشبيبة عن بيوت الله وتجنبت الأندية العامة ،

وصارت تجتمع في الخفاء ، وتتهامس في الزوايا . ولماذا يتهامسون ؟ أتسمحين لي أن أسألك ذلك ؟ ولِمَ يبتعدون عن المجتمع ؟ وماذا يعني القول الذي لا يستطيع المرء أن يجهر به أمام الناس ، في الفندق مثلًا ؟ أسرار ؛ أسرار ؟ ... ولكن كنيستنا الرسولية المقدسة هي مكان الأسرار ؛ أما الأسرار الأخرى التي تطبخ في الزوايا فمنشؤها ضلال العقل . أتمنى لك صحة طيبة .

... ورفع قبعته ، وهو يطوي ذراعه بمودة ، ولوح بها في الهواء ثم مضى وتركها فريسة الارتباك .

وفي مرة أخرى التقت ماريا كورسونوف ، جارة آل فلاسوف ، وهي أرملة حداد كانت تبيع المآكل عند باب المعمل ، التقت الأم في السوق وقالت لها :

ــ راقبي ابنك قليلا يا بيلاجي ؟

ــ ولماذا ؟

وأجابتها ماريا بلهجة غامضة :

ــ إنه يثير الأقاويل ، الأقاويل السيئة يا عزيزتي ، ويشاع أنه ينظم نوعاً من الجمعيات العمالية على طريقة السيّاطين ، وهذا ما يدعى « فرقاً » . إنهم سيتبادلون ضرب السياط مثلهم .

ــ كفى حماقات يا ماريا .

وردت البائعة :

ــ يجب أن تصبي اللوم على مرتكبها لا على ناقلها .

... وحملت الأم كل هذه الأقاويل إلى إبنها ، فهز كتفيه دون أن يجيب ، أما البيوروسي فقد أطلق العنان لضحكته الطيبة الداوية .

وقالت لهما : ... والفتيات أيضاً ناقمات عليكم جداً ؛ فأنتم من خير الفئات ، وكلكم من أطيب العمال ، وكلكم لا تعاقرون الخمرة ، ولا تأبهون لهن ؛ ويقال أن فتيات منحطات يأتين من المدينة للقائكم .

وصرخ بول بسخرية القَرف :

ــ لا شك في ذلك .

وزفر البيوروسي :

ـــ كل ما في المستنقع تفح منه رائحة النتن . وكنت تحسنين صنعاً أيتها الأم الصغيرة لو شرحت لهذه البطات الناشئة ما هو الزواج ، لكيلا يستعجلن بتحطيم أضلاعهن .

ـــ إنهم يعرفن ذلك جيداً يا عزيزي ، ويدركنه ولكنهن لا يعرفن ماذا يفعلن بأنفسهن .

ولاحظ بول :

ـــ إنهن يسئن الفهم ، وإلا لوجدن طريقاً آخر .

وألقت الأم نظرة على وجهه الصارم :

ـــ حسنا ، علمهن أنت ، فليس عليك إلا أن تدعو أقلهن طيشاً .

وأجاب بول بجفاف :

ـــ ليس ذلك مستطاعاً .

وسأل البيوروسي : وماذا لو حاولنا ؟

فصمت بول لحظة ثم قال :

ـــ إن ذلك يبدأ بنزهات ثنائية ... ثم يتزوج البعض ، وينتهي الأمر .

... وأوغلت الأم في تأولاتها . لقد كانت صلابة بول الرهبانية تقلقها ، وكانت تلاحظ أن رفاقه ، حتى الأكبر منه سناً كالبيوروسي مثلًا ، يعملون بتوجيهاته ، غير أنه يتراءى لها أن الجميع يرهبونه ، ولا يحبونه بسبب من هذه القسوة .

وفي إحدى الأمسيات كانت مضطجعة ، وكان بول والبيوروسي ما زالا يقرآن ، فأصاخت بسمعها ، من خلال الحاجز الرقيق ، إلى حديثهما الخفيض :

وقال البيوروسي فجأة :

ـــ أتعلم أن ناتاشا تعجبني ؟

ولم يجب بول على التو ، بل قال بعد صمت :

ـــ أعلم ذلك .

وأحست بالبيوروسي ينهض ببطء ويذرع الحجرة ، وسمعت قدميه الحافيتين تتساحبان على أرضها ؛ وسمعته يصفر لحناً حزيناً ، ثم يعود إلى الكلام :

ـــ ولكن هل لاحظت هي ذلك ؟

وصمت بول ، وسأله البيوروسي خافضاً من صوته :

ـــ وماذا تعتقد أنت ؟

ـــ لقد لاحظتْ . ومن أجل ذلك رفضت العمل معنا .

وعادت خطى البيوروسي تتساحب على أرض الحجرة ، وعاد صفيره الخفيف يتهدج ، ثم سأل :

ـــ وماذا قلت لها ... ؟

ـــ ماذا ؟

فهمس : أني ... أني .

فقاطعه بول : ولِمَ تقول ذلك ؟

وتوقف البيوروسي ، وأحست الأم أنه يبتسم :

ـــ حسناً . أنا أعتقد أن الشاب إذا أحب فتاة وجب عليه أن يبوح لها بذلك وإلا فإن حبه لن يفضي إلى نتيجة .

وصفق بول كتابه وهو يغلقه :

ـــ وأية نتيجة تنتظر منه ؟

وصمت الاثنان هنيهة .

وسأل البيوروسي :

ـــ وإذاً ؟

فأجاب بول بتأن : ـــ يجب أن يتصور المرء بوضوح مقصده . لنفترض أنها هي أيضاً تحبك يا أندريه ، وهذا ما لا أعتقده ، ولكننا نفترضه إفتراضاً ؛ وأنكما تزوجتما . يا له من زواج طريف : زواج عامل ومثقفة ... وسترزقان أطفالاً ؛ وسيتوجب عليك أن تعمل وحدك ، وأن تعمل بارهاق ؛ وستصبح حياتك حياة حرمان ، لأنك ستحتاج

أن تدفع نفقات الأطفال والمسكن ؛ وستنتهيان كلاكما ، من أجل ذلك ، إلى الدمار .

وخيم الصمت ، ثم استأنف بول كلامه بصوت هاديء :

ــ الأفضل يا أندريه أن تدع هذا الأمر ، وألا تزعجها .

وخيم الصمت ثانية ؛ ونبضت ساعة الجدار تحصي بدقاتها الثواني التي تمر ، وقال البيوروسي :

ــ أهو قلب ذاك الذي يحب بنصفه الأول ويكره بنصفه الآخر ؟

... وسُمع حفيف أوراق تقلّب . لقد عاد بول بلا شك إلى القراءة .

... وظلت الأم مستلقية ، مغمضة العينين ، تخشى الاتيان بأية حركة ؛ وداخلها اشفاق على البيوروسي كاد يستدر عبراتها ، وإشفاق أشد منه على ابنها فغمغمت في سرها : « يا حبيبي » .

وسأل أندريه فجأة : ــ إذاً فعليّ أن أصمت ؟

فرد بول بهدوء : ــ ذلك أشرف لك .

فقال أندريه : ــ حسناً . هذا هو السبيل الذي سأسلكه .

ثم صمت لحظة ، وأضاف بلهجة حزينة :

ــ وسيكون هذا عسيراً عليك يا صغيري بول عندما أنت أيضاً ...

ــ لقد كان عسيراً علي ...

ولامست جدران المنزل هبة ريح ، وسجل دقاق الساعة ، بدقة ، تفلت الزمن ، وقال البيوروسي ببطء :

ــ هذه القضايا يجب ألا تثير ضحكنا !

فدفنت الأم وجهها في الوسادة وبكت بصمت .

... وفي الصباح بدا لها أندريه أصغر قامة وأكثر رقة ، وكان إبنها ، كما تعهده ، نحيلًا ، منتصب القامة ، صموتاً ، وكانت ما تزال حتى ذلك الحين ، تنادي البيوروسي بأندريه أونيسيموفيتش ، ولكنها خاطبته اليوم ، دون إكتراث :

ـــ يجب أن تصلح حذاءك يا صغيري أندريه ؛ والا فستبرد قدماك .

وأجاب هو : ـــ سوف أشتري بأجري حذاء جديداً .

ثم شرع يضحك ؛ وراح فجأة يسألها ، وهو يضع يده الطويلة على كتفها :

ـــ ربما كنت أنت أمي الحقيقية ؛ ولكنك لا تودين أن تعترفي بذلك أمام الناس ؟ إنك لا تجدينني وسيماً .. أليس كذلك ؟

وأجابته بأن ربتت على يده . وكانت تود أن تحدثه أحاديث كثيرة مفعمة بالود ، ولكن قلبها كان يعصره الاشفاق ، ولسانها يأبى أن يطيع .

9

... وانتشر الحديث في الضاحية عن الاشتراكيين الذين ينثرون في كل مكان وريقات مكتوبة بالحبر الأزرق . وكانت هذه الوريقات تفضح بعنف ما يدور في المعمل ، وتتحدث عن الاضرابات العمالية في « بطرسبورغ » وجنوب البلاد ، وتهيب بالعمال إلى الاتحاد والنضال دفاعاً عن مصالحهم .

وكان أولئك الذين يمثلون جيلًا معيناً ، ويتقاضون في المعمل أجراً طيباً يحملون الوريقات إلى إدارة المعمل ويصيحون :

ـــ مخربون ... يجب أن تحطم رؤوسهم .

أما الشبان فكانوا يقرأونها بحمية :

ـــ هذه هي الحقيقة .

وكانت الأكثرية التي سحقها العمل والتي لا تبالي بشيء تجيب بكسل :

ـــ لن يؤدي هذا إلى خير ... أفمن المستطاع أن ...

ولكن الأوراق كانت تروق للناس ، فإذا مر أسبوع دون أن تصدر ، سأل بعضهم البعض الآخر :

ــ لقد انتهى أمرهم ؟ .. يقال ...

غير أن الوريقات لا تلبث أن تعود إلى الظهور نهار الاثنين ، ويبدأ التعليق الهادىء عليها من جديد .

وفي المعمل والفندق كان يُلاحظ وجود أشخاص لا يعرفهم أحد ؛ يطرحون الأسئلة ، ويختبرون ، ويتنسمون الأخبار ، ويستلفتون ، بغتة ، أنظار الجميع . بعضهم يستلفت النظر بحذره المريب ، وبعضهم الآخر باجتماعيته المفرطة .

وكانت الأم تعرف أن هذا الاضطراب كله من صنع إبنها ؛ وكانت ترى الناس يتألبون حوله ، فتختلط مخاوفها على مستقبله بزهوها في أن تكون أماً لمثله .

وفي إحدى الأمسيات نقرت ماريا كورسونوف زجاج النافذة ، وعندما فتحت الأم لها ، وشوشت في أذنها على عجل :

ــ إحذري يا بيلاجي ... لقد أنهى حملانك الصغار ضحكهم ... ففي هذه الليلة سيفتش منزلكم ومنزل مازين وفيسو شيكوف .

وكانت شفتا ماريا الغليظتان تصطكان بسرعة ، وأنفها المكتنز ينشق ، وعيناها تغمزان وتدوران من اتجاه إلى آخر ، وهما ترقبان شخصاً في الشارع .

ــ وأنا لا أعرف شيئا ، ولم أقل لك شيئاً ... وحتى أني لم أرك اليوم أبداً ... أسمعتِ ؟

ثم توارت .

وأغلقت الأم النافذة ، وتهافتت ببطء على كرسي ، غير أن جس الخطر الذي كان يهدد إبنها ، جعلها تثب بسرعة واقفة على قدميها . وارتدت ثيابها برشاقة ، ولفت رأسها بشال أحكمت شده ، وأسرعت إلى منزل « تيومازين » الذي كان مريضاً فلا يذهب إلى العمل .

وكان ، عندما دخلت عليه ، يجلس بالقرب من النافذة يقرأ ، ويده

اليسرى ، تهدهد اليمنى بشكل يظل معه الخنصر طليقاً . وما كاد يسمع النبأ حتى انتصب بعنف مصفر الوجه ؛ ودمدم :

ـــ هذه المرة ... إذن ...

وسألته بيلاجي ، وهي تمسح بيدها المضطربة ، العرق عن جبينها :

ـــ ماذا ينبغي أن نفعل ؟

فأجاب تيو وهو يمسح بيده السليمة شعره الأجعد :

ـــ مهلاً ... ولا تخافي .

فصاحت به : ـــ ولكني واثقة من أنك أنت أيضاً خائف .

ـــ أنا ؟

وتضرجت وجنتاه على الفور ، وابتسم بارتباك :

ـــ نـ ... نعم ... يا للشيطان . يجب إخطار بول ، وسأرسل إليه من يخطره حالاً ؛ أما أنت فعودي إلى منزلك ، ولا تهتمي فالأمر بسيط ، إنهم لن يشنقونا ... سنرى .

وعادت مسرعة ، وجمعت الكتب كلها في كومة احتضنتها ، ودارت في المنزل طويلاً تفتش عن مخبأ لها . لقد فكرت أن تخبئها في الفرن تحت المدفأة ؛ وحتى في برميل للماء ؛ وكانت تعتقد أن بول سيترك عمله ويعود سريعاً إلى المنزل ، ولكنه لم يأت ... وأخيراً جلست متعبة منهكة على مقعد في المطبخ ، وخبأت الكتب تحت ثيابها ، وظلت على وضعها هذا دون أن تجرؤ على التحرك ، إلى أن عاد بول وأندريه .

وصرخت دون أن تنهض : ـــ هل عرفت ؟

فأجاب بول مبتسماً :

ـــ نعم ... وهل أنت خائفة ؟

ـــ أجل أنا خائفة . جد خائفة .

وقال أندريه :

ـــ يجب ألا تخافي ، فالخوف لا يجدي شيئاً .

ولاحظ بول :

ـــ حتى أبريق الشاي لم تهيئيه .

فنهضت الأم عندئذ ، وأشارت إلى الكتب ، وقالت بارتباك :

ـــ لم أفعل بسبب هذه .

وانفجر بول وأندريه ضاحكين ، فرد ذلك عليها شجاعتها . وتناول بول بعض المجلدات ، وانطلق يخبئها في الخارج ، في حين كان أندريه يشعل موقد الشاي .

ـــ يجب ألا تجزعي أيتها الأم الصغيرة ؛ فنحن نخجل لأولئك الذين يشغلون أنفسهم بحماقات كهذه .. لسوف يأتي فتيان ضخام أقوياء البنية ، على جنوبهم سيوف ، وفي جزماتهم مهاميز ، وسينقبون في كل مكان : يفتشون تحت السرير ، وتحت المدفأة ، وإذا كان هناك من قبو ، فإنهم سيهبطون إليه ، أو إهراء فإنهم سيصعدون إليه ؛ وتلتف على خراطيمهم خيوط العنكبوت ، فيحشرجون . ولا تعجبهم التسلية ، بل يداخلهم الخجل ، فيبدون من أجل ذلك ، بملامح الأشرار ، ويغضبون . عمل قذر يعرفونه جيداً . لقد قلبوا مرة كل ما في بيتي ؛ قلبوه رأساً على عقب ؛ وكانوا ، كذي قبل ، أغبياء بلهاء فانصرفوا دونما كلفة . وفي مرة أخرى اقتادوني معهم ، وزجوني في السجن حيث لبثت أربعة أشهر ... وهو ، على ما ترين ، وقت قصير .

إنهم يقبلون إليك ، فيجتازون الشارع بموكب ، ويطرحون عليك كومة من الأسئلة . إنهم ليسوا خبثاء ، ولكنهم يفكرون كالطبول ؛ ويقودونك ، من بعد ، إلى السجن . إنهم يتقاذفونك من جهة إلى جهة ؛ فلا تلمهم . فعليهم أن يحصلوا قوتهم . ومن ثم فإنهم يطلقون سراحك ، وهذا كل ما في الأمر .

وصاحت بيلاجي :

ـــ إن لك دائماً طريقة خاصة في الكلام يا صغيري أندريه .

وكان ، وهو جاثٍ أمام الموقد ، ينفخ النار ليؤجج الجمر ، ثم ما لبث أن رفع وجهه العابق بالدم نتيجة للجهد الذي بذل ، وسأل وهو يعقص شاربيه :

ــ وكيف أتكلم ؟
ــ كأن أحداً لم يذقك الهوان أبداً .
فنهض وقال وهو يهز رأسه باسماً :
ــ أهناك فوق سطح الأرض امرؤٌ لم يُذل ؟ لقد أذقت الهوان حتى لم يعد الهوان يثير حنقي . إذ ما العمل إذا كان الناس لا يستطيعون التصرف إلا بهذه الطريقة ؟ إن الاستفزازات تعرقل سير العمل ، والتوقف عندها ، يعني إضاعة الوقت ، هذه هي الحياة . لقد كنت قبلًا أنقم على الناس ، ولكنني فكرت فيما بعد ، فوجدت ألّا داعي لذلك ؛ فكل امرىءٍ يخشى أن يتلقى الضربة من جاره ، وهو من أجل ذلك ، يتأهب ليسبقه إليها . هكذا هي الحياة أيتها الأم الصغيرة .
... وكانت كلماته تنساب بهدوء واتزان ، فتلطف من حدة القلق الذي يشيعه إنتظار التفتيش ؛ وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان صافيتين ؛ وقامته الفارعة المترنحة تبدو رشيقة .
وزفرت الأم وقالت بحرارة :
ــ ليهبك الله السعادة يا صغيري أندريه .
وخطا البيوروسي خطوة واسعة نحو الموقد ، وأقصى من جديد وهو يغمغم :
ــ إذا وُهبت السعادة فلن أرفضها ، أما أن أطلبها ... فإني لن أفعل ذلك أبداً .
وعاد بول من فناء الدار ، وقال بصوت واثق وهو يمشط شعره :
ــ إنهم لن يعثروا على شيء .
ثم تابع وهو يمسح يديه بعناية :
ــ إذا أظهرتِ لهم بأنك خائفة ، يا أماه ، فإنهم سيقولون في أنفسهم : لا بد أن هناك شيئاً ، وإلا لما اضطربت هكذا . إنك تدركين جيداً اننا لا نضمر الشر أبداً ، فالحقيقة هي في جانبنا ، وإننا من أجلها نعمل طوال حياتنا . هذه هي جريمتنا ، فلِمَ الارتعاش إذن ؟
ووعدته : ــ سأستعيد رباطة جأشي يا بول .

وفي الوقت نفسه أردفت :
ــ ليتهم ، على الأقل ، اسرعوا في المجيء .
ولكنهم لم يأتوا تلك الليلة . وفي صباح الغد ، توقعت أن تكون مخاوفها مثار مزاح ، غير أنها كانت على العكس أول الضاحكين من نفسها :
ــ لقد خشيت أن أخاف .

10

وبعد شهر تقريباً من ليلة الذعر تلك ، جاؤوا .
وكان نقولا فيسوشيكوف هناك ، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن جريدتهم . وكان الوقت متأخراً ، نحو نصف الليل ؛ وكانت الأم مضطجعة توشك أن تغفو ، ولكنها كانت تسمع بغموض أصواتهم الخفيضة القلقة .
ونهض أندريه بغتة ؛ واجتاز المطبخ وهو يمشي على رؤوس أصابعه ، ثم أحكم بهدوء إقفال الباب وراءه . وفي المدخل تعالت جلبة دلو حديدي وشُرع الباب فجأة على مصراعيه ، وخطا البيوروسي خطوة في المطبخ ، وقال بصوت خفيض ولكنه واضح :
ــ إني أسمع صوت مهاميز .
ووثبت الأم من سريرها تتلمس يداها المرتعشتان ثيابها ، ولكن بول ظهر على العتبة وقال لها بهدوء :
ــ إبقي في سريرك فأنت مريضة .
وسُمع حفيف خفيّ في الردهة ، فاقترب بول من الباب وقال وهو يدفعه بيده :
ــ من هناك ؟
وبسرعة البرق انتصب في العتبة شبحٌ طويل رمادي ، ثم تبعه آخر ، وأحاط الدركيان بالفتى ، ورن صوت حادٌ ساخر :
ــ لسنا من تنتظرون أليس كذلك ؟

وكان المتكلم ضابطاً طويل القامة نحيفاً ، يحمل شارباً أسود كثيفاً ، وظهر بالقرب من سرير الأم « فيدياكين » موظف البوليس في الضاحية ، وهويؤدي التحية بإحدى يديه في حين تشير الثانية إلى بيلاجي ، ويقول ، وهو يقلب عينيه المخيفتين :

ــ هذه أمه يا صاحب السعادة .

ثم يضيف ، وهو يحرك ذراعه باتجاه بول :

ــ وهذا هو بالذات .

وتساءل الضابط وهو يرخي أجفانه :

ــ بول فلاسوف ؟

وهز بول برأسه أن « نعم » وتابع الضابط وهو يفتل شاربه :

ــ يجب أن أجري تفتيشاً في منزلكم . إنهضي أيتها العجوز .. من يوجد هناك ؟

ونظر إلى الحجرة ثم توجه إليها بخطىً واسعة :

ــ أسماؤكم ؟

ودخل شخصان طلبا كشاهدين . إنهما « تيرياكوف » السبّاك العجوز وأجيره السائق « ريبين » الرجل الحاد ذو الشعر الأسود واللحية السوداء ، الذي قال ، عند دخوله ، بصوت ممتلىء رنان : تحية يا بيلاجي .

وارتدت الأم ثيابها ، ثم دمدمت لتمنح نفسها شيئاً من الشجاعة :

ــ يا لأساليبهم . يأتون في الليل والناس نيام !

واكتظت بهم الحجرة التي كانت تفح منها رائحة دهان قوية ، وتقدم دركيان ومفوض شرطة الضاحية « ريسكين » وهو يضربون بأحذيتهم أرض الغرفة ؛ فحملوا ما على الرف من كتب ، وكدسوها على الطاولة أمام الضابط ؛ وكان هناك آخران يضربان الجدار بقبضتيهما ، ويفتشان تحت الكراسي ، وتسلق أحدهما المدفأة بصعوبة . وكان البيوروسي وفيسوشيكوف ما يزالان في إحدى الزوايا ، يلتصق أحدهما بالآخر ، وكان وجه نيقولا المجدور مغطى ببقع حمراء ،

وعيناه الصغيرتان لا تتحولان عن وجه الضابط ؛ أما أندريه فقد كان يمسد شاربه ، وعندما دخلت الأم إلى الحجرة حيّاه بإحناءة رأس حميمة باسمة .

وتقدمت بيلاجي ، وهي تبذل جهدها في كبت رعبها ، تقدمت لا بمشية جانبية كعادتها ، بل شامخة الصدر ، وهذا ما أضفى على شخصيتها عظمة مصطنعة ساخرة . لقد كانت تسير دونما ضجيج ، وكان حاجباها يرتعشان .

وكان الضابط يأخذ الكتب برشاقة ، يأخذها بين أنامله البيضاء النحيفة ، فيقلبها ، ويهزها ، ثم يطرحها جانباً بحركة بارعة ؛ وكان أحدها يهوي أحيانا إلى الأرض بشيء من الفتور . وكانوا جميعاً صامتين ، فلا تسمع إلا شخير الدركيين الذين يتصببون عرقاً ، ورنين المهاميز ، وسؤالا يرتفع بين الفينة والفينة :

ـــ هل فتشتم هنا ؟

وجلست بيلاجي بجانب بول قرب الحاجز ، وشبكت مثله ذراعيها فوق صدرها ، وحدقت كذلك بالضابط ، وكانت ركبتاها ترتعشان ، والضباب يغشّي عينيها .

ولعلع صوت فيسوشيكوف فجأة ؛ حاداً قاطعاً :

ـــ ولِمَ تطرحون الكتب في الأرض ؟

وارتعشت الأم ، وحرّك فيرياكوف رأسه كأنه إنما تلقى صفعة على رقبته ، وسعل ريبين وحدّق في نيقولا بإمعان .

وأسدل الضابط أجفانه ، ثم أغرق بضره ، للحظة ، في الوجه الجامد المجدور ، وراحت أصابعه تقلب الصفحات بسرعة أكثر ، وكان بين الفترة والفترة يحلق بعينيه الرماديتين ، حتى ليخيل للرائي أنه يعاني ألماً مخيفاً ، وانه يكاد يطلق في وجه هذا الألم صرخة كليلة من الرعب .

وصاح فيسوشيكوف من جديد :

ـــ أيها الجندي . إجمع هذه الكتب ..

وتلفت الدركيون جميعاً نحوه ، ثم تلفتوا إلى الضابط الذي رفع أيضاً

رأسه ولفّ قامة نيقولا الضخمة بنظرة متفحصة ، وقال بصوت متساحب أخنّ : ــ اجمعوها .

وانحنى أحد الدركيين ، وراح وهو يرمق فيسوشيكوف بطرف عينه ، يجمع الكتب المتناثرة الأوراق .

وهمست الأم في أذن ابنها :

ــ يجب أن يصمت هذا الـ « نيقولا » !

ولكن إبنها هزّ كتفيه . أما البيوروسي فطأطأ رأسه :

ــ من منكم يقرأ الكتاب المقدس ؟

وأجاب بول : أنا .

ــ ولمن هذه الكتب كلها ؟

فأجاب بول أيضاً :

ــ إنها لي .

وقال الضابط وهو يستلقي على متكأ المقعد :

ــ حسناً .

ثم شد أصابع يديه الدقيقة ، ومد ساقيه تحت الطاولة ، وفتل شاربه ، ونادى فيسوشيكوف :

ــ أأنت أندريه ناكودكا ؟

وأجاب نيقولا وهو يتقدم نحوه :

ــ نعم .

ومد البيوروسي يده ، وأمسك نيقولا من كتفه ، وأرجعه إلى الوراء :

ــ إنه مخطيء .. فأنا أندريه .

ورفع الضابط مهدداً فيسوشيكوف بسبابته :

ــ إحذر يا هذا ..

ثم راح يقلّب أوراقه .

وفي الخارج كانت العيون اللامبالية ، عيون الليلة القمراء ترنو من النافذة ، وكان شخص ما يسير أمام المنزل ، والثلج يصر تحت خطواته .

وسأل الضابط :

ـــ هل سبق ياناكودكا أن أجري معك تحقيق في جرائم سياسية ؟

ـــ نعم ، في روستوف ، وساراتوف ، ولكن رجال الدرك هناك كانوا يخاطبونني باحترام .

وغمز الضابط بعينه اليمنى ، ثم فركها ، وتابع ، وهو يكشر عن أسنانه الصغيرة :

ـــ وألا تعرف ، ياناكر[illegible] ، نعم أنت بالذات ، ألا تعرف من هم السفلة الذين ينشرو[illegible]ي المعمل النداءات المجرمة ؟

وترنح البيوروسي فوق قائمتيه وكان ، والبسمة العريضة تنطرح على شفتيه ، يهم بأن يقول شيئاً ، عندما ارتفع من جديد ، صوت نيقولا المحنق :

ـــ هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سفلة !

وخيّم الصمت لحظة ، ولبث الجميع بلاحراك .

واصفرّت ندوب الجرح في وجه الأم ، وشال حاجبها الأيمن ، وراحت لحية ريبين تهتز بشكل غريب ، وراحت أصابعه تسرحها ببطء وهو مطأطيء الرأس .

وصاح الضابط :

إطرحوا هذا الحيوان خارجاً .

وتقدم دركيان فأخذا نيقولا من إبطه ، واقتاداه بعنف إلى المطبخ حيث وقف ، وقد سمّر رجليه في الأرض ، وصاح :

ـــ إنتظروا ريثما أرتدي ثيابي .

وعاد مفوض الشرطة ليقول :

ـــ لقد فتشنا كل مكان فلم نعثر على شيء .

وهتف الضابط مبتسماً :

ـــ مفهوم .. فنحن هنا أمام رجل خبير .

وكانت الأم تصغي إلى صوته النسائي الراجف ، وتنظر برعب إلى وجهه الأصفر ، وتتبين ، في اعطاف هذا الرجل ، عدواً لا رحمة

عنده ، وقلباً يملأه احتقار ارستقراطي للشعب . إنها لا ترى ، رجالًا من هذه الفصيلة ، إلا نادراً ، حتى كادت تنسى أنهم موجودون ؛ ودار في خلدها : « هؤلاء هو الذين نضايقهم . »

ـــ أيها السيد أندريه أونيسيموف ناكودكا ، المجهول الأب ، إني آمر بتوقيفك . وسأل البيوروسي بهدوء :

ـــ ولأي سبب توقفني ؟

وأجاب الضابط بتهذيب حاقد : هذا ما سأقوله لك فيما بعد .

واستدار نحو بيلاجي : أتعرفين القراءة ؟

فرد بول : كلا .

ـــ إني لا أسألك أنت .

قال ذلك بقسوة ثم أردف :

ـــ أجيبي أيتها العجوز .

وانتصبت الأم وقد اجتاحها حقد غريزيّ عليه ، وانتظمتها رعدة كأنها إنما أغرقت في ماء مجمد ، وتخضبت ندوب وجهها بلون أرجواني ، وحط حاجبها ، ثم أجابته وهي تمد نحوه ذراعها :

ـــ لا ترفع من صوتك ؛ فأنت ما تزال شاباً ، ولم تعرف الأسى بعد .

وقاطعها بول : هدئي من روعك يا أماه ..

فصرخت وهي تندفع نحو الطاولة : لحظة يا بول ... ولم توقفون هؤلاء ؟

فصاح بها الضابط وهو ينهض :

ـــ اخرسي ، هذا أمر لا يعنيك . أحضروا فيسوشيكوف .

وراح يقرأ في ورقة أمامه ، وهو يرفعها ويدنيها من وجهه .

وأدخل نيقولا . وصاح به الضابط بعد أن توقف عن القراءة :

ـــ اخلع قبعتك .

واقترب ريبين من بيلاجي وقال لها بصوت خفيض وهو يدفعها من كتفها :

ــ لا تحتدي أيتها الأم .
وسأل نيقولا قاطعا على الضابط قراءة المحضر :
ــ كيف أستطيع أن أخلع قبعتي ويداي مغلولتان ؟
فطرح الضابط الورقة على الطاولة وصاح به :
ــ وقعها .
ورنت الأم إلى الحضور وهم يوقعون محضر الضبط ، وكان انفعالها قد خمد ، وقلبها قد وهن ، ودموع الاستخذاء والضعف تملأ عينيها . لقد سفحت مثل هذه الدموع طوال الأعوام العشرين من حياتها الزوجية ، ولكنها ، كانت في سنواتها الأخيرة ، قد نسيت حرقتها الكاوية .
ورنا إليها الضابط وقال بإيماءة احتقار :
ــ لم يئن بعد أوان البكاء يا سيدتي ... فاحذري ؛ فقد لا يبقى لك شيء من الدموع للغد .
فأجابته وقد عاودها الحنق :
ــ إن دموع الأمهات لا تنضب فعندهن منها ما يكفي ... وإذا كانت لك أم فإنها تعرف ذلك جيداً .
ورتّب الضابط أوراقه بسرعة في محفظة جديدة ، ذات قفل لماع ، وأمر :
ــ إلى الأمام ... سر .
وبصوت منخفض تملأه المرارة قال بول وهو يشد على أيدي رفاقه :
ــ إلى اللقاء يا أندريه . إلى اللقاء يا نيقولا .
ورد الضابط بسخرية :
ــ أجل إلى اللقاء .
كان فيسوشيكوف يتنفس باعياء ، وعنقه الضخم يحتقن بالدم ، وعيناه تبرقان بالغضب الشديد ؛ وكان البيوروسي ضاحك الوجه ، يهز رأسه ، موجهاً بعض الكلمات إلى الأم التي كانت تباركه بإشارة الصليب قائلة :

ـــ إن الله يرى العادلين .

وتهادت الشرذمة ذات المعاطف الرمادية ، تهادت في المدخل على رنين المهاميز ، ثم توارت . وكان ريبين هو آخر من انصرف . ولقد لف بول قبل أن يخرج بنظرة متفحصة من عينيه السوداوين وقال حالماً :

ـــ حسناً ... الوداع .

وخرج بطيء الخطى ، يسعل في لحيته .

وظل بول ، وقد شبك يديه وراء ظهره ، ظل يذرع ببطء أرض الغرفة ،يذرعها طولا وعرضا بين الكتب المبعثرة ، والثياب التي تغطي الأرض ... ويردد متجهم الأسارير :

ـــ أرأيت كيف حدث هذا ؟

وغمغمت الأم وهي تتأمل بقلق وحيرة ، الحجرة التي عصفت بها الفوضى .

ـــ لِمَ كان نيقولا فظاً غليظاً ؟

ورد بول بهدوء :

ـــ لقد كان بلا شك خائفاً .

ودمدمت بيلاجي ، بوهن وإعياء :

ـــ لقد جاؤوا ، وقبضوا عليهم .. ثم اقتادوهم ..

ولم يبق لها إلا إبنها .. وأخذ الاطمئنان يعود إلى نفسها ، في حين كان تفكيرها يتركز بلا جدوى ، على الواقع ؛ هذا الواقع الذي لا تستطيع فهمه وإدراكه :

ـــ لقد سخر منا ذلك الرجل الشاحب . إنه يهدد ..

وقاطعها بول بحزم :

ـــ كفى يا أماه ، وتعالي ، نرتب ما بعثروا ..

لقد خاطبها بيا أماه ، وبصيغة المفرد كما كان يخاطبها حين يكون أكثر قرباً منها . وسارت هي إليه ، وحدقت في عينيه ، وسألته بهمس :

ـــ هل أهانوك ؟

ــ نعم .. وأنه لشديد عليّ ذلك . لقد كنت أفضل أن أذهب معهم .

وخيل للأم أنها ترى الدموع في عينيه ، وتحس ألمه ، فصعّدت زفرة وقال له لتسري عنه :

ــ إنتظر .. فسيأتي دورك أيضاً .

ــ أجل .

وبعد صمت قصير قالت بمرارة :

ــ لكم أنت قاس يا بول ، فليتك على الأقل تواسيني . إني إذا ما تفوهت بإشياء رهيبة ، رددت عليَّ بما هو أشد رهبة .

فرشقها بنظرة ، واقترب منها وقال بهدوء :

ــ هذا ما لا أدريه يا أماه .. وعلى كل حال ، يجب أن تتعودي ذلك . فتأوهت ، وصمتت ، ثم تابعت ، وهي تكبت ارتعاشة رعب :

ــ وهل يمكن أن يعذبوهم ؟ أن يمزقوا أجسادهم ويسحقوا عظامهم ؟ إني عندما أفكر في هذا ، أوه .. إنه لشيء رهيب يا صغيري بول ، يا ابني الحبيب .

ــ إنهم يعذبون الروح ، وهذا العذاب أشد إيذاءً وألماً حين تقترفه أيديهم القذرة .

11

وفي صبيحة اليوم التالي علم أن بوكين وسوموف وخمسة آخرين قد أوقفوا ، وفي المساء مر تيومازين مروراً خاطفاً : لقد فتشوا منزله هو أيضاً ، وشفوا غلته ، ولذلك فهو يشعر بأنه بطل .

وسألته الأم : ــ هل داخلك الخوف يا تيو ؟

فشحب لونه ، وتقعّر وجهه ، وارتعشت فتحة أنفه :

ــ لقد خشيت أن يضربني الضابط ، فلقد كان مارداً أسود اللحية ، يغطي الشعر ذراعيه ، وتتركز فوق أنفه نظارتان سوداوان يبدو

معهما أنه لا يحمل في وجهه عينين . وكان يصرخ ، ويرفس الأرض بقدمه ، ويقول بأني سأتعفن في السجن ، أنا الذي لم يضربني أحد من أهلي ، لا أبي ولا أمي ، فلقد كنت وحيدهما ، وكانا يحبانني .

وأغمض عينيه لحظة ، وعض شفتيه ، وبحركة سريعة نفش شعره بكلتا يديه ، وقال وهو يحدق في وجه بول بعينيه المحمرتين قليلًا :

ـــ إذا ضربني أحد ، فإنني أبقر بطنه بسكين ، وأقطعه بأسناني . إنه ليحسن صنعاً حين يقتلني على الفور .

وصاحت به بيلاجي :

ـــ إنك شديد الهزال ، شديد النحول ، فماذا تصنع للدفاع عن نفسك ؟

ولاك تيو هذه الكلمات :

ـــ سوف أفعل .

وعندما انصرف قالت الأم لبول :

ـــ سيتحطم هذا قبل الآخرين .

واعتصم بول بالصمت .

وبعد لحظات قليلة فُتح باب المطبخ ببطء ، ودخل ريبين وقال باسماً :

ـــ تحية . هو ذا أنا . لقد حُملت مساء الأمس على المجيء ، أما اليوم ، فلقد جئت بمطلق إرادتي .

وشد يمين بول بحرارة ، وأمسك الأم من كتفها قائلًا :

ـــ هل تقدمين لي الشاي ؟

وتفحّص بول بصمت وجهه العريض ، البرونزي اللون ، ذا اللحية السوداء الكثة ، والعينين القاتمتين ، وكان في نظراته الهادئة ما يبعث على الرهبة .

وانطلقت بيلاجي إلى المطبخ تعد الشاي ، أما ريبين فقد جلس يداعب لحيته ، وراح ، وهو يسند مرفقيه إلى الطاولة ، يلف بول بنظرته السوداء .

وقال ... وكأنه يكمل حديثاً سابقاً :
ــ وهكذا ... يجب عليّ أن أحدثك بصراحة . لقد راقبتك منذ أمد طويل ــ فنحن نكاد نكون جارين ــ فلاحظت إنك تستقبل كثيراً من الناس ، دون أن ينتج عن ذلك شغب أو فضائح .
هذا أولًا ... ثم ان الناس الذين لا يثيرون الفضائح ، يستلفتون الأنظار بسرعة : أليس كذلك ؟ وأنا يزعجني أن أرى قوماً يعيشون في عزلة .
وكانت لهجته صارمة ، ولكنه كان يتكلم بيسر ، ويمسد لحيته بيده السمراء ، وعيناه لا تتحولان عن بول :
ــ لقد أخذوا يتحدثون عنك ... ولكن رؤساءك في المعمل يسمونك زنديقاً ، فأنت لا تذهب إلى الكنيسة ... وأنا كذلك لا أذهب إليها ... ثم هناك قضية المناشير التي ظهرت ... فهل أنت صاحب هذه الفكرة ؟
ــ نعم ... أنا .
فصاحت الأم هائجة ، وهي تخرج من المطبخ :
ــ ولكنك لست وحدك .
فابتسم بول ، وابتسم ريبين كذلك ، وهو يقول :
ــ حسناً .
وأحنق الأم أنهما لم يعيرا كلامها أي انتباه ، فنشقت بصوت مسموع ، وغادرت إلى المطبخ .
ــ هذه المنشورات كانت فكرة جميلة ... إنها تحرك الجماهير ... بلغت تسع عشرة نشرة ؟
ــ أجل .
ــ لقد قرأتها جميعها بإمعان ، وهناك أشياء لم أفهمها . أشياء لا ضرورة لها . نعم . فعندما يتكلم المرء كثيراً ، تكون هناك كلمات كثيرة لا قيمة لها .
وابتسم ريبين ، وكانت أسنانه بيضاء قوية .

ــ ثم كان التفتيش ... وهذا على الأخص ما حملني على اتخاذ موقف . أما أنت والبيوروسي ونيقولا فلقد أسفرتم عن وجوهكم و ....

ولم يجد اللفظة المبتغاة ، فصمت ، وألقى نظرة نحو النافذة ، وهو ينقر بأصابعه على الطاولة :

ــ لقد أعلنتم عن عزمكم ... فكأنكم قلتم : « يا صاحب السعادة : قم بعملك ونحن نقوم بعملنا » ... والبيوروسي هو أيضا فتي طيب . لقد سمعته مراراً يتكلم في المعمل ؛ وقلت في نفسي : هذا الفتى لا يمكن أن يُحطّم والموت وحده هو الذي يقهره . إنه قوي الأعصاب ... أتصدقني يا بول ؟

فأجاب بول وهو يهز رأسه : ــ نعم .

ــ حسناً . أنت ترى أني في الأربعين ، فأنا أكبر منك مرتين ؛ وهذا يعني اني رأيت أكثر منك عشرين مرة . لقد خدمت في الجندية ثلاث سنوات ، وتزوجت مرتين ، أما زوجتي الأولى فقد ماتت ، وأما الثانية فقد هجرتها . وكنت في القوقاز وعرفت الدوخوبورين «Dokhobors» . يحسب الناس يا بني أنهم أسياد الحياة المسيطرون عليها ، ولكن الأمر على عكس ما يعتقدون .

وكانت الأم تصغي بنهم إلى حديثه الواثق ، وقد سرها أن ترى رجلاً ناضجاً مثله ، يزر إبنها ويحادثه كأنه إنما يعترف له ؛ ولكنها كانت تلاحظ أن بول يعامل ضيفه بكثير من الفتور ؛ ولكي تزيل من نفسها هذه الانطباعة سألت ريبين :

ــ أتريد شيئاً من الطعام يا ميشال ؟

ــ أشكرك أيتها الأم فلقد تناولت عشائي ... هكذا إذن يا بول ، فأنت تعتقد أن الحياة لا تسير حسب القانون ؟

ونهض بول ، وراح يذرع أرض الغرفة ، ويداه وراء ظهره :

ــ كلا ... ان الحياة تسير على أحسن حال . ألا ترى أنها قادتك إليّ متفتح البصيرة ؟ أنها توحّد بيننا شيئاً فشيئاً ، نحن الذين نعطي العمل كل وجودنا ؛ وسيأتي الوقت الذي توحدنا فيه جميعاً . إنها

جائرة قاسية بالنسبة لنا ، ولكنها هي نفسها التي تفتح عيوننا وتكشف لنا عن معناها المرير . إنها هي نفسها التي تعلم الانسان كيف يستحث خطاه .

وقاطعه ريبين :

ـــ هذا صحيح . يجب أن يُجدد الانسان . إذا كان جَرِبَاً فقده إلى الحمام ، أغسله وألبسه ثياباً نظيفة ، فإنه سيشفى ... أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن كيف ننظف الإنسان من الداخل ؟ هذه هي المشكلة .

وراح بول يتحدث بحرارة وحيوية عن السلطات ، عن المعمل ، عن الطريقة التي يدافع بها العمال في الخارج عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر الطاولة أحيانا بأصبعه ، كأنه إنما يضع النقاط ، ولكنه يصيح في كل مرة :

ـــ هذا هو الواقع .

وجاء وقت ارتسمت فيه على شفتيه بسمة مختزلة ، ثم قال بهدوء :

ـــ هه ؛ إنك شابٌ ؛ إنك لم تعرف الناس بعد .

ولكن بول أجابه باتزان وهو ينتصب أمامه :

ـــ يجب ألا نتحدث عن الشيخوخة أو الشباب ، ولننظر أي الأفكار هي الأصح .

ـــ إذاً فإنهم ، حسب رأيك ، يخدعوننا حتى في الله ؟ هذا صحيح . ثم إني أعتقد أيضاً أن الدين الذي نتمسك به ليس هو الدين الصحيح .

... وهنا تدخلت الأم . لقد كانت حين أخذ ابنها يتحدث عن الله ، وعن كل ما يمس الايمان ، وعما هو عزيز لديها ومقدس ، كانت تلاحق باستمرار نظراته لتطلب إليه بصمت ألا يمزق قلبها بتبشيره القاسي الكنود ؛ ولكنها كانت تعتقد أنها تتلمس الإيمان في تشككه ، وهذا ما كان يطمئنها ويجعلها تسائل نفسها : « كيف أستطيع أن أفهم أفكاره ؟ » ، ولقد تصورت أنه لمن المزعج والمشين في آن واحد ،

أن يستمع ريبين ، وهو الرجل الناضج ، إلى موعظة بول ؛ ولكنها عندما طرح الضيف سؤاله لم تتمالك أن تجيب بإيجاز وإصرار :

ــ عندما تتحدثون عن الله تعالى ، يجب أن تكونوا أكثر حذراً ، أما أنتم ، فمن المؤكد أنكم تفعلون ما تشاؤون .

واستعادت أنفاسها ، وتابعت باندفاع وقوة :

ــ عَلامَ تعتمد عجوز مثلي في حزنها إذا انتزعتم الله منها ؟

وطفحت عيناها بالدمع . وكانت تغسل الآنية ويداها ترتعشان .

وقال بول بوقار وحنو :

ــ إنك لم تفهمينا يا أمّاه .

وأضاف ريبين بصوت بطيء معبر وهو يلتفت إلى بول باسماً :

ــ سامحيني أيتها الأم ، فلقد نسيت أنك طعنت في السن لدرجة لا نستطيع معها اجتثاث ثآليلك .

وتابع بول :

ــ لم أكن أتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنون به ، بل عن الله الذي يهددنا به الكهنة ، كما لو كانوا يهددوننا بعصا ؛ عن إله يُراد بإسمه أن يخضع العالم كله للارادة القاسية ، إرادة البعض .

وصرخ ريبين وهو يضرب الطاولة :

ــ أجل . هذا هو الواقع . لقد زيفوا لنا حتى الله ، وسخروا ضدنا كل ما في أيديهم ، أتذكرين أيتها الأم ؟ لقد خلق الانسان على شاكلته ، على صورته ، إذاً فهو يشبه الانسان إذا شابهه الانسان ، ولكننا نحن لا نشبه الله ، بل نشبه الوحوش الضارية ، إنهم يظهرونه لنا في الكنيسة على شكل فزاعة . لذا ينبغي أن نطوّر الله ، أيتها الأم ، ينبغي أن نطهره ، فلقد ألبسوه ثوباً من الكذب والنميمة وشوهوا وجهه ليقتلوا روحنا .

وكان يتكلم بصوت منخفض ، ولكن كل كلمة من كلماته كانت تنقضّ على رأس الأم كالقبضة الثقيلة ، فترميها بالصمم ، وكان وجهه العريض الذي تؤطره لحيته السوداء بإطار من حداد ، يثير رعبها ، وألق

عينيه القاتم يثقل عليها ويوقظ في قلبها الخوف المعذّب .
خير لي أن انسحب ، فإن سماع هذا التجديف أمرٌ فوق احتمالي .
وهربت إلى المطبخ في حين كان ريبين يصرخ :
ــ أرأيت يا بول ؟ ليس هو العقل مرتكز كل شيء بل القلب ، فالعقل منطقة في الانسان ، لا ينبت فيها شيء آخر ... أبداً ...
فقال بول بإصرار :
ــ إن العقل وحده هو الذي سيحرر الانسان .
وأجاب ريبين بعناد :
ــ إن العقل لا يعطي القوة ، أما القلب فيعطي قوة ، ولكنه لا يعطي عقلاً .
وكانت الأم قد تخففت من ملابسها ، واستلقت دون أن تؤدي صلاتها ، وكانت تحُس بالبرد ، وتشعر بانحراف صحتها .
إن ريبين الذي بدا لها ، أول الأمر ، متزناً صحيح التفكير ، يثير الآن كرهها . وكانت تردد وهي تصغي إلى صوته :
ــ زنديق ، باذر فوضى ... لقد كان ينقصنا أن يأتي أيضاً ..
... أما هو فكان يتكلم بهدوء وثقة :
ــ إن المكان المقدس يا بول يجب ألا يظل فارغاً . وأن نفسنا نقطة حساسة . إنها المكان الذي يسكنه الله ، فإن يهجرها يشق فيها جرحاً ؛ وعلينا أن نكتشف إيماناً جديداً ، أن نبدع إلهاً يكون صديقاً للناس .
فصاح بول : ــ هذا ما كانه المسيح .
ــ لم يكن المسيح ذا إرادة ثابتة : لقد كان يقول : إبعد عني هذا الكأس . ولقد كان يعترف بقيصر ، أما الله فلا يعترف بسلطان إنسان على الآخرين لأنه هو السلطان كله . إنه لا يجزىء نفسه ، ولا يقول : هذا إلهي .. وذاك بشري . وكان المسيح يبيح التجارة ، ويبيح الزواج ، ثم إنه لعن شجرة التين ، فكان ذلك ظلماً ، أفمجرمة هي

لأنها كانت لا تحمل ثمراً ؟ إذا كانت النفس لا تعطي الثمر الطيب ، فليس الذنب في ذلك ذنبها ، أفأنا الذي غرس الشر فيها ؟ قل لي ؟

وكان صوتهما لا يفتأ يلعلع في الحجرة ، يعلو تارة وينطفيء أخرى ، وكان بول يروح ويجيء ، والخشب يصر تحت خطواته ، وكانت الأصوات كلها ، تنصهر حين يتكلم ، في دوي صوته ، أما ريبين فكانت دقات الساعة تُسمع عندما يجيب بصوته الأجش الهاديء ، كما تسمع أيضاً الفرقعة الجافة ، فرقعة الجليد الذي كان يخدش بأظفاره الحادة جدران المنزل .

ــ سأقول لك على طريقتي كسائق ، إن الله كالنار . إنه يعيش في القلب ، ولقد قيل : أن الله هو الفعل ، والفعل هو الفكر ...

فردد بول بإصرار : ــ هو العقل .

ــ هو كذلك ، وهذا يعني أن الله هو في القلب ، وفي العقل وليس في الكنيسة . إن الكنيسة هي قبر الله .

وكانت الأم قد نامت ، فلم تشعر بريبين عندما خرج .

... وأخذ يتردد على بول دائماً ، وكان حين يجد أحد رفاقه عنده يقبع في الزوايا صامتاً يردد بين الفينة والفينة هذه الكلمة :

ــ هذا هو الواقع .

وفي إحدى المرات نقل بصره القاتم بين الحضور ، وقال بوجه باسر .

ــ يجب أن تتحدثوا عما كان ... أما الذي سيكون فلا يعرفه أحد .

اسمعوا : عندما يتحرر الشعب يقرر نفسه ماذا يحسن به أن يفعل . إنهم يحشون رأسه بأشياء لا يريدها ، وهذا يكفي . ليختبر نفسه ، فلربما كان يود أن يرفض كل شيء ، الحياة كلها ، والعلوم كلها ؛ ولربما رأى أن كل شيء موجه ضده ، كالإله الكنيسة مثلا ، وليس لكم أنتم إلا أن تضعوا بين يديه الكتب كلها ، وسيجيب هو بنفسه جيداً .

وكان إذا ما وجد بول وحده ، يدخلان في نقاش لا نهاية له ، ولكنه نقاش هاديء أبداً ، وكانت الأم تصغي إليهما بقلق ، وتتبعهما بنظراته محاولة أن تفهم ما يقولان . وكان يخيل لها أحيانا أن الفلاح ذا المنكبين العريضين واللحية السوداء ، وإبنها القوي الشديد البنية ، قد أصيبا كلاهما بالعمى . لقد كان يسيران من ناحية إلى أخرى بحثاً عن مخرج ، ويتشبثان بكل شيء ، ويزعزعان كل شيء بأيديهما القوية غير الحاذقة ؛ ويبدلان وضع الأشياء ، ويطرحانها أرضاً ثم يدوسانها بأقدامهما ... وكانا يلامسان هذا ، ويتلمسان ذلك ، ثم يدفعانهما كليهما دون أن يفقدا الأمل ، ولا الايمان .

وكانا قد عوداها سماع الكثير من الكلمات المخيفة ، يتلفظان بها بحرية ووقاحة ، ولكن هذه الكلمات كانت لا تصدمها بنفس العنف الذي تعرضت له أول مرة ، فقد تعلمت كيف تتحامى تأثيرها . وكانت أحيانا تستشعر وراء الكلمات التي تنكر وجود الله ، إيماناً قوياً به ، وإذا كان ريبين لا يعجبها ، فإنها لم تعد تضمر له الكره الذي عرفته من قبل .

وكانت تذهب إلى السجن مرة في الأسبوع لتحمل إلى البيوروسي الثياب والكتب ، وقد استحصلت يوماً على إذن بمقابلته ، وعندما قفلت ، راحت تتحدث عنه بحنان :

ـــ إنه ما فتيء كما عرفناه في البيت ، لطيفاً مع كل الناس ، يمازح من يمازحه . إن السجن بالنسبة له قاسٍ ومؤلم ، ولكنه لا يُظهر ذلك أبداً .

وعلق ريبين :

ـــ هكذا يجب أن يكون الرجل . إننا نعيش جميعاً في العذاب ، ونتنفس به ، كأنه جزء من كياننا ، وليس هناك ما نزهو به . إن الناس ليسوا معصوبي العيون ، كلهم ، بل هناك من يعصب عينيه بنفسه . وعندما يكون الناس ضرباً من الحيوانات ، لا يكون لنا إلا أن نصبر .

12

كان منزل آل فلاسوف الصغير الأشهب ، يسترعي أكثر فأكثر ، انتباه سكان الضاحية ؛ وكان في ذلك الاهتمام الذي يولونه إياه كثيرٌ من الحذر والريبة ، والكره اللاواعي ؛ وإلى جانب هذا الشعور كان ينمو باطّراد فضولٌ مطمئن . وكثيراً ما كان يقبل على المنزل رجل مجهول ليقول لبول وهو يتفحص ما حوله بكثير من الاحتراس :

ـــ يا بني إنك تقرأ الكتب والقوانين ، ومن المحتم أنك تعرفها ، إذن تعال فاشرح لي :

ثم يروي لبول ظلامة ألحقها به رجال البوليس أو إدارة المعمل ، وفي الحالات المعقدة ، كان بول يسطر بطاقة صغيرة ، ويرسل الرجل إلى المدينة ، إلى محام من معارفه ، وقد يشرح بنفسه للسائل الأشياء التي تستعصي على فهمه ، حين يكون ذلك بمقدوره .

وأخذ شعور الاحترام يتنامى شيئاً فشيئاً ، الاحترام لهذا الشاب المتزن الذي يتكلم عن كل شيء ببساطة وجرأة ، ويلاحظ ويصغي لكل شيء بانتباه ، وينغمس بعناد في خضم كل قضية خاصة معقدة ، ويكتشف أبداً الخيط المشترك ، الخيط الذي لا نهاية له ، والذي يربط الآلاف من البشر بوشائج لا تنفصم .

وزادت مكانة بول في نظر الرأي العام أيضاً ، بعد حادثة « كوبك المستنقع »[2] فلقد كان ينبسط وراء المعمل مستنقع واسع ، تنمو فيه أشجار الشربين والحوار ويكاد يؤلف حوله حلقة عفنة ؛ وفي الصيف كانت الأبخرة الصفراء الكثيفة تتصاعد منه ، مع سحب البعوض التي تنتشر في الضاحية ، فتزرعها بالحميّات .

وكان المستنقع ملكاً للمعمل ؛ وقد وضع المدير الجديد مشروعاً لتجفيفه بقصد الاستفادة منه ؛ وفي الوقت نفسه لاستخراج ما فيه من فحم . وقد قال للعمال أن هذه العملية تجعل جو المنطقة صحياً ، وتحسن شروط المعيشة ، وأصدر أوامره باقتطاع كوبك واحد من كل « روبل » من أجورهم ؛ لتأمين المال اللازم للتجفيف .

وكان استياء العمال عظيماً ، وأثارهم بشكل خاص أن هذه الضريبة الجديدة لم تكن تطبق على الموظفين المستخدمين .

وفي اليوم الذي أعلن فيه قرار المدير أي يوم السبت ، كان بول مريضاً فلم يشتغل ، ولم يعرف شيئاً عن القضية ، وقد جاءه في اليوم الثاني ، بعد القداس ،المعدّن سيزوف ــ وهو عجوز لطيف ــ وصانع الاقفال « ماكروين » وهو رجل فارع القامة شديد النزق فقصّا عليه ما حدث .

وقال سيزوف باتزان :

لقد اجتمع المسنّون فينا ، وتباحثنا في الموضوع ، فأوفدنا رفاقنا إليك لنسألك لأنك رجل واع مثقف ، عما إذا كان هناك قانون يجيز للمدير أن يشن الحرب على البعوض بدراهمنا ؟

وقال ماكوين وهو ينقل عينيه المنقبضتين :

ــ إنك تذكر أن « الشطّار » كانوا قد جمعوا المال منذ سنوات أربع ، لبناء حمامات . ولقد تجمع لديهم يومذاك ثلاث آلاف وثمانمائة روبل . ولم تنشأ الحمامات فأين ذهب المال ؟

وبيّن بول جور هذه الضريبة ، وأظهر الفائدة الكبرى التي يجنيها المعمل من تحقيق هذا المشروع ، وعلى هذا الأساس انصرف الرجلان ، وقد بدا عليهما التجهم . وقالت الأم باسمة بعد أن شيعتهما إلى الباب :

ــ أرأيت يا بول .. حتى الطاعنون في السن يأتون إليك ليتزودوا من فطنتك .

ولم يجب بول ، بل جلس إلى طاولته مهموماً ، وراح يكتب ، وبعد بضع دقائق قال لها : ــ أرجوك الذهاب فوراً إلى المدينة لايصال هذه الورقة .

ــ وهل الأمر خطير ؟

ــ أجل ... فهناك تطبع جريدتنا ، ويجب مهما كلف الأمر أن تظهر « الكوبك » في العدد المقبل .

وأجابت : ــ حسنا ، سأنطلق حالًا .

وكانت هذه أول مهمة يكلفها بها ؛ وكانت سعيدة لأنه أنبأها عن محتواها بصراحة .

وقالت وهي ترتدي ثيابها :

ـــ إني أدرك هذا يابول ، إنه عملٌ لا يختلف عن السرقة . ماذا يدعى ذلك الرجل ؟ إيغور إيفانوفيتش ؟

... وعادت في المساء متأخرة منهكة ، ولكنها سعيدة ؛ وقالت لإبنها :

ـــ لقد رأيت ساندرين وهي تسلم عليك ... وإيغور هذا ، ليس بالمتعجرف إنه يمزح بلا انقطاع .

وأجابها بول برقة :

ـــ إني في غاية السرور لأنهم ظفروا بإعجابك .

ـــ يا لهم من قوم بسطاء يا صغيري بول . كم جميل أن يكون الناس بسطاء . ثم ... إنهم جميعاً يقدرونك .

ولم يذهب بول نهار الأثنين إلى العمل ، فلقد كان يشكو بعض الصداع ، غير أن « تيو مازين » أقبل عليه ، عند الظهيرة ، منفعلاً مسروراً ، وأخبره وهو يسترد أنفاسه :

ـــ إسمع . لقد ثار عمال المعمل جميعاً ؛ وبُعثت إليك لأُحضرك . فلقد قال سيزوف وماكوتين إنك تستطيع شرح القضية أحسن من الآخرين . ليتك ترى ما يحدث ؟

وارتدى بول ثيابه دون أن يتفوه بكلمة .

ـــ لقد تجمعت النسوة ، وبدأن الصراخ .

وقالت الأم : ـــ وأنا أيضاً سأذهب ، لأرى ماذا يطبخون هناك ؟ سأذهب .

وقال بول : إذهبي .

وساروا مسرعين ، صامتين ، وكان الانفعال يرهق الأم ، فتحس أن شيئاً فظيعاً سيحدث . وعند باب المعمل ، كان رهطٌ من النساء ، يصرخن ويتشاجرن .

وعندما أوشك الثلاثة أن يندفعوا إلى الساحة ، اصطدموا فجأة بجمع كثيف أسود يضج هياجاً ، ولاحظت الأم أن العيون كلها كانت تتلفت باتجاه واحد ، نحو جدار معمل الحديد . وهناك كان يقف سيزوف ، وماكوتين ، وفيالوف ، وخمسة آخرون أو ستة من العمال النافذين الناضجين ؛ يقفون على كومة من بقايا الحديد ، وهم يؤشرون بأيديهم .

وصاح أحد الناس : هو ذا فلاسوف .

ــ فلاسوف ؟ ليأتِ إلى هنا .

وتعالت الصيحات من هنا وهناك :

ــ الصمت . الصمت .

وارتفع من مكان قريب صوت ريبين المتسق النبرات :

ــ يجب أن نقاوم من أجل العدالة ، لا من أجل « كوبك » ؛ وان ما نتمسك به ليس هو هذا الكوبك ؛ فهذا القرش الصغير ليس أكبر من سواه ولكنه أثقل وزناً ، لأنه أغنى بالدم البشري من « روبل » مدير . إننا لا نصنع من قضية ولكننا نصنعها من دمنا ، من الحقيقة .

ــ أحسنت ، هذا صحيح يا ريبين .

ــ إنك على حق أيها السائق .

ــ هو ذا فلاسوف .

وكانت الأصوات تتلاقى في عاصفة من الضجيج والضوضاء ، فتطغى على جلبة الآلات وتأوهات البخار العميقة ، ودوي المحركات ، وكان الناس يتراكضون من كل صوب ، يلوحون بسواعدهم ويحمّس بعضهم بعضاً ، بكلمات ملهبة مثيرة . إن الهياج الذي كان يغفو أبداً في الصدور المتعبة يستيقظ الآن ، وينشد لنفسه منطلقاً ؛ وها هي القضية تنطلق منتصرة ، ناشرة جناحيها القائمين ، لتنتظم الجماعات بقوة متناهية ، ولتثيرها وتمخضها وتمدها بالحقد اللاهب المسعور .

وكانت سحابة من الضباب والغبار تسبح فوق الحشد ، وكان العرق

يتصبب من الوجوه المحتقنة ، ويهمي دموعه السوداء على الوجنات المسفوعة ، وكانت الأسنان تلمع ، والعيون ينطلق منها الشرر .

وظهر بول إلى جانب سيزوف وماكوتين ، وعلت صرخته :

ـــ أيها الرفاق .

ولاحظت الأم أن وجه ابنها كان مصفراً ، وأن شفتيه كانتا ترتعشان فاندفعت بلا وعي منها إلى الأمام ، تشق لنفسها طريقاً بين الحشد . وكان الحضور يتدافعونها ، ويقولون لها بحنق : ـــ إلى أين تريدين الذهاب ؟ ولكن ذلك لم يثنها ، إذ استطاعت أن تشق طريقها بين الجمهور بكتفها ومرفقيها ، واستطاعت أن تقترب ببطء من ابنها ، مدفوعة برغبة جامحة في أن تكون على مقربة منه .

وعندما قذف بول تلك الكلمة التي شحنها بمعنىً عميق هائل ، أحس بتشنج الفرحة ، فرحة النضال يزحم حنجرته ، واجتاحته الرغبة في أن يلقي إلى الجماهير بقلبه ، هذا القلب الذي استغرقه حلمه اللاهب بالحقيقة والعدالة .

ـــ أيها الرفاق :

وكررها ، وهو يصب فيها كل حيويته واندفاعه .

ـــ إننا نحن الذين نبني الكنائس ونقيم المصانع ؛ نحن الذين نصنع السلاسل ونصهر النقود ، نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعاً الخبز والملذات من المهد إلى اللحد .

وصرخ ريبين : أصبت ، أصبت .

ـــ أبداً وفي كل مكان . نحن أول من يعمل ، وآخر من يعيش . مَنْ من الناس يهتم بأمرنا ؟ من منهم ينشد خيرنا ؟ من منهم يعاملنا كبشر ؟ لا أحد .

... ودوّى صوت : لا أحد .

وراح بول بعد أن سيطر على نفسه ، يتكلم بكثير من البساطة والهدوء ، وأخذ الحشد يدنو منه شيئاً فشيئاً ، ويكتظ حوله كجسدٍ قاتم كثير الرؤوس ويحدق به بمئات العيون اليقظة ، وينتشي بأقواله .

ــ لن يكون لنا مصيرٌ أفضل إذا لم نشعر بأننا رفاق ! وإذا لم نكوّن أسرة واحدة من الأصدقاء ، تربطها بقوة رغبة واحدة ، رغبة النضال من أجل حقوقنا .

وتعالت بالقرب من الأم أصوات خشنة :

ــ أخلص بنا إلى النتائج .

وتصاعدت أصوات أخرى من هنا وهناك :

ــ دعوه يتكلم .

وكانت السحن المسودة المحتقنة تبدو حذرة متشككة ، وكانت بعض الأبصار تتركز على بول وقورة متأملة .

وقال أحدهم : ــ إنه إشتراكي ، ولكنه ليس غبياً .

وصاح رجل أعور ضخم الجرم ، متين البنية ، صاح وهو يدفع الأم بكتفه : ــ إنه ليس بخائف .

ــ لقد آن أيها الرفاق ، أن ندرك أن أحداً لن يساعدنا إذا لم نساعد نحن أنفسنا . الفرد للجميع ، والجميع للفرد ، هذه هي شريعتنا إذا كنا نريد أن نقهر عدونا .

وصاح ماكوتين : إنه على حق أيها الفتيان .

ثم لوح بقبضته في الهواء ، بحركة عريضة .

وتابع بول : ــ يجب أن نحمل المدير على الحضور الآن ...

وكان إعصاراً عصف بالحشد ، فأخذ يتموج ، وأخذت عشرات الأصوات تتعالى متضامنة :

ــ المدير ، المدير .

ــ لنرسل إليه وفداً في الحال .

وكانت بيلاجي قد بلغت الصف الأمامي ، وراحت تحدق ، من أسفل ، بابنها ، وقد امتلأت زهواً . وكان بول هناك ، بين العمال الشيوخ الذين يحظون بالاحترام والتقدير ، وكانت الجموع تصغي إليه وتستصوب رأيه ، وسرّها أنه لم يفقد اعتداله ، وأنه لا يجدف كالآخرين .

وكنقاط الماء المتساقطة على سطح من تنك ، انهمرت الهتافات المتقطعة ، وانهمر معها السباب والشتائم ، وكان بول يتطلع من علٍ إلى الحشد ، بعينيه الواسعتين المفتوحتين كأنه إنما يبحث عن شيء ما .

— أعضاء الوفد .

— سيزوف .

— فلاسوف .

— ريبين ... فهو شرس الناب .

وفجأة ندت بعض الصرخات أقل دوياً :

— هو ذا مقبل علينا .

— المدير .

وأفسح الجمهور الطريق لرجل فارع القامة ، مستطيل الوجه ، يحمل في أسفل ذقنه لحية خفيفة ، فاندفع ، ينحّي العمال من طريقه بحركة عصبية من يده ، ينحّيهم دون أن يلمسهم ، مردداً :

— اسمحوا لي :

وكانت عيناه مزوّرتين ، وبصره يتفحص وجوه العمال بنظرة متقصية مستشفة ، نظرة رجل مجرب ، وكان هؤلاء يرفعون له قبعاتهم ، وينحنون ، في حين كان هو يتابع طريقه دون أن يرد على مظاهر الاحترام هذه ، ناشراً الصمت والاضطراب في صفوفهم ، بشكل يستشعر المرء معه أن وراء البسمات المرتبكة وضجيج الهتافات الأصم ، ندم أطفال واعين ، على الحماقات التي ارتكبوها .

ومر أمام الأم مصوباً إليها نظرة قاسية ، ثم توقف أمام كومة الحديد . ومدّ له أحدهم يده من أعلى فلم يلمسها ، وبحركة رشيقة قوية تسلق ، واتخذ لنفسه مكاناً أمام بول وسيزوف .

— ماذا يعني هذا الاجتماع ؟ ولماذا تركتم العمل ؟

وخيّم الصمت في لحظات ، وتموّجت الرؤوس كالسنابل ، وبدا على سيزوف أنه يود لو يقذف بقبعته في الفضاء ، ثم هز كتفيه وطأطأ رأسه .

وصرخ المدير : أجيبوا .

فانتقل بول إلى جانبه ، وقال بصوت قوي مشيراً إلى سيزوف وريبين :

ـــ لقد كلفنا نحن الثلاثة ، من قبل رفاقنا ، أن نبلغك ضرورة الرجوع عن قرارك باقتطاع « كوبك » من أجورنا .

وقال المدير دون أن ينظر إلى الشاب :

ـــ ولماذا ؟

فرد بول بصوت داوٍ :

ـــ لأننا نعتبر هذه الضريبة جائرة .

ـــ إنكم إذاً لا ترون في مشروعي الرامي لتجفيف المستنقع إلا رغبة في استثمار العمال ، لا وسيلة لتحسين مستواهم أليس كذلك ؟

وأجاب بول : ـــ نعم !

وسأل المدير ريبين : وأنت أيضاً ؟

فرد هذا : ـــ إن وجهة نظرنا جميعاً متفقة .

وقال المدير ، وهو يستدير نحو سيزوف :

ـــ وأنت أيها « البطل » ؟

ـــ وأنا أيضاً أرجوك أن تتخلى عن « قرشنا » .

وابتسم بارتباك وهو يطأطيء رأسه من جديد .

وأجال المدير بصره ، في الحشد ، ببطء ، وهز كتفيه ثم صب على بول نظرة متفحصة وقال :

ـــ إنك شاب مثقف ، كما أحسب ، فهل أنت أيضاً لا تدرك فائدة هذا المشروع ؟

ـــ إذا جُفف المستنقع على نفقة المعمل ، فإن كلا منا يلمس فائدة ذلك .

فأجاب المدير بجفاف :

ـــ ليس المعمل مؤسسة للاحسان ، وإني آمركم جميعاً باستئناف العمل فورًا .

ثم هبط ، تتحسس أطراف قدميه الحديد بحذر ، ولا يلتفت إلى أحد .

وانتشرت بين الجمع ضوضاء تنم عن عدم الرضا فتوقف المدير وسأل :

ــ ماهذا ؟

وصمت الجميع إلا صوت لعلع من بعيد ، من بين العمال :

ــ إذهب واعمل بنفسك .

فصاح واعمل بنفسك .

فصاح المدير .وهو ينتزع الكلمات إنتزاعاً :

ــ سأفرض الغرامة عليكم جميعاً إذا لم تستأنفوا العمل في مدى ربع ساعة .

ثم تابع سيره وسط الزحام ، وارتفعت وراءه غمغمة خرساء ، وكان كلما نأى ، تعلو شيئاً فشيئاً ضوضاء الأصوات .

إذهب الآن وكلمه .

ــ هذا هو موقفهم من حقوقنا .. آه ... إننا حقا لمحظوظون .

وكانوا يصرخون في وجه بول :

ــ هه أيها المحامي ، ماذا أحسنت الكلام ... ولكنه أتى ولم يتيسر الحال .

ــ وأنت يا فلاسوف ... ما العمل ؟

وتلاحقت النداءات الملحة ، فأعلن بول :

ــ أيها الرفاق : إني أقترح أن تتركوا العمل ما زال مصراً على اقتطاع « كوبك » من أجرنا .

وتأججت جذوة الهياج من جديد :

ــ إنك تحسبنا بلهاء .

ــ الاضراب ؟

ــ الاضراب من أجل « كوبك » ...؟

ــ وماذا يهم ؟ ... فلنضرب .

ــ إنهم سيطرحوننا جميعاً خارج الأبواب .
ــ ومنذا الذي يستجديهم البقاء ؟
ــ سيجدون من يتوسل إليهم .
ــ أمثال يوضاس ؟

13

ونزل بول ، وعاد إلى جانب أمه ، وعاد حولهما الطنين : هذا يجادل ذاك ، والكل منفعلون صارخون .

وقال ريبين لبول وهو يقترب منه :

ــ لا تعلن الاضراب ، فالشعب متعطش إلى الربح ولكنه جبان ، وهناك ثلاثماية عامل فقط قد يتبعونك لا أكثر . إننا لن نستطيع أن نزيح « مزبلة » كهذه بمذراة واحدة !

وكان بول صامتاً ينظر إلى الحشد ذي الوجه الأسود الهائل ، ينظر إليه وهو يتململ ، ويحدق به ينتظر منه شيئاً ، وكان قلبه يخفق بضيق ، ويتراءى له أن كلماته قد تبددت دون أن تترك أثراً في نفوس القوم ؛ كالقطرات المتناثرة المتساقطة فوق أرض أنهكها طول الجفاف .

وقفل إلى منزله حزيناً منهكاً ، وكانت أمه وسيزوف يسيران وراءه ، أما ريبين فكان يسير إلى جانبه ، وصوته يطن في أذنه :

ــ إنك تتكلم جيداً ، هذا صحيح ، ولكنك لا تمس القلب ؛ والشرارة يجب أن تُلقى في أعماق القلب . إنك لن تقنع الناس بالمنطق ، فالحذاء لطيف جداً ولكنه شديد الضيق على أقدامهم .

وكان سيزوف يقول للأم :

ــ هذا هو الزمن الذي يجب أن نرحل فيه ، نحن العجائز ، إلى المقبرة ؛ لأننا الآن أمام شعب جديد ينمو . كيف نعيش ؟ لقد كنا نزحف ، وننحني حتى الأرض لكي نحيا . ولكنني لا أدري ما إذا كان الشبان قد ثابوا اليوم إلى رشدهم ، أم أنهم ما زالوا ينغمسون في ضلال يفوق ظلالنا . إنهم على كل حال ليسوا مثلنا . لقد رأيتهم كيف

يخاطبون المدير كأنه ندّ لهم . أجل ... إلى اللقاء يا بول ، لقد أحسنت يا بنيّ الدفاع عن الناس ، وستجد بعونه تعالى الطريقة التي تنقذهم بها ، إن شاء الله .

ومضى سيزوف ؛ ودمدم ريبين :

ــ إلى قبرك ، لا ردّك الله . فإنك لم تكن اليوم إنساناً بل غراء صالحاً لسد الشقوق . أرأيت يا بول ؟ إن أولئك الذين كانوا يهتفون ليرسلوك مندوباً عنهم . إنهم هم أنفسهم الذين يقولون عنك إنك إشتراكي مشاغب . أجل إنهم هم . لقد كانوا يتهامسون : سيُطرد من المعمل ، وهذا ما يليق به .

ــ إنهم على حق بوجهة نظرهم .

ــ والذئاب أيضاً على حق عندما يمزق بعضها بعضاً .

وكان وجه ريبين مكفهراً وصوته يرتعش بشكل غير معتاد .

ــ إن الناس لا يصدقون الكلام المجرد العاري ، بل يجب أن تتألم ليصدقوك ، وأن تغمس كلماتك بالدم .

... وظل بول طوال نهاره مغموماً ، مضنىً ، يسيطر عليه قلق غريب ، وكانت عيناه البراقتان تبدوان كأنهما تبحثان عن شيء ، وقد لاحظت أمه ذلك ، فسألته بجزع : ــ ما بك يا صغيري بول ؟

فأجابها مطرقاً : ــ إنه الصداع .

ــ يجب أن تنام ، وسأذهب لاستدعاء الطبيب .

ــ لا حاجة لذلك .

وحدث نفسه بصوت هامس :

ــ ما زلت فتىً تنقصني القوة . هذا هو الواقع . إنهم لم يثقوا بي ، ولم يتبعوني لأني لم أعرف كيف أقول لهم الحقيقة . وأن ذلك لإذلال لي .

وقالت له برقة ، وهي ترنو إلى وجهه المتجهم وتعزيه :

ــ قليلاً من الصبر ، إنهم لم يفهموا اليوم شيئاً ، ولكنهم غداً سيفهمون .

ــ يجب أن يفهموا .
ــ هذا مؤكد ، فلقد فهمت أنا نفسي حقيقتك .
ودنا بول منها : ــ ولكنك يا أماه إمرأة طيبة .
ثم تحول عنها ، أما هي فقد هزتها الرعشة ، كما لو أحرقتها النار ، متأثرة بالكلمات التي سمعته يرددها هامساً ، ووضعت يدها على قلبها ، وابتعدت متقلبة بحذر دعاب إبنها .
وفي الليل عاد رجال الدرك ، فيما كانت هي نائمة ، وكان هو في سريره يقرأ ، عادوا واستأنفوا التفتيش بضراوة . لقد فتشوا في كل مكان ، في غرفة المؤونة ، في فناء الدار ، وتصرف الضابط الباهت اللون ، كالمرة الأولى ، تصرفاً جارحاً ساخراً ، كأنما كانت هوايته أن يسخر ، وقد أجهد نفسه ليمسهم بسخريته حتى الأعماق ، وكانت الأم تجلس في إحدى الزوايا صامتة لا تحول بصرها عن إبنها ، أما هو فكان يحاول أن يكبت اضطرابه ، ولكن أصابعه كانت ترتعش بشكل غريب عندما يضحك الضابط ، وكانت تشعر أنه يكاد يعجز عن الإجابة على أسئلة الدركي ، وأنه يتحمل مزاحه الثقيل ، ولم يكن ذعرها كمثله عند التفتيش الأول ، وكانت تستشعر كرهاً أكثر لضيوف الليل هؤلاء بلباسهم الرمادي ومهاميزهم ، وكان كرهها يطغى على خوفها .
وجاء بول يوشوشها :
ــ إنهم سيأخذونني .
فطأطأت رأسها ، وأجابت بصوت خفيض :
ــ أفهم ذلك .
أجل . لقد كانت تفهم أنهم سيزجونه في السجن لأنه خطب اليوم في العمال ، ولكن العمال جميعاً كانوا موافقين على كل ما قاله ، وسيدافعون عنه جميعاً فلا يلبث أن يطلق سراحه .
واشتهت أن تضمه إلى صدرها ، وأن تبكي ، ولكن الضابط كان إلى جانبها يراقبها مسبل الأجفان ، وكانت شفتاه تختلجان ، وشارباه يتراقصان ؛ وداخلها إحساسٌ بأن هذا الرجل ينتظر منها أن تسفح بين

يديه الدموع ، والشكوى والتوسلات ، وظلت تضغط على يد إبنها ، وهي تحشد كل إرادتها ، وتحاول أن تجتزىء في كلامها . وقالت له ببطء ، وهي تمسك أنفاسها ، هامسة :

ـــ إلى اللقاء يا بول ، هل أخذت كل ما يلزمك ؟

ـــ أجل ... لا تقلقي .

ـــ ليكن الله معك .

وعندما اقتادوه تهالكت على المقعد مغمضة العينين ، وراحت تنتحب ببطء .

... وانتحبت طويلًا وهي مطأطأة الرأس ، تسند ظهرها إلى الجدار كما كان يفعل زوجها ، ويثقل عليها الضيق وشعورها المذل بضعفها ؛ وتصب في نوح تأوهاتها الرتيب كل ما في قلبها المجروح من أسى . وكانت ترى أمامها ، كالبقعة الجامدة ، ذلك الوجه الشاحب ، ذا الشاربين الخفيفين ، الذي تبدو الغبطة في عينيه المتغضنتين ، فيتدحرج في صدرها ، كالكرة السوداء ، لغضب الشديد والسخط على أولئك الذين ينتزعون الابن من والدته ، لا لسبب إلا لأنه ينشد الحقيقة .

... وكان الطقس بارداً ، والمطر ينقر زجاج النوافذ ، وكان يخيل إليها أن أشباحاً ترود حول منزلها في حلك الليل ، أشباحاً رمادية ، طويلة الأذرع ، ذات وجوه حمراء عريضة لا عيون فيها . وكانت هذه الأشباح تسير ورنين مهاميزها يتصادى ضعيفاً .

وكانت الأم تتمنى :

ـــ ليتهم على الأقل أخذوني معه .

وعوت صافرة المعمل بصوتها الآمر تدعو لاستئناف العمل ، وكان صوتها اليوم أصم خفيفاً ، مضرباً ، ودخل ريبين وهو يمسح قطرات المطر عن لحيته ، وسألها :

ـــ هل أخذوه ؟

وتنهدت : ـــ أجل ... لقد أخذوه « الملاعين » .

وقال ريبين ساخراً : ـــ حسناً ... ولقد فتشوا منزلي ، نبشوا كل شيء ، نعـ ... ـم ... وعووا ، ولكنهم لم يوجهوا إليّ أية إهانة . إذن لقد أخذوا بول ؟ لقد أدركت المؤامرة ، فلقد غمز المدير غمزة ، وأشار الدركي إشارة معناها : لقد فهمت ... ومن ثم ... كان الاعتقال . آه ... إنهم زملاء ... بعضهم ينهمك في حلب الشعب ، في حين يمسك الآخرون بقرونه .

وصاحت الأم وهي تنهض :

ـــ يجب أن تعملوا شيئاً من أجل بول ، لأن ما فعله كان من أجلكم جميعاً .

ومن الذي يجب أن يعمل ؟

ـــ أنتم جميعاً .

ـــ أتصدقين أن ذلك يحدث ؟ لا ... يجب ألا تدخلي هذا في حسابك .

ومضى ضاحكاً ثقيل الخطى ، وظلت كلماته القاسية اليائسة تؤجج حزنها .

ـــ إنهم قد يضربونه ويعذبونه ...

وتخيلت جسد إبنها وقد أشبع ضرباً ، تخيلته ممزقاً مدّمى ، فجثم الرعب على صدرها كالخزف البارد ، وسحقها هذا الرعب ، وأحست بألم في عينيها . ولم تشعل في هذا اليوم موقدها ، ولم تهيء فطورها ، ولم تشرب الشاي ، ولم تتناول شيئاً إلا كسرة من الخبز أكلتها عند المساء .

وعندما أوت إلى فراشها استعرضت حياتها كلها . إنها لم تكن في يوم من أيامها شديدة الوحدة ، شديدة العري كمثلها الآن . لقد تعودت في سنواتها الأخيرة أن تعيش في الترقّب الدائم ، ترقّب شيء ذي أهمية ، شيء يحمل إليها السعادة ، وكانت ترى الفتيان حولها يضطربون ضاجين جذلين تملأهم الحيوية، وكان وجه إبنها الجاد نصب عينيها أبداً ، وجه إبنها ، خالق حياتها المنكودة ، الطيبة مع ذلك . وها هو الآن بعيد عنها ...

14

ومر النهار بطيئاً ، وجاء في أعقابه ليل مؤرق ونهار آخر أشد طولًا ، وكانت ترجو أن يلم بها خلاله أحد ، ولكن أحداً لم يأتِ ، وهبط المساء ، ثم خيم الظلام .

وكان المطر ينتحب ، ويرشح من الجدران ، والريح تعصف في المدخنة ، وشيء ما يتحرك تحت الخشب في أرض الحجرة ؛ وكانت قطرات الماء تتساقط من السقف فيواكب نقرها الكئيب دقات الساعة . وبدا المنزل كله كأنه يتأرجح بفتور وهو منغرس في قلب الغم ، غير مبال بما يحيق به .

ونقرت النافذة نقرة ... ثم نقرتين ..

لقد كانت تعرف هذه الإشارة ، ولم تك من قبل تروعها ، ولكنها هذه المرة أحست معها برعشة من الغبطة ، وقذفها من سريرها أمل غامض ، فطرحت على كتفيها شالًا ، وفتحت .

ودخل ساموالوف ، وتبعه آخر كان يغطي وجهه بقبعة معطفه وينثال شعره على عينيه .

وسألها ساموالوف دون أن يحييها ، وكان ، على غير عادته ، قاتم الوجه مغموماً ، سألها :

ـــ لعلنا أيقظناك من رقادك ؟

فأجابته : ـــ لم أك نائمة .

وسكتت ، وسمّرت على الزائرين عينين يملأهما الترقب .

وخلع رفيق ساموالوف قبعته ، وهو يطلق آهة ثقيلة مبحوحة ، ومد إلى الأم يداً عريضة قصيرة الأنامل ، وقال لها بمحبة كما لو كان يخاطب صديقة قديمة :

ـــ طاب مساؤك يا أماه ... ألم تعرفينني ؟

وصرخت بيلاجي فجأة وبفرح غامر :

ـــ أهذا أنت . يا إيغور إيفانوفيتش ؟

ورد وهو يحني رأسه الضخم ، ذا الشعر الطويل كشعر الكاهن :

ـــ بلحمي وعظمي .

وتألق وجهه المستدير ببسمة حلوة ، وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تركزان على الأم نظرة صافية ودوداً . لقد كان ، بعنقه الضخم المستدير وذراعيه القصيرين ، أشبه ما يكون بإبريق الشاي ؛ وكان وجهه يطفح بالبشر ، وينساب من صدره صوت كأنه الحشرجة المبحوحة .

واقترحت الأم :

ـــ تفضلا إلى الغرفة ، فسأرتدي ثيابي بسرعة .

وأجابساموالوف وهو قلق الملامح ، يصوّب إليها نظرة مزوّرة :

ـــ نريد أن نحدثك في أمر .

ودخل إيغور إيفانوفيتش الغرفة وقال :

ـــ في هذا الصباح يا عزيزتي خرج من السجن نيقولا إيفانوفتش الذي تعرفينه .

ـــ لقد كان في السجن إذن !

لقد قضى فيه شهرين وإحد عشر يوماً ، والتقى بالبيوروسي وبول اللذين يقرآنك السلام . إن إبنك يتوسل إليك ألا تقلقي ، ويقول لك أن الطريق التي اختارها تستلزم أن يكون السجن أبداً موطن الراحة ، وأن هذا هو ما قررته « سلطاتنا الباسلة » . ولننتقل الآن إلى الموضوع ... أفتدرين كم هو عدد الذين أوقفوا نهار أمس ؟

ـــ كلا ... أهناك إذن آخرون غير بول ؟

فقاطعها إيغور بهدوء :

ـــ إنه الموقوف التاسع والأربعون ، وينتظر أن يصطاد البوليس دزينة أخرى ، وهذا السيد واحد منهم .

وقال ساموالوف متجهماً : ـــ نعم ... أنا واحد منهم .

وشعرت بيلاجي أنها تتنفس بسهولة أكثر ، ومرت بخاطرها هذه الفكرة كالبرق :

ـــ « انه ليس وحده هناك »

وعندما ارتدت ثيابها ، دخلت الغرفة ، وقابلت ضيفها ببسمة شجاعة :

ـــ حتماً . إذا كانوا قد اعتقلوا عدداً كبيراً ، فإنهم لن يوقفوهم طويلًا .

وأجاب إيغور إيفانوفيتش :

ـــ هذا صحيح . وإذا نظمنا أنفسنا لنفسد عليهم لعبتهم ، فإنهم سيكونون كالسابق بُلهاء أغبياء ، وهذه هي الخطة : إننا إذا ما توقفنا الآن عن توزيع المناشير في المعمل ، فإن رجال الدرك ، عليهم اللعنة ، سيرتاحون من هذا العمل المؤسف ، وسيكرسون جهودهم لمقاومة بول ورفاق سجنه ...

وصاحت الأم مضطربة :

ـــ وكيف ذلك ؟

فقال إيغور بهدوء : ـــ إنه أمر بمنتهى البساطة . إن رجال الدرك قد يفكرون أحياناً تفكيراً صحيحاً : عندما يكون بول طليقاً يكون هناك كراريس ومناشير ، وإذا لم يكن كذلك ، فليس هناك كراريس ولا مناشير . فماذا يعني هذا ؟ هذا يعني أنه هو الذي ينشرها . أليس كذلك ؟ وإذن فسيبدأ رجال الدرك في نهشهم ، لأنهم يحبون أن يعملوا أسنانهم في أحد ما ، فلا يبقوا منه إلا الغبار .

وردت الأم مغمغمة :

ـــ لقد فهمت ، لقد فهمت ... يا آلهي ، ما العمل إذنً ؟

ورفع ساموالوف من صوته :

ـــ لقد اعتقلهم السفلة ، اعتقلوا الجميع تقريباً ، وعلينا الآن أن نتابع العمل كالسابق ، ليس من أجل قضيتنا فحسب ، بل لانقاذ رفاقنا .

وأضاف إيغور وهو يبتسم إبتسامة صغيرة :

ـــ ليس لدينا رجال للعمل ، ولدينا مقال رائع أنشأته بنفسي ؛ فكيف تدخله إلى المعمل ؟ هذه هي العقدة .

وقال ساموالوف : لقد بدأوا في تفتيش الداخلين جميعاً ، عند الباب . وأدركت الأم أنهم ينتظرون منها شيئاً فسارعت تسأل :

ـ حسناً ... ما الذي يجب عمله ، وكيف ؟

وظهر ساموالوف على العتبة :

ـ أنت على صلة طيبة بالبائعة ماريا كورسونوف .

ـ نعم .. وماذا يعني ذلك ؟

ـ فاتحيها بالأمر فقد تقوم هي بتهريب الكراريس ...

فأشارت الأم بيدها إشارة الرفض :

ـ لا ، لا ، إنها ثرثارة ، وسيعرفون أن ذلك قد حصل بإيحاء مني وبأنه صدر عن بيتنا ..

وفجأة ، لمعت في خاطرها فكرة ، فقالت بصوت خفيض :

ـ هاتوها ، اعطوني إياها فسأتدبر الأمر جيداً وسأجد الوسيلة ، سأطلب من ماريا أن تأخذني ، كمساعدة لها . سأقول لها : إنني مضطرة أن أعمل لكي آكل . وسأحمل الطعام إلى المعمل . سأتدبر الأمر جيداً .

وأكدت لهم بكلام سريع ، وهي تضع يديها فوق صدرها ، بأنها ستؤدي المهمة على وجهها الأكمل دون أن ينكشف أمرها ، ثم انتهت إلى القول بلهجة ظافرة :

ـ سيرون إنه وإن كان بول ليس هنا ، فإن يده تطالهم حتى وهو في سجنه . سيرون .

وانتشى الثلاثة ، وكان إيغور يبتسم ويفرك يديه بحرارة :

ـ عظيم أيتها الأم . ليتك تعلمين كم هو مدهش هذا ... إنه بكل بساطة شيء رائع .

وقال ساموالوف وهو يفرك يديه أيضاً :

ـ إذا نجحت الخطة فسأكون في السجن أسعد حالاً مما لو كنت على مقعد وثير .

وصاح بصوته المبحوح : ـ إنك كنزٌ ، إنك ثروة .

وابتسمت الأم ، فلقد كانت تدرك أنه إذا ما ظهرت المناشير في المعمل ، فإن الادارة ستتأكد أن إبنها ليس هو الذي يحملها . وكانت ترتعش من الغبطة ، ترتعش بكل كيانها ، وهي تأنس في نفسها القدرة على إداء هذا الواجب .

وقال إيغور لساموالوف :

ــ أبلغ « بول » عندما تذهب لزيارته أن له أماً مدهشة .

وأجاب ساموالوف والبسمة ترتسم على ثغره :

ــ سأقابله أولًا .

ــ قل له إني سأعمل ما يتوجب عمله ؛ وليثق من ذلك .

وقال إيغور وهو يشير إلى ساموالوف :

ــ وإذا لم يوقفوه ؟

ــ وماذا نصنع ؟ ليكن ما يكون .

وانفجرا ضاحكين ، وابتسمت هي ، بعد أن أدركت هفوتها ، إبتسامة طويلة غامضة فيها شيء من الخبث ؛ ثم قالت وهي تطرق برأسها :

ــ لكل همومه التي تشغله عن التفكير بهموم الآخرين !

واندفع إيغور يقول :

ــ هذا طبيعي . أما بشأن بول فلا تقلقي ولا تبتئسي ، إنه سيخرج من السجن أفضل من ذي قبل ، ففي السجن يرتاح المرء ويتثقف ، وهذا ــ ولنتكلم بحرية ــ ما لا يتيح لنا الوقت ، نحن الآخرين ، أن نحصل عليه . وأنا مثلًا ، دخلت السجن ثلاث مرات ! لم أدخله بفرح عظيم طبعاً ، ولكن دخوله كان شيئاً مفيداً جداً بالنسبة لي روحياً وفكرياً .

وقالت الأم وهي تتأمل بمحبة وجهه البسيط الملامح :

ــ إنك تتنفس بصعوبة .

فأجاب وهو يرفع أصبعه في الهواء :

ــ إن لذلك أسباباً خاصة . والآن ... هل ما قلته مفهوم يا

أماه ؟ غداً سنهيىء لك المواد ، وستبدأ الآلة التي تبدد ظلمات القرون عملها . عاش القول الحر ، وعاشت قلوب الأمهات ... وإلى اللقاء بانتظار الغد .

وقال ساموالوف وهو يشد على يده بقوة :

ــ إلى اللقاء ، أما أنا فلا أستطيع أن أهمس مثلك أية كلمة من هذا ، في أذن الأم .

وأجابت بيلاجي تجامله :

ــ سننتهي جميعاً إلى الفهم ..!

وأوصدت الباب بعد انصرافهم ، وركعت في وسط الحجرة تصلي ، في حين كان المطر يتساقط في الخارج .

لقد كانت تصلي دون إن تنبس بكلمة ؛ وكانت تجمع في فكرة واحدة عظيمة ، كل أولئك الذين أقحمهم بول في حياتها . لقد كانت تراهم يعبرون بينها وبين الصور القديسة ، وكانوا جميعاً شديدي البساطة ؛ شديدي التراص ، والانفراد .

وفي ساعة مبكرة من الغد انطلقت إلى ماريا كورسونوف ، فاستقبلتها البائعة الصاخبة أبداً ، الملطخة أبداً بالشحم ، استقبلتها بحرارة وسألتها وهي تربت على كتفها بيدها السمينة :

ــ هل تشعرين بالسأم ؟ لا . لا تقلقي فالأمور تسير في مجراها ، وليس ثمة ضير . لقد كانت الأمور في السابق هكذا . كانوا يسجنون الناس عندما يسرقون ولكنهم الآن يسجنونهم إذا جهروا بالحقيقة . ربما كان بول قد قال ما لا يجب قوله ، ولكنه ، انبرى للدفاع عن الجميع ، والناس جميعاً يعرفون هذا ؛ فلا تقلقي . إنهم لا يقولون جميعاً قوله ، ولكن الشجعان منهم يعرفونه جيداً . لكم وددت أن أزورك دائماً ولكن ليس لديّ متسع من الوقت ، فأنا أهتم بشؤوني المطبخية ... ثم بتجارتي ؛ وسأموت متشردة . إن عشاقي ــ يا لهم من سفلة ــ هم الذين ينهشونني . إنهم شرهون ، شرهون كالدويبات في قطعة خبز . لقد وفرت عشرة روبلات ولكن واحداً من هؤلاء المارقين زحف ، فالتهم

منها على الأقل روبلين . لكم هو بائس أن يكون المرء إمرأة ، ولكم هي قذرة الحياة على وجه هذه الأرض . إنه لقاس حقاً أن يعيش المرء وحيداً ، ولكنه شيء قاتل أيضا أن يعيش مع آخر .

وقطعت بيلاجي هذا السيل من الكلام :

— لقد جئت أطلب إليك أن تقبليني مساعدة لك .

وسألت ماريا : — وكيف ذلك ؟

ثم راحت بعد أن فرغت صديقتها من الكلام ، تهز رأسها مذعنة :

— هذا ممكن . أتذكرين كم مرة حميتني من زوجي ؟ حسناً ... فسأحميك أنا الآن من العوز. يجب علينا جميعاً أن نساعدك لأن ابنك يقاسي العذاب من أجل قضية هي قضية الجميع . إنه فتى شجاع ؛ هذا ما يقوله الجميع ويتألمون له ، أما أنا فأتنبأ بأن هذه التوقيفات لن تحمل الهناء للادارة ... ألا تعلمين ما يحدث في المعمل ؟ إنهم يا عزيزتي مستاؤون . أما في الادارة فإنهم يقولون لبعضهم بعضاً : لقد عُقص الرجل في كاحله ، ولن يستطيع أن يتابع طريقاً طويلًا ... أما النتيجة فهي أنه من أجل عشرة ضُربوا ، يثور سخط المئات .

وتوصلنا إلى إتفاق . وفي اليوم التالي ، وفي وقت الغداء كانت بيلاجي في المعمل ، تحمل الطعام الذي أعدته ماريا في طنجرتين ؛ أما هذه ، فكانت في السوق تشتري حوائجها .

15

وسرعان ما تنبّه العمال إلى البائعة الجديدة ، وكان البعض يقتربون منها مشجعين :

— هل عثرت على عمل يا بيلاجي ؟

وكانوا يواسونها، ويؤكدون لها أن بول سيطلق سراحه عما قريب ، وكان آخرون يثيرون بعباراتهم المواسية قلبها المعذب ، في حين يكيل آخرون غيرهم الشتائم للادارة ورجال الدرك ، فيترك سخطهم هذا أعمق الأثر في نفسها .

وإلى جانب هؤلاء كانت هناك فئة تنظر إليها بشماتة ، حتى أن المصوب « إيساي غوربوف » قال لها وهو يكز أسنانه :

ــ لو كنت حاكماً لشنقت ابنك ، لأعلمه كيف ينكّب الشعب الطريق القويم .

وجمّدها هذا التهديد الحقود ببرد مميت ، ولم تجب على « إيساي » بشيء ، بل ألقت نظرة خاطفة على وجهه الضيق المغطى ببقع الكلف ، ثم أسبلت عينيها متأوهة .

وكان الاضطراب يسود المعمل ، والعمال يتناثرون جماعات صغيرة ، وينقدون باهتمام وبصوت خفيض ، أرباب العمل وتند عنهم من حين إلى حين ، وهم يطوفون أرجاء المعمل ، شتائم وهتافات حانقة .

ورأت بيلاجي ساموالوف يمر بالقرب منها يخفره إثنان من رجال البوليس ، وكان يسير وإحدى يديه في جيبه ، والأخرى تلامس شعره الأشقر الأشهب ، ونحوٌ من مئة عامل يواكبونه ، ويغرقون رجليّ البوليس بالسباب والسخرية .

وصاح به أحدهم : هل ستقوم بجولة ؟

وهتف آخر : المجد للعمال ... إنهم يسيّرونهم بموكب . ثم ندت عنه شتيمة صارخة .

وصرخ رجل أعور ضخم ، صرخ بحنق :

ــ إنه لا جدوى لكم أن تقبضوا على اللصوص ، لا أن تطاردوا الشرفاء .

وأكمل آخر من بين الجمع : ــ ليتهم فعلوا ذلك في الظلام ، ولكنهم سفلة لا يخجلون حتى في وضح النهار .

وكان الشرطيان يسيران مسرعين متجهمي الملامح ، يحاولان ألا يريا شيئاً مما حولهما ، ويتظاهران بأنهما لا يسمعان الهتافات التي كانت تواكبهما .. وتقدم منهما ثلاثة عمال يحملون عصياً ضخمة من الحديد ، فهددوهما بها صائحين :

ــ حذار يا عشاق الصيد .

وعندما مر ساموالوف بالقرب من بيلاجي ، أومأ لها برأسه ضاحكاً وقال : ــ لقد أمسكوني .

وحيته بإكبار وصمت ، وقد أثّر فيها مشهد أولئك الفتيان الشرفاء الذين لا يعاقرون الخمرة ، بل ينطلقون إلى السجون والبسمة تفوف شفافهم ؛ وبدأت تكن لهم حباً عطوفاً ، حب أم .

وبعد عودتها من المعمل ، قضت بعد الظهر كله عند ماريا ، تساعدها في عملها وتستمع إلى ثرثرتها ، وفي ساعة متأخرة من المساء عادت إلى بيتها الفارغ البارد الذي لا ود عنده ، ولبثت وقتاً طويلًا تروح وتجيء ، قلقة لا تدري أين تجلس ولا تدري ماذا تفعل . لقد كانت قلقة ؛ إذ هبط الليل ولم يأتِ إيغور والمنشورات التي وعد بإحضارها .

ووراء النافذة كانت تتراقص نتف الثلج الثقيلة الرمادية ، ثلج الخريف ، وتعلق بالزجاج ثم تنزلق بصمت ، وتذوب تاركة بقايا رطبة . وكانت بيلاجي تفكر بابنها .

وطُرق الباب بحذر ، فعدت إليه مسرعة لتفتحه ، فإذا الطارق ساندرين . إنها لم ترها منذ أمد بعيد ، وكان أول ما فاجأها من الفتاة بدانتها المفرطة .

وحيتها ، سعيدة بأن تعثر على رفيقة ، تجنبها قضاء جزء من ليلها في الوحدة ، وكان قد مضى عليهما زمن طويل لم تلتقيا فيه فسألتها :

ــ هل كنت في سفر ؟

وأجابت الفتاة باسمة :

ــ كلا .. لقد كنت في السجن مع نيقولا إيفانوفتيش ، ألا تذكرينه ؟

وصاحت الأم :

ــ وكيف أنساه ، لقد قال لي إيغور البارحة إنهم أطلقوا سراحه . أما أنت فلم أك أعلم ، ولم يقل لي أحدٌ انك ...

وقاطعتها الفتاة وهي تدير بصرها فيما حولها :

ــ ولِمَ الخوض في هذا الحديث ؟ يجب أن أستبدل ثيابي ريثما يصل إيغور .

ــ إنك مبتلة .

ــ لقد كنت أحمل المنشورات .

وقالت الأم بلهفة : ــ اعطنيها ، اعطنيها .

... وفكت الفتاة أزرار معطفها بسرعة ثم انحنت ، فتساقطت منها رزم الأوراق كما تتساقط أوراق الشجرة ؛ فجمعتها الأم ضاحكة :

ــ لقد قلت في نفسي عندما رأيتك منتفخة هكذا أنك لا شك متزوجة ، وإنك تنتظرين مولوداً ... يا لله ، كيف حملت هذا كله ؟.. ألم تأتي سيراً على قدميك ؟

وقالت ساندرين وهي تبدو رشيقة رقيقة كالسابق :

ــ بلى .

ورأت الأم أن وجنتيها كانت غائرتين ، وأن عينيها قد أمستا واسعتين تحف بهما هالات سوداء .

وقالت الأم وهي تهز رأسها متأوهة :

ــ لقد أطلقوا سراحك منذ قليل ، وكان عليك أن ترتاحي ، وبدلًا من أن ...

ــ ذلك واجب . قولي لي كيف حال بول ؟ أليس شديد الوهن ؟

وكانت تتكلم دون أن ترفع بصرها إلى الأم ، وتصفف شعرها محنية الهام ، مرتعشة الأنامل .

ــ أؤكد لك أنه قوي العزيمة ، وأنه على ما يرام .

وتابعت الفتاة بصوت خفيض :

ــ إن صحته حسنة أليس كذلك ؟

ــ إنه لم يعرف المرض أبداً ... لشد ما ترتجفين ... مهلًا ، سآتيك بقدح من الشاي مع مربى التوت الشوكي .

ـــ لا بأس ... ولكن علامَ تزعجين نفسك ؟ إن الوقت متأخر فاسمحي لي أن أعد ذلك بنفسي .

وردت الأم بلهجة مؤنبة :

ـــ إنك جد متعبة .

ثم انهمكت في إعداد الشاي ، وتبعتها ساندرين إلى المطبخ ، وجلست على المقعد .

وقالت وهي تلقي بيدها وراء رأسها :

ـــ ومع ذلك فالسجن ينهك القوى . يا للبطالة اللعينة ، فليس هناك ما هو أشد إيلاماً منها . إن المرء ليعرف كل ما عليه أن يعمله ... ولكنه يظل هناك في قفصه كالحيوان .

ـــ ومن يثيبك عن هذا كله ؟

وردت الأم بنفسها على السؤال الذي طرحته ، ردت متأوهة :

ـــ لا أحد إلا الله . أما أنتم فما من ريب أنكم لا تؤمنون به .

وأجابت الفتاة بإيجاز وهي تهز رأسها :

ـــ كلا ...

وأعلنت الأم بلهجة حماسية مفاجئة :

ـــ حسناً ... وأنا لا أصدقكم .

وبعصبية مسحت بمريولها يديها الملطختين بالفحم ، وتابعت بإيمان متأجج :

ـــ إنكم لا تفهمون عقيدتكم ! كيف يستطيع المرء أن يحيا حياة كهذه دون أن يؤمن بالله ؟

وتساحبت في المدخل خطىً صاخبة ودمدم صوت ، وأخذت الأم رجفة أما الفتاة فانتصبت واقفة ، ووشوشت بسرعة :

ـــ لا تفتحي إذا كانوا من رجال الدرك . قولي لهم إنك لا تعرفينني ، وأنني أخطأت المنزل فدخلت بيتك صدفة ، وإنني كنت في غيبوبة ، فنضوتِ عني ثيابي ، ووجدت الكتب .. أفهمتِ ؟

وسألتها الأم بحنان :

ـــ ولِمَ ذلك يا صغيرتي العزيزة ؟
ـــ إنتظري .
وأصغت ساندرين : ـــ يخيّل إليّ أنه إيغور .
وكان القادم هو إيغور فعلاً ، وكان مبلل الثياب يحطمه التعب ، وعندما دخلِ صاح :
ـــ آه . آه . ابريق شاي ؟ هذا أفضل ما في الدنيا يا أماه ؟ هل وصلتِ يا ساندرين ؟
وكان ، وهو يملأ المطبخ الضيق برنّات صوته المبحوح ، يخلع ببطء معطفه الثقيل ، ولا يتوقف عن الكلام :
ـــ هي ذي يا أماه فتاة غير مرغوب بها من السلطات . لقد أهانها حارس السجن فأعلنت أنها ستدع نفسها تموت جوعاً إذا لم يقدم لها اعتذاره ، ولبثت ثمانية أيام مضربة عن الطعام ، وكان من العدل ألا تخرج إلا وقدماها من أمام ... وبطني الصغير ماذا تقولون عنه ؟
ودخل الغرفة وهو ما زال يثرثر ويحتضن بذراعيه القصيرين بطنه المترهل ، ثم ما لبث أن صفق الباب وراءه .
وسألت الأم ساندرين مندهشة :
ـــ أصحيح أنك لم تأكلي طوال أيام ثمانية ؟
فردت الفتاة وهي تهز كتفيها بتأثر ظاهر :
ـــ لقد كان عليه أن يقدم لي اعتذاره .
وأثار هدوؤها وعنادها الصارم شعوراً في نفس الأم يمازجه التعنيف ، فسألتها من جديد :
ـــ وماذا لو متِ ؟
فأجابت بصوت خفيض :
ـــ ليكن ، ومع ذلك فقد اعتذر . إن الاهانة يجب ألا تغتفر .
وقالت الأم ببطء :
ـــ أجل ... ولكننا نحن النساء نُهان طوال حياتنا .
وصاح إيغور وهو يفتح الباب :

ـــ لقد تخففت من حملي الآن . هل الشاي جاهز ؟ إسمحي لي أن أذهب لاحضاره .

وأضاف وهو يقترب من ابريق الشاي :

ـــ كان أبي الفاضل لا يشرب أقل من عشرين قدح من الشاي يومياً . ولذلك سلخ بسلام في هذا العالم الحقير ثلاثاً وسبعين عاماً دون أن يمرض . لقد كان يزن مئة وخمسة وعشرين كيلو غراماً ، وكان خادم رعية في قرية فوسكريسانسكي .

وصاحت بيلاجي : ـــ أأنت ابن الكاهن جان ؟

ـــ أجل ... وكيف عرفت ذلك ؟

ـــ لأني أنا أيضاً من قرية « فوسكريسانسكي » .

ـــ إذن أنت مواطنة ؟ من أي عائلة ؟

ـــ نحن جيران لكم ... فأنا من آل « سيرغين »

ـــ أأنت إبنة « نيل » الأعرج ؟ لقد عرفته جيداً ، ولقد شد أذنيّ أكثر من مرة .

وكانا يتضاحكان وأحدهما يقف قبالة الآخر ، يتضاحكان تحت نار الأسئلة والأجوبة المتشابكة ، وكانت ساندرين ، وهي منهمكة في إعداد الشاي ، ترنو إليهما وتضحك .

ونبه إحتكاك الأقداح الأم إلى واجباتها :

ـــ آوه ، المعذرة . إني أثرثر . ولكنه من الجميل جداً أن يلتقي المرء بمواطن ..

ـــ أنا الذي يتوجب عليّ أن أطلب منك المعذرة لتصرفي في بيتك كما أتصرف في بيتي ... ولكن الساعة الآن قد بلغت الحادية عشرة ، وأمامي طريق طويل يجب أن أقطعه ...

وصاحت الأم بدهشة : ـــ إلى أين ؟ إلى المدينة ؟

ـــ نعم .

ـــ كيف ذلك . إن الوقت ليل والسماء ممطرة ، وأنت منهك ... ابق الليلة هنا .

والتفتت إلى ساندرين :
ـــ ينام إيغور في المطبخ ، وننام نحن هنا .
فأجابت الفتاة ببساطة :
ـــ كلا ... يجب أن أنصرف .
وقال إيغور :
ـــ أجل ... يجب أن تتوارى هذه الفتاة يا مواطنتي ، فهي معروفة هنا ، وإذا ظهرت غداً في الشارع ، فسيكون ذلك سيئاً .
ـــ ولكن ... هل ستذهب وحدها ؟
وقال إيغور والبسمة ترتسم على شفتيه : ـــ نعم .
وصبت الفتاة شيئاً من الشاي لنفسها ، وتناولت قطعة من الخبز ، وأخذت تلتهمها ، وعيناها المتأملتان تتركزان على الأم .
ـــ وكيف تستطيعين السير بمفردك ؟ وناتاشا أيضاً ؟. أنا لا أسير وحدي ، لأنني أخاف ...
وقال إيغور : وهي تخاف أيضاً ... أليس كذلك يا ساندرين ؟
ـــ هذا أكيد .
ونقلت الأم بصرها عليهما واحداً بعد الآخر ، وهتف بصوت كالهمس :
ـــ لكم أنتم قساة .
وعندما إنتهت ساندرين من شرب الشاي ، شدت على يد إيغور مودعة ، دون أن تنبس بكلمة ، واجتازت المطبخ ، والأم تتبعها :
ـــ أرجوك أن تبلغي بول تحيتي إذا ما رأيته .
وكانت يدها على مزلاج الباب ، حين استدارت بغتة ، وسألت بصوت خفيض :
ـــ هل لي أن أعانقك ؟
واحتضنتها الأم دون أن تجيب ، وعانقتها بحرارة :
ـــ شكراً لك .
... وخرجت بعد أن حيتها بإيماءة من رأسها .

وألقت الأم ، وهي تعود إلى الحجرة ، نظرة خاطفة مغمومة عبر النافذة . لقد كانت نتف الثلج المتميعة تتساقط في الظلمات ثقيلة بطيئة . وسألها إيغور :

ـــ أتذكرين آل بروزوروف ؟

وكان يجلس متباعد الساقين ، وينفخ قدح الشاي بصوت مسموع ، وكان وجهه أحمر مطمئنا ، ينضح بالعرق .

وقالت الأم بسهوم وهي تتجه نحوه بخطىً مزوّرة :

ـــ أجل إني أذكرهم .

ثم جلست ، وركزت على الرجل نظرة حزينة ، وسألته بلهجةٍ رؤوم :

ـــ آه ... وساندرين ... كيف ستصل ؟

وابتسم إيغور :

ـــ سوف تصل منهكة . لقد سبر السجن غورها ، وكانت من قبل أصلب عوداً ، إنها لم تربّ تربية قاسية ... وأعتقد أنها تشكو مرضاً في رئتيها .

واستوضحت الأم :

ـــ من أي عائلة هي :

ـــ إنها إبنة ملّاك ، ووالدها ـــ كما تقول هي ـــ رجلٌ خليع ... أتعرفين يا أماه أنهما سيتزوجان ؟

ـــ ومن هما اللذان سيتزوجان ؟

ـــ بول وهي ... ولكن ذلك متعذر ، فحين تكون هي طليقة يكون هو في السجن ، والعكس بالعكس .

وأجابت الأم بعد صمت :

ـــ لا أعرف شيئاً من ذلك ؛ فإن بول لا يتكلم أبداً عن خصوصياته .

وكانت ما تزال تحس بالاشفاق على الفتاة ، فقالت لضيفها وهي ترمقه بنظرة حقدٍ غير مقصود :

ـــ لقد كان من الواجب أن ترافقها .

وأجاب بهدوء :

ـــ إن ذلك مستحيل ، فلديّ هنا كومة من الأعمال يتوجب عليّ أن أنجزها وأحتاج معها إلى السير نهاراً بكامله ... وأنه لعمل سيء بعض الشيء ... مع الربو الذي أعانيه .

وقذلت بلأعمال يتوجب عليّ أن أنجزها وأحتاج معها إلى السير نهاراً بكامله ... وأنه لعمل سيء بعض الشيء ... مع الربو الذي أعانيه .

وقالت بلهجة لا يمكن تعريفها :

ـــ إنها لفتاة جريئة .

وكانت تفكر بما قاله لها إيغور ، ويغيظها ألا تتلقى هذا النبأ من إبنها مباشرة بل من رجل غريب ... وكانت من أجل ذلك تزم شفتيها وتقطب حاجبيها .

وقال إيغور وهو يهز رأسه :

ـــ جريئة جداً . ولكني ألاحظ أنها تثير فيك الشفقة فعلامَ ذلك ؟ إذا كنت ستوزعين شفقتك علينا جميعاً فلن يكفيك ما عندك . إننا جميعاً ، نحيا ، في الواقع حياة قاسية ، فمنذ أمد غير بعيد مثلاً عاد أحد رفاقي من المنفى ؛ وعند وصوله إلى « نيني ـــ نوفغورد » كانت زوجته وطفله ينتظرانه في « سمولانسك » وعندما بلغها كانوا في سجن من سجون موسكو . أما الآن فلقد جاء دور زوجته للذهاب إلى سيبيريا . وأنا أيضاً كانت لي زوجة ، زوجة رائعة ، ولكن خمس سنوات من هذه الحياة جرتها إلى المقبرة .

وكرع قدحه دفعة واحدة ، واستمر في كلامه ، وراح يعد الأشهر والسنين التي قضاها في المعتقل والمنفى ، ويسرد قصص الشقاء المتنوع ، والضرب الذي تعرض له في السجون ، وقصص الجوع في سيبيريا . وكانت الأم ترنو إليه ، وتصغي وقد أذهلتها تلك البساطة ، وذلك الهدوء اللذان كان يصف بهما تلك الحياة المفعمة بالآلام والاضطهاد ، والمذلة .

ـــ ولكن ... لنتحدث في موضوعنا ...

وتغير صوته واتزنت ملامحه وسألها أولاً عن الخطة التي أعدتها

لإدخال المناشير إلى المعمل ؛ وذهلت بيلاجي لمعرفته الدقيقة للتفاصيل كلها ، حتى إذا انتهيا من هذا الحديث ، عادا إلى استرجاع الذكريات ، ذكريات مسقط الرأس . وفيما كان إيغور يتفكه ، كانت هي تتتبع مجرى سنيها الغابرة فتبدو لها كالمستنقع تتناثر فيه الهضاب المتشابهة ، وتنمو شجيرات الحور بارتعاشها الجبان ، وأشجار الصنوبر ، والصفصاف الأبيض الضائع بين التلال . لقد كانت أشجار الصفصاف تنبت ببطء وتعيش خمساً من السنوات أو ستاً ، فوق هذه التربة الموّارة العفنة ، ثم تتساقط ، وتتعفن هي الأخرى .

لقد كانت الأم تستحضر في ذهنها هذه اللوحة وقد استبد بها إشفاقٌ ينوء به قلبها ، وكان ينتصب أمامها ظل لفتاة قاسية الملامح ، عنيدة التقاطيع ، تنطلق الآن تحت نتف الثلج الرطبة ، وحيدة هلكى .

... وإبنها في السجن قد يكون ما زال حتى الآن أرقاً لم ينم ... إنه يفكر ، ولكنه لا يفكر بأمه ، بل هناك من هو أقرب إليه منها .

وكغمامة ملونة الانعكاسات ، حائرة الاشكال ، كانت الأفكار الثقيلة تزحف نحوها وتهصر قلبها بقوة .

وقال إيغور وهو يبتسم : ـــ إنك متعبة يا أماه ، فهيا إلى النوم . وتمنت له ليلة طيبة ، واجتازت المطبخ بخطى متأججة وحذر ، تحمل في قلبها أساها المحرق .

وفي الصباح ؛ عندما كانا يتناولان الشاي سألها :

ـــ .. وإذا قبضوا عليك ، وسألوك من أين لك هذه المنشورات الملحدة ، فماذا تقولين لهم ؟

ـــ أقول لهم أن هذا الأمر لا يعنيهم .

ـــ نعم ... ولكن هذا القول لا يقنعهم ، وسيقنعون جيداً ، فيما لو كان الأمر يعنيهم بالفعل ؛ وسيسألونك بإلحاح دون أن يضجروا ..

ـــ ولكنني لن أبوح لهم .

ـــ إنهم سيسجنونك .

فزفرت : سأحمد الله ، لأنني سأكون عضواً صالحاً لشيء ما على الأقل . من يحتاج إليّ ؟ لا أحد .. ثم انهم ــ على ما يُقال ــ لا يعذبون ...

وهمهم بعد أن حدق فيها بإمعان :

ــ كلا ... إنهم لا يعذبون ... ولكن سيدة جريئة مثلك يجب أن تحتاط ...

وأجابت بابتسامة مرة :

ــ إنه لجميل منك أن تلقنني هذا الدرس .

وصمت إيغور لحظة ، وذرع أرض الغرفة ثم اقترب منها :

ــ إن هذا لعسير يا مواطنتي ، أشعر جيداً أنه عسير جداً بالنسبة لك .

وأجابت بحركة من يدها :

ــ إنه عسيرٌ بالنسبة للجميع ، ولكنه ربما كان يسيراً على أولئك الذين يدركون ، وأنا ، أدرك شيئاً فشيئاً ما ينشده الناس الطيبون .

وقال إيغور بلهجة وقور :

ــ إذا كنت يا أماه تدركين ذلك فالطيبون جميعهم ، أجل جميعهم ، بحاجة إليك .

ورشقها بنظرة خاطفة ، وابتسم بصمت .

... وعند الظهيرة خبأت النشرات في صدرها بهدوء وبكثير من المهارة ، مما حمل إيغور على أن يصيح مغتبطاً :

ــ « شيرغات » ، كما يقول الألماني الطيب عندما يكرع إناءً من الجعة . إن الأدب لم يبدل فيك شيئاً أيتها الأم ، فلقد ظللت إمرأة باسلة طيبة ، متقدمة في السن بعض الشيء ، ولكنها قوية كبيرة . ألا فلتبارك خططك الآلهة التي لا عد لها .

.. وبعد نصف ساعة وصلت إلى باب المعمل وهي تنوء بحملها الثقيل ، ويبدو عليها الهدوء ورباطة الجأش .

وكان هناك حارسان أحنقهما هزء العمال ، يفتشان كل من يدخل

الباحة دونما تمييز ، ويتراشقان الشتائم مع الداخلين ، وكان أحد رجال البوليس يقف جانباً ، كما يقف أيضاً رجل آخر هزيل القائمتين ، أحمر الوجه ، زائغ النظرة ، وقد أخذت بيلاجي ، وهي تنقل حمالتها من كتفٍ إلى اخر ، تتتبع حركاته بطرف عينها ؛ ويداخلها إحساسٌ بأنه جاسوس .

وكان هناك فتى فارع الطول أجعد الشعر ، يعلق قبعته في عنقه ، ويصرخ في وجه الحارسين اللذين كانا يفتشانه :

ـــ يجب أن تفتشوا في الرأس أيها الأبالسة لا في الجيب .

وأجابه أحد الحارسين :

ـــ ليس في الرأس شيء سوى القمل .

ـــ حسناً ... التقطوا هذا القمل . فهذا هو العمل الوحيد الذي تتقنونه .

ولف الجاسوس الفتى بنظرة سريعة ثم بصق .

وقالت الأم : ـــ اسمحوا لي بالمرور ، فأنتم ترون إني مثقلة ، وان حملي يقصم ظهري .

وصاح بها الحارس الرهيب : مرّي ، مرّي ولا تثرثري .

ووضعت الأم آنيتها على الأرض ، عندما وصلت إلى مكانها المعتاد ، ثم ألقت نظرة عجلى على حولها وهي تمسح العرق المتصبب من وجهها ... واقترب منها في الحال صانعاً أقفال هما الأخوان « غوسوف » وسألها أكبرهما ، ويدعى « فاسيلي » ، سألها بصوت مرتفع ، وهو مقطب الحاجبين :

ـــ هل يوجد معك فطائر ؟

فأجابته : ـــ كلا .. سوف أحضر منها غداً ...

وكانت تلك كلمة المرور ، فبرقت أسارير الأخوين ، ولم يتمالك جان وهو أصغرهما ، من أن يهتف : ـــ آه أيتها الأم ... إنك إمرأة فاضلة .

وقرفص فاسيلي وراح يحدق في أحد الأوعية بينما كانت رزمةٌ من الأوراق تنزلق تحت سترته .

وقال لأخيه بصوت جهير :

ــ لن نذهب إلى المنزل يا جان ، وسنتناول غداءنا من طعام السيدة ، إذ من الواجب أن نقدم العون للبائعة الجديدة ..

ثم دس ببراعة ، كمية من المنشورات في ساق جزمته .

ووافق جان على الفكرة :

ــ هذا صحيح ... ثم انفجر ضاحكاً .

وكانت الأم تتلفت حولها بحذر ، وتنادي بين الفترة والفترة معلنة عن بضاعتها :

ــ شوربا ... عجة سخنة ...

وكانت تحتال فتسحب من المنشورات رزمة بعد رزمة ، ثم تدسها في أيدي العمال الأصدقاء ، ومع كل رزمة ، كان وجه ضابط الدرك يبدو لعينيها كبقعة صفراء أشبه ما تكون بلهيب عودٍ من الثقاب في غرفة مظلمة؛ وكانت تقول له بذكاءٍ وغبطة ساخرة :

ــ خذ ... هذه لك يا ابني الصغير .

ثم تضيف منشرحة الصدر وهي تدس الرزمة التالية :

ــ خذ أيضاً ...

... وعندما أقبل العمال وصحنهم في أيديهم أخذ جان يضحك بضجيج ، فتوقفت بيلاجي عن توزيع النشرات ، وراحت تسكب شورباء الملفوف والعجة ، في حين كان غوسوف يقول مازحاً :

ــ لكم هي بارعة ... هذه البيلاجي .

ورد عليه سائق متجهم الوجه :

ــ الحاجة تعلمك كيف تصطاد الجرذان . لقد اختطف الأوباش ذاك الذي كان يعولك .. حسناً ... اعطني عجة بثلاثة قروش .. ولا تبتئسي أيتها الأم ... فستتدبرين أمرك .

وابتسمت الأم : شكراً لهذا الكلام الطيب .

وابتعد العامل وهو يغمغم :

ــ هذا الكلام لا يكلفني غالياً .

وعادت بيلاجي تنادي من جديد :

ـ شوربا سخنة ، عجة ، شوربا بالملفوف ...

وكانت تقول في نفسها بأنها ستقص على إبنها حديث هذه الخطوة الأولى ، وكان وجه الضابط الشاحب يمثل أمامها أبداً ، كريهاً قلقاً ، وشارباه الأسودان يتراقصان فينمان عن إضطرابه ، وكانت أسنانه المتراصة تلمع تحت شفته العليا التي قلصها الغضب ، وكان الفرح يغرد في قلب الأم كالعصفور ، وعيناها تتغضنان بخبث ، وكانت تحدث نفسها وهي توزع بضاعتها بمهارة فتهمس :

ـــ خذ هذه ... وهذه أيضاً .

16

وفي المساء ، بينما كانت تتناول الشاي ، تعالى ، تحت النافذة ، وقع حوافر ، حوافر جواد تخب في الوحل ، وسمعت صوتاً تعرفه ، وبوثبة واحدة تخطت المطبخ إلى الباب ؛ فإذا بها ترى شخصاً يجتاز الباحة بخطى واسعة ؛ فيزوغ بصرها ، وتدفع الباب برجلها وهي تستند إلى حاجز السلم .

وقال الصوت الذي تعرفه جيداً :

ـــ طبت مساءً أيتها الأم الصغيرة .

واستقرت على كتفها يدان طويلتان خشنتان .

واجتاحتها مرارة الأمل الخائب ، وفرحة اللقيا ، لقيا أندريه ، وامتزج الاحساسان المتفجران في إحساس واحد ، إحساس عميق لاهب ملأها بموجته العارمة ، وعصف بها فألقاها على صدر أندريه .

وضمها أندريه بذراعيه الراعشين ، وكانت تبكي بصمت دون أن تتفوه بكلمة وكان أندريه يداعب شعرها ، ويقول لها بصوت غريّد :

ـــ لا تبكي أيتها الأم الصغيرة ، ولا تنهكي قلبك . أقسم لك أنهم سيطلقون سراحه قريباً ، فهم لا يملكون ضده أي دليل ، لأن الشبان التزموا الصمت جميعاً كالأسماك المشوية .

وقادها إلى الحجرة وهو يغمر كتفيها بذراعه ، وراحت وهي تلتصق به ، تمسح الدموع عن وجهها بحذر السنجاب ، وبدا وجودها المتعطش لسماع ما سيقول ، بدا هذا الوجود كله معلقاً بشفتيه .

ــ إن بول يعانقك ؛ وهو بصحة جيدة وعلى أحسن ما يكون نشاطاً ؛ ولا شيء يشكو منه إلا ضيق السجن ، فلقد أوقف عدد من الناس يفوق المئة ، من هنا ومن المدينة ، ولذلك يقيم في الغرفة الواحدة ثلاثة أو أربعة . ولا مجال للتشكي من إدارة السجن فالقوم هناك ليسوا أشراراً ، ولكنهم مرهقون بالعمل ، العمل الذي أغرقهم به حتى الآذان رجال الدرك الشياطين ؛ وهم ليسوا ، في مطلق الأحوال ، قساة القلوب ، بل أنهم يرددون دائماً : « الهدوء أيها السادة ، الهدوء . لا تخلقوا لنا المتاعب » ، وهكذا تسير الأمور على أحسن وجه .

أما السجناء فإنهم يثرثرون ، ويتبادلون الكتب ويتقاسمون العام ، والسجن سجن جيد ، صحيح أنه قديم البناء ، مسرف في القدم ، ولكنه رغم ذلك لطيف ، لا يصاب المرء فيه بالصفراء . ورجال السلطة العامة قومٌ طيبون يساعدوننا كثيراً . لقد أطلق سراحي أنا ، وسراح بوكين وأربعة آخرين ، وسيطلق سراح بول عما قريب ، وهذا أمر أكثر من أكيد ... أما فيسوشيكوف فسيطول أمد اعتقاله : إنهم غاضبون عليه وهو يوسعهم سباً بلا هوادة .ورجال الدرك لا يطيقون رؤيته ، وربما أحيل إلى المحاكمة أو إلى الجلد ... ويحاول بول أن يهدئه فيقول له : « استكن يا نيقولا ، فإنهم لن يكونوا أفضل مما هم ، إذا صرخت في وجوههم ، ولكن نيقولا يخور : « سأبقر بطونهم كالأرانب » ... أما بول فيظل هادئاً متزناً ، وإني لأؤكد أنهم سيطلقون سراحه عما قريب .

ورددت الأم باسمة مطمئنة :

ــ نعم ... عما قريب ، أنا أعلم ذلك ، عما قريب .

ــ حسناً ... ما دمت تعرفين ذلك ، فصبي لي قدحاً من الشاي وحدثيني عن الحال .

وكان يرنو إليها متهلل الوجه ، وقد التمع في عينيه لهبٌ ودود يخالطه حزن خفيف .

وقالت الأم ، وهي تطلق زفرة عميقة ، وتتأمل وجهه النحيل الذي يثير السخرية بما أنبت فيه من أجمات الشعر القاتم :

ــ يا صغيري أندريه ... إني أحبك حباً جماً .

وردّ البيوروسي وهو يتأرجح فوق كرسيه :

ــ إن القليل منه يكفيني ؛ فأنا أعلم انك تحبينني ، وانك تستطيعين أن تحبي العالم كله ، لأن لك قلباً كبيراً ...

وأصرت : ــ لا ... إني أحبك بصورة خاصة ، فلو كانت لك أم لغبطها الناس لأن لها إبناً مثلك .

وقال بهمس : ــ وأنا أيضاً لي أم في ناحية ما من الأرض .

وهتفت : ــ هل عرفت ما فعلته اليوم ؟

وقصت عليه بحرارة ، ولسانها يتعثر من الغبطة ، كيف أدخلت المنشورات إلى العمل وزوّقت القصة بعض التزويق .

وجحظت عيناه دهشة ، ثم انفجر ضاحكاً ، هازاً فخذيه ، ولطم رأسه بيده وصاح يملأه الفرح :

ــ أوه ، أوه ... ولكن هذا ليس مزاحاً إنه عمل جدي سيسُر به بول أليس كذلك ؟ هذا جميل أيتها الأم الصغيرة بالنسبة لبول ، وللجميع .

وكان يفرقع بأصابعه جذلًا ، ويتأرجح في مقعده ويصفر ، وكانت فرحته المتفجرة الغامرة توقظ فيها رجعاً قوياً .

وعادت إلى الكلام كأنما قد فتح قلبها على مصراعيه وانبجس منه كينبوع طروب ، فيض من الألفاظ المعبرة عن تلك الغبطة الهادئة التي تفعمها .

ــ يا إلهي ... لقد تأملت حياتي ، وتساءلت ... لماذا عشت ؟ عشت للضرب ... والعمل ... وكنت لا أرى أحداً سوى زوجي ؛ ولا أعرف شيئاً سوى الخوف . وحتى أنني لا أدري كيف نشأ بول . هل

أحببته عندما كان زوجي حياً ؟ لا أدري . لقد كان همي كله ، وأفكاري كلها تدور حول أمر واحد هو أن أطعم ذلك الوحش الضاري ، ليشعر بالاكتفاء والشبع ، وأن أضع نفسي في خدمته في الوقت المناسب ، كيلا يستشيط غضباً ، ويشبعني ضرباً ؛ أو على الأقل ، لكي يوفرني من الضرب هذه المرة . ولا أذكر أنه فعل ذلك أبداً . لقد كان يضربني بضراوة ، حتى لأحسب أنه كان لا يضربني أنا بالذات ، بل يضرب في كل أولئك الذين يكرههم . ولقد عشت عشرين عاماً على هذه الوتيرة ، ولا أعرف شيئاً مما حدث قبل زواجي ، وقد تعاودني الذكرى ، ولكنني لا ألبث أن أصبح كالعمياء ، لا أرى شيئاً أبداً .

لقد كان إيغور إيفانوفيتش ، وهو ابن قريتي ، كان هناك ، وكان يتحدث عن هذا أو ذاك . أما أنا فأذكر بيوتاً وناساً ... أما كيف كان يعيش هؤلاء الناس ، وماذا كانوا يقولون ؟ وماذا حل بهم ؟ فذلك ما لا أذكره ، وإنما أذكر بعض الحرائق ، بل اثنتين منها . لقد أفلت مني كل شيء وباتت نفسي مغلقة كمنزل مهجور . إنها عمياء صماء .

وتنفست الصعداء وتنشقت الهواء بنهم كسمكة خرجت من الماء ، وانحنت ثم تابعت بصوت أشد خفوتاً :

ـــ عندما قضى زوجي نحبه تعلقت بإبني . أما هو فقد أخذ يهتم بهذه الأمور التي ، تعرفها ، وكنت أنظر إلى تصرفه بعين غير راضية ، وكنت في الوقت نفسه أشفق عليه ؛ وأسائل نفسي : كيف أعيش وحيدة إذا هلك لا سمح الله ؟ أية كآبة كنت أستشعرها وأي قلق ؛ لقد كان قلبي يتمزق كلما فكرت بالمصير الذي ينتظره .

وصمتت وهزّت رأسها بهدوء ثم أردفت بلهجة متزنة :

ـــ ليس حبنا نحن النساء حباً صافياً ، فنحن نحب ما نشعر إننا بحاجة إلى حبه . خذ على ذلك مثلاً . أنت الذي تعيش معذباً بعيداً عن أمك ما حاجتك إليها ؟ وكل أولئك الذين يتعذبون من أجل الشعب ، والذين يذهبون إلى السجن أو إلى سيبيريا ، أو يموتون ،

وتلك الفتيات اللاتي ينطلقن وحدهن في الليل ، في الوحل ، وتحت الثلج والمطر ، واللاتي يقطعن سبعة كيلومترات ليأتين إلينا ... هؤلاء جميعاً من يدفعهم ؟ من يستحثهم ؟... إنهم يحبون فحسب ، وهذا هو الحب الصافي . إنهم يعتقدون . أنهم يؤمنون يا أندريه .. أما أنا فلا أعرف حباً كهذا ، إنني أحب ما في ذاتي ، وكل ما يتعلق بي .

وقال البيوروسي الذي كان يفرك كعادته وبعصبية ، رأسه ووجنتيه وعينيه ، قال لها دون أن يرفع إليها بصره :

ـــ إنك تستطيعين أيضاً . فنحن جميعاً نحب ما هو أقرب إلينا ، ولكن ما هو بعيد يغدو بالنسبة للقلب الكبير ... قريباً . إنك تستطيعين أن تحبي حباً عظيماً لأن قلبك كأم .....

وقاطعته هامسة : ـــ إن شاء الله . أنا أحس هذا الحب بكل تأكيد ، أحسه جيداً ، وأن الحياة لجميلة معه . إسمع . إنني أحبك ، وربما كنت أحبك أكثر مما أحب بول . إنه منطو على نفسه . تصور أنه يود أن يتزوج من ساندرين ، وأنه لم يحدثني عن ذلك أبداً ؛ لم يحدثني أنا ... أمه ...

ـــ ليس هذا صحيحاً . أنا أعلم ذلك . أما الصحيح فهو أنه يحبها وهي تحبه ، ولكن غاية هذا الحب ليست الزواج ؛ إنها تتمنى ذلك ، ولكن بول لا يبغيه .

وقالت الأم بشرود ، وبصرها الحزين يتعلق بأندريه :

ـــ إذاً فالأمر هكذا ؟ إن الناس يتنكرون لذواتهم .

وأجاب أندريه بصوت خفيض :

ـــ إن بول رجل فذ ... إنه من حديد .

وتابعت هي بلهجتها الحزينة : ـــ والآن ... هو ذا في السجن . وذلك أمر مريع مخيف ، يختلف عن ذي قبل . إن الحياة لم تعد هي نفسها ، وكذلك الخوف ، وكلاهما يرعبانني .

وقلبي ... هو الآن غيره بالأمس . لقد فتحت نفسي عينها وتطلعت ، فإذا الحزن فيها يمتزج بالغبطة . إني أدرك قليلًا من الأمور ،

وانه لشديدٌ عليّ ألا تؤمنوا بالله . هذا هو الواقع ، ولست أستطيع حياله أن أفعل شيئاً ، ولكنني ، مع ذلك أرى أنكم قومٌ طيبون .. وأنكم نذرتم أنفسكم لحياة قاسية في سبيل الشعب ، نعم ... لحياة قاسية في سبيل الحقيقة .

لقد أدركت أنا أيضاً تلك الحقيقة التي تنشدونها ، ما دام هناك أغنياء فسيظل الشعب معدماً لا يعرف العدالة ولا الفرحة ، ولا أي شيء آخر . إني أعيش بينكم ، وفي كل ليلة أتذكر حياتي الغابرة أكثر من مرة ، وأتذكر قوتي التي سحقتها الأقدام ، وقلبي الفتيّ الممرغ ، فأشفق على نفسي ، وهذا أمر شديد المرارة ؛ ومع ذلك فإن الحياة أصبحت بالنسبة لي أفضل من ذي قبل ، وأنا أرى نفسي بوضوح يوماً عن يوم .

ونهض البيوروسي ، وراح يذرع أرض الغرفة بقامته الفارعة الهزيلة ، جاهداً ألا يجر قدميه جراً :

ـــ إن ما قلته حسن ، حسن ... ولقد كان في « كيرتش » شاب ينظم الأشعار ، فكتب يوماً هذين البيتين :

... والأبـــريـــاء الذيـــنن أعدمـــوا ،

ستبعثهم من رمؤسهم قوة الحقيقة ...

وقتله البوليس ، هو نفسه ، في « كيرتش » ، ولكن ذلك لا أهمية له ، بل المهم أنه كان يعرف الحقيقة ، وأنه بذرها بين الناس ، وأنتِ أيضاً ، كما ترين ، مخلوق بريء حكم بالموت ...

وقاطعته الأم : لقد جاء دوري ـــ .... إني أتكلم ، وأصغي ، ولا أصدق أذنيّ .

لم أفكر قط في حياتي إلا بأمر واحد ، هو أن أعبر مع النهار منسية ، لا يراني أحد ، قانعة فقط بالسلامة . أما الآن فأنا أفكر فيكم جميعاً . أنا لا أفهم تمام الفهم تصرفاتكم ، ولكني أحسكم جميعاً قريبين مني . أشفق على الناس جميعاً ، وأتمنى لهم الخير جميعاً ، وبصورة خاصة ، لك أنت يا عزيزي أندريه .

ودنا منها وقال :
ــ شكراً .
وأخذ يدها بين يديه ، وشدها بحرارة وطواها ثم استدار عنها سريعاً . وأرهق الانفعال الأم ، فراحت تغسل آنية المطبخ متباطئة . وكانت تلتزم الصمت ، ويدفىء قلبها شعور البأس والبسالة .
وقال لها البيوروسي :
ــ إسمعي أيتها الأم الصغيرة . عليك أن تدللي ، في يوم من الأيام ، فيسوشيكوف بعض الدلال ... لأن أباه ، هو أيضاً في السجن . ويااله من شيخ قميء مقرف ؛ إذا رآه نيقولا من نافذته شتمه ، وليس هذا بلائق . إن نيقولا رجل طيب ، يحب الكلاب والفيران والمخلوقات كلها ، ولكنه لا يحب الناس .. آه ... لشد ما يمكن أن يُفسد إنسان .
وقالت بيلاجي وهي مطرقة :
ــ لقد اختفت أمه ، وأباه لص سكير ...
وعندما مضى أندريه لينام باركته الأم دون أن يلحظ ذلك ، وكان قد مضى عليه وهو في سريره نحو نصف ساعة عندما سألته برقة :
ــ إنك لم تنم بعد يا أندريه .
ــ لا ... ولماذا ؟
طابت ليلتك .
وأجابها ممتناً : ــ شكراً أيتها الأم الصغيرة . شكراً .

17

وفي الغد عندما بلغت بيلاجي باب المعمل مثقلة بحملها أوقفها الحرس بخشونة وأمروها بأن تضع طناجرها في الأرض ، ثم فتشوها بدقة .
واحتجت بهدوء فيما كانوا يتحرون ثوبها دونما خجل :
ــ سيبرد طعامي بسببكم .

وأجابها أحدهم بصوت كريه : — إخرسي .
وقال لها الآخر بثقة وهو يدفعها بكتفها دفعاً رفيقاً :
— وإذا لم تصمتي فسيلقى طعامك كله في السياج .
وكان أول من اقترب منها سيزوف العجوز . لقد تلفت حواليه بحذر ، وسألها بصوتٍ خافت :
— هل سمعتِ ما يقال أيتها الأم ؟
— وماذا يقال ؟
— لقد عادت المناشير إلى الظهور . لقد نثرت في كل مكان . كالملح في الخبز . وبدأت الاعتقالات ، والتحريات . لقد زجوا بحفيدي مازين في السجن ، واعتقلوا ابنك ، ثم ظهر بصورة أكيدة أنهما ليسا هما اللذين يوزعانها ... لقد ظهر ذلك جلياً الآن .
وجمع لحيته في قبضته ، ورنا إلى بيلاجي وقال وهو ينأى عنها :
— عرجي على بيتنا ... فأنت وحيدة ، وهذا ما يبعث السأم .. أليس كذلك ؟
وشكرته . وكانت وهي تعلن عن بضاعتها تراقب بعين يقظة ، الاضطراب غير العادي الذي يسيطر على المعمل . لقد كان العمال جميعاً كأنهم في هياج ؛ يتجمعون في زمر لا تلبث أن تتفرق ، وينتقلون من ورشة إلى أخرى ، وكنت تتنسم في الهواء المثقل بالهباب نفحة استبسال وجرأة . وكانت تتصاعد من هنا وهناك صيحات تحريض ، وهتافات ساخرة وكان العمال المتقدمون في السن يكتفون بالابتسام ، والمناظرون يروحون ويجيئون ، والقلق بادٍ في ملامحهم ، ورجال البوليس يتراكضون فيتفرق العمال ببطء حين يرونهم ، أو يكفون عن الحديث دون أن يتحركوا من أماكنهم ، ويرنون إلى وجوههم الكريهة الحانقة بصمت .
وكان العمال يبدون كمن استحم في النضارة ، وكان الشبح الشامخ ، شبح « عوسيف » البكر يظهر هنا وهناك ، يتبعه أخوه الأصغر كظله ، ويقهقه بصوت داوٍ .

ومرّ النجار « فافيلوف » والثقّاب إيساي ، بالقرب من الأم على مهل ، وكان إيساي ، وهو رجل صغير هزيل ، شامخ الرأس ، يميل بعنقه إلى اليسار ، ويرنو إلى النجار المنتفخ الوجه ، الذي تبدو عليه اللامبالاة ، ويحدثه بحرارة ولحيته تهتز :

ـــ أنظر يا إيفان إيفانوفيتش . إنهم يقهقهون . إنهم مغتبطون رغم أن تصرفهم كما قال حضرة المدير ، يؤدي إلى خراب الدولة . إنه لا يجب هنا ، يا إيفان إيفانوفيتش تنقية التربة من النباتات الطفيلية فحسب ، بل يجب حرثها .

وكان فافيلوف يسير ، ويداه مشبكتان وراء ظهره ، وأصابعه تتشنج وكان يقول بصوت مرتفع :

ـــ قل ما شئت يا ابن الكلبة ، ولكن لا تحاول أن تأتي على ذكري

واقترب غوسيف من الأم :

ـــ لقد جئت لأتناول طعامي عندك ... لأن « بضاعتك » جيدة .

ثم أضاف وهو يخفض صوته ويغمز بعينه :

ـــ لقد كانت ضربتك محكمة أيتها الأم ... هذا عظيم .

وأومأت إليه بيلاجي برأسها إيماءة ود ، وكان يسره هو أن يرى ذلك الفتى ، الذي يُعد أكثر شبان الضاحية مزاحاً ، وأن يتحدث إليه سراً ، مخاطباً إياه باحترام . وكانت هي سعيدة ، بهذا الهيجان الشامل وتحدث نفسها :

ـــ من الأكيد إني لو لم أكن هناك ...

وتوقف ثلاثة جنود على مقربة منها ، وقال أحدهم بصوت خفيض ولهجة متحسرة !

ـــ لم أعثر على واحد من المنشورات .

ـــ ينبغي أن يقرأ المنشور بصوت عالٍ . صحيح إني لا أعرف القراءة ولكنني أرى جيداً أنهم تلقوا ضربة في الضلوع ...

وتلفت الثالث حواليه واقترح :

ـــ هيا بنا إلى غرفة الوقود .

وتمتم غوسيف غامزاً :

ـــ لقد بدأت النتائج تظهر ...

... وعادت بيلاجي إلى منزلها شديدة الابتهاج .

وقالت لأندريه : إنهم يتحسرون لأنهم لا يعرفون القراءة ... أما أنا فقد كنت أعرفها عندما كنت صغيرة ... ولكنني نسيتها .

ـــ يجب أن تتعلميها من جديد .

ـــ وفي سن مثل سني ؟ علامَ تريدني أن أثير ضحك الناس عليّ ؟

ولكن أندريه تناول كتاباً عن الرف ، وأشار إلى حرف من حروف الغلاف برأس سكينه وسألها : ـــ أي حرف هو هذا ؟

فأجابت ضاحكة : ـــ إنه حرف الراء .

ـــ وهذا ؟

ـــ حرف الألف .

وكانت مضطربة منفعلة . فلقد توهمت أن عيني أندريه تضحكان منها وتسخران ، وكانت تتحاشى نظراتهما ، ولكن صوته كان يرن عذباً صافياً ، ووجهه يبدو متزناً جاداً ، فسألته ببسمة مكبوتة :

ـــ أمن الممكن يا أندريه انك تفكر حقاً في تعليمي ؟

ـــ ولِمَ لا ، ما دمت تعرفين القراءة ؛ فإنك ستتذكرين بسهولة ، ولقد قال المثل : « إذا لم تكن هناك معجزة فيا للخسارة .. وإذا كانت ... فذلك أحسن . » كما قال أيضاً : « إنك لا تصبح قديساً بمجرد التطلع إلى الايقونيات » .

ثم أردف وهو يهز رأسه :

ـــ أجل ... إن الأمثال لا تغفل شيئاً ، فلقد قيل : « إذا عرفنا قليلًا نمنا هنيئاً » .فهل هذا صحيح ؟ إن المعدة هي التي تفكر بالأمثال ؛ إنها تحبك منها لجاماً للنفس ، لتمسك بزمامها جيداً ... وهذا الحرف ما هو ؟

وكانت الأم تجهد نفسها ، مسترخية النظرة مقطبة الحاجب ، لتتذكر الأحرف المنسية وكانت وقد استغرقتها هذه الغاية ، تنسى الأحرف الباقية . وبدت عيناها منهكتين ، وظهرت فيهما أولًا دموع الإجهاد ، ثم غزرت فيهما دموع الأسى .

وقالت وهي تنفجر منتحبة :

ـــ أنا أتعلم الأبجدية . أتعلم القراءة في سن الأربعين .

وقال أندريه بصوت خفيض ملاطف :

ـــ يجب ألا تبكي ، فأنت لا تستطيعين العيش إلا كذلك ؛ ومع هذا فأنت تدركين الآن أن الناس يعيشون حياة منكودة . إن هناك آلافاً منهم يستطيعون أن يحيوا حياة أفضل من حياتك ، ولكنهم يعيشون كالحيوانات ، وهم مع ذلك ، يعتزون بحياتهم تلك . فأي خير يتحقق في وجود هؤلاء ؟ إنهم اليوم يعملون ويأكلون ، وسيفعلون ذلك في الغد ، وسيظل الأمر هو نفسه طوال حياتهم : عمل وأكل . وفي خلال ذلك ينفحون الدنيا أطفالًا يكونون في بادىء الأمر مصدراً لسلواهم ، ولكن عندما يبدأ هؤلاء في الأكل كثيراً ، يحنق الأهل ، ويسيئون معاملتهم : « هيا ، أيها الشرهون ، انموا سريعاً . يجب أن تشتغلوا » . إنهم يودون أن يجعلوا من صغارهم بقرة حلوباً ، ولكن هؤلاء يكدحون بدورهم من أجل بطونهم ؛ ويحيون بدورهم ، حياة بائسة ، كحياة المحكوم بالاعدام وهو في أغلاله . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يحطمون قيود العقل البشري ، وأنتِ الآن ، أيتها الأم ، تتصدين ، على قدر طاقتك ، لمثل هذه المهمة .

وزفرت الأم : ـــ لا تحدثني عن نفسي ، فماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟

ـــ ولِمَ ذلك ؟ إن كل قطرة من المطر تروي بذرة . إنك عندما تستطيعين القراءة ....

... وراح يضحك ، ثم نهض ، وأخذ يذرع الغرفة طولًا وعرضاً :

ـــ أجل ستتعلمين ... وعندما يعود بول ... أليس كذلك ؟

وردت عليه :
ـــ آه يا أندريه . عندما يكون المرء شاباً يسهل عليه كل شيء ... ولكنه يغدو كلما تقدم في السن ، غنياً بالأحزان ، فقيراً بالقوى ، وبالعقل ... ثم لا يعود يملك شيئاً ...

18

وفي المساء خرج أندريه من المنزل ، وأشعلت بيلاجي المصباح ، وجلست قرب الطاولة تنسج جورباً ؛ ولكنها ما غنمت أن نهضت ، وسارت بضع خطوات حيرى ، وانطلقت نحو المطبخ ، ثم أحكمت إقفال الباب وعادت إلى الغرفة وقد ارتسم على جبينها تغضن قلق .

وأسدلت الستائر ، ثم أخذت كتاباً كان على الرف ، واقتعدت من جديد ، مكانها من الطاولة ، وسرحت ببصرها في أرجاء الغرفة ، وانكبت على الصفحات ، وراحت شفتاها تتحركان . وكانت عندما تترامى إلى سمعها جلبة في الشارع ، تطبق الكتاب وتصغي بانتباه شديد ؛ ثم لا تلبث أن تعود من جديد ، فتفتح عينيها تارة ، وتغمضهما تارة أخرى ، وتغمغم :

« ا ... ر ... ضـ ... ـنا »

وطرق الباب فوثبت على عجل ، وألقت الكتاب على الرف وسألت مختنقة :

ـــ من الطارق ؟

ـــ أنا .

ودخل ريبين ، فمسد لحيته بزهو وقال :

ـــ لقد كنت قبلًا تسمحين بالدخول دون أن تسألي من الطارق ؟ هل أنت وحدك ؟... لقد كنت أعتقد أن البيوروسي هنا ، فلقد رأيته اليوم ... إن السجن لا يفسد الرجال .

وجلس .

ــ حسناً .. لنتحدث قليلًا .

وكان على ملامحه مسحة جد ، وسر خفي بعثا في قلبها رعباً غامضاً .

ورن صوته المتزن :

ــ كل شيء يكلف مالًا ، فلا شيء يتم بدون بذل ، لا الحياة ولا الممات ، وهكذا النشرات فإنها تكلف مالًا ... فهل تعرفين من أين يأتي المال الذي يغطي نفقاتها ؟

وأجابت بيلاجي بهدوء وهي تتوقع خطراً :

ــ لا أدري .

ــ وأنا أيضاً لا أدري شيئاً من ذلك ... أفهل تدرين أيضاً من يكتبها ؟

ــ إنهم فئة من العلماء ...

وقال ريبين ، ووجهه الملتحي يستطيل ويتضرّج :

ــ إنهم سادة . أجل . إنهم سادة إذن أولئك الذين يصوغونها ويوزعونها ، وفي هذه النشرات يهاجم السادة ، فقولي لي الآن ... أية فائدة يجنونها من بذل المال لاثارة الشعب ضد أنفسهم ؟

وارتعشت أجفان الأم ، وصرخت بهلع :

ــ ماذا تتخيل؟

وقال ريبين وهو يتململ فوق مقعده بتثاقل الدب :

ــ وأنا أيضاً شعرت بالبرد عندما توصلت إلى هذه الفكرة .

ــ هل توصلت إلى معرفة شيء ما ؟

ــ أشم رائحة الخديعة . أنا لا أعرف شيئاً ولكنني موقن أنها خديعة . إني أحتاج إلى معرفة الحقيقة ، وقد عرفتها . لن أتعاون مع هؤلاء السادة فهم إذا ما احتاجوا إليّ دفعوني إلى الأمام لتكون عظامي الجسر الذي يعبرونه إلى أبعد من ذلك .

وكانت كلماته القائمة كأنها إنما تهصر قلب الأم ، فصرخت وقد تملكها الضيق :

ــ يا سيد ... أمن الممكن ألا يدرك بول ذلك ؟ وأولئك الذين ....

... وأخذت الوجوه النبيلة الصارمة ، وجوه إيغور ونيقولا إيفانوفيتش وساندرين تنتصب أمامها ، فيتفطر قلبها ، وتتابع وهي تهز رأسها بالنفي :

ــ كلا ، كلا ... أنا لا أستطيع أن أصدق . إنهم يعملون بوحي ضمائرهم ؟

ــ عمن تتحدثين ؟

ــ عنهم جميعاً . عن كل أولئك الذين رأيتهم بلا استثناء .

وأطرق ريبين وقال :

ــ يجب أن ينطلق بصرك إلى أبعد ، أيتها الأم ، فقد لا يكون أولئك الذين يترددون إلى هنا ، والذين كنا نراهم عن كثب ، قد لا يكونون هم أنفسهم على علم بشيء . إن هؤلاء يؤمنون ، وهذا ما يجب أن يكون ، ولكن ربما كان وراءهم آخرون لا ينشدون إلا المصلحة ... إن المرء لا يندفع ضد مصلحته إلا بثمن .

ثم أضاف بإيمان عنيد ، إيمان قروي :

ــ لا خيراً يُرتجى من هؤلاء السادة .

وسألته الأم وقد وقعت من جديد فريسةً للشك :

ــ وماذا قررت ؟

وتأملها ، وصمت لحظة ثم قال :

ــ أنا ؟ يجب ألا أستمر في التعاون مع هؤلاء السادة ... هذا هو ما قررته .

ثم صمت من جديد ، وهو متجهم الأسارير .

ــ لقد أردت أن أضع نفسي أنا وفتيانك ، للعمل معهم ، وإني لأصلح لهذه المهمة ، وأعرف ماذا يجب أن يُقال للناس ... أما الآن فسأرحل . أنا لا أستطيع أن أثق بهم ، وعليّ أن أذهب .

وطأطأ رأسه ، يفكر :

ــ سأنطلق وحدي في القرى والدساكر ، سأوقظ الشعب ، إذ على الشعب أن يأخذ مكانه في النضال . وإذا أدرك ذلك فإنه لن يضل الطريق أبداً . وسأبذل جهدي لكي يدرك بأنه لا أمل له إلا بنفسه ، والا منطق إلا منطقه ... هذا هو الواقع .

وداخل الأم إشفاق عليه وخوف ، ولم تك من قبل تشعر نحوه بأي تعاطف ، ولكنه أصبح فجأة قريباً من نفسها ؛ فقالت له برقة :

ــ سوف يقبضون عليك .

فرنا إليها وأجاب بهدوء :

ــ سيقبضون عليّ ثم يطلقون سراحي فأعيد الكرة .

ــ إن الفلاحين أنفسهم سيوثقون يديك ، وستُزج في السجن .

ــ إذا زججت في السجن فإني سأخرج منه ، وسأعود للعمل . أما الفلاحون فإنهم سيوثقون يديّ مرة ومرتين ، ثم ينتهون إلى الاعتقاد بأنه يجب الإصغاء إليّ لا القبض عليّ ، وسأقول لهم : « لا تصدقوني ولكن إصغوا إليّ فقط ... وإذا أصغوا إليّ فإنهم سيصدقوني » .

وكان يتكلم ببطء كأنه يتحسس كل كلمة قبل أن يلفظها :

ــ لقد مررت ، في الزمن الأخير هذا ، بتجارب كثيرة ، وأدركت كثيراً من الأمور ...

وقالت بيلاجي وهي تهز رأسها بأسى :

ــ سوف تهلك يا ميشال .

فركز عليها عينيه السوداوين العميقتين اللتين كانتا تبدوان كأنهما تنتظران جواباً . وكان جسمه القوي يميل إلى الأمام ، ويداه تستندان إلى متكأ المقعد ، ووجهه البرونزي يبدو شاحباً في إطار لحيته السوداء .

ــ أنت تعرفين ما قاله يسوع عن حبة القمح : « ينبغي أن تموت لتبعث في سنبلة جديدة » وما زال لديّ متسع من الوقت ... قبل أن أموت ... وإني لا مرؤ ذو حيلة ...

وتململ في مقعده ثم نهض متباطئاً :

ــ أنا ذاهب إلى الفندق ، وسأمكث هناك ، بعض الوقت . يظهر أن البيوروسي لن يحضر ، فهل تراه إنهمك في العمل من جديد ؟

وأجابت الأم باسمة :

ــ نعم .

ــ هذا ما يجب . أعيدي عليه ما قلته لك .

واجتازا المطبخ بتثاقل ، وتبادلا بعض العبارات دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر :

ــ والآن ، وداعاً .

ــ لقد قضي الأمر .

ــ ومتي ترحل ؟

ــ غداً ، في الصباح الباكر . وداعاً .

وسار ريبين محني الظهر واجتاز الردهة كالمكره ، وظلت الأم على العتبة لحظة تصيخ بسمعها إلى الخطى الثقيلة ، وإلى الشكوك التي استيقظت في قلبها ؛ ثم ارتدت دونما جلبة إلى الغرفة ، ورفعت طرفاً من أطراف الستارة ، وتطلعت من النافذة . لقد كانت الظلمات الكثيفة وراء الزجاج جامدة لا تتحرك .

وقالت في نفسها :

ــ إنه الليل .

وكانت تشفق على هذا القروي النير التفكير ، وكان هو واسع الصدر شديد البأس .

... وأقبل إندريه بادي النشاط والمرح .

وعندما حدثته عن زيارة ريبين صاح :

ــ حسناً ، لينطلق في القرى ، يبشر بالحقيقة ويوقظ الشعب . إنه لا يشعر بالراحة معنا ؛ فلقد نبتت في رأسه أفكاره القروية ، ولم يبق في هذا الرأس مكان لأفكارنا .

وقالت بغبطة :

ـــ إن ما قاله عن السادة يدل على أن هناك أمرا مبيتاً ... فضلًا عن أنهم يخدعوننا .

وصاح البيورروسي ضاحكاً :

ـــ هل يزعجك هذا ؟ آه ... المال ... ليتنا نملك المال أيتها الأم الصغيرة ؛ فنحن ما زلنا نعيش حتى الآن بمال الآخرين : خذي مثلًا نيقولا إيفانوفيتش . إنه يقبض خمسة وسبعين روبلًا في الشهر يدفع لنا منها خمسين . والآخرون كذلك . وهناك طلابٌ جياع يبعثون إلينا ، أكثر الأحيان ، ببعض المال الذي يجمعونه فلساً فلساً . إن السادة بلا شك على أنواع : بعضهم يخدع ، والبعض الآخر في المقدمة ، أما أفضلهم فإنهم معنا .

وفرك يديه وتابع بقوة :

ـــ إن نصرنا ليس للغد ، ولكننا سنعد بانتظار أول أيار ، عيداً « صغيراً » طيباً ، وسيكون هذا العيد بهيجاً .

وطردت حماسته الكآبة التي زرعها ريبين في نفسها ، وكان يختال في الغرفة وهو يمسح شعره بيده ، ويقول ، وعيناه مسمرتان في الأرض :

ـــ أني أحس أحياناً تفجر حياة عجيبة في قلبي ، ويخيل إليّ أن المرء يلقى أصدقاءً أنّى ذهب ، أصدقاء يدفعهم جميعاً نفس اللهب ، أصدقاء طيبين ، مرحين ، يتفاهمون دونما كلام ، ويعيشون في إنسجام رائع ، ويغني كل قلب أنشودته ، وتسيل هذه الأناشيد كلها كالجداول ، وتصب في نهر واحد يندفع عريضاً ، حراً ، نحو البحر ، بحر الهناءات الصافية ، هناءات الحياة الجديدة .

وكانت بيلاجي تجهد نفسها في ألا تأتي بأية حركة كيلا تقطع عليه حديثه . لقد كانت تصغي إليه دائماً أكثر مما تصغي للآخرين ، وكان يتحدث ببساطة أكثر ، فتمس كلماته القلب بقوة . كان بول لا يقول أبداً كيف يرى المستقبل ، في حين أن المستقبل كان في نظر أندريه كشطر من قلبه ؛ وكان يخيل إليها وهي تستمع إلى خطبه أنها تصغي إلى حكاية حلوة ، حكاية العيد العظيم الذي سيشرق على

الناس جميعاً ، وكانت هذه الحكاية تلقي الضوء ، بنظرها ، على اتجاه حياة إبنها وعمله ، هو ورفاقه .

وتابع البيوروسي وهو يهز رأسه :

ــ وعندما نعود إلى الواقع ، عندما نتلفت جولنا نجد كل شيء بارداً ، موحلاً ، والناس هلكى محنقين .

ثم تابع بحزن عميق :

ــ إن هذا لمهين ؛ ولكن ينبغي أن نحذر الإنسان ، أن نخافه . وحتى أن نكرهه . إن الانسان موزع . وعلينا أن نحب فقط ... فهل هذا ممكن ؟ كيف تغفر لمن ينقض عليك كوحش ضارٍ لا يعترف بأن فيك روحاً تحيا ؛ ويسدد ضربات قبضته إلى وجهك كإنسان ؟ محالٌ أن تغتفر له ذلك ؛ وهذا ليس بالنسبة لي أنا ، فأنا أتحمل الاهانات كلها إذا لم يكن هناك سواي ، ولكنني لا أريد أن أخضع أبداً ، لأولئك الذين يستخدمون القوة ، ولا أريدهم أن يتعلموا ضرب الآخرين على حسابي .

وهنا لمعت عيناه بألقٍ بارد ، فأحنى رأسه بعناد وقال بكثير من الحزم :

ــ يجب ألا أغتفر أي عملٍ سيء ؛ حتى ولو لم يكن يمسني شخصياً ؛ فأنا لست وحدي على الأرض . لنفترض اني استكنت اليوم للإهانة فلم أرد عليها ، وبأني ضحكت منها لأنها لم تجرحني ؛ فإن موجهها الذي اختبر قوته فيّ ، سيعتدي غداً على شخص آخر . من أجل هذا يجب التمييز بين الناس ، ويجب أن يكون المرء ثبت الجنان ، وأن يقول : « هؤلاء إخوتي ، وهؤلاء ليسوا كذلك ، إن هذا الموقف صحيح ولكنه لا يبعث على السرور .

وانطلق تفكير الأم بصورة لا واعية إلى الضابط وساندرين فزفرت :

ــ كيف تصنع الخبز من قمح لم يزرع بعد ؟

فصاح أندريه :

ــ هذه هي المصيبة .

ـــ أجل .

وتراءى لها فجأة شبح زوجها عبوساً ثقيلًا كصخرة ضخمة يغطيها العشب ، وتخيلت البيوروسي وقد تزوج ناتاشا ، وإبنها وقد ربط مصيره بساندرين .

وتابع أندريه مستشاطاً :

ـــ وعن أي شيء ينتج هذا ؟ إنه ناتج فقط ـــ وهذا ما يبدو في الوقت نفسه مضحكاً ـــ ناتج عن أن الناس غير متساوين . لنضع الناس جميعاً في مستوىً واحد ، لنوزع بالتساوي كل ما أبدع العقل وكل ما صنعته الأيدي ، نتحرر من عبودية الخوف والحسد ، وأغلال الطمع والغباوة .

هذه هي الأحاديث التي كانت تدور غالباً بين البيوروسي والأم .

وكان أندريه الذي عاد إلى العمل في المصنع ، يضع أجره كله بين يدي بيلاجي التي كانت تقبض ـــ بكل بساطة ـــ كما تقبض أجر بول .

وكان أندريه يقترح أحياناً بعين ضاحكة :

ـــ لِمَ لا نقرأ قليلًا أيتها الأم الصغيرة ، لِمَ لا نقرأ ؟

وكانت هي ترفض مازحة ، ولكنها ترفض بعناد ، وكانت بسمة أندريه تربكها وتخنقها فتقول :

ـــ أراك تضحك ، فهل في هذا ما يضحك ؟

وكانت تسأله دائماً عن معنى هذه اللفظة أو تلك ، حين يشكل عليها معناها ، تسأله دون أن ترفع إليه بصرها ، وبصوت تحاول أن تشحنه باللامبالاة ؛ وقد استنتج أنها كانت تدرس على نفسها في الخفاء ، وأدرك مبلغ ضيقها فلم يعد يقترح عليها أن تقرأ معه .

وصارحته مرة :

ـــ إن بصري ضعيف يا أندريه . إني بحاجة إلى نظارتين .

ـــ ربما كان ذلك . سنذهب نهار الأحد إلى المدينة ، وسآخذك إلى الطبيب ، وسيكون لك نظارتان .

19

كانت قد طلبت السماح لها بمقابلة بول ثلاث مرات ، وكانت تتلقى ، في كل مرة ، رفضاً « شهماً » من قائد الدرك ، وهو عجوز صغير قرمزي الوجنات ، ضخم الأنف .

ــ سنرى خلال أسبوع يا سيدتي على الأقل ، وليس أقل من ذلك . أما الآن فمستحيل .

وكان مربوع القامة ممتلئاً ، يذكر بحبة خوخ ناضجة طال عليها الأمد في الدكان وعلاها زغب التعفن ؛ وكان ينقب دائماً أسنانه النضيدة البيضاء ، بقطعة صغيرة من الخشب الأصفر المدبب ، وكانت عيناه الصغيرتان المدورتان والخضراوان تبتسمان بحرارة ، وفي صوته جرس محبّب ودود .

وقالت الأم للبيوروسي : ــ إنه عالي التهذيب ، يبتسم أبداً .

ــ أجل . أجل . إنهم في غاية اللطف والبشاشة . يُقال لهم : خذوا . هو ذا رجل ذكي شريف . إنه خطر علينا فاشنقوه ، فيبتسمون ويشنقون الرجل ثم يعودون إلى الابتسام .

ــ لقد كان الضابط الذي قام بالتفتيش عندنا شديد البساطة ، ثم تبين على الأثر أنه كان سافلاً .

ــ هؤلاء ليسوا ببشر . إنهم مطارق لسحق الناس وابتلائهم بالصمم . إنهم آلات تستخدم لتكييفنا نحن أفراد ينفذون ما يؤمرون به دونما تفكير ، ودون أن يسألوا عن الغاية .

... وأخيراً أعطي الإذن لبيلاجي .

وأقبلت يوم الأحد إلى نظارة السجن ، وقبعت متواضعة في إحدى الزوايا ، وكان في الغرفة الضيقة القذرة المنخفضة السقف بضعة أشخاص غيرها ينتظرون موعد الزيارة . ولم تكن هذه ، بلا شك ، هي المرة الأولى التي يأتون بها إلى السجن ، فلقد كانوا يعرفون بعضهم بعضاً ، وكانوا ، يتجاذبون فيما بينهم ، بصوت منخفض متساحب ، حديثاً لحمته الشكوى والهذر ، حديثاً لزجاً كنسيج العنكبوت .

وكانت امرأة بدينة ذاوية الوجه تقول وعلى ركبتيها كيس :

ـــ هل عرفتم ؟ إن كاهن الكنيسة كاد ، هذا الصباح ، وفي القداس الأول ، أن يقتلع أذن صبي من جوقة التراتيل .

وسعل رجل طاعنٌ في السن يرتدي بزة عسكري متقاعد ، سعل بصوتٍ مسموع وقال :

ـــ يا لهم من متشردين ، صبية الجوقة هؤلاء ...

وكان هناك رجل قصيرٌ أصلع ، قصير القائمتين ، طويل الذراعين ، ناتيء الفك يذرع أرض الغرفة وهو بادي الانهماك ، ويقول ، بصوت كئيب، ودون أن يتوقف :

إن غلاء المعيشة يزداد أكثر فأكثر ؛ لذلك صار الناس أكثر فساداً من ذي قبل . إن الليبرة من لحم البقر ، الصنف الثاني ، تساوي أربعة عشر « كوبكاً » ؛ ورغيف الخبز يساوي الآن « كوبكين » ونصفاً .

وكان يدخل الغرفة أحياناً سجناء يرتدون اللباس الأشهب الموحد ، ويغطون أحذيتهم بكواليش ثقيلة من الجلد ، وكانت عيونهم تعشى عندما يدخلون الغرفة المظلمة قليلًا ، وكانت السلاسل تثقل رجليّ واحد منهم .

وكان كل شيء هادئاً هدوءاً عجيباً ، وبسيطاً لدرجة تثير القرف ، حتى ليحسب المرء أن هؤلاء الناس قد ألفوا هذا الجو منذ أمدٍ بعيد . لقد كان بعضهم يجلي بهدوء ، والآخرون يتسلقون السلم بفتور ، وآخرون أيضاً يقبلون لزيارة السجناء متأنقين مستسلمين . وكان قلب الأم يرتعش ضيقاً ، وكانت ترنو قلقة إلى كل ما يحيط بها ، فتدهشها تلك البساطة الثقيلة الوطأة .

وكانت تجلس إلى جانبها عجوز قصيرة مجعدة الوجه ، إلا أنها ما برحت شابة النظرة ، وكانت تصغي إلى الحديث ، وهي تمد عنقها الهزيل ، وترنو إلى الناس ، وفي نظرتها غرابة التحدي .

وسألتها بيلاجي بلطف :

ـــ من لك هنا ؟
فأجابت العجوز بسرعة وبصوت عال : ـــ إبني ، وهو طالب ...
وأنتِ ؟
ـــ إبني أيضاً ، وهو عامل .
ـــ ما اسمه ؟
ـــ فلاسوف .
ـــ لا أعرفه ... أمنذ وقت طويل هو في السجن ؟
ـــ منذ ستة أسابيع .
ـــ منذ ستة أسابيع .
ـــ أما إبني فهو هنا منذ أكثر من عشرة أشهر .
وخيل لبيلاجي أنها تتميز في صوتها إحساساً لا يوصف ، إحساساً كأنه الزهو .
وكان العجوز الصغير الأصلع يقول بسرعة :
ـــ نعم ، نعم ... لقد نفذ صبر الناس . إنهم جميعاً غاضبون . إنهم يضجون فلقد ارتفع سعر كل شيء ، وأصبح الناس ، بنتيجة ذلك ، أقل قيمة . إننا لا نسمع أصوات المصلحين .
ـــ هذا صحيح كل الصحة . يا للفوضى ، يجب أن يرتفع صوت ليأمر بالصمت ، هذا ما يجب أن يحصل ؛ صوت حازم .
ونشط الحديث واشترك به الحاضرون ، وكان كل واحد منهم يسارع إلى قول كلمته عن مستوى المعيشة ، ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون بصوت منخفض ، وكانت الأم تستشف في حديثهم شيئاً بدا لها غريباً . إن الآخرين يتكلمون في منزلها بشكل آخر . إنهم يتكلمون لغة أكثر بساطة ، ووضوحاً ، وأدنى إلى الفهم .
وناداها حارس ضخم الجثة ، مربع اللحية أشقرها ، وتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها ، ثم راح يحلج أمامها بعد أن قال لها :
ـــ اتبعيني .
وتبعته ، وراودتها رغبة في أن تدفعه من وراء ليسرع خطاه ، وفي

غرفة صغيرة كان بول واقفاً يبتسم ويبسط لها يده . وحضنتها الأم وراحت تضحك . وكانت أجفانها ترتعش ولسانها يبحث عن الكلمات ؛ وأخيراً قالت برفق :

ــ صباح الخير ، صباح الخير .

ــ هدئي من روعك يا أماه فليس هناك ما يدعو إلى الاضطراب ... وشد على يدها بقوة .

وقال الحارس متأوهاً :

ــ تراجعي إلى الوراء أيتها الأم ، لا تقتربي منه كثيراً ، ولتبق بينكما فسحة ...

وتثاءب بصوت مرتفع .

وسألها عن صحتها ، وعن البيت ، وكانت تنتظر أسئلة أخرى ، فراحت تبحث عنها في عينيه ، ولكنها لم تعثر عليها . لقد كان ــ كما هو دائماً ــ هادئاً ، ولكنه أكثر شحوباً ، وكانت عيناه تبدوان أكبر من ذي قبل .

ــ إن ساندرين تقرئك السلام .

وارتعشت أجفانه ورقت ملامحه وابتسم ؛ ووخزت قلب الأم مرارة شديدة فتابعت وهي تشعر بالحنق والمذلة :

ــ هل سيطلقون سراحك قريباً ؟ لماذا سجنوك ما دامت المنشورات قد عادت إلى الظهور ؟

ولمعت عينا بول بألق الغبطة .

ــ عادت من جديد ؟

وأعلن الحارس بلهجة اللامبالي :

ــ الحديث عن هذه الأمور ممنوع هنا . تحدثوا فقط في الشؤون العائلية .

وسألته الأم :

ــ أليس هذا من الشؤون العائلية ؟

فأجابها باستخفاف : لا أدري ... وكل ما أدريه أن هذا ممنوع .

وتدخل بول : ــ حدثيني يا أماه عن العائلة .
واجتاحها شعور ببطولة فتية : ــ لقد حملت ذلك كله إلى المعمل .
ثم توقفت لحظة وتابعت باسمة :
ــ شورباء ، ومجدرة ، وكل ما تطبخه ماريا ... ومأكولات أخرى ...
وفهم بول وعض شفته ليخنق رغبته في القهقهة ، ورد إلى الوراء شعره المنثال ثم قال بصوت مداعب لم تأنسه من قبل :
ــ جميل ... لقد وجدت إذن عملاً فلا تضجرين أبداً !
وردت دونما صلف :
وعندما عادت هذه المناشير إلى الظهور ، عادوا أيضاً إلى تفتيشي .
وصاح الحارس غاضباً :
ــ عدنا إلى الحديث في السياسة ؟ لقد قلت أن هذا ممنوع . يُحرم المرء من الحرية لكيلا يعرف شيئاً . إنك لا تصغين إلى شيء مما أقول يجب أن تفهمي أن هذا ممنوع .
وقال بول :
ــ حسناً ... لا تتكلمي في الموضوع يا أماه ... إن ماثيو إيفانوفيتش رجل طيب ؛ ويجب ألا نثير غضبه . إننا على أتم التفاهم ، وقد جيء به اليوم إلى هنا ، صدفة ، إذ أن نائب المدير هو الذي يشرف عادة على المقابلات .
وأعلن الحارس وهو ينظر إلى ساعته :
ــ لقد إنتهت المقابلة .
واحتضنها بول بحرارة وعانقها ؛ وأسعدها هذا التصرف ، وأثّر فيها فأخذت تبكي . وصاح ماثيو : ــ هيا افترقا .
وقاد الأم وهو يغمغم :
ــ لا تبكي . سيطلقون سراحه . إنهم سيطلقون سراحهم جميعاً إذ لم يبق هنا مكان يتسع لهم .

وعندما عادت إلى المنزل أخبرت أندريه بحماسة وغبطة :
ــ لقد حدثته بلباقة ... وفهم هو ...
ثم زفرت : ــ لقد فهم ، وإلا لما كان عانقني . إنه لم يفعل ذلك في حياته أبداً .
وقال أندريه ضاحكا آه ... هذا جميل منك . إن كل إنسان في هذه الدنيا ينشد شيئاً ما ، والأم تنشد المداعبة دائماً .
وصاحت بدهشة مفاجئة :
ــ عجباً كيف تسيطر العادة على أولئك الذين يترددون على السجن . لقد انتزع أولادهم منهم ، ووضعوا في السجن ، ولم يؤثر ذلك فيهم شيئاً . إنهم يأتون فيجلسون وينتظرون ويثرثرون ... أليس كذلك ؟ فإذا كان المثقفون يتعودون هذا ... فما هو حال الشعب ؟
وأجاب مبتسماً :
ــ هذا أمرٌ طبيعي ، ومع ذلك فإن القانون بالنسبة لهم أخف وطأة مما هو بالنسبة لنا ؛ حتى ولو صفعهم هذا القانون ، فإنهم يسخرون منه ، ولكن ليس إلى حدٍ كبير ؛ لأن الضربة تظل أقل إيلاماً حين يتلقاها المرء من عصاه .

20

وفي إحدى الأمسيات ، بينما كانت الأم جالسة تحيك الجوارب ، وأندريه يقرأ بصوت عالٍ قصة ثورة العبيد الرومان ، طرق الباب بشدة ، ففتح أندريه ، ودخل فيسوشيكوف يتأبط صرة وهو منسرح الشعر على رقبته ، غارق في الوحل حتى ركبتيه ؛ وقال بصوت غريب ، وهو يأخذ يد بيلاجي بيده ويهزها بعنف :
ــ كنت ماراً من هنا فرأيت نوراً في النافذة ، فدخلت لأحييكم . إني خارج تواً من السجن . ان بول يبعث إليكم بتحيته .
ثم تهالك متردداً على أحد المقاعد ، وأجال في الحجرة بصره المتشكك القاتم .

لم يكن فيسوشيكوف يعجب الأم ، فلقد كان في رأسه الحليق ذي الزوايا ، وعينيه الصغيرتين ، شيء يثير رعبها ؛ أما الآن ، فإنها تشعر في حضرته بالغبطة ؛ لذلك قالت بحرارة وهي تبتسم منفعلة :

ــ لشد ما نحلت ... لنعدّ له الشاي يا أندريه .

وأجاب أندريه الذي كان في المطبخ :

ــ ها أنذا أعده .

ــ وكيف حال بول ؟ هل أطلق سراح آخرين سواك ؟

فطأطأ رأسه وقال :

ــ بول لا يزال في السجن . إنه يتجلد . ولم يطلق سراح أحد سواي .

ثم رفع رأسه ، ونظر إلى الأم ، وتابع ببطء وهو يكز على أسنانه :

ــ لقد قلت لهم : عندكم ما يكفيكم فاطلقوا سراحي ، وإذا لم تفعلوا فإني أقتل شخصاً ، ثم أقتل نفسي ... وكان أن أطلقوا سراحي .

ــ نعم .

قالتها بيلاجي وهي تنأى عنه ، وأجفانها ترف بحركة لا إرادية ، عندما تلتقي عيناها بالعينين الصغيرتين ، عيني الرجل ذي الوجه المجدور .

وصاح أندريه من المطبخ :

ــ وتيو مازين ... أما زال ينظم الأشعار ؟

ــ نعم ، ولكنني لا أفهم شيئاً من هذا .

ثم أردف وهو يهز رأسه :

ــ أهو هزار ؟ لقد وضع في القفص فراح يغني . أنا لا أفهم سوى أمر واحد هو أنه ليست لي رغبة في الذهاب إلى المنزل .

وقالت الأم بشرود :

ــ هذا أكيد ، فماذا ستجد في منزلك ؟ إنه خاوٍ لا دفء فيه . كل شيء فيه بارد كالجليد .

وصمت لحظة مسبل الأجفان ، وأخرج من جيبه علبة للسجائر

فتناول سيجارة وراح يدخنها ببطء ؛ ويتتبع ببصره سحابة الدخان الرمادي التي تتلاشى أمامه ، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكاً ، فكانت ضحكته أشبه ما تكون بنباح الكلب .

ـــ أوه بارد ؟ يجب أن يكون كذلك . قد تكون الجعلان المتجمدة تتساحب في أرضه ، كما أن الفيران قد تموت فيه من البرد .

ثم سأل بصوت أصم دون أن يرفع بصره إلى الأم :

ـــ أتسمحين لي بأن أقضي الليل عندك ؟ هل تريدين ؟

فقالت بحرارة : ـــ أجل .

وكانت تشعر بالضيق ، وبأنها في حضرته ليست على ما يرام .

ـــ إننا نعيش في زمن يخجل فيه الأبناء من ذويهم .

وسألت الأم وهي ترتعش : ـــ ماذا ؟

فرجمها بنظرة ، وأغمض عينيه ، وبدا وجهه المجدور فجأة كوجه أعمى ، ثم ردد وهو يصعد زفرة :

ـــ لقد قلت أن الأبناء بدأوا يخجلون من ذويهم ، وهذا لا ينطبق عليك ، فإن بول لن يخجل بك أبداً ؛ ولكنني أنا الذي أخجل بأبي ؛ ولن أذهب إلى منزله أبداً . ليس لي أب ولا منزل . وقد وضعت تحت رقابة البوليس ولولا ذلك لانطلقت إلى سيبيريا . هناك سأحرر المنفيين ، وسأهيىء لهم خطة الهرب .

وكانت الأم تدرك بقلبها الحساس أن الفتى يتألم ، ولكن ألمه لم يكن يوقظ فيها الشفقة ، فقالت له كيلا تثقل عليه بصمتها :

ـــ إذا كان الأمر كذلك على وجه أكيد ، فإنه من الأفضل لك أن تذهب إلى سيبيريا .

وخرج أندريه من المطبخ فقال :

ـــ بماذا تكرزين ؟ قولي ؟

فنهضت الأم : يجب أن أعد شيئاً للأكل .

وركز فيسوشيكوف بصره على أندريه وصاح فجأة :

ـــ أعتقد أن هناك ناساً يجب أن يقتلوا .

ــ أوه ، أوه ... ولماذا ؟

ــ كيلا يبقى منهم أحد .

وكان يقف في وسط الغرفة ضخماً جافاً يترنح ويتفحص نيقولا من عل ، ويداه في جيبه ، وكان فيسوشيكوف يتكوم في مقعده ، تلفه سحابة من دخان ، وتبدو في وجهه الأغبر بقع حمراء .

ــ سأنتزع فك إيساي غوربوف ... سترى .

ــ ولماذا ؟

ورد فيسوشيكوف وهو يرمق أندريه بعين متجهمة شريرة :

ــ ليستمر في تجسسه ، ليستمر . إنه المسؤول عما آل إليه والدي : فهو يعتمد عليه في خطواته الأولى كجاسوس .

وصاح به أندريه :

ــ أتحققت من هذا ؟ ومن الذي جعلك مسؤولًا ؟ يا لهم من أوغاد .

فأجاب بحزم : ــ إن الأوغاد كالأذكياء تماماً . إنهم متشابهون ، فأنت مثلًا فتى ذكي وكذلك بول ، ولكن هل أنا في نظرك كثير مازين أو ساموالوف ، أو كواحد منكم بالنسبة للآخر ؟ لا تكذب فلن أصدقك . إنكم جميعاً تدفعونني وتنحونني جانباً .

وقال أندريه برقة وعطف وهو يجلس إلى جانبه :

ــ إنك مريض يا عزيزي المسكين .

ــ مريض ؟ وأنتم أيضاً مرضى . ولكن أوجاعكم تبدو لكم أكثر نبلًا من أوجاعي . إننا بالنسبة لبعضنا البعض ، قذرون . هذا ما أقوله فبماذا تستطيع أن تجيبني ؟ قل !

وسدد إلى أندريه نظرته الحادة ، وراح ينتظر الجواب ضاحك السن ، وكان وجهه المجدور لا يحمل أي تعبير ، وشفتاه السميكتان ترتعشان كما لو أحرقهما سائل مغلي .

وقال أندريه والابتسامة الحزينة الحارة في عينيه ، تداعب نظرة فيسوشيكوف الحقود :

ــ لن أرد عليك فأنا أعرف جيداً أن الجدل مع امرىء دامي القلب ليس إلا إثارة له . أعرف ذلك يا أخي العجوز .

فغمغم نيقولا وهو مطرق :

يجب ألا تجادلني ، فأنا لا أعرف الجدل .

وتابع أندريه :

ــ أرى أن كلّا منا قد مشى على نثار الثلج عاري القدمين ، وأن كل إنسان قد نفث في ساعاته القاتمة ، النار نفسها التي تنفثها أنت الآن .

ورد فيسوشيكوف بتؤدة :

ــ إنك لا تستطيع أن تقول لي شيئاً . إن نفسي تعوي في داخلي كذئب ..

ــ وأنا لا أريد أن أقول شيئاً ، وكل ما أعرفه هو أن هذا سينجلي ، ربما لم يحصل ذلك بكامله ، ولكنه سينجلي على كل حال .

وأخذ يضحك ، ثم ربت على كتف نيقولا :

ــ هذا هو ،أيها الأخ العجوز مرضٌ من أمراض الطفولة ... إنه شيء كالحصباء . وسنعاني منه جميعاً ؛ الأقوياء أقل قليلًا ، والضعفاء أكثر قليلًا . إنه يصيب الناس أمثالنا عندما يكونون قد وجدوا ما يريدون ، ولكنهم قصروا عن فهم الحياة ، ولم يهتدوا بعد إلى المكان الذي يجب أن يتمركزوا فيه . إنهم يتخيلون أنهم الوحيدون من نوعهم كثمرة طيبة ، كخيارة صغيرة يود الناس جميعاً أن ينهشوها . وبعد زمن ما تكتشف أن أفضل ما فيك هو أيضاً عند آخرين ليسوا أكثر سوءاً . وهذا ما يغريك . وتشعر بقليل من الخجل لأنك تسلقت قبة الجرس لتهز جلجلك الصغير ، الصغير لدرجة لا يُسمع معها صوته عندما يقرع الجرس الضخم ، جرس الأعياد . وستكتشف بعد ذلك أن جلجلك ليس سوى جزء من الجوقة الشاملة ، في حين أنه لو قرع وحده لغرق في ضجيج الأجراس الهرمة ، كذبابة في إناء من زبدة . هل فهمت ما أود أن أقوله ؟

وهزّ نيقولا رأسه : ــ ربما فهمته جيداً .
وراح يمشي بخطى صاخبة :
ــ وأنا أيضاً لم أك أومن به أبداً ، فاغرب من وجهي أيتها الحطبة .
وقال نيقولا ببسمة مغتصبة ، وهو يرنو إلى أندريه :
ــ أأنا حطبة ؟ لماذا ؟
ــ هكذا . إنك تشبهها .
وفجأة خرج فيسوسيكوف وهو يفغر فمه الواسع ويضحك ضحكة داوية .
وسأله أندريه مشدوهاً وهو ينتصب في وجهه :
ــ ماذا دهاك ؟
ــ كنت أقول في نفسي أنه سيكون غبياً لعيناً ذاك الذي يشتمك .
ــ كيف ولماذا يشتمني ؟
وهز أندريه كتفيه بتهكم . وقال فيسوشيكوف بسذاجة وهو يكشر عن أسنانه :
ــ لا أدري ... كنت أود أن أقول أن المرء الذي سيوجه إليك الشتيمة يجب أن يكون فاسد الضمير .
وقال أندريه ضاحكاً :
ــ آه .. هذا ما كنت تود أن تنتهي إليه .؟
وصاحت الأم من داخل المطبخ :
ــ يا أندريه .
فخرج ، وبقي فيسوشيكوف وحده . وأجال فيسوشيكوف بصره فيما حوله ، ومد ساقه التي تنتهي بحذاء ثقيل ، فتفحصها ، وتلمس عضلات ساقه الثخينة ، ثم رفع يده ، وأدناها من وجهه ، وتأمل راحتها بدقة ، ثم تأمل ظاهرها ؛ لقد كانت مكتنزة قصيرة الأنامل يغطيها زغب أصفر . وحرّكها في الهواء ثم نهض .
وعندما أقبل أندريه يحمل الشاي كان هو أمام المرآة :

ـــ لم أرَ شدقي منذ أمدٍ طويل .
وابتسم ابتسامة ساخرة ثم أضاف :
ـــ إن لي شدقاً قدراً ...
وقال أندريه وهو يتأمله بفضول :
ـــ وأي ضير في هذا ؟
وأجاب نيقولا ببطء :
ـــ تقول ساندرين أن الوجه مرآة النفس .
ـــ ليس هذا صحيحاً . فهي تحمل أنفاً أعقف ، ووجنتين كالمقص ، ومع ذلك فهي تحمل روحاً كالنجم .
وحدق به فيسوشيكوف وابتسم . ثم جلسا لتناول الشاي . وتناول فيسوشيكوف حبة كبيرة من البطاطا ، وذر بحركة عنيفة قليلاً من الملح على قطعة من الخبز ، وراح يمضغ بهدوءٍ وبطء كالثور .
وسأل ، والطعام يملأ فمه :
ـــ وكيف تسير الأعمال هنا ؟
وفيما كان أندريه يروي له بغبطة ، كيف تنمو الدعاوة في المعمل ، تجهم وجهه وقال بصوت أصم :
ـــ ذلك أمر يطول ، يطول كثيراً . يجب الانطلاق بسرعة أكثر .
ورمقته الأم وأحست في نظرته من جديد ظل الضغينة .
وقال أندريه : ـــ الحياة ليست حصاناً ، ولا يمكن حملها على الجري بالسياط ...
غير أن فيسوشيكوف هز رأسه بعناد :
ـــ ذلك أمرٌ يطول ، ولا جلد عندي على الانتظار في العمل ؟
ومد ذراعيه في حركة إعياء ، وتطلع إلى أندريه ثم صمت ينتظر جواباً .
وأجاب أندريه مطأطيء الرأس :
ـــ يجب أن نتعلم جميعاً ، وأن نعلم الآخرين . هذا هو واجبنا .
ـــ وإلى متى تستمر هذه الفوضى ؟

وابتسم أندريه وقال :

ــ سنتلقى الضربات أولًا ، وإني لأعرف أن هذا سيحدث أكثر من مرة ، ولكننا لن نكون كذلك عندما يتوجب علينا أن نخوض المعركة . يجب أن نسلح الرأس أولًا ... ثم نسلح الأيدي بعد ذلك . هذه هي وجهة نظري .

وشرع نيقولا يأكل ، وكانت الأم تراقب وجهه العريض خلسة محاولة أن تجد فيه شيئاً يوطد السلام بينها وبينه ؛ بينها وبين هذا الكيان الضخم الذي نحته أزميل ؛ وكانت كلما التقت نظرتها بتلك النظرة النافذة التي تشع من عينيه الصغيرتين ، ترتعش أجفانها رهبة ، وكان أندريه متحمساً ، لذلك أخذ يتكلم ويضحك ، ثم توقف فجأة وراح يصفر .

وكانت الأم تعتقد أنها تعرف سبب قلقه ، إلا أن نيقولا لبث في مكانه صامتاً ، فإذا ما وجه أندريه إليه سؤالًا ما ، أجاب عليه باقتضاب ، وبنفور ملحوظ .

وشعرت الأم وأندريه بضيق ما ، وبأنهما ليسا على ما يرام في هذه الغرفة الصغيرة ، فراحا يرمقان ضيفهما ، متناوبين ، بنظرات مختلسة .

... وأخيراً نهض .

ــ سأنصرف لأنام فلقد طال سجني ثم أطلق سراحي دفعة واحدة ، فمشيت طويلًا ، لذلك فأنا متعب .

وعندما بلغ المطبخ خفتت حركته ، ثم جمد فجأة كميت ، فمالت الأم التي كانت تتبعه بسمعها ، مالت إلى أندريه توشوشه :

ــ إنه يحمل أفكاراً رهيبة .

فأجاب أندريه ، هازاً رأسه :

ــ إنه فتىً صعب المراس ، ولكنه لن يظل على هذه الحال ، فلقد كنت مثله . إن الهباب يتكدس في القلب إذا كانت جذوته لا تشتعل بصفاء . أيتها الأم الصغيرة ، إذهبي الآن ونامي ، أما أنا فسأبقى قليلًا لأقرأ .

وتوجهت إلى الزاوية حيث كان سريرها الملفع بستارة مطرزة وظل أندريه وقتاً طويلاً ، يصغي ، وهو أمام الطاولة ، إلى همسها الدافيء ، همس صلواتها وزفراتها ؛ وكان ، وهو يقلب صفحات كتابه بسرعة ، يمسح جبهته بحركة محمومة ، ويفتل شاربيه بأصابعه الدقيقة ويحرك رجليه . وكان رقاص الساعة ينبض ، والريح تعول في النوافذ .

وكان صوت الأم الخفيض يتناهما إليه :

— يا آلهي . ما أكثر البشر في هذه الدنيا ... ومع ذلك فكلهم يشكو على طريقته . فأين هم إذاً أولئك الذين يعرفون الغبطة ؟

وردد أندريه كالصدى :

— إنهم موجودون . وعما قريب سيتكاثرون ... أجل سيتكاثرون .

21

... وكانت الحياة تمر سراعاً بوجوه أيامها المتقلبة ، المشرقة أو المتجهمة ؛ وكان كل يوم يحمل معه جديداً ، جديداً لا يقلق الأم أبداً ؛ وكان يتوافد إلى منزلها عند المساء ، مجهولون يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ؛ فيتحدثون مع بول بصوت خفيض والاهتمام بادٍ في ملامحهم ، ثم يخرجون في ساعة متأخرة من الليل ، وقد رفعوا قبات معاطفهم ، وتهدلت شعورهم فوق عيونهم ، يخرجون في الظلمات دونما ضجيج كيلا يثيروا انتباه أحد . أن من يراهم يحس أن كلا منهم يكبت حماسه ؛ وأنهم يشتهون جميعاً أن يغنوا ويضحكوا ، ولكنهم ، وهم المنهمكون أبداً ، لا يجدون لديهم وقتاً لذلك ؛ فبعضهم ساخرٌ وقور ، وبعضهم مرحٌ يملأه زخم الشباب الفائض ؛ وآخرون غيرهم هادؤون كثيرو التأمل ؛ ولكنهم كانوا جميعاً ، في نظر الأم ، متساوين في عنادهم وثقتهم بأنفسهم ، ورغم أن لكل منهم ملامحه الخاصة ، فإنهم كانوا ، في نظرها ، ينصهرون في وجه واحد هزيل يشع منه تصميمٌ هادىء ، وجه صاف متجهم العينين ، في نظراته عمق ودعاب وقسوة .

وكانت الأم تعدهم ، واحداً واحداً ، وتتصورهم حشداً يحيط ببول ويتوسطهم فلا تراه أعين أعدائهم .

وفي إحدى الأمسيات ، جاءت من المدينة فتاة شديدة الحذر ، مجدولة الشعر ، تحمل إلى أندريه رزمة . وفيما كانت تنصرف قالت لبيلاجي وهي ترمقها بنظرة مشرقة مرحة :

ــ إلى اللقاء يا رفيقة .

وأجابت الأم وهي تكبت بسمتها :

ــ إلى اللقاء .

وبعد أن شيعتها اقتربت من النافذة ضاحكة ، لترقب « رفيقتها » وهي تنطلق في الشارع رشيقة الخطو ، ريانة كزهرة الربيع ، خفيفة كالفراشة ؛ وعندما اختفت الزائرة عن عينيها همست :

ــ رفيقة ؟ آه يا عزيزتي . ليمنحك الله رفيقاً طيباً ، رفيقاً لحياتك كلها . »

وكانت تلاحظ غالباً أن في أولئك الذين يقبلون من المدينة جميعاً ، شيئاً صبيانياً ، وكانت تبتسم لذلك بتسامح ، ولكن الشيء الذي كان يؤثر في نفسها ، ويبعث فيها دهشة الفرح ، هو إيمانهم ، هذا الايمان الذي كانت تحس عمقه دائماً ، وبكثير من الوضوح . وكانت أحلامهم بانتصار العدالة تحرك مشاعرها ، وتدفيء قلبها ، وكانت وهي تصغي إليهم ، تتأوه بلا وعي ، وتحس أنها فريسة حزن غامض ، ولكن ما كانت تحسه أشد الاحساس هو بساطتهم وطيبتهم ونسيانهم لذواتهم ؛ وهو نسيان مفرط السخاء والطيبة .

وكانت تدرك كثيراً من الأشياء من خلال جدلهم حول الحياة ، وتشعر أنهم إكتشفوا الينبوع الحقيقي لشقاء الناس ، وقد تعودت أن توافقهم على آرائهم ، ولكنها كانت في أعماقها ، لا تؤمن بأنهم يستطيعون أن يكيفوا الحياة وفقاً لما يعتقدون ، وبأنهم يملكون من الطاقة ما يكفي لأن يشيع لهب نفوسهم في الطبقة الكادحة كلها .

إن كل إنسان يريد أن يشبع اليوم ، وليس هناك من يرضى بأن

يرجيء طعامه حتى ولو إلى الغد ، إذا كان باستطاعته أن يتناوله الآن . وقليلون هم أولئك الذين يستطيعون سلوك هذا الطريق الشاق الطويل . إن عيونهم لا ترى أنه يفضي إلى تلك المملكة الرائعة ، مملكة الأخوة الشاملة ، ومن أجل ذلك ، كان أولئك القوم الطيبون ، يبدون لها أصفالًا رغم لحاهم ووجوههم التعبى .

وكانت ترثي لهم ، وتهز رأسها هامسة : يا للصغار المساكين .

ولكنهم كانوا جميعاً يحيون حياة طيبة ، جادة ، ذكية ، لقد كانوا يتحدثون عن الخير ويرغبون في أن يلقنوا الآخرين ما كانوا يعرفون ، ثم يحققون هذه الرغبة دونما هوادة . وكانت هي تدرك أن وجوداً كهذا يمكن أن يُحب رغم مخاطره ، ثم تسترجع ماضيها متأوهة ، فيتراءى لها كطريق رحب ضيق كئيب ، وكانت تستشعر ، دون أن يساورها الشك ، أنها شيء مفيد ، في هذا الوجود الجديد . لقد كانت تحس من قبل أنها ليست شيئا مفيداً لأي إنسان ، أما الآن فهي ترى بوضوح أن الكثيرين يحتاجون إليها ؛ ولقد كان هذا الشعور بالشعور بالنسبة لها شعوراً جديداً حلواً ، يحملها على أن ترفع رأسها باعتزاز .

وكانت تحمل دائماً وبانتظام ، النشرات إلى المعمل ، يحدوها شعور بأداء الواجب ، حتى أصبح دخولها إلى المعمل أمراً معتاداً بالنسبة لرجال البوليس الذين كانوا لا يعيرونها أي اهتمام ، ولقد فتشوها في مناسبات عدة إلا أن هذا التفتيش كان يجري في اليوم التالي لظهور النشرات ؛ وكانت تعرف كيف تثير الشبهة في نفوس الحراس والجواسيس عندما تكون لا تحمل شيئاً ، فيستوقفونها ، فتتظاهر بأن كرامتها قد مُست ، وتدخل معهم في جدلٍ عنيف حتى إذا أوقعتهم في الارتباك ، انطلقت فخورة بحذقها ...

وصارت تجد في هذه اللعبة ، لذة كبرى .

وكان المعمل قد رفض إعادة فيسوشيكوف إلى المعمل فدخل كمستخدم عند أحد التجار ، وكانت مهمته أن ينقل إلى الضاحية كميات من الجسور والألواح وحطب التدفئة ، وكانت تراه ، وهو يمر ،

كل يوم تقريباً : يسير جواداه الأسودان وقد ارتعشت قائمهما وتقوست تحت وطأة حملهما الثقيل ، يسيران عجوزين نافري العظام يترنح رأساهما تعباً وحزناً ، ويبدو الانهاك في عيونهما الكمداء ، ويمتد وراءهما جسرٌ طويل رطب ، يتذبذب على إيقاع الجلبة ، أو صوت كدسة من الأخشاب تتساحب أطرافها على الأرض بضوضاء ، في حين يسير نيقولا إلى جانبهما ، وقد أطلق لهما الأعنة ، رث الثياب ، صلب الملامح ، أخرق الخطوة ، كجذع نابت من الأرض ، يلطخه الوحل ، وينتعل حذاءً ثقيلًا ، ويعلق قبعته في عنقه .

وكان رأسه هو أيضاً يترنح ، وعينه منغرزة في التراب ، وكان جواداه يجتاحان ، على غير هدى ، العربات والمارة الذين كانوا يقبلون من الاتجاه المعاكس ، فتتطاير حوله الشتائم القاسية كالزنانير وتمزق الفضاء صيحات الغضب ، ويظل هو ، يدب ، دون أن يرفع رأسه أو يجيب ، وينبعث من بين شفتيه صفيرٌ حادٌ يصم الأسماع ، ويغمغم بصوت ثقيل مخاطباً جواديه :

ــ خذا هذا ...

وفي كل مرة كان يجتمع فيها رفاق أندريه في بيتها ، ليقرأوا بعض المنشورات ، أو العدد الأخير من مجلة تطبع في الخارج ، كان نيقولا يأتي فيجلس في إحدى الزوايا ، ويصغي طوال ساعة أو ساعتين دون أن ينبس بحرف . وكان الشبان ، إذا ما انتهت قراءتهم يتناقشون طويلًا ، ولكن فيسوشيكوف لم يكن ليشترك في النقاش أبداً ، إلا أنه كان يمكث طويلًا ، حتى إذا لم يبق غيره مع أندريه سأله وهو باهت الملامح :

ــ ومنذا الذي تعتقده أشد إجراماً من الآخرين ؟

ويجيب أندريه مازحاً ، وفي عينيه تعبير قلق :

ــ إنه أول من قال « هذا لي » ، أرأيت ؟ إن هذا الرجل قد إنطوى منذ آلاف من السنين ، وليس هناك أي جدوى في أن نثور عليه .

ــ والأغنياء والذين يساندونهم ؟

وكان أندريه ينحني فيأخذ رأسه بين يديه ويمسد شاربه ويتكلم باسهاب وببساطة عن حياة الناس ، وكان كلامه كله يتلخص بأن العالم بأجمعه آثم ، إلا إن ذلك لم يكن ليشبع نهم نيقولا .

لقد كان يهز رأسه بالنفي ، وهو يطبق شفتيه الغليظتين بقوة ، ويعلن بلهجة مرتابة ، إن الأمر ليس كما شرحه أندريه ، ثم يمضي متجهم الوجه محنقاً .

ولقد صرخ مرة :

ــ لا ... يجب أن يكون هناك مسؤولون . صدقني : إنهم موجودون ، ويجب أن يمزقهم المحراث أنّى كانوا ؛ وبلا رحمة ، كما يمزق حقلًا من الثيل .

وقالت الأم : ــ هذا ما قاله يوماً إيساي الثقّاب ، وهو يتحدث عنك .

فتساءل فيسوشيكوف بعد صمت :

ــ إيساي ؟

ــ نعم ، إيساي . الرجل الخبيث .. إنه يتجسس علينا جميعاً ، ويسأل ، ولقد أخذ يتردد على شارعنا ، ويراقب نوافذ بيتنا .

فردد نيقولا : يراقب ؟

وكانت الأم قد اضطجعت فلم تعد ترى وجهه ، ولكنها أدركت أنها أطنبت في الحديث عن إيساي لأن أندريه أجاب بسرعة ، وبلهجة مهدئة :

ــ دعيه يسير ويتطلع . أن لديه فيضاً من الوقت ، يتنزه خلاله .

فقال نيقولا بصوت أصم : ــ رويداً .. إنه هو ... هو المسؤول .

فرد أندريه بحدة : ــ مسؤول عن ماذا ؟ مسؤول عن كونه حيواناً ؟

ولم يجب فيسوشيكوف ، ثم خرج .

وظل البيوروسي يذرع أرض الغرفة ببطء ، منهك الخطى ، يجر ساقيه الطويلين الجافين كسيقان العنكبوت ، وكان قد خلع حذاءه ، كما تعود أن يفعل دائماً ، كيلا يحدث أية ضجة فيزعج بيلاجي ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد .

وقالت بقلق بعد أن انصرف نيقلا : ـــ إني أخاف منه .

فرد عليها ، وهو يمط كلماته :

ـــ أجل .. إنه فتىً نزق فلا تحدثيه عن إيساى ، فإيساي ، أيتها الأم الصغيرة ، جاسوس حقاً .

ـــ لا غرابة في ذلك فزميله دركي .

وأجاب أندريه مذعوراً :

ـــ قد يعتدي نيقولا عليه أرأيت أية مشاعر يولدها السادة ضباط مجتمعنا ، في نفوس الجنود البسطاء ؟ ماذا سيحدث إذا ما استشعر أمثال نيقولا مهانتهم وأفلت زمام الصبر من أيديهم ؟ إن الدم سيتدفق حتى السحاب ، وسيغطي الأرض زبدٌ أحمر كرغوة الصابون .

فقالت الأم بهدوء : ـــ إن هذا لمخيف يا أندريه .

وأجاب بعد صمت قصير :

ـــ إذا لم يخزهم الذباب فلن يرفسوا ، ومع ذلك ، فكل نقطة تسفك من دمهم ستغسلها سلفاً سيول الدموع ، دموع الشعب .

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ـــ سيكون ذلك عدلاً ، ولكنه لا يحمل العزاء .

22

كان ذلك يوم أحد ، وكانت الأم عائدة من دكان البقال ، وما كادت تفتح الباب وتقف على العتبة حتى غمرها فجأة طوفان من الفرح ، كمطرٍ حارٍ في يوم صيف : لقد سمعت في الغرفة صوت بول الجهوري .

وصاح البيوروسي : ـــ هي ذي ... لقد جاءت .

ولاحظت السرعة التي استدار بها نحوها ، ورأت أن وجهه كان يشرق بانفعال واعد بألف فرحة . وغمغمت وقد أفقدتها المباغتة وعيه :

ـــ ها أنت ذا قد عدت إلى المنزل .

ثم جلست . وانحنى فوقها ، وكانت شاحبة الوجه المتمتع في مآقيها دموعٌ صغيرة متلألئة ، وكانت شفتاها ترتعشان . واستولى عليه الصمت هنيهة ، وكانت هي تحدق فيه صامتة أيضاً .

ومر البيوروسي أمامهما وهو يصفر ، مطأطىء الرأس ، ثم خرج .

وقال بول بصوت عميق خفيض :

ـــ شكراً لك يا أماه ، شكراً لك يا أمي العزيزة .

وشد يدها بأصابعه المرتعشة .

ودغدغت رأسه وقد غمرتها بالنشوة نبرات صوته وملامح وجهه المعبر ، وقالت بهمسٍ وهي تهديء وجيب قلبها :

ـــ ليكن يسوع معك . علامَ تشكرني ؟

ـــ شكراً لك على العون الذي قدمته لنا في قضيتنا الكبرى . إنها لسعادة نادرة أن يستطيع امرؤ القول ، وبالعقل أيضاً ، إن أمه غالية عليه .

وكانت ، دون أن تنبس بكلمة ، تتلقف كلماته بنهم ، متفتحة القلب ، وتتأمله مشدوهة . إنه هناك ؛ أمامها ؛ إنه واضح كل الوضوح ، قريب كل القرب .

ـــ لقد كنت يا أماه أرى كثيراً من الأمور تبعث في قلبك الغم ، وكان ذلك شاقاً عليك . وكنت أعتقد أنك لن تهادنينا أبداً ، وانك لن تؤمني بأفكارنا ، ولكنك ستتحملينها بصمت ، كما كنت دائماً ، ... وكان هذا شديد الايلام ...

ـــ لقد علمني أندريه كثيراً من الأشياء .

وقال ضاحكاً : ـــ أجل ... لقد قصّ عليّ ذلك .

ـــ وإيغور أيضاً . فنحن من قرية واحدة ؛ أما أندريه فقد كان يود أن يعلمني حتى القراءة .

ــ وأنت كنت خجولة بعض الشيء ، فرحت تدرسين على نفسك خفية .

وقالت باضطراب : ــ آه ... لقد كان يتجسس عليّ .

ثم اقترحت على بول ، والانفعال بادٍ في ملامحها لفرط الغبطة :

ــ يجب أن نناديه فلقد خرج عمداً كيلا يزعجنا . إنه يعيش دون أم .

وصاح بول وهو يفتح باب المدخل : .

ــ يا أندريه ... أين أنت ؟

ــ هنا ، أقطع الحطب .

ــ تعال .

ولم يأت على الفور ، وعندما دخل المطبخ قال بلهجة رب البيت :

ــ يجب أن أطلب إلى نيقولا ليحضر لنا حطباً ، فلم يعد عندنا منه الكثير .أرأيتِ أيتها الأم الصغيرة كيف هو بول ؟ إن السلطات تسمّن العصاة بدلًا من أن تعاقبهم .

... وأخذت الأم تضحك ، وكانت سكرى بالغبطة ، يملأ قلبها إطمئنان حلو ، ولكن شعوراً من الحذر الشحيح كان يحملها على التمني بأن ترى إبنها هادئاً كما كان من قبل . لقد كانت أوبته بالنسبة لها سعادة غامرة ، وكانت تود أن تنطوي هذه الفرحة ــ وهي أولى الفرحات في حياتها وأكبرها ــ في قلبها أبداً ، وأن تظل فيه قوية حية ! وخشية أن تتضاءل هذه السعادة ، كانت تتعجل إخفاءها ما أمكنها ذلك كصيادٍ اقتنص صدفة ، طائراً جميلًا .

واقترحت باهتمام :

ــ هيّا إلى المائدة يا بول . إنك على التأكيد لم تتناول أي طعام حتى الآن ؟

ــ كلا ، فلقد أبلغني الناظر البارحة أنهم قرروا إخلاء سبيلي ، ولم أشعر اليوم بجوع أو عطش .

وتابع :

ـــ لقد كان أول من التقيت به هنا هو سيزوف العجوز . إنه ما كاد يراني حتى اجتاز الشارع ليسلم عليّ . فقلت له : يجب أن تحذرني منذ الآن ، فأنا رجل خطر ، يراقبني البوليس ، فأجابني : « لا يهمني ذلك » ... أتدرين ماذا سألني بخصوص حفيده ؟ ـــ قل لي هل سلوك ثيو في السجن حسن ؟ ـــ ماذا تقصد بحسن السلوك ؟ ـــ أقصد إذا كان لسانه ما يزال يسرف في الاستطالة حين يتحدث عن الرفاق .

وعندما قلت له : أن فيدور فتىً شريف وذكي ، داعب لحيته وقال لي بزهو :

ـــ ليس فينا ، نحن آل سيزوف ، رجالٌ أشرار .

وقال أندريه وهو يهز رأسه : ـــ ليس هذا العجوز بغبي . إننا نثرثر معاً أحياناً فيبدو لي أنه رجل طيب .

ـــ هل سيطلقون سراح ثيو قريباً ؟

ـــ سيطلقون سراحهم جميعاً على ما أعتقد ، فليس لديهم ما يدينهم اللهم إلا وشايات إيساي ، وأي شيء استطاع هذا أن ينقله لهم ؟

وكانت الأم تروح وتجيء وتتأمل إبنها ، وكان أندريه ، وهو واقف بالقرب من النافذة ويداه وراء ظهره ، يصغي إلى حديث الفتى الذي كان يذرع أرض الغرفة طولًا وعرضاً . وكانت لحيته قد نبتت ، وكان شعرها يتناثر في وجنتيه ، حلقات سوداء ناعمة ، تخفف من سمرة وجهه المسفوع .

وألحت الأم : ـــ هيا إلى الطعام .

ووقفت وهي تشرف بنفسها على المائدة .

وأخذ أندريه يتحدث أثناء الطعام عن ريبين ، وعندما انتهى حديثه صاح بول بأسف :

ـــ لو كنت موجوداً لما تركته يمضي . ماذا يحمل معه ؟ إنه يحمل شعوراً كبيرا بالتمرد وأفكاراً مشوشة ...

وأجاب البيوروسي مبتسماً : ــ أجل ... ولكن عندما يكون الرجل في الأربعين من عمره ، وعندما يكون قد قضى وقتاً طويلا يصارع الدببة فإنه لمن الصعب تطويره ..

واستغرقا في جدل كان الكثير من تعابيره يستعصي كالمعتاد على فهم الأم ، وفرغا من الطعام وكانا ما يزالان يتراشقان بضراوة ، رشاشاً من الألفاظ الصعبة العصية ، وكانا أحياناً يعبران عن ارائهما بلغة بسيطة سهلة .

وأعلن بول بعزم : ــ يجب علينا أن نتابع طريقنا دون أن ننحرف عنه خطوة واحدة . وأن نرتطم ، في هذه الطريق ، بملايين البشر الذين يستقبلوننا كأعداء ..

... وكانت الأم تصغي وتفهم مما يدور أن بول لا يحب الفلاحين ، في حين كان أندريه يدافع عنهم ، ويحاول أن يؤكد أنه من الضروري أن يُلقنوا هم أيضاً الأفكار الخيرة ، وكانت تفهم ما يقوله أندريه بوضوح أكثر ، ويبدو لها أنه محق فيما يقول ، ولكنها كانت في كل مرة يرد بها على بول تفتح أذنيها جيداً وتكبت أنفاسها ، وتنتظر بفارغ الصبر جواب إبنها ؛ لترى ما إذا كان رد البيوروسي قد أثاره ، إلا أنها كانت تلاحظ أنهما وان تناقشا بحرارة وحماسة فإن أحداً منهما لم يكن يستثير حنق الآخر .

وكانت الأم تسأل إبنها بين الفينة والفينة :

ــ هل الأمر هكذا يا بول ؟

فيجيبها باسماً : ــ أجل ... إنه لكذلك .

ويقول أندريه بمحبة وهزء :

ــ لقد أكلت حتى كدت تنشق ، ولكنك لم تمضغ طعامك جيداً ، وما زالت قطعة منه عالقة في زلعومك ، فغرغر لهاتك .

فينهض بول : ــ لا تتصنع البله يا أندريه .

ــ ولكنني جادٌ كأني في جنازة .

وتضحك الأم بهدوء ، وتهز رأسها .

23

كان الربيع يقترب ، والثلج يذوب وينحسر عما كدسه تحت جبته البيضاء من وحلٍ وطمى ، وكان الوحل يزداد كل يوم بروزاً حتى بدت الضاحية كلها كأنها إنما ترتدي كل الأسمال القذرة ، وكان الماء يتساقط من السقوف أثناء النهار ، نقطة نقطة ، واللهب يتصاعد من جدران المنازل الدكناء الراشحة التعبى ؛ في حين تبرز ، عند الغروب ، تماثيل الجليد ، منتثرة في كل مكان ، وهي بيضاء كدراء اللون ، وصارت الشمس تظهر أكثر فأكثر ، والسواقي تدندن حيرى في طريقها إلى المستنقع .

وكان الناس يستعدون لاستقبال أول أيار .

وكانت النشرات تُلقى في المعمل ، وفي الضاحية ؛ لتشرح معنى هذا العيد ، وحتى الفتيان الذين لم تمسهم الدعاية بعد ، كانوا يقولون وهم يقرأون هذه النشرات :

ـــ يجب التغلب على المصاعب .

وكان فيسوشيكوف يصرخ دائماً بشراسة :

ـــ لقد آن الأوان ، وكفى تضليلاً وتمويهاً .

وكان ثيومازين فرحاً ؛ كثير النحول ، تذكر كلماته والعصبية البادية في حركاته بقبّرة سجينة في قفص . وكان يرافقه دائماً جاك سومون وهو فتى صموت يعمل الآن في المدينة ويبدو عليه الجد أكثر مما يحتمل سنه .

وكان ساموالوف الذي ازداد لونه شقرة أثناء وجوده في السجن ، وباسيل غوسيف ، وبوكين ، وداغونوف ، كان هؤلاء جميعاً وآخرون غيرهم ينادون بضرورة التسلح ؛ أما بول والبيوروسي وسوموف ، وآخرون معهم ، فقد كانوا يخالفونهم في الرأي .

ووصل إيغور منهكاً لاهثاً كالعادة ، ينضح عرقاً ، وقال مازحاً :

ـــ أيها الرفاق . إن تغيير النظام الراهن عمل عظيمٌ ، ولكن ، يجب أن أشتري حذاءً جديداً لكي يتحقق هذا العمل سريعاً .

وأراهم حذاءه الممزق المبلل ، وتابع :

ــ ولقد أصيبت جزمتي أيضاً بداءٍ عضال لا يُرجى البرء منه ، فتعرضت قدماي بسبب ذلك ، للبلل كل يوم . أنا لا أود أن أدخل إلى القبر قبل أن يتوب هذا العالم العجوز توبة علنية واضحة ؛ ولهذا أرفض إقتراح الرفيق ساموالوف الرامي إلى التسلح ، واقترح تسليحي أنا ، بزوج من الأحذية المتينة ؛ لأنني مقتنع كل الاقتناع بأن هذا سيكون أكثر جدوى لنصر الاشتراكية من أعظم تحطيم .. للأشداق ...

وراح بهذه اللهجة الودود نفسها ، يروي لهم كيف حاول الشعب ، في بلدان مختلفة ، أن يحسن من مستوى حياته . وكانت الأم تحب أن تسمع أحاديثه ، إذ تترك في نفسها انطباعاً غريباً ، فأعداء الشعب الأكثر احتيالًا ، والذين خدعوه أكثر الأحيان وبقسوة أشد ، كانوا رجالًا صغاراً ، ضخام الكروش ، حمر الجلود ، طمّاعين ، مختالين ، قساة القلوب لا ضمائر لهم ؛ وعندما حولت سلطة القياصرة حياتهم إلى جحيم انبروا يحرضون الشعب الصغير ضد هذه السلطة ، وعندما ثار الشعب وانتزع السلطة من الامبراطور ، إنتزعها الرجال الصغار بالحيلة ، وراحوا ينكلون بالشغيلة ، فإذا أراد هؤلاء أن يحاجّوهم انقضوا عليهم ففتكوا بالمئات منهم والألوف .

وتجرأت، في أحد الأيام، فقصت عليه ما كانت تكونه في نفسها من أشياء، خلال إصغائها إليه، وسألته وهي تبتسم إبتسامة مرتبكة:

ــ إذن فالأمر كذلك يا إيغور إيفانوفيتش .

فانفجر ضاحكاً يقلّب عينيه الصغيرتين ، وبعد قليل استعاد أنفاسه ، ودعك صدره :

ــ الحقيقة كذلك يا أماه . لقد أمسكتِ ثور القصة بقرنيه ، ونسيت بعض التزويقات ، وبعض الحواشي ، ولكن ذلك لا يغيّر في الأمر شيئاً . إن هؤلاء الصغار البدينين هم حقاً أعظم الخطاة ، واسمّ الحشرات التي تلدغ الشعب .

إن الفرنسيين يسمونهم بحق برجوازيين .. فاحفظي هذه الكلمة يا أماه : برجوازيين ... إنهم يلوكوننا ويمتصون دمنا .

وسألت الأم :

ــ الأغنياء ... أليس كذلك ؟

ــ تماماً . أرأيت لو دسسنا قليلا من النحاس كل يوم في طعام طفل ؟ إن ذلك سيعيق نمو عظامه ، فيظل قزماً . وهكذا إذا سممنا رجلًا بالذهب ، فإن نفسه تغدو حقيرة جداً ، وغبراء كدرة ، تماماً ككرة من المطاط تساوي خمسة سحاتيت .

وقال بول مرة وهو يتحدث عن إيغور :

ــ أتدري يا أندريه ؟ أن أكثر الناس مزاحاً هم أشدهم عذاباً ؟

فصمت البيوروسي فترة ، ثم أجاب :

ــ لو كان هذا صحيحاً ، لماتت روسيا كلها من الضحك .

وظهرت ناتاشا من جديد . لقد دخلت هي أيضاً السجن ، ولكن في مدينة أخرى ؛ ولم يبدل السجن منها شيئاً .

ولاحظت الأم أن البيوروسي يكون في حضرتها أكثر مرحاً ، فلقد كان يمزح ، ويثقل على الناس جميعاً بخبث لا لؤم فيه ، وذلك لكي يحملها على الضحك . وعندما تنصرف ، يشرع هو يدندن بكآبة ، أغانيه التي لا تنتهي ، ويلبث وقتاً طويلًا وهو يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ، ويجرجر قدميه .

وكانت ساندرين تأتي شكسة الطباع دائماً ، مسرعة أبداً ، وتغدو باستمرار أسرع غضباً وأعنف طبعاً .

وفي إحدى المرات تبعها بول حتى المدخل ليرافقها ، ونسي أن يقفل الباب وراءه ، فسمعت الأم حديثهما الخاطف :

لقد سألته الفتاة بهمس :

ــ هل ستحمل العلم ؟

ــ نعم ..

ــ هل تقرر ذلك ؟

ــ نعم وهذا حق لي .
ــ السجن من جديد ؟
ولزم بول الصمت .
ــ ألا تستطيع ... ثم توقفت .
ــ ماذا ؟
ــ أن تتركه لآخر ...
فقال بصوت مرتفع :
ــ كلا .
ــ فكّر في الأمر ملياً ، إن تأثيرك كبير ، والجميع يحبونك . إنك ونالودا قائدا الحركة هنا . إنكما تستطيعان عمل الكثير وأنتما طليقان . فكرا ملياً ؛ فإنكما ستنفيان ، من أجل ذلك ، إلى مكان قصي ، ولأمد طويل .

واعتقدت الأم أنها تتميز في صوت الفتاة أحاسيس عرفتها هي نفسها جيداً ! أحاسيس الغم والخوف ، ووقعت كلمات ساندرين على قلبها كنقاط كبيرة من الماء المثلج .

وقال بول : ــ كلا ، لقد قررت ولا شيء يثنيني عن قراري .
ــ حتى ولو توسلت إليك ؟
فأكمل بول على عجل وبصوت فيه قسوة :
ــ يجب ألا تتكلمي هكذا ، بماذا تفكرين ؟ يجب ألا تتكلمي هكذا .
فقالت بصوت خافت :
ــ إني كائن بشري .
فرد بول بهدوء ولكن بلهجة خاصة كأنه لا يستطيع إمساك أنفاسه :
ــ نعم كائن بشري ، كائن عزيز عليّ ، ومن أجل ذلك ينبغي ألا تتكلمي هكذا .
وقالت الفتاة : ــ وداعاً .

وأدركت الأم من وقع خطاها أنها انطلقت مسرعة ، حتى لتكاد تعدو عدواً .

وخرج بول في أثرها .

وشد على صدرها رعبٌ خانق ثقيل ، فلقد فاتها أن تلتقط تفاصيل حديثهما ، ولكنها كانت تحس أن هنالك حزناً ما ينتظرها .

ــ ماذا يريد أن يفعل ؟

وعاد بول يصحبه أندريه ، وقال هذا الأخير وهو يهز رأسه :

ــ إيساي البؤس هذا ... ماذا سنفعل به ؟

فأجاب بول بحدة :

ــ يجب أن نسدي إليه النصح ليتخلى عن خططه التجسسية .

وتدخلت الأم وسألت مطرقة :

ــ ماذا تود أن تفعل يا صغيري بول ؟

ــ متى ؟ الآن ؟

ــ في أول ... أول أيار .

فأجاب وهو يخفض من صوته :

ــ آه . آه سأحمل علمنا وأسير به في الطليعة ؛ ومن المحتمل أن يزجوني في السجن مجدداً من أجل ذلك .

واشتعلت عينا الأم ، واجتاح فمها جفاف مقيت ، فأخذ بول يدها يداعبها :

ــ هذا ضروري ... أتفهمين ؟

فقالت وهي ترفع رأسها ببطء : ــ لم أقل شيئاً .

وعندما التقت عيناها النظرة النافذة المصممة في عين بول ، طوت عنقها من جديد . وأفلت هو يدها ، وزفر ، ثم قال بلهجة تقريع :

ــ يجب ألا تبتئسي ، بل يجب أن تغتبطي ، متى يكون لنا أمهات يرسلن أبناءهن بغبطة حتى إلى الموت ؟

وغمغم أندريه :

ــ مهلاً ، مهلاً .. هو ذا سيد ينطلق على جياده العظيمة .

وتساءلت الأم :

ـــ هل قلت شيئاً ؟ أنا لم أمنعك ، وإذا كنت أشفق عليك ، فهذا من عمل قلبي كأم .

واستدار ، وسمعت بعض الكلمات القاسية الجارحة .

ـــ هناك عواطف تحرم الانسان من أن يعيش ...

وارتعشت ، وخشية أن يتفوه بما يجرحها ، صرخت بحدة :

ـــ لا تقل هذا يا بول . فأنا أعلم أنك لا تستطيع أن تتصرف تصرفاً مغايراً .. إكراماً للرفاق .

فأجاب : كلا .. أنا أفعل ذلك من أجل نفسي .

ووقف أندريه في العتبة ؛ وكانت قامته أشمخ من الباب حيث كان ينتصب كأنه في إطار ، وكان يطوي ركبتيه على نحو غريب ويسند أحد كتفيه إلى مصراع الباب ، ويقذف بعنقه وكتفه الآخر إلى الأمام .

وقال وهو متجهم الوجه ، وعيناه الجاحظتان تتركزان على بول :

ـــ إنكم تحسنون صنعاً لو توقفتم عن الثرثرة يا سيد .

وكان أشبه ما يكون بحر ذون في شق صخرة .

وودت الأم أن تبكي ، ولكنها أنفت أن يراها إبنها وهي تفعل ذلك ، فدندنت :

ـــ آه .. يا آلهي ... لقد نسيت ....

وانطلقت إلى الرواق ؛ فأسندت رأسها إلى زاوية من زوايا الجدار ، وأطلقت العنان لدموعها . لقد كانت تبكي بهدوء ودونما انتحاب ؛ وكانت خائرة القوى كأن الدم يتفجر من قلبها ، في الوقت الذي تتفجر فيه الدموع من عينيها ؛ وكانت تتناهي إلى سمعها ، من خلل الباب الذي لم يكن مُحكم الأغلاق ، ضوضاء نقاش حاد .

كان البيوروسي يقول :

ـــ قل لي .. أيلذ لك أن تعذبها ؟

ويصرخ بول :

ـــ لا يحق لك أن تتكلم مثل هذا الكلام .

ـــ هل أكون رفيقاً صالحاً إذا ما سكتّ على حماقاتك البلهاء؟ لماذا قلت ذلك ؟ أتدري لماذا؟

ـــ يجب أن نقول دائماً بحزم كل ما نبغي قوله سواء كان نفياً أم إيجاباً .

ـــ وحتى لأمك ؟

ـــ لجميع الناس ، فأنا لا أريد حباً أو صداقة تربطني وتضع القيد في رجليّ .

ـــ يا لك من بطل . إمسح مخاط أنفك ، واذهب فقل هذا لساندرين فلها ينبغي أن يُقال .

ـــ لقد قلته .

ـــ بهذه الطريقة ؟ إنك تكذب . لقد قلته لها بلطف ، قلته لها بحنان . أنا لم أسمعك ولكنني أعرف ذلك . وأمام أمك تعرض بطولتك . ثق أيها البهيم أن بطولتك لا تساوي فلساً .

وأخذت بيلاجي تمسح دموعها بسرعة ، فلقد كانت تخشى أن يوجه البيوروسي الاهانة إلى ابنها ، فسارعت إلى فتح الباب ، وهي تدخل المطبخ مرتعشة من الحزن والخوف :

ـــ آواه ... ما هذا البرد ... رغم أننا في الربيع !

وفيما كانت تتشاغل بنقل الأواني المطبخية من مكان إلى آخر ، دون مبرر ، أردفت ، وهي ترفع من صوتها ليطغى على صوتيهما الخافتين :

ـــ لقد تغيّر كل شيء ؛ فذب الدفء في الناس ، وبرد الجو ، مع أنه في مثل هذا الوقت عادة يكون الطقس حاراً والسماء صافية ، والشمس مشرقة .

وخيم السكون على الحجرة ؛ وتوقفت هي في المطبخ كأنها تنتظر شيئاً ما .

وسأل البيوروسي بصوت خفيض :

ـــ أسمعت ؟ يجب أن تدرك أنها أغنى قلباً منك .

وسألتهما الأم بصوت مضطرب :
ــ هل تشربان الشاي ؟
ودون أن تنتظر جواباً ، قالت لتخفي اضطرابها :
ــ ماذا دهاني ؟ إني أشعر ببرد شديد .
واقترب بول منها ببطء ، ونظر إليها بشرود ، والبسمة الخاطئة تحرك شفتيه ، وقال بصوت خافت :
ــ سامحيني يا أماه ... فأنا ما زلت غلاماً غبياً .
وصاحت بأسىً وهي تدفن رأسه في صدرها :
ــ لا تبكتني يا بول ؛ ولا تقل شيئاً . إصنع ما شئت فأنت سيد حياتك ، ولكن لا توجه إليّ كلاماً خبيثاً . أيمكن لأم أن تتجرد من الشفقة ؟ كلا ... وإني لأشفق عليكم جميعاً ، فأنتم أدنى الناس إليّ ، وانكم لجديرون بذلك . وإذا لم أعاملكم أنا باشفاق فمنذا الذي يعاملكم ؟ إنك تسير يا صغيري بول ، ووراءك آخرون تخلوا عن كل شيءٍ وساروا ...
وكانت تشعر بأن هناك فكرة عظيمة ملتهبة تملأ قلبها ، وتهبها الأجنحة ، وتلهمها فرحاً يمازجه الغم والعذاب ، ولكنها كانت لا تجد الألفاظ التي تعبر بها ، فراحت في قلق العيّ ، تلوح بيدها ، وترنو إلى إبنها ، بعينين تشتعلان بالألم الفظيع الحاد .
ووشوش بول وهو يطأطىء رأسه :
ــ هذا صحيح يا أماه .. فسامحيني . إني أفهم ...
ورشقها بنظرة خاطفة وهو يبتسم ثم استدار وأضاف با رتباك يمازحه فرح ــ أقسم لك بشرفي إني لن أنسى هذا أبداً .
وتركته ، وراحت عيناها تبحثان عن أندريه لتقول له بصوت متوسل ودود :
ــ لا تؤنبه يا صغيري أندريه ، فأنت بلا شك ولدي البكر ...
ولم يتحرك البيوروسي الذي كان يدير ظهره إليها ، بل زمجر بصوت مثير للضحك :

ــ هو هو هو ... سأنهق وراءه ، ولن أتورع عن ضربه بشدة .
فاتجهت إليه بخطىً وئيدة ممدودة اليد : .
ــ يا بني الطيب ، يا ولدي العزيز .
فاستدار أندريه وطأطأ هامته كالثور ، ومر بجانبها متجهاً إلى المطبخ ويداه مشبكتان وراء ظهره . ومن المطبخ تعالى صوته بسخرية كئيبة :
ــ أغرب من وجهي يا بول إذا كنت تود ألا أعض رأسك . لا تصدقيني أيتها الأم الصغيرة فأنا أمزح ... سأعد الشاي ... نعم ... ما أوسخ الفحم الذي عندنا ... يا للقذارة ...
وصمت . وعندما دخلت الأم إلى المطبخ كان يجلس على الأرض ليشعل الموقد ، ولم يبصرها وهي تدخل ، بل تابع :
ــ لا تخافي ، لن أمسه أبداً فأنا وديعٌ ناعم كرأس لفت مسلوق . وأنت لا تصغي إلى « البطل » فأنا أحبه حباً جماً ، ولكنني أكره صدريته ... إنه يرتدي صدرية جديدة أرأيت ؟ وهو معجب بها كل الاعجاب ... هو ذا يمشي ، وقد سبقته كرشه ، إنه يدفع الناس في طريقه : « أنظروا الصدرية الجميلة التي ألبس » .. إنها جميلة حقاً ولكن ... لِمَ يضعضع الناس ؟ فهم مكتظون مزدحمون بدون هذا ...
وابتسم بول :
ــ أتراك ستظل تدمدم هكذا طويلًا ؟ إن شتيمة واحدة يجب أن تكفيك .
وكان البيوروسي ما زال جالساً على الأرض ، يضع ابريق الشاي بين رجليه ويتأمله . وكانت الأم واقفة بقرب الباب تسمّر عينيها الحزينتين الودودتين على العنق الطويل المستدير ، عنق أندريه المحني .
وقلب رأسه إلى الوراء ، واستند بيديه إلى الخشب ، وحدّق في الأم وابنها وهو يغمز بعينيه المحمرتين قليلًا :
ــ إنكم قوم طيبون ... نعم ...
فانحنى بول وأمسك بذراعه :
ــ لا تشد ، فإنني سأسقط إلى الأرض إذا ما فعلت .

وقاتل الأم بحزن :
ــ لِمَ أنتما متضايقان ؟ هيا تعانقا عناقاً حاراً ، حاراً جداً .
فسأل بول : ــ أتريد ذلك ؟
وأجاب أندريه وهو ينهض : ــ ولم لا ؟
وتعانقا طويلاً ، وظلا بلا حراك فترة ، بديا فيها كأن روحاً واحدة تملأ أهابيهما ، روحاً تلهبها صداقة حارة حميمة .
وكانت الدموع تنهمر على وجنتي الأم ، ولكنها لم تكن دموع المرارة فمسحتها بارتباك قائلة :
ــ إن النساء يحببن البكاء ، فهن يبكين من الفرح كما يبكين من الحزن .
ودفع البيوروسي بول دفعة صغيرة وقال وهو يمسح أيضاً عينيه :
ــ هذا يكفي ... عندما تنط العجول يُعد منها الشواء . آه يا للفحم اللعين . لقد نفخت طويلاً لأشعله حتى امتلأت به عيناي .
وجلس بول بالقرب من النافذة مطرقاً ، وقال بهدوء :
ــ إن دموعاً كهذه لا تبعث الخجل .
وأقبلت الأم فجلست إلى جانبه ، يغمر قلبها شعورٌ بالزهو دافيء عذب ، وكانت تستشعر شيئاً من الحزن إلا أنها كانت سعيدة هادئة البال .
وقال أندريه وهو يلج الغرفة :
ــ سأرتب الأواني ، فظلي مرتاحة أيتها الأم الصغيرة ، ارتاحي ، فلقد عُذبت كثيراً .
وعلا رنين صوته الطروب عندما غاب عن أنظارهما :
ــ جميلٌ جداً أن يشعر المرء أنه يعيش حياة خيرة هكذا ، كما يعيش البشر .
وقال بول وهو يرمق أمه بنظرة خاطفة :
ــ أجل .
فقالت : ــ لقد تبدلت الأمور ، فالحزن شيء والبهجة شيء آخر .

وأجاب البيوروسي :

ـــ هذا ما يجب أن يكون ، فكل قلب جديد ينمو ، أيتها الأم الصغيرة اللطيفة ، إنما ينمو في الحياة ، ثم يأتي إنسان فيوقد فيه نار العقل ، ويصرخ وينادي : يا هؤلاء .. أيها البشر في كل الأوطان ، اتحدوا في عائلة واحدة ، وبتأثير هذا النداء تتحد القلوب كلها بأفضل ما فيها ، تتحد في قلب واحد كبير قوي ، رنان كجرس من فضة .

وضغطت الأم على شفتيها بقوة كي لا ترتعش ، وأغمضت عينيها لتمسك دمعها فلا ينسكب .

ورفع بول يده يريد أن يقول شيئاً ، ولكن الأم أنزلت يده هامسة :

ـــ دعه يتكلم .

وتابع أندريه وهو واقف في الباب :

ـــ أتعلمون أن هناك كثيراً من الأحزان تنتظر البشر ؟ إن دمهم ما زال يُمتص . ولكن ذلك كله ، لكن حزني كله ، ودمي كله ليس إلا فدية تافهة لبعض ما أحمل في صدري ورأسي . إني غني بالشعاع كنجم ، وسأتحمل كل شيء ، سأتجلد ، لأن في داخلي فرحاً لا يقوى إنسان ما أو شيء ما على خنقه أبداً ... وفي هذا الفرح تكمن القوة .

... وشربوا الشاي ، ولبثوا حول المائدة حتى انتصف الليل ، وهم يثرثرون ثرثرتهم الحبيبة ، عن الحياة والناس والمستقبل .

وكانت كلما توضحت فكرة في رأس بيلاجي تخيّرت من ماضيها ذكرى ، ذكرى ثقيلة أبداً خشنة أبداً ، واتخذتها مرتكزاً لهذه الفكرة .

وكان خوفها يتلاشى ويذوب في سيل حديثهم الحار ، وإنها الآن لتشعر نفس الشعور الذي خامرها يوم قال لها والدها بقسوة :

ـــ عبثاً تكشرين ... ثمة سخيف يود أن يتزوجك فتزوجيه ؛ لأن الزواج مصير كل فتاة . إن النساء كلهن يضعن الأطفال ، والأطفال شقاء بالنسبة لذويهم .. وأنت ... ألست كائناً بشرياً ؟

وكانت ترى أمامها عندئذ الطريق الذي لا يمكنها أن تتنكبه ، والذي يدور دونما أفق حول مكان مقفر قاتم ، وكانت الضرورة المحتومة

لسلوك هذا الطريق تملأ قلبها بِدعَة مستسلمة عمياء ، وانها لتشعر الآن بمثل تلك الدعة ، ولكنها كانت ، وهي تتوقع شقاء جديداً ، تقول في نفسها كأنها تحدث شخصاً ما : خذوا ...

وكانٍ هذا يخفف من ألمها الخفي الذي يشدو في صدرها راعشاً كوتر مشدود .

وفي أعماق نفسها التي يمخضها الترقب والقلق ، كان لهب الأمل يتصاعد ، خافتاً ، إنه أمل حي ، أملٌ لا يستطيع أحد أن يسلبه أو ينتزعه كله منها .

24

وفي الصباح الباكر ، وبعد خروج أندريه وبول بفترة قصيرة جداً ، طرقت ماريا كورسونوف النافذة برعب ، وصاحت على عجل : ــ لقد قُتل إيساي . فهيا بنا نرَ .

وارتعشت الأم ولمع إسم القاتل في ذهنها كالبرق ، وسألت بإيجاز وهي تطرح شالاً على كتفيها : ــ ومن الذي قتله ؟

فأجابت ماريا : ــ لم يقف لأتبينه ... فلقد ضرب ضربته وولى الادبار .

وتابعت وهما في الطريق :

ــ سوف يباشرون البحث والتفتيش عن المجرم ، ومن حسن الحظ أن رجليك كانا في المنزل هذه الليلة . إني أستطيع أن أشهد على ذلك ، فلقد مررت أمام بيتكم بعد منتصف الليل ، وألقيت نظرة خاطفة من خلال النافذة ، فرأيتكم جميعاً تجلسون حول المائدة .

وصاحت الأم بذعر :

ــ ماذا تقولين يا ماريا ؟ أيمكن أن يتهموهما ؟

وأجابت ماريا بيقين :

ــ ومنذا الذي يقتله ؟ إنهم جماعتك بكل تأكيد ، فالناس جميعاً يعرفون أنه كان يتجسس عليهم .

وتوقفت الأم مبهورة الأنفاس ووضعت يدها على صدرها .
ـــ ما بك ؟ لا تخافي ... لنسرع قبل أن ينقلوه .
وكانت الذكرى الثقيلة ذكرى فيسوشيكوف تتعتع بيلاجي ففكرت كالمخبولة :
ـــ هو ذا ... قد إنتهى إلى تنفيذ ما يريد .
وفي مكان غير بعيد عن جدران المعمل ، وفوق أنقاض منزل التهمته النار منذ أمد قريب ، كان حشد من الناس يضجون كخلية من زنابير ، ويدوسون بقايا الكلس والرماد الذي كان يتطاير . وكان هناك كثير من النسوة ، والأطفال ، وأصحاب الحوانيت ، وخدام الفندق والشرطة ؛ وكان هناك أيضاً الدركي « بيتلين » وهو عجوز ضخم الجثة ، فضي اللحية ، يحمل صدره عدداً من الأوسمة .
وكان إيساي نصف ممددٍ على الأرض وقد أسند ظهره إلى جسر سوّدته النار وكان رأسه الحاسر يتهدل على كتفه الأيمن ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، في حين كانت أصابع يده اليسرى تتشبث بالأرض الرخوة .
ورنت الأم إلى وجهه . لقد كانت عينه الكمداء تتركز على القبعة المطروحة بين ساقيه الممدوتين بارتخاء وإعياء ، وكان فمه مفتوحاً بشكل يعبر عن الدهشة ، وكانت لحيته الصهباء منفوشة الجانب ، وكان الجسم الضئيل ، برأسه الدقيق ووجهه العظمي الذي يغطيه نثار النخالة ، كان هذا الجسم قد تضاءل وضغطته يد الموت .
ورسمت الأم إشارة الصليب وهي تزفر : لقد كان يثير قرفها وهو حيّ ، أما الآن فإنه يثير فيها أحد الحضور بصمت خافت :
ـــ ليس هناك دم . لقد ضربه القاتل بقبضته دون شك .
وتعالى صوت كريه :
ـــ لقد أقفل فم خائن .
وتطاول الدركي ونحّى بيده حشد النساء وسأل بلهجة تهديد :

ـــ من ذا الذي يفكر مثل هذا التفكير ؟
وكان الناس يبتعدون من طريقه ، حتى أن بعضهم ولىّ الأدبار .
وسمع الحضور ضحكة تزخر بسوء النية .
وعادت الأم إلى منزلها وهمست : ـــ لم يحزن عليه أحد .
وكان شبح نيقولا الضخم ينتصب أمامها كالظل ، وفي عينيه الضيقتين لمعة باردة قاسية ، ويده اليمنى تتدلى متأرجحة كأنه إنما سحقها بقدميه !
وعندما عاد أندريه وبول للغداء استقبلتهما سائلة :
ـــ قولا ... هل أوقف أحدٌ بسبب إيساي ؟
فأجاب البيوروسي : لم نسمع شيئاً .
ولاحظت أنهما كانا مرهقين ، فاستفسرت بصوت خفيض :
ـــ ألا يُقال شيء عن نيقولا ؟
فرمقها إبنها بنظرة قاسية وأجاب وهو يقطع كلماته تقطيعاً :
ـــ أبداً ... حتى أنهم لا يفكرون به ؛ ثم إنه ليس هنا ، فلقد ذهب يوم أمس عند الظهيرة ، إلى النهر ، ولمّا يعد . لقد تقصيت أخباره .
وقالت وهي تطلق زفرة عزاء :
ـــ حسناً ، شكراً لله ، شكراً لله .
ورشقها البيوروسي بنظرة عجلى ثم أطرق .
واستأنفت الأم مضطربة البال :
ـــ إنه ممدد ، ووجهه يعبر عن الذهول . إن أحداً ما لم يتحسر عليه ؛ ولم يقل عنه كلمة طيبة . إنه متضاءل لدرجة هائلة ، يبدو معها كنفاية انفصلت عن شيء ما وسقطت هناك على الأرض .
وأثناء تناول الطعام ألقى بول ملعقته فجأة وصاح :
ـــ أنا لا أفهم هذا ...
فسأله أندريه : ـــ ماذا ؟
ـــ أن يقتل المرء حيواناً لكي يأكل فقط أمرٌ يمكن فهمه ، وأنا

نفسي أستطيع أن أقتل رجلًا تحول إلى وحش كاسر بالنسبة للآخرين ... أما قتل مخلوق بائس ، فلا أدري كيف يستطيع الجاني أن يرفع يده لمثل هذا ؟

وهز أندريه كتفيه وقال :

ــ إنه لم يكن أقل أذى من وحشٍ مفترس . ثم إننا نقتل البعوضة لأنها تمتص قليلًا من دمنا .

ــ نعم ، هذا صحيح ، ولكن ليس هذا ما أريد أن أقول . إني أقول أن عملًا كهذا تتقزز منه نفسي .

وأجاب أندريه وهو يهز كتفيه ثانية :

ــ وما العمل ؟

وخيّم صمت طويل .

ثم قطع بول هذا الصمت وسأل بقلق :

ــ أتستطيع أن تقتل مخلوقاً من هذا النوع ؟

فرمقه البيوروسي بعينيه المدورتين ، ثم ألقى نظرة عجلى على الأم وأجاب بأسى يمازجه الحزم :

ــ من أجل الرفاق ، من أجل قضيتنا ، أقترف كل شيء ، وأقتل حتى إبني .

وصرخت الأم بفتور :

ــ أوه يا أندريه .

فابتسم لها : ــ محالٌ أن نتصرف تصرفاً غير هذا ، فالحياة هي التي تفرض ذلك ..

وردد بول ببطء : ــ أجل ، أجل ، إنها الحياة .

وعصف التأثر ببول فجأة ، فنهض مدفوعاً بعامل خفي وحرك ذراعيه :

ــ ما العمل ؟ إننا مرغمون على كره الانسان لكي نستعجل اليوم الذي نستطيع فيه أن نقدره دونما تحفظ . يجب أن ندمر من يعرقل سير الحياة ، من يبيع الآخرين بالمال ليضمن لنفسه الراحة والأمجاد .

وإذا ما اعترض طريق العادلين يوضاس يتربص بهم ليخونهم فإني أكون أنا نفسي يوضاساً إذا لم أدمره . أليس ذلك من حقي ؟.. وأسيادنا أولئك أمن حقهم أن يسخروا الجند والجلادين والمؤسسات العامة والسجون والمنفى ، وكل ما هو شينٌ وعار ليضمنوا سلامتهم وسعادتهم ؟ ما العمل إذن إذا كنت مرغماً أحياناً على أن أمسك الهراوة بكلتا يديّ ؟ لن أرفض ذلك ، وسآخذها بيدي . إنهم يصرعوننا بالعشرات ، يصرعوننا بالمئات ، وهذا ما يعطيني الحق بأن أرفع يدي وأهوي بها على رأس عدو ، على رأس أقربهم إليّ وأشدهم إيذاءً لجهد حياتي كلها . هكذا صُنعت الحياة ، وأنا أناضل ضدها ؛ ولا أريدها . أنا أعلم أن دم الأعداء لا يُبدع شيئاً . إنه دم غاقر . إن الحقيقة تنمو عندما يروي الدم الأرض كمطر غزير ، في حين أن دمهم فاسد يتبخر دون أن يترك آثاراً ؛ .. ولكنني سأتحمل وزر الجريمة ، سأقتل إذا وجدت ذلك ضروريا ، وبما أنني أتكلم عن نفسي ، فإن الجريمة ستموت معي ، إنها لن تلطخ وجه الغد ، ولن تدنس أحداً سواي .

وكان يروح ويجيء ويده تتحرك أمام وجهه كأنه يقتطع شيئاً ما ويقذفه بعيداً عنه . وكانت الأم تراقبه يملأها الأسى والغم . لقد كانت تشعر بأن جزءاً منها قد تحطم ، وإنها من أجل ذلك تتألم أشد الألم .

وبارحتها الأفكار السوداء الرعديدة التي تساورها عندما تتذكر القاتل وكانت تقول في نفسها : « إذا لم يكن فيسوشيكوف هو الجاني ، فإن واحداً من رفاق بول لا يمكن أن يكونه » . وكان بول يصغي إلى البيوروسي مطرقاً فيما يتابع هذا حديثه بقوة وعناد :

ــ عندما تسير في الطليعة يجب أن تقاوم حتى نفسك يجب أن تعرف كيف تضحي بكل شيء ، أن تضحي بكل قلبك ، وليس بالأمر العسير أن يكرس المرء حياته لقضيته ، أن يموت من أجلها . إبذل ما استطعت البذل ، ضحّ بما هو أغلى من الحياة ، يتنامَ بقوة أعز ما فيك ، تتنامى حقيقتك .

وتوقف في وسط الحجرة ، وكان وجهه قد غدا أشد شحوباً وعيناه

نصف مغمضتين ثم استأنف كلامه وهو يرفع يده كما لو كان يؤدي قسماً عظيماً .

ـــ أنا أعلم أنه سيأتي زمن يتبادل الناس فيه الاحترام والتقدير ، زمن سيكون كل امرىء فيه كالنجم في أعين الآخرين . سيكون ثمة على الأرض رجال أحرار عظماء بحريتهم ، وسيسير كل إنسان مفتوح القلب ، طاهراً من كل حقد ، وسيعيش الناس جميعاً دونما خبث ، ولن تكون الحياة عندئذ هي الحياة ، بل عبادة للانسان ، وستسمو صورته عالياً ، وتذل الذرى السامقة كلها متونها للأحرار . عند ذاك نعيش في الحقيقة والحرية ، نعيش من أجل الجمال . عند ذاك يعتبر الناس أن أفضلهم هم الذين يعرفون جيداً كيف يملأون بالوجود قلوبهم ، والذين يحبون هذا الوجود أعمق الحب ؛ ويصبح أشد الناس تعلقاً بالحرية ، أفضلهم ، ففي نفوسهم يكمن أعظم قدر من الجمال ، وسيكون من العظماء أولئك الذين سينعمون بهذه الحياة .

وصمت قليلاً ثم انتصب وقال بصوت كأنه يأتي من أعماق أعماقه :

ـــ ومن أجل هذه الحياة أنا مستعد لكل شيء .

وارتعش وجهه ، وتساقطت من عينيه ، واحدة بعد أخرى ، دموع كبيرة ثقيلة .

ورفع بول رأسه ونظر إليه . لقد كان هو أيضاً شاحب الوجه ، متمدد الأحداق ، ونهضت الأم من مقعدها ، وكانت تحس أن الأسى القاتم يقترب منها ويزداد نمواً :

وسأل بول بصوت خافت : ـــ ما بك يا أندريه ؟

وعصفت برأس البيوروسي رعدة مفاجأة ، وتشنج كوتر مشدود ، وقال وهو يرنو إلى الأم :

ـــ لقد رأيت ... وأعرف ...

فنهضت الأم واقتربت منه بسرعة وأمسكت بكلتا يديه فحاول أن يسحب يمناه ، ولكنها شدتها بقوة ، وهمست بحرارة :

هدىء من روعك يا عزيزي .
فقال بهدوء :
ـــ مهلاً ، سأروي لك كيف حدث ذلك .
فغمغمت وهي تحدق به والعبرات تملأ عينيها :
ـــ لا حاجة لذلك ، لا حاجة لذلك يا أندريه .
واقترب بول ببطء وقد ربطت عينيه الدموع ، وكان شاحب الوجه يبتسم :
ـــ لقد خشيت الأم أن تكون أنت ... ...
ـــ لست بخائفة . إني لا أصدق ذلك . وحتى لو رأيته بعينيّ ، فلن أصدق أبداً .
وقال البيوروسي دون أن يلتفت إليهما :
ـــ مهلاً .
وكان يهز رأسه ويحاول بلا انقطاع سحب يده :
ـــ لست أنا القاتل ، ولكن كان عليّ أن أحول دون القتل .
وصاح بول : إخرس يا أندريه .
واحتضنت إحدى يديه يد أندريه وألقى بالثانية على كتفه ، كأنه يود أن يهدىء ارتعاش قامته الفارعة ؛ وحوّل أندريه وجهه نحو بول ، وتابع بصوت خفيض متقطع :
ـــ كنت لا أريد ذلك أبداً . وإنك لتعرف هذا جيداً يا بول ... ولكن إليك ما حصل :
لقد سبقتني أنت ، ومكثت أنا في زاوية الشارع مع دراغنوف ، وكان إيساي قد برز من الشارع الآخر ، وتوقف على مسافة منا ، يدمدم وينظر إلينا ، فقال لي دراغنوف : أرأيت ؟ انه يتجسس عليّ وهذا شأنه في كل ليلة ؛ سأقضي عليه .
وانطلق إلى منزله على ما أعتقد ، واقترب إيساي مني .
وأطلق أندريه زفرة ..
ـــ لم يشعرني أحدٌ بالمهانة والضعة كهذا الكلب .

ودون أن تنبس الأم بكلمة ، شدت أندريه من ذراعه ، وجرته نحو الطاولة ، ونجحت أخيراً في إجلاسه على مقعد ، وجلست هي نفسها إلى جانبه ، وظل بول واقفاً أمامها يشد لحيته بانفعال .

ـــ وقال لي أنهم يعرفوننا جميعاً ، وأن رجال الدرك يراقبوننا ، وسيزجوننا في السجن ، في أول أيار . ولم أجبه ، بل ضحكت ولكن الغليان كان قد بدأ في داخلي .

وقال لي بعد ذلك : إني كنت فتىً فطناً وأنه كان يجب عليّ ألا أسلك هذا الطريق بل كان يجب عليّ ....

وتوقف عن الكلام . ومسح وجهه والتمعت عيناه ببريق بارد فقال بول : ـــ فهمت .

ـــ كان يجب عليّ أن أضع نفسي في خدمة القانون .

ومد ذراعه وحرك قبضته المشدودة ، وقال ، وهو يخرج الكمات من بين أسنانه :

ـــ في خدمة القانون ؟ اللعنة لروحه ، فلقد كان يحسن صنعاً لو صفع وجهي ؛ لأن ذلك سيكون أقل إيلاماً لي ، وربما له أيضاً ... ولكنه عندما بصق في قلبي بصاقة النتن ، فقدت صبري .

وسحب يده من يد بول بعنف ، وقال باشمئزاز وبصوت أكثر هدوءاً : ـــ لقد صفعته ومشيت ، ولكني سمعت دراغنوف من ورائي يقول بكل هدوء : ـــ هل وقعت في الفخ ؟...

لقد كان مختبئاً في زاوية من زوايا الشارع بلا شك .

وبعد فترة من الصمت استأنف كلامه :

ـــ ولم أرجع ، ولكنني شعرت بأني سمعت طلقة . ومضيت هادىء النفس كأنني قد ركلت بقدمي ضفدعة . وكنت في المعمل عندما تعالى الصراخ : « لقد قتل إيساي » . لم أصدق ذلك ، ولكن يدي كانت تؤلمني ، ولم أك أستطيع تحريكها لا لأنها تؤلمني فحسب ، بل لأنها كانت كأنها انكمشت وتقاصرت .

ورمق يده بنظرة شزراء :

ـــ من المؤكد أنني لن أستطيع ، طوال حياتي ، أن أغسل هذه اللطخة النتنة .

وقالت الأم : ـــ يكفي أن يكون قلبك نقياً يا صغيري .

فأكد البيوروسي :

ـــ أنا لا أتظلم ، ولكن هذا يثير في نفسي التقزز ، لأني لم أك بحاجة إلى ذلك .

وقال بول وهو يهز كتفيه :

ـــ إني أسيء فهمك ؛ لست أنت الذي قتلته ... ولكنك لو ...

ـــ إن مجرد العلم بالقتل دون منع وقوعه ...

وقال بول بحزم .

ـــ أنا لم أفهم شيئاً من هذا كله ...

ثم أضاف بعد فترة قصيرة من التفكير :

ـــ أي أنني أستطيع فهمه ... أما أن أحسه فلا ...

وعوت صافرة المعمل ، ومال البيوروسي برأسه يصغي إلى زئيرها الصلف الآمر ، ثم قال منتفضاً : ـــ لن أذهب اليوم إلى المعمل .

وقال بول :

ـــ وأنا أيضاً لن أذهب .

وأعلن أندريه باسماً :

ـــ أما أنا فسأذهب لأستحم .

وتهيأ بسرعة دون أن يتلفظ بكلمة ، ثم خرج متثاقلاً ؛ وتبعته الأم بنظرة إشفاق :

ـــ قل ما تشاء يا بول ، فأنا أعلم أن قتل امرىء خطيئة ، ومع ذلك فإني لا أجد في هذه القضية مجرماً . لقد كنت أشفق على إيساي ، فهو صغير جداً كالحشرة ، وعندما رأيته تذكرت أنه هددك يوماً بالشنق . ولم أشعر بالحقد عليه أبداً كما أن موته لم يفرحني . لقد أشفقت عليه من قبل لطيبتي ، أما الآن ... فإني لا أحس نحوه حتى بالشفقة .

وصمتت ، وفكرت لحظة ثم أضافت وهي تبتسم مندهشة :

ــ يا يسوع ... هل تسمع يا بول ما أقول ؟

ولم يكن بول يصغي إليها بلا ريب ، بل كان يذرع أرض الغرفة ببطء وهو مطأطىء الرأس ، متجهم الأسارير :

ــ هذه هي الحياة . أرأيت كيف أن الناس مهيأون ليقف بعضهم في وجه البعض الآخر ؟ وسواء كان ذلك باختيارهم أو على كره منهم ، فإنهم مجبرون على أن يضربوا . ومن ؟ رجلاً مغتصب الحقوق مثلهم ، وأشد شقاء منهم لأنه حيوان . إن رجال البوليس والدرك والجواسيس هم جميعاً أعداء لنا ، ومع ذلك فهم بشر مثلنا . إنهم يُرهقون لدرجة ينضحون معها دماً وعرقاً ؛ ولا يعاملون كبشر . وهكذا يُستعدى الناس بعضهم على بعض وتُسمل أعينهم بالغباوة والخوف ، وتوثق أيديهم وأرجلهم ، ويُضطهدون ويُستغلون ، ويُسحقون ، ويُضرب بعضهم بيد البعض الآخر . لقد مُسخوا بنادق ومطارق وبلاطاً . ثم قيل : هذه هي الدولة !

واقترب من أمه :

ــ إنها لجريمة يا أماه . القتل الفظيع ، قتل الملايين من الكائنات البشرية ، قتل الأرواح . أتدركين ؟ إنهم يقتلون الروح . أرأيت الفرق بيننا وبينهم ؟ عندما يضرب واحدٌ منا إنساناً يشعر بالخجل . يشعر بالتقريع ، فيتعذب ويشمئز ؛ ولكن الآخرين يقتلون الناس بالألوف ، يقتلونهم ببطء ودونما رحمة ، يقتلونهم دون أن يرتعشوا . إنهم يقتلون بلذة ، يذبحون الآلاف لا لغاية إلا ليختزنوا الذهب والفضة ووريقاتٍ لا قيمة لها ؛ ليختزنوا كل هذه التفاهات الحقيرة التي تمنحهم السلطان على الناس . تأملي : إنهم لا يبطشون بالشعب ولا يمثلون به لحماية أنفسهم أو للدفاع عن ذواتهم ؛ إنهم لا يفعلون ذلك من أجل أنفسهم بل من أجل ثرواتهم . إنهم لا يحمون أنفسهم من الداخل ، وإنما يحمونها من الخارج .

وأخذ يدي أمه بين يديه وانحنى يشدهما :

ــ إذا استطعت أن تحسي كل هذا المقت ، وكل ذلك التعفن القذر ، فستدركين حقيقتنا ، وسترين كم هي عظيمة ورائعة .
ونهضت الأم شديدة التأثر ، تملأها الرغبة في أن تصهر قلبها وقلب إبنها في لهب واحد ؛ وهمست وهي تلهث :
ــ رويداً يا بول رويداً . إني أحس ذلك .

25

وسُمع في المدخل وقع خطى ، فارتعشا كلاهما وتبادلا النظرات .
وفتُح الباب ببطء ودخل ريبين بخطوه المتثاقل ، وقال باسماً شامخ الرأس :
ــ هو ذا أنا ، فحيّوني ، وليكن لي شرف الجلوس إلى مائدتكم .
وكان يرتدي فروة خروف قصيرة، يلطخها القار، وينتعل حذاءً من التيل ويتدلى من وسطه عددٌ من الخطاطيف، ويعتمر قبعة من الوبر.
ــ كيف الصحة ؟ هل أطلقوا سراحك يا بول ؟ ... كيف الحال يا بيلاجي ؟
وكانت بسمته عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء ، وفي صوته جرسٌ شديد الحلاوة ، وكانت لحيته تشغل قطاعاً واسعاً من وجهه .
ودنت الأم منه وهي سعيدة بلقائه ، وشدت على يده السوداء الضخمة وقالت وهي تتنشق رائحة القار القوية الطيبة التي كانت تفوح منه : ــ أهذا أنت ؟ إني لجد مسرورة .
وتفحّص بول ريبين باسماً : ــ إنك تبدو كفلاح وسيم .
ونزع ريبين فروته ببطء :
ــ أجل . لقد عدت فلاحاً ، أما أنتم فإن بعض مظاهر السادة تبدو عليكم ، ... إني أعود إلى الوراء .. فتأملوا .
ودخل وهو يسوّي دراعته المصنوعة من الكتان ، ويلقي على الحجرة نظرة شاملة .

ــ الأثاث : لم يزُد عليه شيء على ما أرى .. أما الشيء الذي ازداد فهو عدد الكتب . الخلاصة .. كيف سير الأعمال ؟

وجلس وهو يباعد بين ساقيه ، ويضع باطن كفه على ركبته ، ويتأمل بول بنظرة فاحصة من عينيه السوداوين ، وينتظر الجواب باسماً وبكثير من السذاجة .

وقال بول :

ــ ليست الأعمال سيئة على كل حال .

وثرثر ريبين :

ــ إنهم يحرثون ويزرعون دون تباه ، وسيجنون ما زرعوا ؛ وسيطبخون الحثالة ، ويقطرون ، ويدخرون مبلغاً طيباً . أليس هذا صحيحاً ؟

وسأله بول وهو يجلس قبالته :

ــ وأنت كيف حالك يا ميشيل ؟

ــ لا بأس . فالأمور على ما يرام . لقد توقفت قليلًا في أغيدبيغو .. أتعرفون أغيدبيغو ؟ إنها قرية جميلة يُقام فيها معرضان في السنة ، ويزيد تعدادها على ألفي نسمة من الناس الأشرار ؛ وليس فيها أراضٍ ، وإنما يستأجر أهلوها الأراضي ، لأن تربتها لا تصلح أبداً . لقد عملت فيها عند أحد مصاصي الدماء ، وهم كثيرون هناك ، ككثرة الذباب على جيفة . إنهم يستخرجون الزفت ، ويصنعون الفحم ، وكنت أقبض أقل من الأجر العادي بأربع مرات ، وأبذل ضعفي ما أبذله من جهد هنا . لقد كنا سبعة عمال في خدمة هذا النهم . وكلهم من شبان المنطقة ما عداي . جميعهم يعرفون القراءة ، وبينهم فتىً يهيم بها إسمه « إيفيم » .

وسأله بول بحماسة : حسناً .. وهل كنت تتحدث معهم ؟

ــ كنت لا أصمت أبداً . لقد اصطحبت معي « وريقاتكم » . كنت أحمل منها أربعاً وثلاثين ، غير أنني كنت أفضل استعمال « انجيلي » .. ففيه يجد المرء كل ما يريد وهو كتاب ضخم غير

ممنوع . إن الكنيسة هي التي طبعته .. لذلك يستطيع المرء أن يصدقه .

وتطلع إلى بول وغمزه ثم ابتسم :

ـــ ولكن ذلك لا يكفي ، فلقد أتيناك باحثين عن « منشورات » ؛ ونحن هنا إثنان : إيفيم وأنا . لقد كنا ننقل كمية من الزفت ، واغتنمنا الفرصة لنراك . إنك ستزودني ، بلا شك ، بمؤونة .. قبل أن يصل إيفيم .. فهو ليس بحاجة لأن يعرف الكثير ..

وكانت الأم ترنو إلى ريبين ، وخيل إليها حين نزع سترته أنه تعرى من شيء آخر ؛ لقد فقد شيئاً من وقاره ، وغدت نظراته أكثر خبثاً ، وأقل صراحة .

وقال بول :

ـــ إحضري لنا قليلًا من الكتب يا أماه . إنهم يعرفون ماذا يجب أن يعطوه ، قولي لهم أن هذه الكمية سترسل إلى الريف .

وأجابت الأم :

ـــ حسناً ، ولكن الشاي يوشك أن يكون جاهزاً ؛ وسأذهب بعد ذلك . وسأل ريبين ضاحكاً :

ـــ وأنت أيضاً يا بيلاجي تهتمين بمثل هذه الأمور ؟ إن في قريتنا كثيراً من عشاق الكتب ، والمعلم نفسه يرغب بها ويتذوقها . يقال أنه فتى طيب رغم أنه تربّى في مدرسة أكليركية . وهناك أيضاً معلمة مدرسة على بعد سبعة أو ثمانية كيلومترات .. ولكنهم جميعاً لا يريدون أن يقرأوا كتباً ممنوعة ؛ فالدولة هي التي تدفع لهم رواتبهم .. وهم يخافون . يلزمني كتاب واحد من هذه الكتب الممنوعة ؛ كتابٌ لاذع جداً ، لأهربه لهم في الخفاء .. وسيعتقد رجال البوليس أو الكاهن إذا ما رأوا هذا الكتاب الممنوع أن معلمي المدرسة هم الذين يقومون بالدعاية .. فلا يتاح لهم أن يعرفوني .. لأني بعيد عن اللعبة .

وقهقه فخوراً بدهائه وخبثه ، قهقه حتى بدت نواجذه .

وحدثت الأم نفسها :

ـــ أرأيت ؟ له مظهر الدب .. ولكنه ثعلب .

وسأل بول : ـــ أتعتقد أنهم يزجون بالمعلمين في السجن إذا ما ارتابوا بأنهم هم الذين يوزعون الكتب الممنوعة ؟

ـــ نعم ... وماذا يعني ذلك ؟

ـــ أنكم أنتم الذين توزعونها .. وليسوا هم ، فالعدل يقضي بأن تزجوا أنتم في السجن .

وصاح ريبين ضاحكاً وهو يضرب ركبته بكفه :

ـــ أيها الخبيث اللعين . من سيفكر بأني أنا ، أنا الفلاح البسيط أهتم بأمور كهذه ؟ هل سبق لهم أن رأوا من قبل مثل ذلك ؟ ... إن الكتب من عمل « السادة » وعليهم وحدهم أن يتحملوا المسؤولية .

وشعرت الأم أن بول لا يدرك ما يقوله ريبين ، وأنه مقطب الجبين ، غاضب ، فتدخلت في الحديث ، وقالت بصوت عذب مسالم :

ـــ يريد ميشيل إيفانوفتيش أن يهتم بهذه الأمور ، على أن ينال الآخرون العقاب نيابة عنه ...

فوافق ريبين على قولها وهو يداعب لحيته :

ـــ بالضبط ... ولكن هذا سيكون بصورة موقتة .

ورد بول بجفاف :

ـــ لو قام واحد من بيننا يا أماه ، أندريه مثلًا ، بعمل ما ، وانتحل إسمي ، فزججت في السجن عقاباً على ذلك العمل .. فماذا يكون شعورك ؟

فارتعشت الأم ورنت إلى ابنها بدهشة ، وأجابت وهي تهز رأسها مستنكرة :

ـــ كيف يمكن أن يتصرف امرؤ مثل هذا التصرف بحق رفيق ؟

فقال ريبين بصوت متساحب :

ـــ آه ... آه ... لقد أدركت الآن قصدك يا بول .

وغمز بخبث وخاطب بيلاجي :

ـــ هذا ، أيتها الأم ، عمل لطيف .

ثم استدار نحو بول ، وقال بلهجة الحكيم :

ـــ إنك ما زلت غراً يا فتاي الصغير . فلا مكان للشرف في الأمور الخارجة على القانون . فكر قليلا : إنهم أولًا ، يزجون في السجن من يعثرون على الكتاب في حوزته وليس معلمي المدرسة . هذه واحدة . ثانياً : إن الكتب المسموح بها والتي يوزعها هؤلاء المعلمون تتضمن ما تتضمنه الكتب الممنوعة ، ولكن بكلمات مختلفة ، ونسبة من الحقيقة أقل . هذه ثانية . وهذا يعني أنهم يريدون الوصول إلى نفس الغاية التي استهدفتها أنا ... ولكنهم يسلكون من أجل ذلك طريقاً ضيقاً ، كثير المنعطفات ، في حين أسلك أنا الطريق المستقيم ... أما جريمتنا في نظر السلطة فهي واحدة ... أليس هذا صحيحاً ؟ وثالثاً : يا بني .. لا شأن لي أنا معهم ... لأن الرجل لا يكون رفيقا للفارس . ومن المؤكد أنه لا يمكن أن أزج فلاحاً في مثل هذا العمل ، أما هما فأحدهما ابن كاهن ، والثاني ، وهو الفتاة ، إبنة ملاك كبير . فأية مصلحة لهما إذن في إثارة الشعب ؟... لا أدري ... أنا فلاح بسيط لا أدرك أفكار المثقفين ، ولا أعرف إلا ما أعمله أنا نفسي . أما ما يريدونه هم ... فأني لا أريد أن أعرفه .. لقد ظل الكبار يمثلون بدقة دورهم كأسياد طوال ألف عام ؛ لقد سلخوا جلد الفلاح .. وها هم يستيقظون فجأة ... وها أنذا أفتح عيون الفلاح الروسي . أنا لا أؤمن يا بني بحكايات الجن . ولكن هذا ، كما ترى ، يشبه تلك الحكايات . إن أولئك السادة ، من أي صنف كانوا ، بعيدون كل البعد عني ، فلو كنت أسير في الحقول شتاءً ، تحرك أمامي كائنٌ حيٌ ، فماذا عساه يكون هذا الكائن ؟ قد يكون ذئباً أو ثعلباً ، وقد يكون ، بكل بساطة كلباً ، ولكني ، على كل حال ، لا أستطيع أن أميزه لأنه بعيدٌ عني كل البعد .

... وألقت الأم نظرة عجلى على إبنها فإذا ملامحه تنم عن ألمه .

وكانت عينا ريبين تلتمعان ببريق قاتم ، وكان ينظر إلى بول بادي الرضى ، ويمرر ، بدعة ، أصابعه على لحيته :

ــ ليس لدي الوقت الكافي لأتظرف . فإن الحياة نفسها لا تمزح أبداً ؛ والكلب في الوقار الحقير ليس كالكلب في الحظيرة ... ولكل سرب من الكلاب طريقته في النباح .

وقالت الأم وهي تفكر في بعض الوجوه التي تعرفها :

ــ هناك سادة يضحون بأنفسهم من أجل الشعب ويتعذبون طوال حياتهم في السجون .

ــ هؤلاء يختلف أمرهم عن الآخرين ؛ فعندما يثري الفلاح يتحسس بالسيد ، وعندما يفتقر السيد يلجأ إلى الفلاح ؛ وتظل النفس حتماً طاهرة صافية ما دامت المحفظة خاوية ... أتذكر يا بول ! لقد شرحت لي مرة أننا نفكر على نسق الحياة التي نحياها ؛ فإذا قال العامل « نعم » وجب على السيد أن يقول « لا » ؛ وإذا قال لا ، فإن السيد بطبيعته كسيد يصرخ بضراوة : « نعم » ، وهكذا فإن الفلاح والسيد يختلفان في طبيعتهما ، فعندما يأكل الأول كفافه لا ينام الثاني ليله من التخمة . مما لا شك فيه أن في كل طبقة فئة سافلة ؛ .. فأنا شخصياً لا أوافق على الدفاع عن الفلاحين جميعاً .

وانتصب أسود اللون قوياً ، وكان وجهه يتجهم ولحيته ترتعش ، كأنما تصطك أسنانه ، ثم تابع وهو يخفض من صوته :

ــ لقد همت على وجهي من معمل إلى معمل ، طوال سنوات خمس ، حتى نسيت الريف . وها أنذا أعود إليه . لقد شاهدت ما يحدث هناك فقلت لنفسي :

أنا لا أستطيع أن أعيش هكذا . أتفهمين ؟ لا أستطيع . أما أنتم الذين تعيشون هنا ، فإنكم لا تعرفون شيئاً من تلك المخازي . هناك ، في القرية ، يلاحق الجوع الانسان كظله ؛ ولا أمل مطلقاً في أن تتوفر له الكفاية من الخبز . لقد افترس الجوع النفوس ، وصنع مخلوقات ليس لها وجه الانسان . إنهم هناك لا يعيشون . إنهم يتعفنون في حضن بؤس لا نستطيع أن نتصوره ، وتقيم السلطات حولهم نطاقاً من الحراسة اليقظة ، وتتربص بهم كالغربان لترى ما إذا كنت تملك كسرة

زائدة ، فإذا رأت تلك الكسرة إنتزعتها منك ، ولطمتك ، فوق ذلك ، على فمك .

وأجال ريبين بصره فيما حوله ، ومال نحو بول وهو يسند يديه إلى الطاولة :

ـــ لقد اجتاحتني الرغبة في التقيؤ عندما شاهدت هذه الحياة عن كثب ؛ وكنت أفكر اني لا أستطيع تحملها ، ولكني ، مع ذلك تمالكت نفسي ، وقلت في سري : لا ، لا تكن غراً ، سأبقى هنا . إني لن أمنحهم الخبز ، ولكنني سأثير المشكلة ، أجل يا بني ، إني أحمل الضغينة لأولئك الذين يصنعون الشر للناس ، فلقد انغرزت المهانة في قلبي كسكين .. ومن أجل ذلك ... يرتعش قلبي .

وكان العرق يغطي جبهته . واقترب من بول ببطء ، ووضع على كتفه يداً مضطربة :

ـــ ساعدني . اعطني نوعاً من الكتب لا يعرف أي إنسان طعم الراحة بعد أن يقرأها . يجب أن نضع قنفذاً تحت كل جمجمة ؛ قنفذاً يحسن الوخز . وقل لجماعتك في المدينة ، أولئك الذين يكتبون لك ، قل لهم أن عليهم أن يكتبوا أيضاً لناس الريف . ليطبخوا لنا ، على مهل ، مرقة كثيرة الأفاوية ؛ وليوزعوها على القرى ، فإن فلاحينا سيقتتلون من أجلها حتى الموت .

ورفع ذراعه ، ثم أضاف بصوت هادىء وهو ينثر مقاطع كل كلمة :

ـــ لنداوِ الموت بالموت . هذا ما نريده . ومعنى ذلك أنه يجب أن نموت ليبعث العالم ، أن تموت الألوف لتحيا الملايين في الأرض كلها . أجل هذا ما نريده ، وإنه ليسير أن يموت الناس ، إذا كانوا سيبعثون ، إذا كانوا سينتفضون من قبورهم .

وحملت الأم إبريق الشاي وهي ترمق ريبين بنظراتها الشزراء . لقد كانت كلماته العنيفة القاسية ترهقها أشد الارهاق ، وكان فيه شيءٌ ما يذكرها بزوجها : فرجة فمه ، وحركات يده حين يشمر أكمامه . ولقد

كان مثله أيضاً ، يتأجج بسعار لا يعرف الصبر ، ولكنه سعار صامت .

أما ريبين فكان لا يزال يتكلم ، ولكنه كان يبدو أقل رهبة من ذي قبل .

وقال بول وهو يهز رأسه :

ــ أجل . إن هذا ضروري . اعطونا وقائع نطبع لكم جريدة :

ونظرت الأم إلى ابنها باسمة ، ثم ارتدت ثيابها دون أن تنبس بكلمة ، وخرجت .

وصاح ريبين :

ــ إفعلوا ذلك وسنقدم لكم كل ما يلزم ... ولا تكتبوا أشياء معقدة ، لكي تستطيع حتى العجول نفسها أن تفهم .

وفتح باب الرواق ودخل أحدهم .

وقال ريبين وهو ينطلق نحو المطبخ ليرى من القادم :

ــ إنه إيفيم . تعال إلى هنا يا إيفيم ... هذا الفتى هو بول الذي حدثتك عنه .

وانتصب أمام بول فتى صلب العود ، عريض الوجه ، أصهب الشعر ، رمادي العينين ، يرتدي فروة خروف نصفية ؛ ونظر إليه من أسفل ، وقال بصوت مبحوح :

ــ تحية .

ثم شد يد بول ، ورد إلى الوراء شعره العصي ، وأجال طرفه في الغرفة ثم اتجه بخطىً تائهة وئيدة نحو الرف المثقل بالكتب .

وقال ريبين وهو يغمز بول :

ــ لقد رآها .

واستدار إيفيم ، ونظر إلى بول ثم راح يتفحص الكتب قائلاً :

ــ حسناً ... إن عندكم ما تقرأونه .. ولكن ، من المؤكد ، ان ليس لديكم متسع من الوقت للقراءة . أما عندنا في الريف فالوقت يتسع لذلك .

وقال بول : ــ ولكن الرغبة في القراءة أقل :

وأجاب الفتى وهو يحك ذقنه :

ــ لماذا ؟ بالعكس . إن الناس عندنا بدأوا يحركون عقولهم قليلًا ...

وتابع وهو يحدق في أحد الكتب :

ــ علم طبقات الأرض ؟ ماذا يعني ذلك ؟

وأخذ بول يشرح له . وقال إيفيم وهو يعيد الكتاب إلى مكانه :

ــ لا حاجة لنا به . إن الفلاح لا يهمه أن يعرف من أين جاءت الأرض ، بل يهمه أن يعرف كيف توزعت ؛ وكيف انتزعها الكبار من تحت أقدام الشعب ؛ وسواء كانت هذه الأرض تدور أو لا تدور ، فلا أهمية لذلك ؛ لأنك تستطيع أن تعلقها بحبل ، أما المهم فهو أن تعطي ما يؤكل ، أن تغذي البشر الذين يعيشون عليها .

وقرأ إيفيم إسم كتاب آخر : « تاريخ الرق » فسأل :

ــ هل تتحدثون فيه عنا ؟

فقال بول وهو يناوله كتاباً آخر :

ــ هو ذا كتاب سيبحث في القنانة .

فأخذه وقلبه بين يديه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وقال بهدوء :

ــ هذا يتحدث عن الماضي .

ــ هل لديكم أرض مأجورة ؟

ــ نحن ؟ نعم ... لدينا . ونحن ثلاثة أخوة ، نملك أربعة هكتارات من الأراضي الرملية . إنها صالحة لتنظيف النحاس ولكنها لا تصلح أبداً لانبات القمح وهي لا تساوي شيئاً .

وتابع ، بعد أن صمت قليلًا :

ــ لقد تحررتُ من الأرض ، فأي نفع فيها ؟ إنها لا تطعم صاحبها بل تغل يديه . وها قد مرت سنوات أربع وأنا أعمل كأجير زراعي . وفي الخريف سأغدو جندياً . لقد قال لي الأب ميشال : « لا تذهب ، فهم يرسلون الآن الجنود لقتال الشعب » .

ومع ذلك فسأذهب . إن الجيش يحارب الشعب منذ « ستيبان رازين » و « بوغاتشيف » [3]وقد آن الأوان لأن يوضع حدٌ لذلك .

وركز بصره على بول وسأله :

ـــ ماذا تقول :

فأجاب بول وهو يبتسم : ـــ أجل لقد آن الأوان ، ولكن الأمر صعب ... يجب أن نعرف ماذا نقول للجنود ؛ وكيف نخاطبهم .

فقال إيفيم :

ـــ سنتعلم ، وسنحسن ذلك جيداً .

فرد بول وهو يرمق إيفيم بفضول :

ـــ يمكن أن يعدموك رمياً بالرصاص إذا قبضوا عليك .

وهمهم الفتى : إنهم لم يمنحونا الغفران .

وعاد إلى تفحص الكتب وقال ريبين :

ـــ إشرب شايك يا إيفيم ، فينبغي أن نرحل سريعاً .

ـــ ها أنذا آت .

ووقعت عينه على كتاب يحمل إسم « الثورة » فصاح :

ـــ الثورة ؟ هل يعني هذا « التمرد » ؟

وتقدم أندريه مضرج الوجه منفعلاً ، فشد على يد إيفيم دون أن يتفوه بكلمة ثم جلس إلى جانب ريبين وراح يضحك وهو يتأمله .

وسأله ريبين ، وهو يضربه بيده على فخذه :

ـــ إنك لست منشرحاً .

فأجاب البيوروسي :

ـــ هذا صحيح .

وسأل إيفيم وهو يشير إلى أندريه بإيماءة من رأسه :

ـــ هل هو أيضاً عاملاً ؟

فأجاب أندريه : ـــ نعم ... فماذا تقصد ؟

فشرح ريبين : ـــ هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها عامل مصنع ... إن هؤلاء كما يقول ... يتميزون عن الآخرين .

فسأل بول : ــ بماذا ؟
وتفحص إيفيم أندريه بدقة ثم قال :
ــ إن عظامكم مدققة ، أما الفلاح فعظامه أكثر استدارة .
وأكمل ريبين : إن الفلاح يقف على رجليه بثبات أكثر . إنه يشعر أن الأرض تحت قدميه ؛ رغم أنها ليست له . إنه يحسها . إنها الأرض . ولكن عامل المصنع كالطائر لا وطن له ولا منزل ، إنه اليوم هنا ، وغداً هناك . حتى المرأة لا تستطيع أن تربطه بمكان ، فلا يكاد ينشب بينهما جدال حتى يقول لها : « وداعاً يا حلوتي » ثم ينطلق باحثاً عن حياة أفضل ، في مكان آخر ؛ أما الفلاح فيفضل أن يعمل في بيته دون أن يتنقل ... آه .. هي ذي الأم قد عادت .
ودنا إيفيم من بول وسأله :
ــ لعلك ستقدم إلي كتاباً ؟
ــ بكل سرور .
وبرقت عينا الفتى بشعاع النهم ، وقال بحرارة :
ــ سأعيده ، إن فتياننا ينقلون الزفت إلى مكان ليس ببعيد ؛ وسأكلفهم بإعادته إليك .
وكان ريبين قد ارتدى معطفه وشد حزامه :
ــ هيا بنا ... لقد دهمنا الوقت .
وقال إيفيم وهو يريه الكتب ، وترتسم على شفتيه بسمة عريضة :
ــ لقد حصلت على شيء أقرؤه .
وعندما انطلقا ، صاح بول مخاطباً أندريه :
ــ أرأيت إلى هؤلاء الشياطين ؟
فرد البيوروسي ببطء : ــ نعم .. إنهم كالسحاب ...
وقاطعته الأم : ــ هل تتحدثان عن ريبين ؟ لكأنه لم يكن أبداً في المعمل ؛ فلقد غدا فلاحاً بحتاً ، لكم هو رهيب .
وقال بول لأندريه الذي كان يجلس قرب النافذة يتأمل قدح الشاي وهو متجهم الأسارير :

ــ لم تكن هنا ، فيا للخسارة . ولو كنت لاستطعت أن تشهد فورة قلب ، أنت الذي تتحدث دائماً عن القلب . لقد عرض ريبين آراء مثيرة هزتني .. ؛ وكادت تخنقني ؛ ولم أستطع حتى الرد عليه . لكم هو حذرٌ من الناس ، ولشد ما يحتقرهم . لقد صدقت الأم ، فهذا الرجل يحمل في نفسه قوة رهيبة :

وقال أندريه محتفظاً بتجهمه :

ــ رأيت ذلك . لقد سمموا الناس ، وسيجتاح هؤلاء ، عندما يثورون ، العقبات كلها ، واحدة بعد أخرى . إنهم يريدون الأرض خالصة لهم ، وسيحطمون كل ما يحول بينهم وبين هذه الغاية .

وكان يتكلم بأناة ، ويبدو على ملامحه أنه يفكر بأمر آخر . وقالت له الأم تداريه :

ــ يجب أن تتحرك يا عزيزي أندريه .

فأجاب بهدوء ورقة :

ــ إنتظري أيتها الأم الصغيرة .. إنتظري .

ثم أردف وقد انفعل فجأة ، ضارباً على الطاولة بقبضة يده :

ــ نعم يا بول . سيأتي الفلاح على كل ما تحمل الأرض عندما يفيق من كبوته ، وكما تحرق آثار الطاعون سيحرق هو كل شيء ، ليدفن في الرماد كل آثار مهانته .

وزاد بول بتؤدة :

ــ وسينتصب بعد ذلك في طريقنا .

ــ إن مهمتنا يا بول تنحصر في ألا نسمح له بذلك . مهمتنا أن نردعه ، فنحن أقرب الناس إليه ، وسيصدقنا ، ويسير وراءنا .

ــ أتعرف أن ريبين يقترح علينا إصدار جريدة خاصة للريف ؟

ــ هذا ما ينبغي عمله .

وقال بول ضاحكاً : ــ يخجلني اني لم أبحث الأمر معه .

ولاحظ أندريه بهدوء :

ــ ستسنح الفرصة المناسبة لذلك ؛ ويكفي أن تنفخ مزمارك

ليرقص على صوته أولئك الذين لا تنغرس أرجلهم في الأرض . لقد صدق ريبين فنحن لا نحس الأرض تحت أقدامنا ، ويجب ألا نحسها ، لأننا نحن المهيأون لدفعها إلى الحركة ؛ سنهزها مرة واحدة فينقلع الناس منها ، ثم نهزها ثانية فينقلون منها أيضاً .

وابتسمت الأم :

ـــ في نظرك كل شيء بسيط يا أندريه .

ـــ نعم ... بسيط كالحياة .

وبعد لحظات أردف : ـــ سأنطلق إلى الحقول في جولة ...

فاعترضت الأم : بعد أن استحممت ؟ إن الهواء ينفخ في الخارج وهذا ما يؤذيك .

ـــ وهذا بالضبط ما أحتاج إليه ...

وقال بول برقة :

ـــ حذار ، قد يصيبك برد ، ومن الأفضل أن تنام .

ـــ كلا ... أريد أن أخرج .

وارتدى ثيابه ثم مضى دون أن يتفوه بكلمة .

وعلقت الأم وهي تطلق زفرة :

ـــ إنه متعب .

فقال لها بول : ـــ لقد أحسنت صنعاً إذ خاطبته بعد هذه القصة بصيغة المفرد .

فرشقته بنظرة اندهاش :

ـــ ولكني لم أنتبه لذلك . فلقد أمسى قريباً إليّ جداً و ... لا أدري كيف أقول لك !

فقال بول بهمس : ـــ ما أطيب قلبك يا أماه .

ـــ ليتني أستطيع أن أقدم لك بعض المساعدة ، لكم جميعاً . لو كنت أعرف ...

ـــ لا تخافي فسوف تعرفين .

وشرعت تضحك بهدوء :

ـــ وهذا أيضاً ما لا أعرفه : ـــ « ألا أخاف . »

ـــ حسناً يا أماه ، لندع الكلام في هذا الموضوع ، وتأكدي إني معترف لك بالجميل كل الاعتراف .

وهرولت إلى المطبخ كيلا يرى دموعها .

وعاد أندريه في ساعة متأخرة من المساء منهكاً ، وذهب إلى فراشه على التو وهو يقول :

ـــ أعتقد اني اجتزت عشرة كيلو مترات على الأقل ..

فسأله بول : ـــ هل في ذلك فائدة لك ؟

ـــ أنا ذاهب لأنام فلا تزعجني .

وصمت ، ثم غفا ، كجذع شجرة .

وبعد قليل أقبل فيسوشيكوف رث الثياب ، قذراً ، ناقماً كعادته ، وسأل وهو يضرب الأرض برجليه :

ـــ ألم تعرف من هو الذي قتل ذلك الوغد إيساي ؟

فرد بول بإيجاز : ـــ كلا .

ـــ هناك شخص لم يثر ذلك إشمئزازه . وأنا الذي كنت أعد نفسي دائماً لخنقه . وهذا ما كان يجدر بي .

وقال له بول بلهجة حميمة :

ـــ لا تقل مثل هذه الأشياء يا نيقولا .

وتدخلت الأم وقالت بود : ـــ هذا صحيح . إنك طيب القلب ومع ذلك لا تفتر عن الزئير . فعلام ذلك ؟

وكانت ، في هذه اللحظة ، تحس بشيء من الرضى لرؤيته ، حتى أن وجهه المجدور بدا لها جميلًا . وقال ، وهو يهز كتفيه :

ـــ أنا لا أصلح إلا لمثل هذه الأشياء . إني أفكر وأفكر ... أين هو مكاني ؟ فلا أرى لي مكاناً . يجب أن أتحدث إلى الناس ولكنني لا أعرف كيف أتحدث . إني أرى كل شيء ، أرى المآسي التي يصنعونها للناس ، وأحس هذه المآسي ولكنني لا أستطيع أن أرويها ... إن روحي خرساء .

ودنا من بول مطأطيء الرأس يحك الطاولة بأصبعه ، وقال بصوتٍ شاك كصوت طفلٍ ، بصوت كأنه يصدر عن سواه :

ــ يا شباب ... كلفوني بعمل شاق ، أي عملٍ ، فأنا لا أستطيع أن أعيش هكذا دون أن أعمل شيئاً . إنكم جميعاً في صميم المعركة ، والأمور تسير بالنسبة لكم سيراً حسناً ، أما أنا فأقف بعيداً ... أنقل الجسور والأخشاب . إني لا أستطيع أن أعيش من أجل هذا ، فكلفوني بعملٍ شاق .

وأخذه بول من يده وجذبه إليه :

ــ سنكلفك .

ولعلع صوت أندريه من وراء الحاجز :

ــ سأعلمك يا نيقولا أحرف الطباعة ، وستصبح أحد منضدي الأحرف عندنا فهل توافق ؟

واقترب فيسوشيكوف من الحاجز وقال :

ــ إسمع . إذا علمتني ، فسأقدم لك سكيناً كهدية .

فصاح به أندريه : ــ إذهب إلى الشيطان بسكينك .

ثم انفجر ضاحكاً .

وألح نيقولا : ــ إنها سكين عظيمة .

وأخذ بول أيضاً يضحك ؛ فتوقف فيسكوشيكوف وسأل :

ــ هل تضحكان مني ؟

فأجاب أندريه وهو يثب من سريره ؟

ــ نعم ... ولكن إسمع : تعالوا نهيم في الحقول فإن ضوء القمر جميل . هل تذهبون ؟

فقال بول : ــ حسناً .

وأعلن نيقولا : ــ وأنا معكم أيضاً ، فأني أحبك أيها البيوروسي وأنت تضحك .

ــ وأنا أحبك أيضاً حين تعد بالهدايا !

وحين كان يرتدي ثيابه في المطبخ قالت له الأم بلهجة مؤنبة :

ـــ أسرع في ارتداء ثيابك ... أسرع .

وعندما خرجوا ، وثبت إلى النافذة تلاحقهم ببصرها ، ثم ألقت نظرة على صور القديسين ، وقالت بصوت خافت :

ـــ يا آلهي .. كن في عونهم .

26

كانت الأيام تمر سراعاً ، فلا تدع للأم متسعاً من الوقت للتفكير في أول أيار ، ولكنها كانت حين تأوي ، في الليل ، إلى فراشها ، تعبى من انفعالات النهار وعمله الصاخب ، تشعر بقلبها ينقبض بهدوء :

ـــ عجّل بالاطلال يا أول أيار .

وكانت صافرة المعمل تعوي عند الفجر ، فيشرب بول وأندريه شايهما على عجل ، ويتناولان طعاماً خفيفاً ثم يمضيان ، تاركين على عاتق الأم كثيراً من المهام .

وتظل هي ، طوال النهار ، تدور كالسنجاب السجين ، تهيىء الطعام ، وتحضّر مادة بنفسجية لطبع النداءات ، وصحفاً للاعلانات . وكان يأتي إليها مجهولون فيسلمونها بطاقات مرسلة إلى بول ، ثم ينسحبون بعد أن يقدموا لها احترامهم .

وكانت النداءات التي تدعو العمال إلى التعطيل في أول أيار تلصق على الجدران كل ليلة تقريباً ، وكانت هذه النداءات تظهر حتى على أبواب مخفر الدرك ، كما يُعثر عليها كل يوم في المعمل .

وفي الصباح كان رجال البوليس يروحون ويجيئون في الضاحية ، فينزعون ويمزقون الأوراق البنفسجية شاتمين ، ولكن هذه الأوراق كانت تعود عند الظهيرة فتتطاير في الشارع من جديد ، وتتساقط تحت أرجل المارة . وجيء من المدينة بعدد من رجال الامن المدنيين ، فتمركزوا في منعطفات الشوارع ، يلاحقون بأبصارهم العمال الذين كانوا ينطلقون إلى الغداء مرحين نشيطين ، أو الذين كانوا يعودون بعده

إلى المعمل . وقد أسعدهم جميعاً أن يروا البوليس عاجزاً ، حتى أن الطاعنين منهم كانوا يتهامسون ، والبسمة تختال على شفاههم :

ـــ ماذا يفعلون ؟ ها ؟

وكانت الحلقات الصغيرة تنعقد في كل مكان ، فيدور الجدل بحرارة حول النداءات التي تقض المضاجع ، وكانت الحياة تغلي ، فلقد أثارت ، في فصل الربيع هذا ، إهتمام الجميع ، وكانت تحمل لكل فرد شيئاً جديداً . تحمل للبعض سبباً جديداً للحقد على المخربين ، ولاغراقهم بالشتائم ؛ وللآخرين قلقاً مزعجاً وأملاً ؛ ولآخرين غيرهم ـــ وهم الأقلية ـــ فرحاً غامراً ، وشعوراً بأنهم هم القوة التي توقظ الناس .

وكان بول وأندريه لا ينامان إلا لماماً ، وكان يصلان ، قبل أن ترسل الصافرة نداءها ، بقليل ، يصلان منهكين ، شاحبي الوجه ، مبحوحي الصوت . وكانت الأم تعرف أنهما كانا ينظمان الاجتماعات في الغاب ، وفي المستنقع ، ولم تكُ أن فصائل من الشرطة كانت تقوم ، خلال الليل ، بدوريات حول الضاحية ، وكان الجواسيس يطوقون فيفتشون العمال الذين يسيرون منفردين ، ويفرقون الجماعات ، ويوقفون بعضهم أحياناً . لقد كانت تدرك أن ابنها وأندريه معرضان للتوقيف ، كل ليلة ، وتكاد تتمنى ذلك ففي التوقيف ، كما كان يبدو لها ، خيرٌ لهما .

وأسدل ظلّ غريب من الصمت على مقتل إيساي ؛ وكان البوليس المحلي قد استجوب بعض الناس حول هذا الموضوع ، بضعة عشر رجلاً على الأخص ، ثم أسدل ستار الاهمال على القضية . وروت ماريا كورسونوف للأم ، في حديث لها معها ، ما قيل للبوليس الذي خاطبته هي أيضاً كالآخرين بعبارات رائعة :

ـــ كيف يمكن العثور على الجاني ؟ فإن نحواً من مئة شخص ربما كانوا قد رأوا إيساي هذا الصباح ؛ وتسعين منهم على الأقل ودوا لو يصفعونه . لقد أمعن في مضايقة مواطنيه خلال سبع سنوات .

وكان التغير يبدو في ملامح البيوروسي ؛ فلقد غارت وجنتاه ، وانسدلت أجفانه المتثاقلة على عينيه الجاحظتين فأطبقتهما نصف أطباقه ، وانحدرت تجعدة خفيفة من فتحتي أنفه حتى زوايا شفتيه ، وقل كلامه عن الأشياء والأعمال والحوادث اليومية ، ولكنه كان يزداد انفعالاً ويغدو فريسة حماس يستبد بسامعيه ، فيمجد الغد ، ذلك العيد الرائع المشرق ، عيد انتصار العقل والحرية .

وعندما ضاع مقتل إيساي في لجة النسيان ، قال البيوروسي يوماً بلهجة إزدراء وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـــ إن أعداءنا لا يكرهون الشعب فحسب بل إنهم أيضاً لا يحبون أولئك الذين يستخدمونهم كالكلاب لمطاردتنا ؛ وإذا أسفوا عليهم ، فإنهم لا يأسفون على « يوضاسهم » المخلص ، وإنما يأسفون على أموالهم .

وقال بول بحزم : ـــ كفى يا أندريه .

وأضافت الأم بصوت خافت :

ـــ لقد تعثرنا بجذع نخر ، فتهاوى وتناثر كالغبار .

وأجاب أندريه بضيق :

ـــ « هذا صحيح ، ولكنه لا يبعث في النفس العزاء » وكان يردد في أغلب الأحيان هذه الكلمات التي تكتسب بين شفتيه معنى خاصا ، يحيط بالأشياء كلها ، معنىً لاذعاً شديد المرارة ...

... وأقبل اليوم المنتظر ؛ يوم أول أيار .

.. وعوت صافرة المعمل كعادتها أمّارة قهّارة ، وقفزت الأم التي لم تستطع أن تغمض أجفانها طوال الليل ، قفزت من سريرها ، وهيأت الشايّ المعد منذ العشية ، ثم انطلقت ، كالعادة ، تطرق باب الغرفة التي ينام فيها أندريه وبول ، ولكنها توقفت فجأة ، وأنزلت يدها ، وجلست قرب النافذة ، وأسندت خدها إلى راحتها كما لو كانت تشكو ألماً في أسنانها .

وكان قطيعٌ من الغيوم الخفيفة البيضاء والوردية يهيم على وجهه مسرعاً

في السماء الباهتة الزرقة ، كسرب من الطيور الكبيرة ، نفّرها هدير البخار ففرت مذعورة . وكانت الأم ترنو إلى هذه الغيوم ، وتصيخ بسمعها إلى وجيب قلبها . لقد كان رأسها مثقلاً ، وعيناها جافتين يعكرهما إحمرار الأرق ؛ وفي صدرها يخيم هدوء غريب ، وخفقات قلبها تتوالى بانتظام ، وكانت تفكر بأمور عادية :

ــ لقد أشعلتُ الموقد قبل الأوان ، ويكاد الماء أن يتبخر ؛ لأدعهما اليوم ينامان وقتاً أطول قليلاً ، فكلاهما مرهق .

وقفز من النافذة خيطٌ طفلٌ من شعاع الشمس ، خيطٌ مرح لعوب ؛ فحملت إليه الأم يدها ، حتى إذا ما استقر صافياً فوق أناملها ، راحت يدها الأخرى تداعبه برفق باشة مطرقة . ثم نهضت وانتزعت أنبوب الابريق ، جاهدة ألا تحدث أية جلبة ؛ وشرعت تصلي فترسم إشارة الصليب بحرارة ، وتحرك شفتيها بصمت .

وكان وجهها يتألق في حين يرتفع حاجبها ببطء تحت بقايا جرحها ، ثم ينخفض فجأة .

ودوى صوت الصافرة ثانية أقل عنفاً ، وأقل إطمئناناً ، وكان صوتها مرتعشاً ندياً ، فأحست الأم أكثر إمتداداً من ذي قبل .

وتعالى صوت البيوروسي صافياً : ــ أتسمع يا بول ؟

وجرجر أحدهما قدميه الحافيتين فوق أرض الغرفة ؛ وتثاءب آخر بنشوة ، فصاحت الأم : ــ الشاي جاهز .

وأجاب بول بمرح : ــ ها نحن ننهض .

وقال أندريه : ــ لقد أشرقت الشمس والغيوم تتراكض ... إنها كثيرة اليوم هذه الغيوم ...

ودخل المطبخ أشعث الشعر يتعتعه النعاس ، ولكنه كان مشرق الأسارير .

ــ صباح الخير أيتها الأم الصغيرة ... كيف قضيت ليلتك ؟

فاقتربت منه وقالت بصوت خفيض :

ــ ستظل إلى جانبه يا صغيري أندريه أليس كذلك ؟

فغمغم أندريه :

ـــ هذا أكيد . إننا نعيش معاً ، وسننطلق إلى كل مكان معاً فاطمئني .

وسأل بول : ـــ هل هناك من مؤامرة تحبكانها ؟

ـــ لا شيء أبداً يا بول .

وأجاب أندريه وهو يخرج من المدخل ليمشط شعره :

ـــ إنها تقول لي بأن أستحم جيداً ، فستتعلق بنا أبصار الغواني .

ودندن بول : ـــ يا معذبي الأرض انهضوا .

وصفا النهار شيئاً فشيئاً ، وبددت الريح السحب ، ووضعت الأم المائدة ، وكانت تهز رأسها وهي تفكر بأن كل شيء كان اليوم شديد الغرابة . لقد كان الصديقان يتمازحان هذا الصباح ويتبسمان ، ولكن من يعلم ماذا ينتظرهما عند الظهيرة ؟

... أما هي فكانت تشعر بالاطمئنان ، بل أنها تكاد أن تكون فرحة .

وأطالوا الجلوس إلى المائدة محاولين أن يبددوا ضجر الانتظار ، وكان بول كعادته ، يحرك ببطء وأناة ملعقته ليذيب سكر فنجانه ، ويذر الملح بعناية على قطعة الخبز المحمص المفضلة لديه . وكان البيوروسي يحرك قدميه تحت الطاولة فلا تستقران للوهلة الأولى.، وكان يقص ، وهو يتتبع خيطاً من شعاع الشمس يعدو في السقف وعلى الجدار :

ـــ عندما كنت غلاماً في العاشرة راودتني رغبة في أن اصطاد شعاع الشمس في كأس ؛ فأخذت واحدة ، واقتربت من الجدار بخطى الذئب ، ثم ضربت ضربتي فجرحت يدي ، وعوقبت بالضرب وخرجت بعد ذلك إلى الساحة ، فرأيت الشمس في مستنقع ، فصرخت بها : « إغربي من وجهي وإلا سحقتك بقدمي » وكان أن غرقت في الوحل ، وعوقبت أيضاً بالضرب ، وإذا بي.، أخيراً أصرخ في وجهها : « لن يضيرني هذا أيها الشيطان الأشقر ، لن يضيرني » ... ثم أمد لها لساني ساخرا .. وهذا ما كان يبعث في نفسي العزاء .

وسأله بول ضاحكاً :

ـــ لِمَ تمثلت لك الشمس شقراء ؟

ـــ لأنه كان قبالتنا حداد قرمزي الوجه أشقر اللحية ، وكان فلاحاً طيباً مرحاً ، وكنت أرى أن الشمس تشبهه .

وقالت الأم مقاطعة :

ـــ إنكما تحسنان صنعاً لو تحدثتما عما ستفعلانه .

فرد أندريه برقة :

ـــ إن الحديث عن الأمور المقررة يؤدي إلى إفسادها ؛ سيأتي نيقولا أيتها الأم الصغيرة ، عندما يجمعوننا ليقول لك ما يجب عمله .

وزفرت الأم : ـــ حسناً .

وقال بول وهو مطرق : ـــ يجب أن نخرج إلى الشارع .

فنصحه أندريه : ـــ كلا ، من الأفضل أن تبقى في البيت تنتظر ؛ إذ لا يجدي شيئاً أن تجعل من نفسك هدفاً للبوليس ، فالبوليس يعرفك جيداً .

وأقبل عليهم ثيو مازين متألق الوجه متورد الوجنات ، وبدد الانفعال والفرح اللذان يملآنه ، ما كانا يعانيان من ضجر الانتظار .

ـــ لقد بدأت... إن الجماهير تتحرك. إنهم ينزلون إلى الشارع وأشداقهم كالفؤوس. إن فيسوشيكوف، وبازيل، وساموالوف يرابطون عند باب المعمل منذ الصباح يحرضون العمال على العودة إلى منازلهم، وقد عاد عددٌ كبير منهم. هيا بنا؛ فلقد أزفت الساعة ، إنها العاشرة.

وقال بول بلهجة حازمة : ها أنذا ذاهب إلى هناك .

وأكدت الأم بهدوء : ـــ إنه يلتهب كشمة في مهب الريح .

ـــ إلى أين أيتها الأم الصغيرة ؟

ـــ إني ذاهبة معكم .

ورنا أندريه إلى بول وهو يمسد شاربه ، ورد بول شعره المتهدل إلى الوراء بحركة خاطفة ثم لحق بأمه إلى المطبخ :

ـــ لن أقول لك شيئاً ، وأنت كذلك ... مفهوم ؟

فغمغمت أمه : ـــ أجل ، أجل ... ليكن يسوع معكم .

27

وعندما خرجت سمعت صخب الأصوات فاعتراها اكتئاب ورعشة ، وما كادت ترى جموع الناس مزدحمة في النوافذ والأبواب ، تتبع أندريه وبول بنظرات الفضول ، حتى غامت عيناها ببقعة ضبابية بتموج متلونة ، فهي تارة خضراء شفافة ، وتارة أخرى رمادية كدراء .

وكانت التحايا تنهمر على الشابين ، وفي هذه التحايا شيء من التخصيص ، وكان سمع الأم يتلقف شظايا الأحاديث المهموسة :

ـــ ها هما القائدان .

ـــ كلا ... لا يعرف أحدٌ من هم القادة .

ـــ حسناً ... فأنا لم أقل سوءاً .

وتعالى صوت مهتاج : ـــ إذا قبض عليهما البوليس فأنهما هالكان لا محالة .

ـــ سيزيد ذلك الأمور تعقيداً .

وندّت عن إحدى النسوة صرخة حانقة هلوع ، قفزت من النافذة إلى الشارع :

ـــ إنك تفقد اتزانك . هل تحسب إنك ما زلت صبياً ؟ كلا ؟

وفيما كان يعبران أمام منزل رجل يدعى « زوسيموف » وهو عامل بترت ساقاه في المعمل ، ويتقاضى من أجل ذلك راتباً تقاعدياً ، ـــ أطل هذا برأسه من النافذة وصاح :

ـــ هيه يا بول ، إن مشاكلك ستجر عنقك إلى النطع . فانتظر ؛ أيها الجرو .

وارتعدت الأم ثم توقفت . لقد أثارت فيها هذه الصرخة سُخطاً شديداً فرمقت الوجه المنتفخ ، وجه الرجل المقعد الذي انكفأ إلى الداخل لاعناً ، ثم أسرعت لتنضم إلى إبنها وسارت في أثره جاهدة ألا تظل في مؤخرة الموكب .

وكان يبدو على بول وأندريه كأنهما لا يلاحظان شيئاً مما حولهما ، ولا يسمعان الهتافات التي تواكبهما ، وكانا يسيران على مهل دون أن

يغذا الخطى ، فاستوقفهما ميرونوف وهو رجل ناضج متواضع ، يحترمه الناس جميعاً لأنه يحيا حياة صابرة طاهرة ، وبادرة بول :

ـــ إنك لا تعمل اليوم يا دانيلو إيفانوفيتش ؟

فرد ميرونوف وهو يحدج الرفيقين متفحصاً :

ـــ إن زوجتي توشك أن تضع حملها ، ثم أن الجو مضطرب اليوم ، ويقال انكم ، أنتم الشبان ، تودون خلق المتاعب للادارة ، وتحطيم الزجاج !

فأجابه بول : ـــ أو تحسبنا مخمورين لنفعل ذلك ؟

وتدخل أندريه : ـــ سنسير بكل بساطة مع أعلامنا في الشارع ، وسننشد الأناشيد فأصغ إليها . إنها تعبر عن عقيدتنا .

وأجاب ميرونوف بلهجة المفكر : إني أعرفها ، فلقد قرأت نشراتكم .

والتفت إلى الأم وقال لها وبسمة الطيبة تلمع في عينيه الذكيتين :

ـــ وأنت أيضاً يا بيلاجي تسيرين مع المتمردين ؟

ـــ يجب أن يسير المرء مع الحقيقة حتى ولو كان على حافة قبره .

ـــ أرأيت ؟ أن الناس لصادقون إذن حين يقولون بأنك تحملين النشرات الممنوعة إلى المعمل .؟

وسأله بول : ـــ من يقول ذلك ؟

ـــ هكذا يقولون .. حسناً ... إلى اللقاء ... وإياكم والحماقات .

وراحت الأم تضحك بهدوء فلقد كان يملأها زهواً أن يتحدث عنها الناس هكذا .

وقال لها بول باسماً :

ـــ ستدخلين السجن يا أماه .

وكانت الشمس ترتفع باستمرار فتبعث حرارتها في الطراوة المنعشة ، طراوة النهار الربيعي ؛ وكانت السحب تهيم بطيئة ، فتغدو ظلالها أكثر نحافة وشفافية ؛ وتتساحب هذه الظلال لينة لدنة فوق أرض الشارع ، وعلى سطوح المنازل ، فتلف الناس بغلالاتها ، وتبدو كأنها تقوم

بتطهير الضاحية فتمسح الوحل والغبار عن السطوح والجدران ، والضجر عن وجوه الناس . وكانت البهجة تنتشر ، والأصوات تغدو أشد رنيناً ، فتلقف الصدى البعيد ، صدى الضجيج المتصاعد من آلات المغمل .

ومن جديد ، كانت الأقاويل تتطاير وتنثال في سمع الأم ؛ تتطاير من النوافذ والساحات كئيبة أو شريرة ، جازمة أو مرحة ، وودت بيلاجي لو تستطيع أن تجيب عليها ، فتشكر أو تشرح ، وأن تندمج في حياة هذا النهار الغنية بالألوان .

وفي زاوية من الشارع الكبير ، وفي زقاق ضيق ، كان نحو من مئة شخص يتجمهرون ، وكان صوت فيسوشيكوف يدوي بينهم :

ـــ إنهم يعتصرون دمكم كما يُعتصر العنب .

وكانت تعابيره التي لا براعة فيها تنهمر فوق رؤوسهم ،فتتعالى ، وفي الوقت واحد ، بعض الأصوات :

ـــ هذا صحيح ، هذا صحيح .

ثم تذوب هذه الأصوات في خضم الضجيج .

وقال البيوروسي :

ـــ لقد سدد الفتى ضربة ، فلنذهب إليه ، ولنساعده .

وانحنى وقبل أن يتمكن بول من الامساك به ، اخترق الجمع كالمثقب ، وتعالى صوته الجهور :

ـــ أيها الرفاق . يُقال أن الأرض تحمل على ظهرها كل أنواع الشعوب ؛ اليهود والألمان والانكليز والتتار ؛ ولكنني أنا لا أصدق ذلك ، فليس على ظهر الأرض سوى شعبين ، سوى عرقين لا انسجام بينهما أبداً ، هما : الأغنياء والفقراء . إن أزياء الناس لتختلف ، وكذلك لغاتهم ، ولكننا عندما نرى كيف يعامل الأثرياء الفرنسيون والألمان والانكليز عمالهم ، ندرك أنهم جميعاً بالنسبة للعامل طغاة ؛ طغاة ، ليت الحسكة تعلق في حناجرهم .

ودوّت من بين الجميع ضحكة ؛ وتابع أندريه :

ــ وعندما ننظر إلى لأمر من الناحية الأخرى ، نرى أن العامل الفرنسي أيضاً ، ومثله التتري والتركي يحيون حياة الكلاب ، مثلما نحن العمال الروس .

وكان الحشد يتضخم حوله بلا انقطاع ، ويتسلل الناس بجهدٍ إلى الطريق الضيق ، يتسللون واحداً بعد واحد ، ثم يقتربون بصمت ، فيمدون أعناقهم ، ويتطاولون على رؤوس أقدامهم . ويرفع أندريه صوته :

ــ لقد أدرك العمال في الخارج هذه الحقيقة البسيطة ؛ واليوم ، في هذا اليوم المشرق ، يوم أول آيار ...

وصرخ أحد الحضور :

ــ البوليس ، البوليس . وكان أربعة من رجال البوليس الفرسان يدورون نحو زاوية الزقاق ، ويتوجهون مباشرة نحو الجمهور وهم يهزون كرابيجهم صائحين :

ــ هيا تفرقوا ...

فتكفهر الوجوه ، ويتفرق الناس مرغمين أمام الخيول المقتحمة ، ويتسلق بعضهم الأسوار ، ويرتفع صوت جمهورٌ يتحدى :

ــ لقد أركبوا الخنازير ظهور الخيل وها هي ذي تدمدم : ونحن أيضاً لنا قادة كبار .

وظل البيوروسي وحده في وسط الزقاق ، واندفع نحوه جوادان يترنح رأساهما ، فابتعد من طريقهما ، في حين أمسكته الأم من ذراعه وجرته مغمغمة :

ــ وعدتني أن تبقى مع بول ، وها أنذا أراك تعرض نفسك لألسنة السياط .

فأجابها باسماً : ــ المعذرة .

وتملّك بيلاجي إعياء يختلط فيه الغم بالخور ، إعياء كانت تحسه يتزايد فيملأ رأسها بما يشبه الدوار ؛ وكان الحزن والفرح يتعاوران على

قلبها بشكلٍ غريب . وكانت تتمنى لو تسرع صافرة المعمل ، فتعلن حلول الظهيرة .

وبلغوا الساحة قرب الكنيسة حيث احتشد فوق فسحتها ـــ وقوفاً وقعوداً ـــ نحو خمسمئة شاب وغلام متحمسين جذلين ، وكان الحشد يتموج ، والمحتشدون يتلعون أعناقهم ويرنون إلى البعيد ، إلى كل جهة ، بصبر نافذ ، وكانوا يستشعرون شيئاً من رهبة القداسة ، ويبدو البعض كأنه أضاع اتجاهه ، في حين يبدو البعض الآخر كمن أصيب بالصرع ؛ وكانت تُسمع أحياناً أصوات ضعيفة مكبوتة ، تند عن بعض النسوة ، فيستدبر هن الرجال مكرهين ، وأحياناً أخرى تنفجر شتيمة بصوت خفيض ، وكان ضجيج أصمّ من الأحاديث الحاقدة يلف الحشد كله ، وصوت إمرأة يتهدج :

ـــ كن حذراً يا متري .

وكان صوت سيزوف الوقور يُسمع راعداً مقنعاً :

ـــ كلا ... يجب ألا نتخلى عن الشبان ، فلقد أصبحوا أكثر تعقلًا منا وأوفر جرأة ؛ من الذي صنع كل شيء في قصة « فلس المستنقع » ؟ إنهم هم . يجب ألا ننسى ذلك . لقد دخلوا السجن لهذا السبب ، أما الغُنم فكان لنا جميعاً .

ولقف زئير الصافرة القاتم ضجيج الأحاديث ، ثم سرت في الجمع رعشة ، فإذا الجالسون ينتصبون ؛ وفي لحظة يتسمر كل شيءٍ في وقفة انتظار متحفز ؛ وإذا كثيرٌ من الوجوه يكسوها الشحوب .

ـــ أيها الرفاق ..

وكان ذلك هو صوت بول ، صوته الرنان الواثق ... ولفحت عيني الأم غمامة جافة ، واستشعرت أنها قد استردت ، دفعة واحدة ، كل حيويتها ؛ فاتخذت مكانها بالقرب من ابنها ؛ وتلفت الجميع إلى بول ، والتفوا حوله كنثار الحديد حين يجتذبها جسمٌ ممغنط ؛ وكانت الأم ترنو إليه فلا ترى عينيه ، عينيه المزهوتين ، عينيه الجسورتين المشتعلتين .

ـــ أيها الرفاق :

لقد قررنا أن نعلن بوضوح وصراحة من نحن ؛ فرفعنا اليوم علمنا ، علم « الفكر والحقيقة والحرية » .

وارتفعت في الفضاء سارية بيضاء طويلة ثم انخفضت ، فشطرت الحشد ، ثم توارت . وبعد لحظة ، ارتفع العلم العريض ، علم الشعب العامل الكادح ، ارتفع خفاقاً كطائر قرمزي اللون .

ورفع بول ذراعه ، فرفرف العلم، وحضنت السارية البيضاء الملساء أيدٍ كثيرة كانت إحداها يد الأم :

وهتف بول : « عاش الشعب الكادح » .

ورددت وراءه مئات الأصوات في هتاف مدوٍ :

ــ عاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي . عاش حزبنا ، عاش رفاقنا ، عاش ..

وسرى الغليان في الحشد ، وشق الطريق إلى العلم أولئك الذين كانوا يدركون أي معنىً يرمز إليه ، وكان مازين وساموالوف والاخوان غوسيف قد أخذوا مكانهم إلى جانب بول ، أما نيقولا فيسكوشيكوف فقد كان يعمل على إقصاء الناس عنه ، وكان آخرون غيرهم يدفعون الأم التي لا تعرفهم ، يدفعونها في تزاحمهم وهم محمومو النظرات .

وصاح بول : ــ عاش العمال في كل وطن .

وبقوة وفرح دائمي التنامي رد الهتاف ألف صوت ، وكان صدى هذه الأصوات يهز كل نفس .

وأمسكت الأم بيد نيقولا ، وأخذت يد شخص آخر ، وكانت الدموع تخنقها ولكنها لم تكن تبكي ، وإنما كان ساقاها يرتعشان ، فتقول متلجلجة :

ــ يا أبنائي ...

وتلألأت في وجه نيقولا المجدور بسمة عريضة ؛ ورنا إلى العلم هاتفاً بكلام لا يُفهم ، باسطاً ذراعه نحوه ، ثم لم يلبث أن أرخى يده فجأة ، وأمسك بعنق الأم واحتضنها ثم راح يقبلها .

وطغى على ضجيج الحشد صوت البيوروسي ، الهاديء العذب :
ــ أيها الرفاق :
باسم إله جديد يسيّر الآن موكبنا ؛ باسم إله النور والحقيقة ، إله العقل والخير . إن هدفنا ناءٍ عنا ، ولكن تيجان الشوك قريبة دانية ، فليبتعد عنا أولئك الذين لا يثقون بذواتهم ، والذين يخافون العذاب ، نحن ندعو إلينا أولئك الذين يومنون بانتصارنا ، أما الذين لا يبصرون هدفنا ، فليبتعدوا لأن الشقاء وحده هو الذي ينتظرهم . أيها الرفاق . رصّوا صفوفكم . عاش عيد الأحرار ، عاش أول أيار .
وازداد ازدحام الجمهور ولوّح بول بالعلم الذي انتشر وخفق متألقاً تحت الشمس في بسمة عريضة حمراء .
وجلجل صوت ثيومازين راعداً :
ــ أيها المعذبون في الأرض هبوا .
ورددت، عشرات الأصوات في موجة عذبة عارمة :
ــ يا ضحايا الجوع هبوا .
وكانت على الشفاه بسمة تحرقها ، وكانت الأم تسير وراء مازين ، وترنو إلى إبنها ، والعلم الذي يحمل ، وحولها تتراقص وجوه مستبشرة ، وعيون من كل لون .
وكان إبنها وأندريه في الصف الأول . إنها تسمع صوتيهما : لقد كان صوت أندريه العذب الخافت ، يمتزج ودوداً بصوت بول الممتلىء الأكثر خفوتاً :
« إنها المعركة الفاصلة
فلنوحد صفوفنا ؛ لنوحدها فغداً ...»
وكان الناس متراكضون لاستقبال العلم الأحمر صائحين ، فيختلطون بالجمع ، وينطلقون معه ؛ وكانت الصيحات تذوب في أنغام النشيد ، هذا النشيد الذي كان ينخفض به الصوت في المنزل ، فإذا به ينحدر في الشارع كنهر هائل القوة ، سويٌّ لا التواء فيه ولا عوج . إنه يهدر بصوت البسالة ، فإذا كان هذا الصوت يهيب بالقوم أن

يسلكوا الطريق الطويل الذي يفضي بهم إلى الغد ، فإنه ليحدثهم في الوقت نفسه ، وبصراحة ، عن تجارب هذا الطريق ... تجاربه الرهيبة . وفي اللهب الهاديء الكبير ، كانت تذوب رواسب الماضي السوداء ، والكتلة الثقيلة ، كتلة العواطف المعتادة ، ويتحول الخوف اللعين إلى رماد .

وكان إلى جانب الأم وجه مجهول ، يختلط في ملامحه الذعر والبشر معاً ، ويترنح على أنغام النشيد ، وصوت تهزه الزفرات يرتفع صائحاً :

ــ متري ... إلى أين ؟

وأجابتها الأم دون أن تتوقف :

ــ دعيه . لا تقلقي عليه . لقد كنت مثلك أيضاً كثيرة الخوف ، ولكن إبني الآن في الطليعة . إنه ذاك الذي يحمل العلم .

ــ الجنود هناك ... فإلى أين تذهبون أيها اللصوص .؟

وصرخت السيدة الفارعة النحيلة فجأة ، وتشبثت يدها الهزيلة بذراع بيلاجي :

ــ إنهم ينشدون ... ومتري أيضاً ينشد معهم .

فغمغمت الأم : لا تقلقي ، هذا شيء مقدس ؛ واذكري أن المسيح ما كان ليكون لولا أن وجدت هناك فئة تموت من أجله .

لمعت هذه الفكرة فجأة في ذهنها ، فأذهلتها بما فيها من حقيقة بسيطة متألقة ، فرمقت السيدة التي كانت تشد على ذراعها ، ورددت بابتسامة ذاهلة :

ــ ما كان المسيح ليكون لولا أن كانت هناك فئة ماتت من أجله ، من أجل سيدنا .

وظهر سيزوف بجانبها ورفع قبعته ولوّح بها على أنغام الأغنية :

ــ إنهم يسيرون بحرية يا أماه أليس كذلك ؟ لقد اخترعوا نشيداً ، ويا له من نشيد ... أليس كذلك يا أماه ؟

ثم أضاف : إنهم لا يرهبون شيئاً ... ولكن واحسرتاه ... إن إبني في لحده ...

وأخذ قلب الأم يخفق بعنف ، فتباطأت في المسير ، ثم لفظها التيار جانباً فإذا بها تجد نفسها منزوية أمام أحد الأسوار ، في حين كانت الموجة البشرية العارمة تندفع أمامها ، فتدرك معها أن الحشد كان هائلاً ، وهذا ما يدخل السرور إلى قلبها :

ــ أيها المعذبون في الأرض ، هبوا .

لكأن نفيراً ضخماً كان يدوّي في الفضاء ، يدوي فيلهب الناس ويوقظ في البعض الميل للصراع ، ويوقظ في الآخرين فرحاً غامضاً وتطلعاً حاراً ، وإحساساً مسبقاً بحدث جديد . إنه يبعث هنا قلق الأمل ، ويطلق هناك سيل الحقد المر ، الحقد المتراكم عبر السنين .

وكان الناس جميعاً يرنون بأبصارهم إلى الأمام ، إلى حيث كان العلم الأحمر يتمايل ويخفق . وزمجر صوت متحمس :

ــ ها هم أولاء قد انطلقوا ، برافو أيها الصغار .

وكان صاحبه يعاني بلا شك إحساساً أكبر من أن تستطيع الكلمات العادية التعبير عنه ، فراح يشتم باندفاع ، ولكن الحقد القاتم الأعمى ، حق العبد ، كان يعج كالأفعى ، ويتلوى في كلمات مسعورة ، ثم يزيده إستعاراً ، ذلك النور الذي كان يكشفه للأبصار .

وهتف أحدهم بصوتٍ محطم وهو يلوّح من إحدى النوافذ ، بقبضته مهدداً :

ــ أيها الهراطقة .

وانطلق عواءٌ مزعج مقذع إخترق سمع الأم :

ــ أضد الامبراطور ؟ أضد جلالة القيصر هذه الثورة ؟

وكانت الوجوه المذعورة تعبر سراعاً بقربها ، إنهم رجال ونساء يقفزون ويتراكضون ، وكان الحشد يندفع كسيل بركاني قاتم ، يقوده النشيد ، هذا النشيد الذي يبدو كأن نبراته القوية تكتسح كل شيء ، وتكنس كل ما تصادفه في طريقها .

وكانت الأم ترى في البعيد ، العلم الأحمر ولا ترى إبنها ، بل تتخيل وجهه بجبينه البرونزي ، ونظرته المتأججة بلهب الايمان .

وها هي ذي في الصفوف الأخيرة من الحشد ، بين أولئك الذين كانوا يسيرون دونما تزاحم ، ويتطلعون إلى الأمام بلا مبالاة ، يتطلعون بفضول باهت بارد كفضول ذلك المتفرج الذي لم تعد عقدة المسرحية سراً مغلقاً عنده ؛ ويسيرون ويتحدثون بصوت منخفض وبكثير من الوثوق :

ــ يوجد قرب المدرسة فرقة ، كما يوجد فرقة أخرى في المعمل .

ــ لقد وصل الحاكم .

ــ أصحيح ذلك ؟

ــ لقد رأيته بأم عيني .

وأطلق أحدهم بعض الشتائم بمرح ، وقال :

ــ ومع ذلك فقد بدأوا يخشوننا ، نحن الآخرين . إنهم يرسلون إلينا الجند والحاكم ...

وكانت هذه الكلمات تخفق في صدر الأم : ــ إيه يا صغاري الأعزاء .

غير أن أولئك الذين يضطربون حولها كانوا فاقدي الحيوية باردي الأعصاب ، فغذت من خطاها ، لتبتعد عنهم ، عن رفاق الصدفة ، ولم تجد أي عناء ؛ في تخطي زحفهم البطيء الكسول .

وفجأة بدت طليعة الموكب كأنها تصطدم بعقبة ما ؛ فتردد الحشد الطويل في سيره دون أن يتوقف ، وانتظمه صخب قلق ، واضطرب النشيد قليلًا ، ولكنه لم يلبث أن انطلق أقوى من ذي قبل وأسرع نغماً ، ومن جديد ، انخفضت موجة الأصداء الكثيفة ، وانكفأت إلى الوراء ، ثم خرست الأصوات واحداً بعد آخر ، وتعالت هتافات من هنا وهناك لتعيد إلى الجوقة كما روعتها ، ولتدفعها إلى الأمام :

ــ أيها المعذبون في الأرض هبوا ،

يا ضحايا الجوع هبوا ...

ولم يكن في هذا النداء ، ذلك الجرس نفسه المليء باعتداد الرجولة ؛ بل لقد بدأت تحس فيه ، على كل حال ، ارتعاشة القلق .

وكانت الأم لا ترى شيئاً ولا تعرف ماذا يجري في الطليعة ، لذلك راحت تخترق الجموع ، وتشق بسرعة لنفسها طريقاً ، وكان الناس ينكفئون عنها ، فتنحني رؤوس ، وتعبس وجوه ، ويبتسم البعض بارتباك ، ويصفر آخرون ساخرين ، وكانت هي تتفحص الوجوه مغمومة ، وفي عينيها سؤال وتوسل ونداء ..

وتعالى صوت بول :

ـــ أيها الرفاق . إن الجنود بشر مثلنا . إنهم لن يعتدوا علينا بالضرب . علامَ يفعلون ذلك ؟ ألأننا نحمل الحقيقة التي يحتاجها كل الناس ؟ والتي يحتاجونها هم أنفسهم ؟ إنهم لم يدركوها حتى الآن ، ولكنه لم يعد بعيداً ذلك اليوم الذي يقفون فيه ، هم أيضاً ، إلى جانبنا ، ويسيرون ، لا تحت راية النهب والقتل ، بل تحت رايتنا نحن ، راية الحرية . ولكي يدركوا سريعاً حقيقتنا ، ينبغي أن نكون في الطليعة ... فإلى الأمام يا رفاقنا ... إلى الأمام دوماً .

وكان صوت بول حازماً ، وكانت كلماته تدوي في الفضاء واضحة جلية ، ولكن الحشد كان يتفرق ويتبدد ذات اليمين وذات الشمال ، وكان أفراده يعدون جماعة بعد أخرى ، نحو المنازل ؛ وهم يحتمون بظل الأسوار .

ولم يبق من الموكب إلا شكل زاوية كان بول طرفها ، وكان علم الطبقة الكادحة يرف فوق رأسه أحمر قانياً ، وكان الحشد كطائر أسود ينشر جناحيه واسعين ويقف متربصاً متأهباً للارتفاع والتحليق ؛ وكان بول هو منقر ذلك الطائر .

28

ووقع بصر الأم في طرف الشارع ، على جدار يكفكف من طول الساحة ، جدار أغبر من رجال لا وجوه لهم ، رجال موحدي الزي تلمع فوق منكب كل منهم شفار حربة ماضية الحد . ومن هذا

الجدار الصامت الجامد خيل للأم أن ريحاً صرصراً كانت تهب على العمال ، وتجتاح قلبها .

وتغلغلت في الصفوف لتنضم إلى أولئك الذين كانت تعرفهم : لقد كانوا في المقدمة بالقرب من العلم ، ينصهرون في الجمع الذي تجهل ناسه ، كأنهم إنما يلتمسون في هؤلاء المجهولين سنداً لهم ، وألقت نفسها أمام رجل أمرد فارع القامة ، راحت تزحمه ، وكان صاحبنا أعوراً ، فأدار رأسه بحركة سريعة ليحدق فيها ويسألها :

ـــ ماذا تريدين ؟ ومن أنت ؟

وأجابت : « إني والدة بول فلاسوف » . وأحست بساقيها ترتعشان وبشفتها تتدلى بحركة لا إرادية .

وقال الأعور : حسناً .. ولم يزد .

واستأنف بول كلامه :

ـــ إن الحياة أيها الرفاق ، الحياة كلها أمامكم ، وليس لنا من طريق سوى هذا الطريق ...

... وخيم صمت متربص ، ثم ارتفع العلم ورفرف ، وخفق بهدوء فوق الرؤوس ، ومضى دون تلكؤٍ نحو الجدار الأغبر ، جدار الجند .

وعرت الأم رجفة فأغمضت عينيها ، وأطلقت زفرة ، وكان بول وأندريه وساموالوف ومازين وحدهم ينفصلون عن الحشد .

وتعالى صوت مازين صافياً هادئاً :

ـــ « لقد كنتم الضحايا » ..

وردد وراءه صوتان خفيضان ، أصمان كزفرتين عميقتين :

ـــ « الضحايا لعراك مشؤوم . »

واستأنفت الجموع سيرها وهي تركل الأرض بخطى موزونة ، وارتفع ثانية نشيد جديد حازم النبرات ساحر ، ورنم ثيو بصوته العذب المدوي :

ـــ « ولقد وهبتمونا كل شيء » .

وردد الرفاق وراءه في جوقة : ـــ وهبتمونا الحرية .

وصرخ أحدهم بخبث : ــ أوه ، أوه ، لقد بدأتم تنشدون نشيد الموتى يا أبناء الكلاب ؟

ودوّت صيحة مسعورة : ــ اقتلوه ، اقتلوه .

وشدت الأم بيديها على صدرها ، وتلفتت فيما حولها ، فرأت الحشد الذي كان يملأ الشارع بكتلته المتراصة ، يتسمر في مكانه حائراً ، ويتطلع إلى حملة العلم الذين انفصلوا عنه .

وكانت بضع عشرات من الرجال فقط تسير وراء هؤلاء ، وعند كل خطوة يخطونها إلى الأمام ينفصل عنهم واحد ، فيقفز إلى الرصيف كما لو كان بلاط الشارع يتأجج ناراً يحرق لظاها النعال .

وبشر النشيد على شفتي ثيو :

ــ والطغيان سينهار .

ورددت وراءه جوقة الأصوات القوية الواثقة المتوعدة :

ــ وسينهض الشعب .

ومن خلال أنغام النشيد ارتفعت كلمات باردة :

ــ تحت إمرتي .

ثم جلجلت صيحة وحشية : ــ شرّعوا الحراب .

ورسمت الحراب في الفضاء خطاً محدودباً ، ثم نُكست ، وامتدت باتجاه العلم هازئة متحدية .

ــ إلى الأمام سر .

وقال الرجل الأعور وهو يدس يديه في جيوبه :

ــ ها هم الأولاد قد زحفوا .

ثم ابتعد بخطىً سريعة ، وكانت الأم ترنو جامدة العينين .

وثارت الموجة الغبراء ، موجة الجند تملأ عرض الشارع ، واندفعت إلى الأمام بحركة آلية رتيبة ، وهي تدفع أمامها مشطاً تتناثر فيه أسنان الفولاذ اللماعة .

وبخطىً سريعة اقتربت الأم من ابنها ، فرأت أندريه يتقدم ليقف أمامه ويحميه بقامته المديدة .

وصاح بول بصوت خشن النبرة : ــ عد إلى جانبي يا رفيق .

وكان أندريه ينشد شامخ الرأس ، وهو يشبك يديه وراء ظهره ، ولكن بول دفعه من كتفه وصاح به ثانياً :

ــ عد إلى جانبي فلا يجوز أن تتقدمني ، لأن العلم يجب أن يكون في الطليعة .

وبصوت شرس صرخ ضابط صغير تافه ، وهو يهز سيفه المسلول ..

ــ تفـ .. ـرّ ... قـ ... ـوا .

وكان يمشي رافعاً رجليه إلى أعلى ، ودون أن يثني ركبتيه ؛ ويخطو فيمس الأرض بشكل مستفز . واستلفت بريق جزمته نظر الأم .

وإلى جانبه كان يدب بتثاقل ، رجلٍ حليق الوجه ، مديد القامة ، كثيف الشاربين أغبرهما ، يرتدي معطفاً رمادي اللون ، يبطنه قماش أحمر ، وتزين بنطاله الواسع الرجلين شرائط صفراء ، وكانت يداه ، كالبيوروسي ، وراء ظهره ، وحاجباه الكثيفان الأغبران مرتفعين ، وكان يرنو إلى بول .

وكان بصر الأم يمتد ، وفي صدرها تتجمد صرخة ، تظل على وشك الانفجار والانفلات مع كل زفرة ، وكانت هذه الصرخة تخنقها ، ولكنها كانت تمسكها فتشد صدرها بكلتا يديها : وكانت تترنح وهي تُدفع من كل جانب ؛ فلا تقف بل تستمر في تقدمها دونما تفكير أو وعي ؛ وكانت تشعر أن عدد الناس وراءها يتضاءل بلا انقطاع ، وأن الموجة الجليدية تتقدم للقائهم وبعثرة صفوفهم .

وكان الشبان حملة العلم الأحمر ، والسلسلة الكثيفة من الرجال الغبر يتدانون باستمرار ، وكان من الممكن تبين وجوه الجند بوضوح ، هذه الوجوه التي كانت كأنها تتسع فتسد الشارع كله ، وتنبسط ممسوخة على شكل شريط ضيق من الصفرة القذرة ، ثبتت فيه ، ودونما ترتيب ، عيون مختلفة الألوان ، والتمعت من خلاله رؤوس الحراب الدقيقة بألقٍ وحشي .

وكانت هذه الحراب المسددة إلى الصدور تبعثر الحشد قبل أن تمسه وتفتته واحداً بعد واحد ...

وسمعت الأم وراءها خطى أولئك الذين كانوا يولون الادبار هاربين ، وتعالت أصوات كئيبة مخنوقة :

ـــ أيها الشباب تفرقوا .

ـــ انج بنفسك يا فلاسوف .

ـــ إلى الوراء يا بول .

وقال فيسوشيكوف متجهم الأسارير :

ـــ ألق إليّ بالعلم يا بول ، اعطنيه لأخبئه .

وأمسك بالسارية وشد العلم إلى الوراء ؛ ولكن بول صاح به :

ـــ دعه .

وسحب نيقولا يده كأن جمرة لذعتها ، وكان النشيد قد خفت وانطفأ ، فتوقف الشبان وأحاطوا ببول كسلسلة كثيفة ، ولكنه استطاع أن يخرق الحصار . وفجأة ، خيم الصمت ، كأن سحابة شفافة لا منظورة هبطت فغطت المتظاهرين .

وتحت العلم كان يقف بصمود نحو من عشرين رجلًا لا أكثر ، وقد ساور الأم الجزع عليهم وأحست برغبة غامضة في أن تقول لهم شيئاً ما .

وارتفع صوت رتيب هو صوت العجوز الفارع القامة :

ـــ يا ملازم . ائتني به ... هذا الشيء .

ومد يده يشير إلى العلم .

وهرول الضابط الصغير نحو بول ، وأمسك بسارية العلم وصاح بصوت نفّاذ : ـــ أتركه .

وأجابه بول بصوت قوي : ـــ انزل يديك .

ورف العلم في الفضاء أحمر قانياً ، وترنح ذات اليمين وذات الشمال ثم لم يلبث أن انتصب شامخاً من جديد ؛ وارتد الضابط الصغير إلى الوراء ، ووقع أرضاً . ومر فيسكوشيكوف أمام الأم بسرعة لم تستطع

معها أن تتميزه ، مر ممدود الساعد ، مشدود القبضة .
وزمجر العجوز وهو يرفس الأرض بقدميه :
ــ أوقفوهم .
واندفع بعض الجنود ، وهز أحدهم عقب بندقيته ، فخفق العلم مرتعشاً ، ثم نُكس ، واختفى في زحمة الحشد الأغبر ، حشد الجنود .
وتعالت صيحة أسى وأطلقت الأم صرخةً بل زأرة ، ولكن صوت بول الداوي ارتفع من بين الجند : ــ إلى اللقاء يا أماه ، إلى اللقاء أيتها الأم الغالية .
وملأت هاتان الفكرتان قلبها : إنه ما زال حياً .. إنه يفكر بي .
وتطاولت على رؤوس قدميها ملوّحة بيديها ، جاهدة في أن تراهما ، غير أنها لم تر ، فوق رؤوس الجند ، إلا وجه أندريه المستدير ، فابتسمت له وحيته وصاحت :
ــ يا ولديّ الحبيبين ، أندريه ، بول .
ــ إلى اللقاء أيها الرفاق .
وردت عليهما أصداء متعددة ممزقة ... كانت تتناهى إلى سمعها من النوافذ وسطوح المنازل .

29

وارتطم أحدهم بصدرها ؛ ومن خلال الضباب الذي كان يغشّي عينيها ، رأت الضابط الصغير ينتصب أمامها محتقن الوجه ، ويصرخ في وجهها :
ــ تنحّي أيتها الشمطاء .
وانزلق بصرها نحوه ، فأبصرت سارية العلم محطمة ، عند قدميه ، ومزقة من القماش الأحمر ما تزال معلقة بأحد جزئيها ؛ فانحنت والتقطتها ، ولكن الضابط الصغير ، انتزعتها من يدها ، ورمى بها جانباً ، وهو يرفس الأرض بقدمه صائحاً :
ــ قلت لك ، أغربي من وجهي .

ومن بين الجنود تفجر النشيد ، وهمت نبراته :
ـــ أيها المعذبون في الأرض هبوا .
واضطرب كل شيء كأنما لفّته رعشة ودوار ، وملأ الفضاء طنينٌ كطنين أسلاك البرق ، فقفز الضابط ةنبح بضراوة :
ـــ أسكتهم يا رقيب كرينوف .
واقتربت الأم وهي تترنح ، فالتقطت ثانية ، حطام السارية التي قذفها الضابط :
ـــ أخرسهم يا كرينوف .
وغام النشيد ، وأخذ يتناهى إلى الأسماع متقطعاً ، ممزقاً ... ثم انطفأ .
وأمسك أحد الجنود بكتفي الأم ، وشدها فاستدارت نصف إستدارة ، ثم دفعها من خلف صائحاً : ـــ أغربي ، أغربي .
وصاح الضابط بجنوده : ـــ هيا ، نظفوا الشارع .
وأبصرت الأم على بعد خطوات منها ، حشداً يتكثف من جديد ، وسمعت الناس يزمجرون ويهمهمون ويصفرون ، وكانوا ، هم ينكفئون ببطء نحو آخر الشارع ، ينتشرون في الساحات المجاورة .
وصرخ في أذنها جندي شاب ذو شاربين ، ودفعها إلى الرصيف عندما حاذاها قائلاً :
ـــ أغربي أيها الشيطان .
وانطلقت مقوسة الساقين تتوكأ على بقايا السارية ، وتستند بيدها الأخرى ، كيلا تسقط ، إلى الجدران والأسوار .
وكان الناس أمامها يتراكضون ، ووراءها وحولها يندفع الجند صائحين :
ـــ تفرقوا ، تفرقوا .
وتخطاها الجند ، فتوقفت تدير بصرها فيما حولها :
كان عددٌ من الجنود يتمركزون في طرف الشارع على شكل سلسلة متباعدة الحلقات فيعزلون بذلك قسماً من الساحة كان مقفراً . وفي

الأمام ... كانت الأشباح الرمادية الغبراء تتجه ببطء نحو الجماهير .
وأرادت أن تنكص على عقبيها ، ولكنها ، كانت ، دونما وعي منها ، تتقدم باستمرار حتى إذا بلغت زقاقاً ضيقاً ، أقفر من الناس ، اندفعت فيه .
وتوقفت ثانية ، وزفرت بعمق ، ثم أصاخت بسمعها قليلًا ، فتناهت إليها أصوات تدندن في زاوية من زوايا الزقاق .
وكانت ما تزال تتوكأ على بقايا السارية ، فعادت إلى المسير وهي تحرك حاجبيها . وفجأة تندّى جبينها ، وارتعشت شفتاها ، وتحركت يدها ، وتفجر في قلبها لهيب من الكلمات ، تجمّع ، فأجج فيها الرغبة الحارة الطاغية ، في أن تصرخ بهذه الكلمات عاليا .
وكان الزقاق ينعطف إلى اليسار ، حيث أبصرت جماعة تستلفت النظر ، وكان صوت قوي النبرة يتعالى :
ـــ أيها الفتيان لن نستطيع أن نتحدى الحراب بالطيش !
ـــ أرأيتم ؟ لقد مشى الجند فوقهم ، مشوا فوقهم وهم لا يتحركون . إن فتياننا الأغرار هؤلاء لا يعرفون الخشية !.
ـــ يا له من فتى ... بول فلاسوف !
ـــ والبيوروسي ؟
ـــ يداه وراء ظهره ، والبسمة على ثغره . لقد كان البهيم ...
وصاحت الأم وهي تشق طريقها بينهم :
ـــ يا أصدقائي . أيها القوم الطيبون ...
وأفسحوا لها طريقاً ، ولكن واحداً من بينهم أخذ يضحك :
ـــ أنظروا ... إنها تحمل العلم . إنه في يدها .
وارتفع صوت فيه قسوة : ـــ إخرس .
وفتحت الأم ذراعيها واسعين :
ـــ بحق يسوع اصغوا إليّ . إنكم جميعاً منا ، وكلكم من ذي القلوب الطيبة ، افتحوا عيونكم وحدقوا دونما خوف فماذا ترون ؟ إن أبناءنا ، بل دمنا ، يهبّون في كل مكان من أجل الحقيقة ، من أجل

الجميع . إنهم يسيرون في طريق الجلجلة من أجلكم جميعاً ، من أجل صغاركم . إنهم ينشدون النور ، ويهدفون إلى حياة أخرى في ظلال الحقيقة والعدالة . إنهم يبغون الخير للجميع .

وكان قلبها يتمزق وصدرها يضيق ، وحنجرتها جافة محمومة ؛ وفي أعماق أعماقها كانت تولد كلمات حب شامل ، يسع الأشياء كلها والكائنات كلها ، كلمات تحرق فمها وتزدحم على شفتيها وهي تتنامى قوة وسهولة .

وكانت ترى أنهم يصغون إليها جميعاً صامتين ، وتدرك أنهم كانوا يفكرون وهم يتألبون حولها ؛ وكانت تنمو فيها رغبة ، توضحت الآن جيداً في وعيها ، رغبة في أن تدفعهم إلى هناك ، نحو ابنها ، نحو أندريه ، نحو أولئك الذين تركوا في أيدي الجند ، وخُلّفوا وحدهم .

واستأنفت كلامها بهدوء وقوة ، وهي تنقل بصرها فوق الوجوه المنجمية المتربصة :

ـــ لقد انطلق أبناؤنا بالعالم نحو الفرحة ، يحدوهم الحب للجميع ، الحب للحقيقة ، حقيقة يسوع . إنهم يحاربون كل ما يستخدمه الأشرار فينا والخداعون والشرهون من وسائل ليبقونا سجناء ، ليثقلونا بالأغلال ، ليسحقونا . من أجل الشعب كله يا أصدقائي يثور شبابنا ، بل دمنا ، من أجل العالم بأجمعه ، من أجل العمال جميعاً ينطلقون ؛ فلا تتخلوا عنهم ولا تتنكروا لهم . لا تدعوا أبناءكم يسيرون في طريقهم وحدهم . إرأفوا بأنفسكم . ثقوا بقلوب أبنائكم فهم يصنعون الحقيقة ؛ ومن أجلها يموتون . ثقوا بهم .

وخفت صوتها وترنحت خائرة القوى ، وامتدت يدٌ إلى خصرها تسندها . وصاح واحد من بين الجمع ، مقنّع النبرة منفعلاً :

ـــ إن صوت الله هو الذي يتكلم ، صوت الله أيها القوم ، فاصغوا إليه .

وصاح آخر مشفقاً :

ـــ لقد صمتت المسكينة .

ــ إنها لم تصمت ... ولكنها تصفعنا نحن ، فيالنا من سفلة ... أفهمت ؟

وتهادى فوق الجمع صوت مرتعش حاد النبرة :

ــ أيها المؤمنون ... ماذا فعل إبني متري ... هذه الروح النقية ؟... إنه تبع رفاقه ، رفاقه الأعزاء ...

ــ إنها تقول الحق ، فلِمَ نتخلى عن أبنائنا ؟ وأي أذى ألحقوه بنا ؟

وقال سيزوف : ــ عودي إلى منزلك يا بيلاجي . إذهبي فأنت مرهقة .

وكانت شاحبة الوجه .

وكان هو أيضاً شاحب الوجه ، ترتعش لحيته المشعثة ، وفجأة ، قطب حاجبيه ، وحدج الجمع بنظرة قاسية ، ثم انتصب ، وقال بنبرة واضحة :

ــ لقد سحقت إحدى الآلات في المعمل ولدي ماثيو ؛ أنتم تعلمون ذلك ، ولكنه لو كان على قيد الحياة ، لدفعته بنفسي إلى صفوفهم ، ولأرسلته ليكون معهم ، ولكنت قلت له :

إنطلق أنت أيضاً يا مايثو ، إنها قضية عادلة . إنطلق وأدّ واجبك .

وتوقفت عن الكلام ، أما مستمعوه فقد كانوا صامتين متجهمي الملامح ، يسيطر عليهم إحساس عظيم جديد ، لم يعد يرهبهم . ورفع سيزوف ذراعه ، ولوّح به ثم أردف :

إن من يخاطبكم رجل مسن . إنكم تعرفونني ، فأنا أعمل هنا منذ تسع وثلاثين عاماً ، وقد انسلخ من عمري في هذا العالم الدنيء ثلاث وخمسون . لقد قبضوا اليوم من جديد على حفيدي ، وهوفتى ذكي أنيق كان يسير في الطليعة ، بجانب فلاسوف وراء العلم مباشرة .

ولوّح بذراعه ثم انحنى فأمسك بيد الأم :

ــ هذه السيدة قالت الحقيقة . إن أبناءنا ينشدون العيش الشريف الذي يرتضيه العقل . ولقد تخلينا نحن عنهم ، أجل ... لقد هربنا ... إذهبي يا بيلاجي .

وقالت بيلاجي وهي ترنو إلى الجمع بعينيها الغائمتين بالدمع :
ــ يا أصدقائي الطيبين . لقد أوجدت الحياة من أجل الأبناء ، والأرض من أجلهم صُنعت .

فقاطعها سيزوف وهو يناولها حطام السارية :
ــ خذي هذه العصا يا بيلاجي ، وهيا .

وكانوا يرمقون الأم بألم يمازجه الاحترام ، وتسير هي وقد أحيطت بجو من التعاطف ، ويشق لها سيزوف ــ وهو صامت ــ طريقاً بينهم ، فيفسحون الطريق دون أن تندّ عنهم كلمة ، ثم يسيرون وراءها على مهل تدفعهم قوة سحرية ، ويتبادلون العبارات القصيرة بهمس .

وعند باب منزلها استدارت نحوهم وهي تتوكأ على جذع السارية ، فحيتهم وقالت لهم ممتنة : شكراً لكم .

وتذكرت الفكرة ، الفكرة الجديدة الحبيسة في صدرها فقالت :
ــ ما كان سيدنا المسيح ليكون لو لم يمت الناس في سبيل مجده .

وكان مشيعوها يحدقون بها صامتين ، فانحنت لهم ثانية ، ودخلت منزلها ، ودخل وراءها سيزوف محنيّ القامة ، وظلوا في مكانهم يتبادلون الرأي ، ثم لم يلبثوا أن تفرقوا ببطء .

---

(1) من سكان روسيا البيضاء

(2) الكوبك جزء من مائة من الروبل ــ أي الليرة الروسية . (المترجم) .

(3) زعيمان من زعماء ثورات الفلاحين في القرنين السابع والثامن عشر لا تزال ذكراهما حية .

القسم الثاني

1

وعامت ، بقية نهارها ، في ضباب أرقط من الذكريات ، في خضم من الأعياء الثقيل يرهق الجسد والروح معاً ، وكان الظل الأغبر ، ظل الضابط الصغير ، يتراقص أمام عينيها ، ووجه بول البرونزوي يتألق ، وعينا أندريه تبتسمان .

وكانت تذرع الغرفة بخطاها ، ثم تجلس قرب النافذة ترنو إلى الشارع ، ثم تعود إلى المشي مقطبة الجبين ، وتطرح عينيها ، على ما حولها مضطربة كأنها تبحث ، وهي فارغة الرأس ، عن شيء لا تدري ما هو .

وشربت ... ولكن الماء لم يطفىء غلتها ، فهي لا تستطيع أن تخمد في صدرها تلك الجذوة المتأججة التي تذيبها ، جذوة القلق والشعور بالمهانة .

لقد انشطر نهارها إلى شطرين ، كان للأول منهما معنىً ومحتوى ، أما الثاني فقد جرد من كل معنى ... فالفراغ البائس يتثاءب في وجهها ، والسؤال الذي لا جواب له ينخرها : ماذا ستفعلين الآن ؟

وأقبلت عليها ماريا كورسونوف فتحدثت بانفعال ، وصرخت وبكت ، وهاجت ضاربة الأرض بقدمها ، واقترحت ، وعاهدت على ما لا ندري وهددت من لا تدري ، ولكن الأم ظلت ، رغم ذلك كله ، جامدة . وتعالى صوت ماريا صخاباً :

— أريت ...؟ لقد أقلقهم هذا ... لقد ثار المعمل ... ثار بكامله . وكانت بيلاجي ترد عليها بهدوء وهي تهز رأسها : « أجل ،

أجل ، وبصرها الجامد يستعيد ما استحال إليه الماضي ، وما انشطر منها ومضى مع بول وأندريه . وكانت لا تقوى على البكاء فقلبها مهصور لا دمع فيه ، وشفتاها أيضاً يابستان ، وفمها جاف من اللعاب ... وكانت يداها ترتجفان ، ورعشات خفيفة تجمد ظهرها .

وفي المساء جاء الجند ؛ فاستقبلتهم دونما دهشة أو خوف ، دخلوا بضوضاء وملامحهم تنطق بالبهجة والاكتفاء ، وقال لها الضابط الشاحب الوجه مدندناً :

ـــ كيف حالك ؟ هذه هي المرة الثالثة التي نلتقي بها ، أليس كذلك ؟

ولاذت بالصمت وهي تمسح بلسانها الجاف شفتيها .

وثرثر الضابط كثيراً بلهجة اعتداد ، وشعرت أنه كان يجد لذة كبرى في أن يصغي إلى ما يقول ؛ ولم تك كلماته تبلغ أذنها ، أو تثير فيها الاضطراب ، ولكنها جمدت عند الباب حينما قال لها :

ـــ إنك مجرمة أيتها الأم لأنك لم تعلمي ابنك احترام الله ... والقيصر .

ـــ أجل ... إن أبناءنا هم قضاتنا ، وسيحاكموننا بعدل ، لأننا تخلينا عنهم في هذه الطريق ...

وصرخ الضابط :

ـــ ماذا تقولين ؟ إرفعي صوتك قليلًا .

فرددت الأم وهي تزفر :

ـــ أقول أن قضاتنا هم أبناؤنا .

وراح الضابط يعظ بصوت سريع حانق ، ولكن إعصار كلامه لم يكن يلامس سمع الأم .

وكانت ماريا كورسونوف قد دُعيت كشاهدة . وكانت تقف إلى جانب الأم دون أن تنظر إليها ؛ وكانت إذا ما وجه الضابط إليها سؤالًا انحنت بإفراط وأجابت بصوت رتيب :

ـــ لا أدري يا صاحب السعادة . إنني إمرأة جاهلة أهتم بتجارتي

بالقدر الذي يسمح به غبائي . إني لا أعرف شيئاً أبداً .

وينهرها الضابط وهو يحرك شاربه :

ـــ حسناً ... إخرسي .

فتنحني وتوشوش في أذن بيلاجي وهي تهز أنفها له .

وأمرها بتفتيش الأم فحملقت به بعينين زائغتين وقال بلهجة مذعورة :

ـــ لا أعرف كيف أفتشها يا صاحب السعادة .

فركل الضابط الأرض بقدمه وراح يصرخ ، فأطرقت هي برأسها وقالت للأم بهدوء :

ـــ إذاً فكي أزرارك يا بيلاجي .

وفتشتها ، وتحسست ثيابها ، وتصاعد الدم إلى وجهها فهمست :

ـــ يا لهم من كلاب .. أليس كذلك ؟!

وصاح الضابط بحدة ، وهو يحدق حيث كانت يدها :

ـــ بماذا تهمسين ؟

فغمغمت بجزع : ـــ إنها قضية نسائية يا صاحب السعادة .

وعندما أمر الأم بتوقيع المحضر رسمت بيد غير حاذقة ، وبخط مطبعي أحرفاً ضخمة واضحة : « بيلاجي فلاسوف ، أرملة عامل .. »

فصاح بها ، وعلى فمه ملامح الازدراء :

ـــ ماذا كتبت ؟ ولماذا ؟

ثم غمغم : ـــ وحوش .

وانصرف الجند ، فجلست أمام النافذة ويداها فوق صدرها ، وعيناها مسمرتان على اللاشيء ؛ ولبثت في مكانها هذا زمناً طويلاً وقد شال حاجباها وانطبقت شفتاها . لقد كانت تشد فكيها كما لو كانت تشكو ألماً شديداً في أسنانها ، ولم يكن في المصباح زيت ، فراح يخبو محشرجاً ، فنهضت إليه ونفخت ذبالته ، وغرقت في الظلام .

وملأ صدرها، كالسحابة القاتمة، تبلد مغموم ضيّق عليها أنفاسها، وظلت على هذه الحال، حتى دب الأعياء في ساقيها وعينيها .

وسمعت ماريا تناديها وهي تحت النافذة بصوت مخمور :
ــ أتنامين يا بيلاجي ؟ نامي يا شهيدتي المسكينة .
وتمددت فوق سريرها دون أن تنضو عنها ثيابها ، وسرعان ما غرقت في سبات عميق كأنما قد لفها أعصار .
ورأت في المنام هضبة الرمل الصفراء ، على طريق المدينة ، عبر المستنقع ؛ وفي أعلى المنحدر الذي يؤدي إلى حفائر الرمل كان يقف بول ، وينشد بتؤدة ويشاركه في الانشاد صوت أندريه :
ــ أيها المعذبون في الأرض هبوا ..
وكانت تعبر أمام الأكمة ، وترنو إلى ابنها ، ويدها فوق جبهتها . وكان ظل الفتى يتراءى واضحاً في زرقة السماء الغامقة ، فتخجل أن تقترب منه ، لأنها كانت حاملاً ؛ وعلى ذراعيها طفل آخر .
وتابعت طريقها فرأت في الحقول أولاداً يلعبون الكرة . لقد كانوا كثراً وكانت كرتهم حمراء ؛ ومد الطفل الذي كانت تحمله ذراعيه نحوهم ، وراح يبكي بعنف ، فألقمته ثديها ، ونكصت على عقبيها ، فإذا الهضبة تمور بالجند وقد شرعوا حرابهم في وجهها ، فأسرعت تعدو نحو كنيسة تقوم في وسط الحقول ، كنيسة بيضاء خفيفة كأنها إنما صنعت من غمام ، سامقة بلا تسارق . وكان هناك مأتم ، والنعش أسود كبير مسمر الغطاء ، وكان الكاهن وشماسه يطوفان بالكنيسة وهما يرتديان الملابس البيضاء ويرتلان :
« وبُعث يسوع من بين الأموات » .
وهوّم الشماس بالمبخرة وحياها ثم خرج . لقد كان ذا أشقر متألق ، ووجه طلق المحيا كوجه ساموالوف . ومن أعلى القبة كانت أشعة الشمس تنهمر عريضة كالمناديل ، وأطفال على جانبي الجوقة يرتلون بعذوبة :
« وبُعث يسوع من بين الأموات » .
وفجأة صاح الكاهن وهو يتوقف في وسط الكنيسة :
ــ اقبضوا عليهم .

واختفى وجهه الكهنوتي ، ونبت في وجهه شاربان رهيبان وخطهما الشيب ، فولى الجميع الأدبار ، حتى الشماس الذي رمى المبخرة في أحدى الزوايا واحتضن رأسه بيديه كما يفعل البيوروسي ، وألقت الأم طفلها تحت أقدام المؤمنين ، ولكنهم كانوا يتحاشون أن يطأوه وهم يتراكضون ، وكانوا يلقون على الجسد الصغير العاري نظرات مذعورة ، في حين كانت تركع وتتوسل إليهم :

ــ لا تتركوا الطفل ... خذوه معكم .

وينشد البيوروسي باسماً ويداه وراء ظهره :

« وبُعث يسوع من بين الأموات » .

وتنحني هي فتلتقط الطفل ، وتضعه في عربة من خشب ، ويسير نيقولا إلى جانبها ببطء ويقول ضاحكاً :

ــ لقد كُلفتُ بعملٍ شاق .

وكان الشارع موحلاً ، والناس يطلون من النوافذ فيصفرون ويصرخون ويؤشرون ، والنهار يبدو صافياً ، وشمس ملتهبة تتأجج في السماء ، ولم يكن هناك أي ظل ... وكان البيوروسي يقول :

ــ غنّي أيتها الأم الصغيرة ، فهذه هي الحياة .

وكان هو يغني فيطغى صوته على كل ضجيج ، وكانت هي تسير في اثره ،فزلت بها القدم ، فجأة ، وهوت إلى حفرة لا قرار لها ؛ وكانت هذه الهوة تعوي كلما اقتربت منها .

وأفاقت من حلمها تزلزلها رجفة ، كأن يداً ثقيلة غليظة قد أطبقت على قلبها فعصرته بتؤدة في لعبة قاسية . وكانت صافرة المعمل تزعق بإصرار ، فعرفت أنها كانت تزعق زعقتها الثانية . وكانت الكتب في غرفتها تثري متناثرة بشكل فوضوي ، وكل شيء مبعثراً مكدساً ، وأرض الغرفة متسخة من أقدام الجنود .

ونهضت تعيد إلى الغرفة نظامها دون أن تستحم أو تؤدي صلاتها ، فوقعت عينها في المطبخ على سارية العلم والمزقة الحمراء من القماش القطني ، فتناولتها بحنق ، وهمت بأن تطرحها تحت الموقد ، ولكنها

انتزعت المزقة الباقية من العلم ، انتزعتها زافرة وطوتها بعناية ، ثم دستها في جيبها ؛وحطمت بقايا السارية على ركبتها ، وألقت نثارها في صندوق الحطب ؛ وغسلت بعد ذلك النافذة وأرض الغرفة بماء دافق ، وأشعلت النار لإعداد الشاي ، ثم ارتدت ثيابها وجلست في المطبخ أمام النافذة ، ومثل أمامها ، من جديد ، سؤال السهرة بالأمس :

ــ والآن ... ماذا أفعل ؟

وتذكرت أنها لم تصل بعد ، فلبثت منتصبة أمام الايقونات بضع لحظات ثم جلست وقلبها مليء بالفراغ .

وفي الخارج كان يخيم هدوء غريب كأن الناس الذين أسرفوا عند العشية في الصراخ بالشوارع يختبئون الآن في منازلهم ، ويفكرون بصمت في نهارهم العجيب .

وتذكرت فجأة منظراً كانت قد شاهدته في أحد أيام طفولتها :

ففي الحديقة القديمة التي يملكها آل زاوو سايلوف كانت تمتد بحيرة تغطيها أزهار النيلوفر . وصدف أن مرت هي من هناك في يوم ربيعي أغبش ، فأبصرت في وسط البحيرة زورقاً . وكانت البحيرة هادئة الصفحة مربدة ؛ تشد الزورق إلى مائها الأسود بزينته الكئيبة من الأوراق المصفرة . وكانت دفقة من أسى عميق وحزن مجهول تنثال منه ، من هذا الزورق الذي لا مجاديف له ولا مجدف ، والذي تسمّر فوق الماء الكثيف بين الأوراق الميتة .

وأطالت بيلاجي الوقوف هناك ، وكانت تتساءل عمن استطاع أن يقذف الزورق بعيداً عن الضفة ، وعن الغاية من ذلك .

وفي مساء ذلك اليوم شاع بأن زوجة وكيل القصر قد غرقت في البحيرة وهي سيدة صغيرة ذات مشية متعجلة وشعر فاحم دائم التشعث .

.. وفركت الأم عينيها ؛ وانزلقت إلى ذهنها ذكرى احداث العشية واجتاحت هذه الأحداث تفكيرها ، فجمدت طويلاً في مقعدها ، وعيناها مثبتتان على قدح الشاي الذي كان قد برد ، وفي داخلها

تضطرم الرغبة في أن ترى إنساناً ساذجاً وذكياً ، وأن تسأله كثيراً من الأمور .

وكأن نيقولا إيفانوفيتش الذي جاء بعد الظهيرة ، إنما جاء ليحقق لها أمنيتها . ولكنها ما كادت تراه حتى تملكتها الكآبة بغتة ، ودون أن ترد تحيته قالت له بصوت خفيض :

ــ لقد أخطأت يا عزيزي بمجيئك إلى هنا . إنه تهور منك ، فسيقتلونك حتماً إذا ما رأوك .

وشد على يدها بقوة ، وركز نظارتيه جيداً ثم قال لها بكلمات قليلة عجلى وهو يدني وجهه من وجهها :

ــ لقد اتفقنا ، بول وأندريه وأنا ، أن آتي في الغد ، إذا ما أوقفا ، لأهيىء لك الاقامة في المدينة .

وكان يتكلم بصوت ودوذ مشتت ، ولكنه لم يلبث أن عاد فسألها :

ــ هل جاؤوا للتفتيش ؟

ــ أجل ، وبحثوا في كل مكان ، وفتشوني . هؤلاء القوم لا حياء عندهم ولا ضمير .

وقال نيقولا وهو يهز كتفيه :

ــ ولماذا يكون عندهم حياء أو ضمير ؟

ثم أخذ يشرح لها الأسباب التي من أجلها يجب أن تنتقل إلى المدينة . وكانت هي تصغي بمودة إلى صوته المفعم بالتوسل ، وترنو إليه وعلى ثغرها ابتسامة باهتة . صحيح . إنها لم تكن تفهم جيداً حجته ، ولكن ما كان يدهشها هو تلك الثقة التي يوحي بها إلى نفسها .

ــ عندما يريد بول ، وإذا لم يكن في ذلك إزعاج لك .

ــ لا تقلقي لذلك ، فأنا أعيش وحدي ، وليس هناك إلا شقيقتي التي لا تأتي إلا لماماً .

ــ ولكنني أريد أن أكسب عيشي ؟

ــ سيهيأ لك عمل إذا شئت .

وكانت فكرة العمل ، مرتبطة بالنسبة لها ، ارتباطاً وثيقاً لا انفصام

له بنوع النشاط الذي يبديه إبنها وأندريه ورفاقهما ، فاقتربت من نيقولا وسألته وهي تحدق في عينيه .

ـــ هل سيهيأ لي عمل ؟

ـــ ان مشاغلي المنزلية ضئيلة فهي مشاغل أعزب .

ـــ لست أقصد هذا النوع من العمل .

ثم أطلقت زفرة تأثر لأنه لم يفهمها ، أما هو فقد ابتسمت عيناه الحسيرتان وقال حالماً :

ـــ حبذا لو استطعت أن تحصلي من بول ، عندما تقابلينه ، على عنوان أولئك المزارعين الذين طلبوا جريدة .

وصاحت بفرح :

ـــ إني أعرفهم ، وسأعثر عليهم ، وسأعمل كل ما تكلفوني به . من سيفكر أني أنقل نشرات ممنوعة ؟... الله وحده يعلم كم حملت منها إلى المعمل .

واشتهت أن تنطلق ، لا تدري إلى أين ، عبر المسالك الواسعة والغابات والقرى ، وجرابها في كتفها ، وعصاها في يمينها ؛ ثم قالت :

ـــ أتوسل إليك أيها الصديق العزيز أن تكلفوني بهذه المهمة ، فسأنطلق أنىّ تشاؤون ، وسأهتدي إلى الطريق في المقاطعات كلها . سأمشي دون ملل صيفاً وشتاء إلى أن ألاقي حتفي كحاج في طريقه إلى كعبته . أليس مثل هذا المصير شيئاً أحسد عليه ؟

... ولفّتها سحابة من الغم عندما تخيّلت نفسها دون منزل ، شريدة ، تطلب الصدقة باسم يسوع تحت نوافذ الأكواخ الخشبية .

وتناول نيقولا يدها بلطف وداعبها بأنامله الحارة ثم قال وهو يتطلع إلى ساعته :

ـــ سنتحدث عن هذا فيما بعد .

ـــ يا صديقي الطيب إن أبناءنا الذين يحتلون في قلوبنا المقام الأعلى يضحون بحريتهم وحياتهم : إنهم يقضون نحبهم دون أن يتحسروا على أنفسهم فهل أتوانى أنا كأم ، هل أتوانى عن عمل مهما كان ؟

وشحب وجه نيقولا ، وقال همساً وهو يرنو إليها باهتمام وملاطفة :
ــ هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً من هذا النوع .
وردت وهي تهز رأسها بأسى :
ــ ماذا أستطيع أن أقول ؟
ثم أرخت ذراعيها في حركة إعياء وأردفت :
ــ ليت لي الألفاظ التي أستطيع أن أعبر بها عما في قلبي كأم .
ونهضت مدفوعة بقوة كانت تتنامى في صدرها ، وتسكرها بفيض من القول الحانق :
ــ هناك كثير من الناس سيبكون ؛ حتى اللئام ؛ حتى الكائنات التي لا ضمير لها .
ونهض نيقولا بدوره ، ونظر إلى ساعته ثانية :
ــ لقد قضى الأمر ... ستأتين للاقامة معي .
وهزت رأسها بسكون .
ــ متى ؟ في أقرب وقت ممكن .
ثم أضاف برقة : في الحقيقة ، سأكون قلقاً من أجلك .
ورمقته بدهشة وتساءلت : أية خدمة يطمع في أن تؤديها له ؟...
وكان هو يقف أمامها مطأطىء الرأس محدودباً حاسر البصر ، وعلى شفتيه بسمة ارتباك ؛ وكان يرتدي سترة سوداء متواضعة ، ويبدو كل ما يرتديه مستعاراً .
وسألها بجبن : ــ هل معك دراهم ؟
ــ كلا .
وأخرج محفظته من جيبه بسرعة ، وفتحها ثم قدمها إليها :
ــ خذي ، إذا شئت .
وارتسمت على شفتيها ابتسامة طاغية وقالت :
ــ لقد تغير كل شيء ولم يعد للمال قيمة في نظركم . إن الكثيرين يزهقون أرواحهم في سبيله أما أنتم فإنه بالنسبة لكم شيء ذي بال ، ويقال أنكم لا تحتفظون به إلا لتساعدوا الآخرين ...

وضحك نيقولا بهدوء :
ــ يا له من هنة كثيرة الازعاج ، مثيرة للاشمئزاز ، احتواؤها يضايق ، وبذلها كذلك .
ثم أخذ يدها وضغطها بقوة وردد :
ــ ستأتين في أقرب وقت ممكن .. أليس كذلك ؟
ومضى بهدوء كعادته ، وفكرت وهي تشيعه :
ــ إنه رجل شديد الطيبة ... ولكنه لم يشفق علينا .
ولم تستطع أن تميز ما إذا كان ذلك باعثاً على اشمئزازها ... أم أنها لم تحس به إلا لفرط دهشتها ؟

2

.. ورحلت في اليوم الرابع بعد زيارة نيقولا ، وعندما خرجت العربة التي كانت تقلها وحقيبتها ، عندما خرجت من الضاحية إلى رحابة الريف ، تلفتت ، وأحست فجأة أنها كانت تهجر إلى الأبد هذه الربوع حيث تصرمت أقتم فترة من حياتها وأحفلها بالألم ، وأن حياة أخرى قد بدأت ، وعهداً مليئاً بأحزان جديدة قد بدأ يلتهم الأيام بسرعة .
وكعنكبوت ضخم غامق الحمرة كان المعمل ينشلح على الأرض التي سوّدها الهباب ، شامخاً بمداخنه نحو السماء ، ومن حوله كانت تزدحم المنازل العمالية الصغيرة ذات الطبقة الواحدة .
لقد كانت هذه المنازل كمداء مستطيلة ، تنتشر متكاثفة على ضفة المستنقع ، ويرنو بعضها إلى بعض باشفاق عبر النوافذ الصغيرة الباهتة : وفوقها كانت تنتصب الكنيسة حمراء غامقة اللون كالمعمل تماماً ، إلا أن قبة جرسها كانت دون مداخنه علواً .
وزفرت الأم ، وحلت قبة قميصها التي كانت تضغط على عنقها ، ودندن سائق العربة وهو يلسع بالأعنة ظهر الجواد :
ــ هيا ... تقدم .
وكان هذا السائق أعوج الساقين نادر الشعر ناصله ، لا يمكن

تحديد عمره ، وليس لعينيه أي لون ؛ وكان يسير وهو يحلج إلى جانب العربة ، فيخيل لمن يراه أن هدف الرحلة لم يكن ليعنيه في شيء أبداً .

ـــ هيا .

وكان يلفظها بصوت أبيض ، وهو يمط ، بشكل مضحك ، ساقيه المعقوفين اللذين ينتعلان حذاءين ثقيلين تغطيهما طبقة من الوحل الجاف . وألقت الأم نظرة خاطفة على ما حولها ، فإذا الحقول خاوية كنفسها .

وكان الجواد يحرك رأسه بشكل محزن ، وهو يغرز حوافزه بتثاقل في الرمل الكثيف الذي ألهبته الشمس والذي كان يصرخ ، وكانت العربة المخلعة السيئة التشحيم تصر ، وكانت هذه الضوضاء كلها تثور مع الغبار وراء السيدة المسافرة .

وفي طرف المدينة ، في شارع مقفر بالقرب من سرادق أخضر كان نيقولا إيفانوفيتش يقيم في منزل مؤلف من طابقين : منزل كالح عتيق مشرف على الانهيار . وكانت تنبسط أمام هذا المنزل حديقة صغيرة ظليلة ، وكانت أغصان الليلك والطلح وأوراق الحور الطرية الفضية ، تلقي نظراتها الحنون من نوافذ الحجرات الثلاث لهذا المسكن .

وكانت الحجرات صامتة نظيفة ، والظلال المسننة تتراقص خرساء على الأرض ، وعلى الجدران كانت تمتد رفوف مثقلة بالكتب ، تحت صور لشخصيات قاسية الملامح .

وسأل نيقولا الأم : ـــ أيطيب لك المقام هنا ؟

سألها ذلك ، وهو يقودها إلى غرفة صغيرة ، تطل إحدى نوافذها على الحديقة وتطل الثانية على الساحة حيث يتنامى العشب خصباً ، وكانت جدران هذه الغرفة أيضاً مليئة بالمرايا والرفوف المثقلة بالكتب .

وقالت الأم :

ـــ يعجبني المطبخ أكثر فهو نظيف ومشرق !

وبدا لها كأن نيقولا يتخوف من شيء ما ، ولكنه عندما حاول ،

بارتباك ، أن يصرف اهتمامها عن المطبخ ونجح في ذلك ، استعاد مرحه فجأة .

وكان يشيع في الحجرات الثلاث جوّ خاص يشعر المرء معه بأنه يستنشق هواء خفيفاً عذباً ، ولكن الصوت فيه يتضاءل ويخفت بصورة لا إرادية ، فلا تراودك الرغبة في أن تتحدث عالياً ، أو أن تعكر صفو التأمل ، تأمل الشخصيات التي ترمقك من أعلى الجدران وهي منقبضة الملامح .

وقالت الأم بعد أن جست تراب الأصص في النوافذ :

ــ يجب أن تسقى هذه الأزهار .

ورد رب المنزل ، وفي ملامحه سيماء المذنب :

ــ أجل ، أجل . أنت تعلمين أني أحب الأزهار ، ولكن ليس لدي متسع من الوقت للاهتمام بها .

ولاحظت بيلاجي أن نيقولا كان يسير حتى في منزله الرغيد ، بحذر وشرود ، كأنه غريب عن كل ما يحيط به ، وكان وهو يركز نظارتيه بأنامل يده اليمنى الدقيقة ، يدني وجهه من الأشياء التي يراها ، ويرنو إليها بطرف عينه ، ثم يجمد بصره ، في استنطاق أخرس ، على ما كان يثير اهتمامه منها . .

وكان أحياناً يأخذ هذا الشيء بين يديه ويدنيه من وجهه ويتحسسه بعينيه في عناية ، حتى ليخيل لمن يراه أنه يدخل منزله لأول مرة كالأم ؛ وأن كل ما في الحجرة غريب عنه ؛ وأنه مثلها ، لم يتعوده من قبل ، وكانت هي تسير وراءه محاولة أن تحدد في ذهنها مكان كل شيء ؛ وتسأله عن أسلوب حياته فيجيبها بلهجة رجل لن يلتمس الغفران لأنه لم يتصرف كما يجب أن يتصرف ، بل لأنه لا يعرف أن يتصرف خلاف ذلك .

وسقت الأزاهير وجمعت دفاتر الموسيقى التي كانت مبعثرة على البيانو ، جمعتها في ترتيب بديع ، ثم تطلعت إلى ابريق الشاي وقالت :

ــ ينبغي أن أنظفه ..

ومسح بيده المعدن الباهت ، ثم تفحصه بتعالٍ وهو يدنيه من أنفه ، أما الأم فقد كانت تبتسم ابتسامة سماح .

وعندما اضطجعت واستعرضت نهارها رفعت رأسها عن الوسادة مذعورة . لقد كانت تجد نفسها للمرة الأولى في حياتها تحت سقف أجنبي دون أن يضايقها ذلك .

وفكّرت في نيقولا بكثير من الاهتمام ، وسيطرت عليها رغبة في أن تفعل كل ما تستطيع لتساعده ، ولتدخل إلى حياته قليلاً من دفء العاطفة . وكانت شديدة التأثر ببساطة مضيفها ، وسوء تدبيره المضحك ، وبعده عن كل ما هو تنظيم عملي ، كما كانت شديدة التأثر بعينيه الصافيتين المعبرتين اللتين تمتزج فيهما الطفولة والاتزان معاً ، ثم وثب تفكيرها إلى إبنها ، واستعادت من جديد يوم أول أيار الذي بدا لها ملفعاً بأصداءٍ جديدة ، ومعنىً جديد وكان أسى هذا النهار ، بنوع خاص كالنهار ذاته ، لا يحني الهام نحو الأرض كالصفعة التي تنهك المصفوع وترميه بالبله ، بل كان يثخن القلب بألف وخزة ، ويثير فيه غضباً هادئاً يقوّم الظهر المقوس .

ــ لقد خرج أبناؤنا إلى العالم .

هكذا كانت تفكر ، وهي تصغي إلى ضوضاء الحياة الليلية في المدينة ، تلك الضوضاء المختلطة التي تنزلق من نافذتها المشرّعة ، متلاعبة بأوراق الأشجار في الحديقة . لقد كانت تأتي من بعيد منهكة ضعيفة ، لتموت بهدوء في أحضان الحجرة .

وفي الغد نهضت مبكرة فنظفت ابريق الشاي ، وأشعلت النار ورتبت أواني المطبخ دونما ضجيج ، ثم جلست في المطبخ تنتظر أن يستيقظ نيقولا ؛ وسمعت سعاله ، ثم خرج بعد قليل وهو يحمل نظارتيه بإحدى يديه ، ويقي بالثانية حنجرته . وبعد أن رد على تحية الصباح حملت الشاي إلى غرفته ، في حين كان هو يغسل وجهه ، فيتطاير رذاذ الماء على الأرض ، وتتدحرج صابونته وفرشاة أسنانه وهو يدمدم ساخطاً على نفسه .

وخلال الفطور راح نيقولا يقص عليها :
ـــ لقد كنت أمارس عملًا حزيناً في المديرية الإقليمية ؛ فأراقب كيف يسير مزارعونا إلى الدمار .
وابتسم ابتسامة المذنب ثم أردف :
ـــ هؤلاء المساكين الذين أنهكهم جوع مزمن ، يهصرهم الموت قبل الأوان . إن أطفالهم يولدون ضعاف البنية ، ويموتون كما يموت البعوض في الخريف . لقد كنا نعرف ذلك ، ونعرف أسباب هذه الكارثة ، ولكن كل ما كنا نفعله ، في الحقيقة ، عندما نتفحص جيداً هذه الأسباب .... أن نقبض رواتبنا .
وسألته مقاطعة :
ـــ وما هي مهنتك ؟ هل أنت طالب ؟
ـــ كلا .. فأنا معلم مدرسة . إن والدي مدير مصنع في « فياتكا » أما أنا فقد أصبحت مدرساً . لقد أخذت أوزع الكتب على القرويين ، فزججت في السجن وبعد خروجي منه عملت مستخدماً في مكتبة ، ولكنني لم أك حذراً أثناء عملي فيها ، فأوقفت ثانية ، وأرسلت إلى « آركانجل » ، وكانت لي مع الحاكم هناك أيضاً مضايقات ، فأبعدت إلى مزرعة على شاطيء البحر الأبيض حيث لبثت خمس سنوات .
وكان صوته يرن هادئاً متزناً في الغرفة المشرقة التي يغرقها نور الشمس .
لطالما سمعت الأم قصصاً من هذا النوع ، ولكنها لم تك تدرك لِمَ كان أصدقاء بول يروونها بكثير من الهدوء كما لو كان الأمر يتعلق بأحداث محتومة لا يمكن تجنبها .
وقال نيقولا : ـــ ستصل اليوم شقيقتي .
هل هي متزوجة ؟
ـــ إنها أرملة . لقد نُفي زوجها إلى سيبيريا ، ولكنه هرب من منفاه ، ومات في الخارج منذ عامين ، مات مصدوراً .

ـــ أهي أصغر منك سناً ؟

ـــ إنها تكبرني بست سنوات ، وأنا مدين لها بالكثير . ستسمعين غداً عزفها ، فهذا البيانو ملك لها كالكثير من الموجودات هنا ، أما الكتب فهي لي ...

ـــ وأين تقيم ؟

وأجاب باسماً : ـــ في كل مكان . في كل مكان ما يحتاج الناس فيه إلى مخلوقة جريئة ...

ـــ وهل تهتم هي أيضاً بالقضية ؟

ـــ هذا أمر لا ريب فيه .

.. وانصرف إلى مكتبه في حين راحت الأم تفكر في « تلك القضية » التي يساندها الناس يوماً بعد يوم ، بعنادٍ ووعي ، وتشعر هي أمامهم كأنها أمام جبل في قلب الليل .

وعند الظهيرة أقبلت سيدة رشيقة مديدة القامة ترتدي ثوباً أسوداً وما كادت الأم تفتح لها الباب حتى ألقت الزائرة إلى الأرض بحقيبتها الصغيرة الصفراء ، وراحت تحتضن بحرارة يد بيلاجي وهي تسألها :

ـــ إنك والدة بول ... أليس كذلك ؟

وأجابت وقد أدهشتها الأناقة في مظهر السيدة :

ـــ أجل .

وقالت السيدة وهي تنزع قبعتها أمام المرآة :

ـــ إنك تماماً كما تخيلتك فلقد كتب إليّ أخي بأنك ستأتين للاقامة معه . إنني وبول صديقان منذ أمد بعيد ، وكثيراً ما كان يحدثني عنك .

وكان صوتها أصم ، وكانت تتكلم ببطء ، ولكن حركاتها كانت تفيض حيوية ونشاطا ، وكانت تلوح في عينيها الواسعتين بسمة فتية صريحة ، وعلى صدغيها تنداح تجاعيد صغيرة ، وفوق أذنيها الدقيقتين تلمع كالفضة خصل من الشعر الأشهب .

وقال : ـــ إني جائعة .. وبودي لو احتسي فنجان قهوة ...

وردت الأم : سأعده لك في الحال .

وفيما كانت تخرج المغلاة من الخزانة سألت بصوت خفيض :

ــ أصحيح أن بول يتحدث عني ؟

ــ كثيرا ...

وسحبت السيدة علبة من جلد ، فأخذت منها سيجارة أشعلتها ، ثم سألت الأم وهي تذرع أرض الحجرة جيئة وذهاباً :

ــ أأنت شديدة القلق عليه ؟

... وكانت الأم تبتسم وهي تتتبع ببصرها لهب المصباح الكحولي الأزرق الذي كان يتراقص تحت المغلاة ؛ تبتسم وقد تلاشى قلقها أمام هذه السيدة ، وغار في أعماق نشوتها .

ــ إذاً فابني الشجاع يتحدث عني ؟

ثم أردفت ببطء :

ــ إن الأمر لعسير بلا شك ، ولكنه كان من قبل أكثر سوءاً . أما الآن ... فأعلم أنه ليس وحده .

وسألت وهي تركز بصرها في وجه الزائرة :

ــ وما هو اسمك ؟

ــ صوفيا .

وكانت الأم تتأملها بدقة ، فلقد كان فيها شيء من التطرف والجرأة الشديدة والاندفاع ... وكانت تتكلم بوثوق :

ــ المهم ، ألا يمكثوا في السجن طويلا .. إنهم سيحاولون سريعاً إلى المحاكمة ، وعندما يصبح بول في المنفى فإننا سنمهد له السبيل إلى الهرب ، لأننا لا نستطيع أن نعمل هنا بدونه .

وحدّقت الأم بصوفيا وهي لا تصدق ما تسمع ، في حين كانت هذه تبحث عن مكان تلقي فيه عقب سيجارتها ، فاهتدت أخيراً إلى أصيص أزهار ، طمرته في ترابه .

واعترضت الأم بصورة عفوية :

ــ إنك بذلك تؤذين الأزهار ...

فاعتذرت صوفيا : المعذرة . إن نيقولا يقول لي دائماً ...
ثم التقطت عقب السيجارة ، وقذفته من النافذة .
وشعرت الأم بالحرج ، فحدقت في عينيها وقالت لها بلهجة الخاطيء :
ــ أعذريني ، فلقد ما قلت دونما تفكير . أمن شأني أنا أن أوجه إليك الملاحظات ؟
فأجابت صوفيا وهي تهز كتفيها :
ــ ولِمَ لا ما دمت أنا شديدة الاهمال ؟ هل القهوة جاهزة ؟ شكراً . ولكن لِمَ أعددت قدحاً واحداً ... ألن تشربي ؟
وأمسكت الأم من كتفيها فجأة ، وجذبتها إليها ، وسألتها بدهشة وهي تحدق بها بإمعان :
ــ هل تشعرين بالضيق ؟
وأجابت بيلاجي باسمة :
ــ أوجه إليك الملاحظات ... ثم تسألينني هذا السؤال ؟
وبدون أن تخفي دهشتها ، استأنفت ، كأنها إنما تخاطب نفسها :
ــ لقد حللت البارحة في منزلكم ... ومع ذلك فإني أتصرف كما لو كنت في منزلي . لا أخاف شيئاً ... وأقول ما أريد .
ــ يجب أن يكون الأمر كذلك .
واستطردت الأم :
ــ لا أدرى أين هو مكان رأسي ، ولا أكاد أعرف نفسي ، لقد كان عليّ في الماضي أن أدور طويلاً حول الناس ، لأقول لهم شيئاً ما دونما مواربة ... أما الآن ... فإني أفتح صدري في الحال ، وأبوح دفعة واحدة بأشياء لم أفكر بها من قبل ...
وأشعلت صوفيا لفافة أخرى ، وكانت عيناها الرماديتان تلقيان على الأم نظرة مشرقة حنوناً .
وطرحت الأم هذا السؤال الذي كان يعذبها :

ــ أقلت أنكم ستعدون العدة لفرار بول ؟ ولكن كيف سيعيش بعد ذلك ؟

وأجابتها صوفيا وهي تصب المزيد من القهوة :

ــ إنها لعبة صبيانية . سيعيش كما يعيش عشرات الفارين . لقد التقيت بواحدٍ منهم ، وأنا في طريقي إلى هنا . إنه رجل نشعر بالحاجة الماسة إليه ، وقد حكم عليه بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض منها هناك سوى ثلاثة أشهر ونصف فقط .

وحدقت بها الأم باسمة ، وقالت بصوت خفيض وهي تهز رأسها :

ــ آه ... إنه ذلك النهار ، أول أيار ، الذي سبب لي الاضطراب ... فأنا أشعر اني لست على ما يرام ، كما لو كنت أسلك طريقين مختلفين في آن واحد : تارة يخيل إليّ إني أدرك كل شيء ، وتارة أجد نفسي فجأة كأني غرق في الضباب ، فأنت مثلاً حين أنظر إليك الآن ، سيدة تنهمكين في العمل من أجل القضية ، إنك تعرفين بول ، وتقدرينه ، وإني لأشكرك على ذلك ...

وقاطعتها صوفيا ضاحكة : ــ إنك أنت التي تستحقين الشكر .

فأجابت الأم وهي تتنهد :

ــ ولِمَ ... فأنا لم أعلمه كل هذا ...

ووضعت صوفيا لفافتها في طبق الفنجان ، وهزت رأسها ، فانتثر شعرها الذهبي فوق كتفيها في خصل كثيفة ، وخرجت من الغرفة وهي تقول :

ــ حسناً .. أعتقد أنه قد آن لي أن أخلع ثيابي وأن أنضو عني كل هذه الأبهة .

3

... وعاد نيقولا في المساء ، وتناولوا العشاء جميعاً ، وقصت صوفيا خلا ل ذلك ضاحكة ، قصة الشريد الذي التقته وخبأته . لقد كانت تخشى الجواسيس ، وتراهم في كل مكان ، وكان الرفيق الهارب

مضحكاً حقاً . ولمست الأم في لهجة صوفيا شيئاً يذكرها بتبجح العامل الذي أنجز عمله الصعب باتقان ، فملأه السرور لذلك .

وكانت صوفيا ساعتئذ ترتدي ثوباً خفيفاً فضفاضاً ، أشهباً فضي اللون ، وكانت تبدو به أطول قامة ، كما تبدو عيناها أكثر تجهماً وحركاتها أكثر هدوءاً .

وقال نيقولا بعد العشاء :

ــ سيكون هناك مهمة جديدة تنتظرك يا صوفيا ؛ فأنت تعلمين أننا قررنا إصدار صحيفة خاصة بالريف ، ولكننا فقدنا بسبب الاعتقالات الأخيرة ، الصلة المباشرة ، وليس بمقدور أحد سوى بيلاجي أن يعثر لنا على الشخص الذي سيتولى مهمة التغلغل في الريف . وعليك أنت يا صوفيا أن ترافقيها : وليكن ذلك في أقرب وقت ممكن .

وقالت صوفيا وهي تمج سيجارتها :

ــ حسناً ، سوف نذهب .. أليس كذلك يا بيلاجي ؟

ــ ولِمَ لا ؟

ــ هل المكان بعيد ؟

ــ إنه يبعد نحو أربعة وعشرين كيلو متراً تقريباً .

ــ هذا حسن . والآن أود أن أعزف قليلاً فهل تتحملين سماع قليل من الموسيقى يا بيلاجي ؟

وأجابت الأم وهي تجلس في زاوية من المقعد :

ــ لا تسأليني رأيي ، بل تصرفي كأنني لست موجودة .

وكانت تلاحظ أن الأخ وأخته يحاولان ــ دون أن يظهر عليهما أنهما يعيرانها أي اهتمام ــ يحاولان أن يشركاها دائماً في حديثهما .

ــ إسمع يا نيقولا ، هذه المعزوفة لفرييج ... لقد حملتها معي اليوم ... اقفل النوافذ .

وفتحت دفتر الموسيقى ، ونقرت أناأمل يسراها برقة أصابع العاج ، فتحركت الأوتار في رنين ناعم كثيف ، وانطلقت في باديء الأمر زفرة عميقة ثم تلاها نغم آخر غني الرنة ، وتعالت من تحت أنامل يمناها ،

في رقة كئيبة ، صرخات غريبة الشفافية ، ودوّت الأنغام الواضحة ، واصطفقت أجنحتها فوق جهامة الأنغام الخفيضة ، اصطفاق أجنحة العصافير المذعورة .

ولم تحرك هذه الموسيقى الأم ، في باديء الأمر ، فقد كانت لا ترى في هذا التتابع النغمي إلا خليطاً من الأصوات المتنافرة ، وكانت أذنها لا تستطيع أن تحس اللحن المنساب في الذبذبة المعقدة ، ذبذبة ذلك الفيض من الأنغام ، بل كانت ترنو ، وهي نصف نائمة إلى نيقولا الذي كان يجلس على الطرف الآخر من المقعد الواسع ، وقد طوى ساقيه تحته ، وتتأمل وجه صوفيا الصارم ورأسها الذي تغطيه نتف كثيفة من شعرها الأشقر .

لقد كان خيطٌ دافيء من شعاع الشمس يشعل هذا الرأس ، وينحدر إلى كتفها ، ثم يترامى على العاج ، ويرف تحت أنامل العازفة ، ويغمرها ، وكانت الموسيقى تملأ الغرفة شيئاً فشيئاً ، وقلب الأم يستيقظ على اللحن دون أن تشعر .

وفجأة استيقظت من أعماق غدها المظلمة ذكرى مهانة كان النسيان قد عفّى عليها منذ أمد طويل ، وانبعثت الآن بوضوحها القاسي ؛ ففي ذات ليلة عاد زوجها في ساعة متأخرة يتعته السكر ، فأمسكها من ذراعها وألقي بها تحت السرير وهو يركلها برجله قائلاً :

ــ إغربي من وجهي أيتها الجيفة فلقد سئمتك .

ولكي تتقي ضرباته، انتزعت طفلها بعنف، وكان في الثانية من عمره، وركعت تحتمي بالجسد الضاوي وتجعله مجّها الواقي. وكان بول يبكي، وينتفض جسده العاري الذي أدفأه الرعب، وكان ميشال يزمجر :

ــ إغربي من وجهي ... إغربي من وجهي .

وتركض نحو المطبخ فتطرح ثوباً على كتفيها وتلف الطفل بشال ، ودونما صراخ أو شكوى ، تنطلق في الشارع حافية القدمين .

كان ذلك في أيار ، وجو الليل رطب ، والغبار البارد يلتصق بقدميها ويتراكم بين أصابعها ، والطفل يبكي وينتفض ، وتكشف هي

عن صدرها ، وتشد ابنها إليه ، وتسير يطاردها الخوف ، وهي تهدهده وتدندن ...

ـــ أو .. أو .. أو .. أو ..

... ويقبل النهار ويتملكها الرعب والخجل من أن يراها الناس نصف عارية ، فتنحدر نحو ضفة المستنقع ، وتجلس على الأرض تحت أكمة كثيفة من شجيرات الحور ، وتمكث هناك طويلا وقد لفها الليل ، وتسمرت عيناها المتسعتان على الظلمات ، وتهدهد طفلها بجزع كسيرة القلب :

ـــ أو .. أو .. أو .. أو ...

وفجأة يتحرك فوقها طائر أسود ، يتحرك بصمت ، ثم يطير نحو البعيد ، فيطرد الكرى من عينيها ، فتنهض ، وتتجه وهي ترتعد برداً ، نحو المنزل ، ليستقبلها فيه الرعب الذي تعودت ، والضرب وسيل جديد من الشتائم .

وزفر ، للمرة الأخيرة ، نغمٌ فاترٌ بارد ... ثم خمد .

واستدارت صوفيا ، وسألت أخاها بصوت خفيض :

ـــ هل أعجبتك المقطوعة ؟

فأجاب وهو ينتفض كمن أيقظته المفاجأة : ـــ جداً ... جداً .

وكان صدى الذكريات يضج في صدر الأم ويرتعش ، وكانت هناك فكرة تملأ خاطرها :

« هؤلاء قوم يعيشون بهدوءٍ وانسجام رائع ، لا يتشاجرون ولا يثملون ولا يتخاصمون من أجل لا شيء ؛ كما هو حال الطبقة الدنيا من الشعب .. »

وكانت صوفيا تدخن بكثرة وبلا انقطاع تقريباً ، وقالت وهي تعب الدخان بعمق ، وتعزف من جديد لحناً خفيفاً حزيناً :

ـــ لقد كانت المقطوعة التي عزفتها هي المفضلة لدى « كوستيا » المسكين ، لكم كنت أحب أن أعزفها له فهو ناعم ، شديد الحساسية ، منفتح الذهن .

وقالت الأم في سرها : « لا شك أنها تفكر بزوجها » . ثم ابتسمت .

وتابعت صوفيا بصوت خفيض والألحان الخفيفة تواكب أفكارها :

ـــ أية سعادة منحنيها ، ولكم كان يعرف كيف يعيش !

وقال نيقولا وهو يمسد لحيته :

ـــ أجل .. لقد كانت روحه تغني :

وقذفت صوفيا اللفافة التي كانت قد أشعلتها ، واستدارت نحو الأم تسألها :

ـــ هل يضايقك عزفي ؟

وأجابت الأم بشيء من الانفعال الذي لم تستطع إخفاءه :

ـــ لا تسأليني ، فأنا لا أفقه شيئاً مما تعزفين ، ولست هنا إلا لأسمع ، ولأجترّ الخواطر ...

وردت صوفيا :

ـــ بلى ... يجب أن تفهميها ... فلا يمكن لامرأة إلا أن تفهم الموسيقى لا سيما إذا كانت معذبة .

ونقرت الأصابع العاجية بقوة ، فتعالت صرخة مرتان كصرخة من تلقى نبأ مريعاً أصابه في الصميم ، وانتزع من صدره الأنين الموجع ؛ وتفجرت أصوات أخرى فتية مذعورة ثم تبددت سريعاً ، وارتفع من جديد صوت هادرٌ مسعور طغى على ما عداه ، صوت تحسب حين تسمعه أن سوءاً ما قد نزل ، ولكنه سوء يثير الحقد ، ولا يثير الشكوى . ثم تبعه صوت آخر قوي جنون راح يتغنى بأغنية بسيطة حلوة ؛ أغنية جذابة معبرة .

وأفعمت قلب الأم رغبة في أن تقول لمضيفيها كلمة طيبة ، وكانت تبتسم منتشية بالموسيقى ، وتحس أنها تستطيع أن تكون بالنسبة إليهما شيئاً مفيداً .

وأدارت عينيها تفتش عما تستطيع أن تقوم به من عمل . ثم انسلت إلى المطبخ لتعد الشاي ؛ ولكن رغبتها في أن تكون « شيئاً

مفيداً » لم تتلاش . وكانت وهي منهمكة في إعداد الشاي ، تتكلم وعلى شفتيها ابتسامة غامضة ، كأنها تود أن تعزي قلبها بكلمات يفيض منها الحنان الدافيء ، كلمات كانت توجهها إلى نفسها وإلى رفيقيها :

ـــ إننا نحن أبناء الشعب ، نحس كل شيء ؛ لكننا نعاني صعوبة في التعبير عن إحساسنا . إننا نخجل لأننا ندرك ، ولكننا لا نستطيع أن نبوح بذلك ؛ وكثيراً ما نثور بسبب هذا الضيق ، ضد أفكارنا . إن الحياة نفسها تصفعنا وتثخننا جراحاً من كل جانب ، ونحن نود أن ننعم بالراحة ، ولكن أفكارنا تحرّمها علينا .

وكان نيقولا يصغي وهو يمسح نظارتيه ، وكانت صوفيا ترنو إليها وعيناها الكبيرتان مشدوهتان ؛ لقد نسيت لفافتها المنطفئة فلم تشعلها ، وكانت وهي لا تزال أمام البيانو ، تتجه إليه بنصف كتلتها ، وكانت تمر بين الفينة والفينة ، أصابع يمناها الطوال الناعمة على أصابع العاج ، فيمتزج النغم ، حَذِراً ، بكلمات الأم التي كانت تسارع فتكسو مشاعرها كلاماً بسيطاً مخلصاً .

ـــ وها أنذا الآن قد بدأت أقوى على الكلام عن نفسي وعن الآخرين مهما كان هذا الكلام نزراً ؛ لأني بدأت أفهم ، ولأني أصبحت قادرة على المقارنة ... أما قبل الآن فلم يكن عندي ما أقارنه . فالناس الذين يعيشون في ظروفنا يحبون الحياة نفسها ، ولكنني الآن أرى كيف يعيش الآخرون فأتذكر كيف كنت أعيش أنا نفسي ... وفي هذا قسوة ومرارة .

وأردفت وهي تخفض من صوتها :

ـــ ربما كنت أقول أشياء ليست كما يجب أن تكون ، وقد لا يكون في ذلك أي ضير لأنكما تعرفان كل شيء .

وكانت الدموع تدبس الرعشة في نبرات صوتها ، وكانت ترنو إليهما وفي عينيها بسمة طيبة .

ـــ ولكنني أود أن أشرّع لكما قلبي .. لتريا أني لا أضمر لكما إلا الخير ..

وأجاب نيقولا برقة : ـــ إننا نعرف ذلك .

ولم تك بيلاجي بمستطيعة أن تشبع رغبتها في الحديث ، فحدثتهما أيضاً عما كانت تراه جديداً بالنسبة إليها ، وعما كان يبدو لها ذا قيمة لا تقدر ، وراحت تقص عليهما قصة حياتها ، حياة المهانة والعذابات المستسلمة ، تقصها بلا حقد ، وبسمة الاشفاق تفوّف شفتيها ؛ وكانت تستعرض الشريط القاتم لأيامها الحزينة وتحصي ما تلقنه من ضربات زوجها ، متأثرة من تفاهة الأسباب الدافعة إلى هذا الضرب ، دهشة لعجزها عن تفاديه .

وكانا يستمعان إليها بصمت ، يجتاحهما تأثر عميق بهذه القصة الساذجة لانسانة عوملت ، زمناً طويلًا ، كالحيوان ؛ دون أن تند عنها أية شكوى ، حتى تملكها الاحساس بأنها حقاً كذلك ، وكان يخيل إليها أن آلاف الناس ينطقون في لسانها . لقد كان كل شيء في وجودها تافهاً بسيطاً ، ولكن هذه التفاهة وتلك البساطة كانتا الطابع الذي تتميز به حياة عددٍ لا يحصى من الناس على وجه الأرض ، ولم يكن لقصتها هي إلا قيمة الرمز .

وكان نيقولا جامداً يسند رأسه براحتيه ، ومرفقه إلى الطاولة ، ويرنو إلى الأم من وراء نظارتيه ، بعينين تلمع فيهما اليقظة ، أما صوفيا فكانت تستلقي عليمتكأ المقعد ، وتجتاحها بين الفينة والفينة رعشة ، وتهز رأسها مستنكرة . وكان وجهها يبدو أكثر تحولًا وأشد إصفراراً ، ولم تكن تدخن .

وقالت صوفيا بصوت خفيض :

ـــ لقد اعتقدت يوماً بأني شقية ، وخيل إليّ أن حياتي ضرب من الحمى ...

وغصت كلماتها بالدموع ، ولكن عينيها ابتسمتا وهي تنظر إليهما وتقول :

ـــ ولكن أريد أن أفتح لكما قلبي حتى تعلما كم أتمنى من الخير لكما . فقال نيقولاي في صوت رقيق : إننا نعرف ذلك جيدا .

كان يبدو انها عاجزة كل العجز عن ارضاء رغبتها ، فراحت تروي لهما مرة أخرى كل ما في حياتها من جديد ، وما تجده عظيم الأهمية فوق كل حدود . وشرعت تتحدث عن حياتها المريرة وعن عذابها الصبور ، تروي ذلك كله دون غضب ، ولكن في ظل من الأسف الساخر . وراحت تنشر شريط تلك الأيام الرمادية القاتمة التي تؤلف حياتها السابقة ، وتحصي ما أذاقها زوجها إياه من لكمات ، متعجبة هي نفسها من تفاهة الدوافع التي كانت تقود إليها ، وفي الوقت ذاته من عجزها عن تفاديها وإيقافها عند حد ..

وكانا يصغيان إليها في صمت متأثرين بالمعنى العميق الكامن وراء هذه القصة البسيطة عن حياة كائن لم ترفعه نظرة الناس إليه عن مضاف العجماوات الا قليلا جدا جدا ، فراح هو يعتبر نفسه طويلا ، في خضوع ودون أدنى تذمر على الاطلاق ، مثلما ينظرون إليه تماما . وكان يخيل إليهما ان آلاف الحيوانات تنطق بلسانها ، ان كل ما عاشته بسيط ومألوف مثل حياة الأغلبية الساحقة من الناس على وجه هذه الأرض ، ولذلك فإن قصتها تكسب معنى رمز عام شامل . ووضع نيقولاي مرفقيه على المائدة ، واعتمد رأسه بين يديه ، وراح يراقبها من وراء نظارتيه بعينين متضيقتين . اما صوفيا فقد استلقت في مقعدها وهي ترتعش وتهز رأسها من حين لآخر ، وقد بدا وجهها وكأنه يزداد نحولا وشحوبا . ولم تكن تدخن .

قالت في هدوء ، وهي تطرق برأسها :

لقد اعتقدت مرة إني بائسة ، وخيل إلي أن حياتي عبارة عن هذيان ليس غير . وكان ذلك عندما كنت في المنفى في ضاحية صغيرة في إحدى الولايات البعيدة ، حيث لم يكن لدي هناك ما أفعله أو أفكر فيه إلا شخصي وحده ، فرحت لذلك أحصي كل مصائبي ما دمت لا أجد شيئا أفضل أصنعه : لقد تشاجرت مع والدي الذي أحبه ، وطردت من المدرسة حيث جعلوا مني مثالا مخجلا ، وسجنت ، كما أن رفيقا مقربا إلي قد خانني . ولقد اعتقل زوجي ، ثم كان السجن

والمنفى مرة أخرى ، ومن بعد وفاة زوجي ؛ ولقد خيل إلي أني أكثر الكائنات في العالم بؤسا وشقاء ، ولكن سائر مصائبي ، مضروبة في عشر أمثالها ، لا تساوي شهرا واحدا من حياتك يا بيلاجيا نيلوفنا ... لقد كانت حياتك عذابا يوميا يتتابع سنة بعد سنة ... من أين يستقي الناس تلك القوى كي يتحملوا هذا العذاب الأليم ؟

فأجابت بيلاجيا وهي تتنهد :

ـــ إنهم يعتادون عليه .

وقال نيقولاي مفكرا :

ـــ يخيل إلي إني أعرف الحياة كثيرا . وعندما اطلع عليها عن قرب ، ليس في كتاب ولا في انطباعاتي الخاصة عنها ، بل حين تنتصب هي نفسها أمامي ... ان ذلك لرهيب إذن ، وان التفاصيل رهيبة كذلك ، وحتى التوافه أيضا . كل تلك اللحظات التي تبنى السنوات فيها ...

واستمر الحديث واتسع ، يتناول كل مظاهر هذه الحياة المظلمة . وراحت الأم تحفر عميقا في ذكرياتها ، وهي تنبش سلسلة الامتهانات والاهانات اليومية التي جعلت من صباها خوفا دائما لا ينقطع . وقالت أخيرا :

ـــ ولكن ما بالي أثرثر ، وأثرثر في حين آن لكما أن تذهبا إلى الفراش . ان المرء لن يستطيع أبدا أن يبوح بكل ما عنده ...

واستأذن الأخ والأخت منها في سكون ، فخيل إليها أن نيقولاي قد انحنى أكثر من المعتاد ، كما ضغط على يدها بقوة أكبر . اما صوفيا فرافقتها حتى غرفتها ، ثم قالت وهي تتركها عند الباب :

نوما هنيئا .. طابت ليلتك .

كان صوتها مفعما بالحرارة ، وعيناها الرماديتان تداعبان وجه الأم في حلاوة .

وتناولت الأم يد صوفيا وضغطت عليها بين كلتا يديها ، وقالت :

ـــ شكرا لك ! ...

4

وبعد أربعة أيام وقفت كل من الأم وصوفيا أمام نيقولاي وهما ترتديان أسمال امرأتين فقيرتين من سكان المدن : رداء قطنيا ممزقا وسترة حقيرة مهترئة ، وعلى ظهر كل منهما خرج وفي يدها عصا ثخينة . وقد بدت صوفيا في هذه الثياب أقصر منها عادة ، ووجهها الشاحب أكثر رزانة وجدا أيضا ...

وضغط نيقولاي يد أخته بشدة وهو يودعها ، فلفتت انتباه الأم مرة أخرى تلك البساطة الهادئة المسيطرة على علاقاتهما . إنهما لا يتبادلان القبل ولا يتناديان بأسماء تحبب ، ولا يغدقان ، على بعضهما البعض مظاهر الحنان ، وإن كانا ابدا يعنيان كل بأمر الآخر في كثير من العطف والود . أما حيث عاشت الأم ، فقد كان الناس يتبادلون القبل وعبارات الاكرام أبدا ، ولكن يستمرون في الوقت نفسه يعضون بعضهم بعضا مثل الكلاب الجائعة .

وخرجت المرأتان في صمت إلى شوارع المدينة ، ومنها إلى الحقول ، وهما تسيران كتفا إلى كتف على طول طريق غريضة ، غير معبدة تمتد بين صفين من أشجار البتولا العجوزة .

سألت الأم رفيقتها :

ــ أفلن تتعبي ؟

ــ أتظنين أني لم أمش كثيرا طوال حياتي ؟ إن ذلك مألوف لدي تماما . وراحت صوفيا تتحدث في مرح عن نشاطها الثوري ، وكأنها تروي نزوات طفولتها . لقد عاشت بأسماء مختلفة وأوراق مزورة ، وكثيرا ما تنكرت كي تفلت من الجواسيس ، كما نقلت قناطير من الكتب غير المشروعة من مدينة لأخرى ، ونظمت هرب كثير من الرفاق من المنفى ، واجتازت بهم الحدود ورافقتهم إلى مدن أجنبية . وذات مرة أخفت مطبعة سرية في بيتها ، وعندما بلغ خبرها رجال الدرك وجاءوا يفتشون الدار ، استطاعت في الوقت المناسب أن تتنكر في زي خادمة وتولي الأدبار ، ملتقية بزوارها عند بوابة المنزل ، كان ذلك في الشتاء ،

والطقس شديد البرد لاذع الصقيع ، ومع ذلك فقد عبرت المدينة بأسرها في ثوب رقيق ، لا يسترها إلا وشاح من القطن ألقت به على رأسها وكتفيها ، وفي يدها إناء البترول فكأنها تريد أن تبتاع شيئاً منه .

وفي مرة أخرى قدمت إلى مدينة غريبة عنها تزور بعض الأصدقاء . وبينما هي ترتقي السلم ، اكتشفت أن رجال الدرك يفتشون الجناح الذي تقصده . وكانت فرصة النكوص على أعقابها قد فاتت ، فلم تتوانَ عن قرع جرس الطابق السفلي في جرأة وزرع نفسها هناك ، بما لها وما عليها ، عند أولئك القوم المجهولين . ولقد قالت لهم ، بعد أن أوضحت لهم حالتها بكل صراحة :

ـــ إنكم تستطيعون أن تسلموني إلى الشرطة إن شئتم ، ولكني لا أستطيع أبدا أن أفكر أنكم فاعلون ذلك .

ولقد ذعروا كثيرا حتى لم يغمض لهم جفن طوال الليل ، وهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يقرع بابهم ، ولكنهم لم يسلموها ، وفي صباح اليوم التالي ضحكوا للمغامرة من كل قلوبهم .

وفي مرة ثالثة أيضا ، تنكرت في زي راهبة ، وسافرت في ذات العربة وفي المقعد المجاور لمقعد الجاسوس الموكل إليه مراقبتها . لا بد إنه راح يروي لها متباهيا مزهوا كيف يتتبع آثار تلك المرأة بكل مهارة وحنكة ، وكيف انه واثق من ركوبها في قاطرة من الدرجة الثانية في القطار نفسه . وكان يغادر مقعده في كل محطة ليبحث عنها ، ثم يقول للراهبة عندما يعود :

ـــ إني لا أراها ، فلا ريب أنها استسلمت للنوم . إنهم يتعبون كثيرا هم أيضا ، فحياتهم ليست أسهل من حياتنا على الاطلاق .

وضحكت الأم كثيرا ، وهي تختلس النظر بحنان إلى صوفيا التي تروي هذه الأقاصيص . كانت الفتاة ، ممشوقة القد نحيلة القوام ، تتنقل في خفة وثبات على رجليها الرشيقتين ، وفي خطوها وأسلوبها في الحديث ، وفي رنين صوتها المرح والأجش قليلا ، وفي كل هيكلها المنتصب ، شيء جريء ومقدام يطفح صحة وقوة . كانت تقترب من

كل الأشياء ، في فتوة ، وتجد ما يحمل لها السرور في كل ما تقع عليه عيناها . هتفت مرة وهي تشير إلى إحدى الأشجار :

ــ يا لها من صنوبرة رائعة !

فتوقفت الأم ونظرت إلى حيث تشير . لم يكن في الصنوبرة شيء يميزها عن مثيلاتها على الاطلاق .

ضحكت ، وهي ترى إلى الريح تداعب خصلا من الشعر الشائب فوق أذن المرأة المرافقة لها وقالت :

ــ نعم ، إنها لشجرة رائعة حقا .

ــ قنبرة !

والتمعت عينا صوفيا الرماديتين حنانا ، ومال كل جسدها نحو موسيقى القنبرة غير المنظورة ، المترددة في السماء الصافية . ومن حين لآخر ، كانت تنحني برشاقة لتلتقط زهرة برية تمسح على أوراقها المرتعشة بأصابعها الرقيقة ، السريعة الحركة ، وهي تدندن لحنا فائق العذوبة .

كل هذا كان يجتذب الأم إلى الفتاة ذات العينين الرماديتين ، وهي تسير إلى جانبها ، ساعية ألا تتأخر عنها . ولكن صوفيا كانت تتحدث في قسوة وحدة في بعض الأحيان ، فتأسف الأم لذلك ، وتفكر في قلق :

ــ ان ميخائيلو لن يحبها .

ولكن صوفيا لا تلبث ، في اللحظة التالية ، أن تعود إلى الحديث في بساطة وحرارة ، فتنظر الأم إليها عندئذ وتبتسم .

وتنهدت :

ــ يالك من فتاة في ريعان الصبا بعد .

فهتفت صوفيا :

إني قد بلغت الثانية والثلاثين .

فابتسمت بيلاجيا وقالت :

ــ ليس هذا ما أعنيه . إن مظهرك يوحي بأنك أكبر سنا أيضا ،

ولكنني عندما أصغي إليك وأنظر في عينيك ، تأخذني الدهشة دوما ... إنك مثل صبية صغيرة تماما . لقد كانت حياتك صعبة قاسية مضطربة ، وحتى خطرة ، ومع ذلك فإن قلبك يبتسم أبدا .

ـ إني لا أعير صعوبة الحياة أدنى انتباه ، لكنه يخيل إلي أحيانا أنه ليس من إنسان حياته أفضل وأكثر مثارا للاهتمام من حياتي . لسوف أناديك بإسم أبيك ... نيلوفنا . إن اسم بيلاجيا لا يروق لي نوعا ما .

فقالت الأم مفكرة :

ـ ناديني كما تشائين ، بالضبط كما تشائين ما دام ذلك يروق لك ، إني لا أفتأ أنظر إليك وأصغي بسمعي وأفكر . وإنه ليسعدني انك وجدت السبيل الذي يقود إلى القلب البشري ، فليس من يمتنع عن أن يحدثك بكل ما يجر في داخله دون أن يخالجه الخوف مطلقا . إنه يفتح لك قلبه من تلقاء نفسه . وإني أتأمل فيكم جميعا ، فلا تفارقني هذه الفكرة لحظة : إنهم سينتصرون أخيرا على الشر في الحياة ، لا بد أنهم منتصرون .

فقالت صوفيا في صوت مرتفع وبلهجة من يأتمن الآخر سرا :

ـ إننا واثقون من الفوز لأننا متحدون مع الشغيلة . إن قوة كبرى تكمن فيهم ، وكل شيء ممكن تحقيقه معهم . ينبغي فحسب أن نجعلهم يدركون قيمتهم الخاصة ، حتى يكونوا أحرارا في تطوير ...

وأثارت كلماتها إحساسات مختلطة في قلب الأم ، ولسبب ما لم تدر له كنها أشفقت على صوفيا ، وكان إشفاقها وديا ، لا أثر للاساءة فيه .

وودت أن تسمعها تقول كلمات أخرى ، أكثر بساطة من هذه .

وسألت في هدوء وكآبة :

ـ ومن سيكافئكم على جهودكم ؟

فأجابت صوفيا :

ـ لقد نلنا مكافئتنا . .

وخيل للأم أن الكلمات ترن في اعتزاز وفخر .

ـــ لقد وجدنا طريقة في الحياة ترضينا . إننا نعيش بكل القوى الروحية التي فينا ... ما عسانا نسأل الحياة غير هذا ؟

ونظرت الأم إليها ثم أطرقت بناظريها . وفكرت مرة أخرى :

ـــ إن ميخائيلو لن يحبها .

كانتا تسيران في خفة ، ولكن دون عجلة ، تعبئان الهواء الرقيق ، فيخيل إلى الأم أنها تذهب في حج إلى بعض الأمكنة المقدسة . وتذكرت الفرح الذي كان يملأ قلبها ، في طفولتها ، عندما كانت تغادر قريتها لتحضر بعض الخدمات الكنسية في بعض الأعياد في دير بعيد توجد فيه إيقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تنشد في بعض الأحيان بعض الأغاني عن السماء أو عن الحب في صوت ناعم حنون ، أو تلقي بعض القصائد عن الحقول والغابات والفولجا ، فتستمع الأم إليها وتبتسم ، وهي تهز رأسها ، دون إرادة منها ، بصورة موزونة مع الشعر الذي تغمرها موسيقاه وتسحرها .

كان كل شيء في داخلها دافئا ، هادئا ، مستغرقا في التفكير ، فكأنها تجلس في زاوية هادئة في احدى الحدائق ، ذات أمسية من الصيف الجميل .

5

وبلغتا غايتهما في اليوم الثالث ، فسألت الأم موجيكا كان يعمل في الحقول أين يوجد معمل القطران ، وسرعان ما كانتا تنحدران على طول ممر مائل وعر أرومات الأشجار فيه أشبه بدرجات سلم حقيقي ، انتهى بهما أخيرا إلى ساحة مستديرة تغص بالفحم والحطب ، وقد تلطخت في كل أرجائها بالقطران الكثيف .

وقالت الأم ، وهي تنظر فيما حولها بقلق :

ـــ ها نحن ذي أخيرا .

وتبينتا ، تجاه كوخ مبني من الخشب وأغصان الأشجار ، منضدة

مصنوعة من ثلاثة ألواح من الخشب سمرت إلى أوتاد طويلة غرست عميقا في الأرض ، وقد جلس إليها ريبين ، ملطخا بالقطران من رأسه حتى قدميه ، محلول أزرار القميص ، بادي الصدر العاري ، وبرفقته بيفيم وشخصان آخران يتناولون طعام الغداء . وكان ريبين أول من لاحظ المرأتين ، فرفع يده إلى عينيه وراح ينتظر في سكون .

صاحت الأم به عن بعد :

ــ اسعدت نهارا أيها الأخ ميخائيلو .

فنهض ، واتجه نحوهما على مهل .. وعندما عرف الأم توقف وراح يبتسم ، وهو يمشط لحيته بيده السوداء . قالت الأم وهي تقترب منه :

ــ كنا في طريقنا إلى الحج ، فقلت في نفسي : فلنمر من ههنا كي القي السلام على أخي . هذه صديقتي واسمها أنّا .

ونظرت من زاوية عينها ، فخورة ببراعتها ، إلى وجه صوفيا الرزين الوقور . قال ريبين وهو يصافحها وينحني لصوفيا ، وعلى شفتيه ابتسامة ملتوية :

ــ اسعدت نهارا . لا تكذبي ، فلسنا في المدينة الآن ، وليس من حاجة إلى اختلاق الأكاذيب ههنا . ان الجميع منا وفينا .

وتفحص بيفيم الزائرتين مليا من حيث يجلس إلى الطاولة ، ثم همس شيئا ما في اذن صاحبيه . وعندما اقتربت المرأتان منه نهض وانحنى لهما في صمت ، اما رفيقاه فظلا دون حراك ، وكأنهما لم يلحظا الضيفتين .

قال ريبين ، وهو يربت على كتف الأم في لطف :

ــ اننا نعيش ههنا كالرهبان ، وليس من يأتي لرؤيتنا أبدا . لقد ذهب المدير في سفر ودخلت زوجته إلى المستشفى ، وان وحدي اتحمل أكثر أو أقل مسؤولية في العمل . اجلسا . لا ريب انكما بحاجة إلى ما تأكلانه . هلا أدركتهما بشيء من الحليب يا بيفيم ؟

فدلف بيفيم متمهلا إلى الكوخ ، بينما تخلصت المسافرتان من حملهما . ونهض أحد الشابين ، وهو فتى نحيل العود طويل القامة ،

ليساعدهما ، بينما ظل رفيقه الضخم ، الممزق الثياب ، مستندا إلى المنضدة بمرفقيه ، يراقبهما متأملا ، وهو يحك رأسه ويصفر لحنا في الوقت ذاته .

كانت رائحة القطران الخانقة ، الممتزجة برائحة أوراق الشجر المحترقة ، تحاصر المرأتين وتكاد تفقدهما الوعي .

وقال ريبين ، وهو يشير إلى الفتى الطويل :

ــ إن إسمه ياكوف ، أما الآخر فأغناطيوس . حسنا ، كيف حال ابنك ؟

فأجابت الأم وهي تتنهد :

ــ انه في السجن .

فهتف ريبين :

ــ مرة أخرى ؟ لا ريب ان السجن قد راق له !

وكف اغناطيوس عن الغناء ، اما ياكوف فتناول الخرج من يد الأم قائلا :

ــ اجلسي .

وقال ريبين موجها الكلام إلى صوفيا :

ــ ما بالك واقفة هكذا ؟ اجلسي .

فجلست صوفيا على جذع شجرة وهي تتفحص ريبين بامعان .

قال ريبين ، وهو يتخذ مجلسه قبالة الأم ويهز رأسه :

ــ متى أوقفوه ؟ انك معدومة الحظ يانيلوفنا .

فقالت :

ــ لا بأس في ذلك !

ــ لقد اعتدت عليه ؟

ــ كلا ، إني لم أعتد عليه ولكنني أرى جيدا انه لا حيلة فيه .

ــ هم ! حسنا ، هاتي حدثينا عن ذلك .

ــ وجاء ييفيم بابريق من الحليب ، وتناول قدحا عن المائدة ، وغسله ، وملأه بالحليب ثم قدمه إلى صوفيا ، يصغي أثناء ذلك إلى

رواية الأم . كان حريصا على ألّا يثير أي ضوضاء . فهو يتحرك في هدوء وحذر فائقين . وعندما انتهت الأم من روايتها المقتضبة ، خيم صمت عميق على الجميع لم يتبادلوا النظر أثناءه أبدا . وكان اغناطيوس جالسا إلى المنضدة يحك الواحها الخشبية بأظافره ، اما ييفيم فكان واقفا خلف ريبين معتمدا بمرفقه على كتفه ، بينا استند ياكوف بظهره إلى جذع إحدى الأشجار متصالب الذراعين ، مطأطأ الرأس ، وجلست صوفيا في صمت تسترق النظر إلى وجوه الفلاحين ...

وقال ريبين في صوت متثاقل شرس :

ــ هم ــ م ــ م .. هكذا إذن ــ على المكشوف .

وقال ييفيم ، وعلى شفتيه ابتسامة مرة :

ــ لو أننا نظمنا يوما مظاهرة كهذه هنا ، لضربنا الفلاحون حتى الموت .

فوافق اغناطيوس بحركة من رأسه :

ــ بكل تأكيد سوف يقتلوننا . كلا ، إني سأذهب والتحق بأحد المصانع . ان الأمور هناك أفضل بكثير .

وسأل ريبين :

ــ تقولين إنهم سيقدمون بأقل من المحكمة ؟ وأي حكم سيصدرون عليه ؟ هل بلغك شيء عن هذا ؟

فأجابت في هدوء :

ــ الأشغال الشاقة ، أو النفي المؤبد في سيبيريا .

فاستدار إليها الفتيان الثلاثة في وقت واحد ، بينما خفض ريبين رأسه وسأل :

ــ هل كان يعرف ما ينتظره عندما ارتكب فعلته .

فأجابت صوفيا في صوت مرتفع :

ــ نعم ، كان يعرف .

ــ فسكن الجميع حتى لا حراك بهم ، وكأن فكرة واحدة قد جمدتهم. وتابع ريبين في قسوة واهمية :

ـــ هم ـــ م .. وأنا اعتقد أيضا إنه كان يعرف ذلك . انه لن يقفز في الظلمة أبدا ، فهو أكثر رزانة وجدا من أن يفعل ذلك . هل سمعتم هذا أيها الفتيان ؟ لقد كان يعلم أنهم سيغمدون حرابهم في جسده ، أو يرسلون به إلى سيبيريا ، ولكن هذا لم يوقفه . ولو أن أمه نفسها اعترضت سبيله ، لخطأ من فوقها دون تردد . اما كان يفعل ذلك يا يانيلوفنا ؟

فقالت الأم وهي ترتعش :

ـــ بلى ، كان يفعل .

وتنهدت ، وتطلعت حولها ، فربتت صوفيا بلطف على يدها ، بينما راحت تحدج ريبين بقسوة وقد علا العبوس وجهها .

وقال ريبين في هدوء ، وهو ينظر إليهما بعينيه السوداوين :

ـــ إنه لباسل حقا !

ومرة أخرى لجأ الأشخاص الستة إلى الصمت . وكانت شعاعات رائعة من الشمس تتعلق في الفضاء مثل أشرطة زاهية مذهبة ، وفي مكان ما ينعق غراب بشع الصوت . وراحت الأم تتطلع فيما حولها ، وقد ازعجتها ذكريات أول أيار ، واشتياقها إلى بافل واندريه في الوقت ذاته . وكانت براميل فارغة من القطران مبعثرة في الساحة الصغيرة ، مختلطة هنا وهناك بجذوع أشجار مشذبة مقطوعة عن ارومتها . وعلى حافة الساحة كانت تقف أشجار السندان والابنوس دون حراك يوحد الصمت بينها ، وهي تلقي على الأرض بظلال دافئة سوداء .

وعلى حين غرة ، ابتعد ياكوف عن الشجرة ، وخطأ إلى الجانب الواحد ثم سأل بصوت مرتفع ، وهو يرمي رأسه إلى الخلف :

ـــ اضد فتيان مثله سيرسلون بنا ، أنا وييفيم ؟

فأجاب ريبين :

ـــ وضد من تظن أنهم سيرسلون بكما إذن ؟ إنهم يستعملون ذات أيدينا ليخنقونا بها .. ذلك هو سر اللعبة كلها .

فقال ييفيم في جفاء :

ـــ ولكنني سألتحق بالجيش على أية حال .

فصاح أغناطيوس :

ـــ ومن يمنعك عن ذلك ؟ هيا واذهب .

ثم أضاف ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

ـــ ولكن انتبه فحسب عندما تطلق النار علي أن تسدد المرمى إلى رأسي تماما ... لا تجعل مني مقعدا ، بل اقتلني رأسا ، ودفعة واحدة .

فرد عليه ييفيم في حدة :

ـــ لقد سمعت ذلك منك قبلا .

وقال ريبين وهو يرفع يده :

ـــ أنظروا لحظة أيها الفتيان . هذه امرأة (وأشار إلى الأم) ، لا ريب ان الأمر قد انتهى بالنسبة لابنها ...

فسألته الأم في ألم :

ـــ لم تقول هذا ؟

فأجاب في وقار :

ـــ لا بد من ذلك . وهكذا فان شعرك لن يشيب عبثا . ولكن ، هل تعتقدون أنهم قد قتلوها بما فعلوه لابنها ؟ نيلوفنا ، هل جئت بالمناشير ؟

فحدجته الأم بنظرها ، ثم قالت بعد صمت قصير :

ـــ نعم ...

فقال ريبين ، وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

ـــ هل رأيتم ؟ لقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها فيها . والا ما الذي جاء بك حتى هذا المكان ؟ هل أدركتم هذا ؟ لقد انتزعوا ابنها من بين الصفوف .. فأخذت أمه مكانه .

وأرسل يمينا مغلظا وهو يهز قبضته في الفضاء .

ونظرت الأم في وجهه ، وقد ذعرت لصياحه هذا ، فوجدت أنه قد تبدل كثيرا : لقد أصبح أكثر نحولا ، واضحت لحيته شنعثاء ، تبدو

من تحتها عظام وجنتيه البارزة ، وقد ظهرت في بياض عينيه المزرق أوردة حمراء دقيقة ، فكانه لم ينم منذ زمن طويل ، وانقرص أنفه وتقوس فأضحى كمنقار عصفور مفترس . وكان قميصه المفتوح ، الأحمر اللون فيما سبق من الزمان والمشرب الآن بالقطران الأسود ، يكشف عن غظام ترقوتيه الناتئتين ، وشعر صدره الكثيف الأسود . وكان مظهره العام كله أكثر عبوسا واكتآبا منه عادة في أي وقت مضى ، وفي عينيه الملتهبتين بتأجج نار غضبي ، فتضيء وجهه القاتم وتغمره بالنور .

وكانت صوفيا تجلس في صمت ، واصفرارها يفوق شحوبه ، وأنظارها معلقة أبدا بهؤلاء الفلاحين . أما اغناطيوس فكان يهز رأسه وقد ضيق عينيه ، بينما راح ياكوف ، وقد اتخذ مكانه من جديد بجانب الكوخ ، ينزع مغتبطا بعض قشور الشجر القريبة منه . وكان يفيم يتمشى جيئة وغدوة على طول المنضدة ، خلف ظهر الأم ... وتابع ريبين :

ــ قبل فترة قصيرة دعاني مدير ناحيتنا إليه ، وقال لي : «ما هذا الذي ترويه للكاهن يا أيها الوغد ؟» . فقلت له : «لماذا تدعوني وغدا ؟ إني أكسب خبزي بعرق جبيني ، ولا أنال أحدا من الناس بأذى» . فأخذ يزعق في وجهي ، ولطمني على أسناني ثم ألقى بي في السجن طوال ثلاثة أيام . ولقد فكرت : «إذن فهكذا أنتم تخاطبون عامة الناس ، أليس كذلك ؟ اذن فلا تنتظر منا أن ننسى ذلك ، يا أيها الشيطان العجوز . فإذا لم أثأر منك أنا ، فإن سواي سيفعل ذلك ، ويثأر لإهانتي منك أو من أولادك ــ لا تنس هذا ! لقد حرثتم صدور الناس بمخالبكم الفولاذية هنا ، وزرعتم الحقد هناك ، فلا تنتظروا اذن أية رحمة يا أيها الأبالسة !» تلك هي القضية !

كان وجهه محتقنا بما يفور في صدره من غيظ عنيف ، وفي صوته نبرات اثارت الذعر في قلب الأم :

وتابع في هدوء أعظم من ذي قبل :

ــ وما الذي قلته للكاهن ! كان يجلس إلى بعض الفلاحين يتحدث اليهم بعد أن قام بجولته المعتادة في القرية ، يتحدث إليهم قائلا ما معناه ان عامة الناس قطيع من الغنم يحتاج أبدا إلى من يرعاه . حسنا ، لقد قلت له اذن شبه مزاح : «إذا ما اقاموا الثعلب مرة رئيسا على الحيوانات فإن الأرياش هي التي ستطير بدل العصافير» . فهز رأسه يتوعدني ، وراح يقول شيئا عن كيف ينبغي على الناس أن يتعذبوا طويلا ، وان يصلوا إلى الله كي يهبهم القوة لتحمل تجاربهم ومصائبهم . فقلت له عندئذ : «ان الناس لا ينقطعون عن الصلاة في حالهم الحاضرة ، ولكن الله فيما يبدو مشغول جدا عن الاصغاء إليهم ما دام لا يستجيب لأي من صلواتهم» . حسنا ، لقد سألني عندئذ عن الصلوات التي أتلوها ، فأجبته : «صلاة واحدة لم تتبدل طوال حياتي ، مثلي في ذلك مثل عامة الناس . أيها الرب العزيز ، رجائي أن تعلمني كيف آكل الحجارة ، وكيف أبصق ألواح الخشب ، وكيف أجر قطع القرميد إلى قصور الأسياد» . ولكنه لم يعطني الفرصة كي أنهي كلامي .

واستدار ريبين بغتة إلى صوفيا ، وسأل :

ــ أأنت سيدة من طبقة النبلاء ؟

فسألت صوفيا ، في سرعة ، وهي تنتفض دهشة :

ــ لم من طبقة النبلاء ؟

فقال ريبين ضاحكا : ــ لم ؟ لأنك ولدت هكذا فيما أعتقد ، إنه نصيب كل إنسان أن يكون ما ولد . حسنا ، أتظنين أن في استطاعتك أن تخفي خطايا الأسياد تحت هذا الوشاح القطني الذي تغطين رأسك به ؟ إننا نعرف الكاهن حتى ان رأيناه محزوما في كيس من الخيش . إنك ترتعشين وتكثرين اذا ما وقع مرفقك على سائل ما أهرق على المائدة . وإن ظهرك لكثير الاستقامة بالنسبة لامرأة عاملة ...

فتدخلت الأم في الموضوع ، وهي تخاف أن تؤذي كلماته الساخرة القاسية شعور صوفيا ، قالت :

ـــ إنها صديقتي يا ميخائليو اسفانوفيتش ، وامرأة طيبة رائعة . ولقد شاب شعرها وهي تعمل في سبيل قضيتنا . انك تذهب أبعد مما ينبغي ...

فصعد ريبين زفرة عميقة ، وقال :

ـــ ولكني لم أقل شيئا يسيء إلى أي إنسان كان ؟

فقالت صوفيا في جفاء :

ـــ أظنك كنت تريد أن تقول لي شيئا ؟

ـــ أنا ؟ آه ، نعم ! لقد جاء إلى هنا ، قبل زمن غير بعيد ، فتى في ريعان الصبا هو ابن عم ياكوف . إنه مريض بالسل . هل أرسل في طلبه ؟

فقالت صوفيا :

ـــ بكل تأكيد .

فحدجها ريبين من خلال عينيه المتضيقتين ، ثم التفت إلى ييفيم قائلا في صوت خافت :

ـــ اذهب واطلب إليه أن يأتينا هذا المساء .

فتناول ييفيم قبعته ، ثم اختفى في الغابة دون ان يقول شيئا أو ينظر إلى أحد من الحاضرين . وأشار ريبين نحوه برأسه ، ثم قال :

ـــ إنه يتألم كثيرا هذه الأيام . وسيطلب قريبا مع ياكوف إلى خدمة العلم . وياكوف لا يهتم لذلك ، بل يقول : «إني لا أستطيع الذهاب» . وذلك لا يستطيع الذهاب أيضا ، ولكنه سيذهب مع ذلك . وهو يعتقد ان بامكانه تحريض الجنود . أما أنا فأراهن على ان مثله مثل الوعل الذي ينطح الصخرة ليوهنها . يكفي ان يرى المرء إليهم . اذا ما وضعت حربة في أيديهم مرة انطلقوا لا يلوون على أي شيء آخر . وقد تألم كثيرا بسبب ذلك حتى الآن وأغناطيوس هذا يضرب دوما على ذات الوتر ، كل هذا عبث !

فقال أغناطيوس مكتئبا ، دون أن يتطلع إلى ريبين :

... بل على العكس فيه المعنى كله . انهم سيطبخونه هناك ، ولسوف يطلق النار من أجلهم مثل الباقين تماما . فأجاب ريبين متألما :

ــ لست اعتقد هذا وإن كان يفضل ألا يذهب مطلقا . أن روسيا بلد واسع ــ فأين يستطيعون العثور عليه ؟ لا عليه الا أن يحصل علي جواز مزيف ثم يتنقل من قرية إلى أخرى .

فقال أغناطيوس ، وهو يلطم قدمه بقضيب رفيع :

ــ وهذا ما سأفعله أنا . فأنت إذا ما قررت مرة ان تكافحهم فلا بد لك من الذهاب قدما باستمرار .

وتوقف الحديث .. كانت جموع النحل والدبابير تحوم في الفضاء في انهماك واضطراب ، وهيَ تملأ الهواء بدويها المزعج . وكانت العصافير تزقزق وأغنية بعيدة تتيه عبر الحقول على غير هدى .

وقال ريبين بعد صمت قصير :

ــ حسنا ، آن لنا أن نعود إلى العمل . لعلكما تودّان أن تنالا بعض الراحة ؟ إن هناك بعض الفرش في الكوخ . إذهب واجمع بعض الأوراق الجافة يا ياكوف . أما أنت يا أماه فأعطيني المناشير .

فشرعت الأم وصوفيا تحلّان خرجيهما ...

وصاح ريبين سعيدا مبتهجا ، وهو ينحني فوق الكتب .

ــ ما أكثر ما جلبتما ! آأنت تشتركين في هذا العمل منذ زمن طويل يا ... ما اسمك ؟

فأجابت صوفيا التي وجه إليها السؤال الأخير :

ــ أنا ايفانوفنا . اثنتا عشرة سنة . لِمَ السؤال ؟

ــ لا شيء علي التعيين . لا ريب أنك دخلت السجن ؟

ــ نعم !

فقالت الأم في لهجة عتاب :

ــ هل ترى ؟ وأنت كنت قاسيا تجاهها ...

فغمغم بعد فترة صمت تناول خلالها رزمة من الكتب :

ــ لا تغضبي . إن السادة والفلاحين مثل القطران والماء ، لا يتمازجون .

فاعترضت صوفيا ، وهي ترسل ضحكة قصيرة :

ــ ولكنني لست من الأسياد . إنما أنا كائن بشري .

فقال ريبين :

ــ ربما ! يقال إن الكلاب كانت ذئابا فيما مضى من الزمن . أنا ذاهب أخبيء هذه البضاعة .

فاقترب منه اغناطيوس وياكوف وقد مدا أيديهما . قال ياكوف :

ــ دعنا نر إليها .

فسأل ريبين صوفيا :

ــ أمحتوياتها واحدة ؟

ــ كلا ، إن بينها بعض المناشير ، وكذلك بعض الصحف .

ــ حقا ؟

وأسرع ثلاثتهم يدلفون إلى الكوخ ... بينما راحت الأم تشيع ريبين بنظرها ، وهي تقول مفكرة متأملة :

ــ إن الموجيك يلتهب .

فأجابت صوفيا :

ــ بلى ، اني لم أر مثل وجهه من قبل قط ــ وجه شهيد . لندخل نحن أيضا . إني أريد أن أراقبه .

فقالت الأم في وداعة ولطف :

ــ لا تغضبي من قسوته .

فضحكت صوفيا وقالت :

ــ ما أطيبك يا نيلوفنا !

وعندما بلغتا العتبة رفع أغناطيوس رأسه ، وألقى عليهما نظرة سريعة ، ثم أرسل أصابعه في شعره المجعّد ، وانحنى فوق الصحيفة المنشورة على ركبتيه . وكان ريبين يقف تحت شعاع من الشمس يتسلل من فرجة في السقف ، وهو يقرأ صحيفته على نوره ، ويحّرك شفتيه

أثناء ذلك . أما ياكوف فكان جاثيا على ركبتيه أمام كومة من المناشير المنشورة على الدكة .

وعبرت الأم الكوخ حتى إحدى زواياه وجلست ، بينما وقفت صوفيا خلفها وقد وضعت إحدى يديها على كتفها تراقب الرجال في سكون .

قال ياكوف في هدوء ، دون أن يرفع رأسه عن صحيفته :

ــ إنهم يشبعوننا شتما ، نحن الفلاحين ، أيها العم ميخائليو .

فنظر إليه ريبين وضحك ، وقال :

ــ ذلك أنهم يحبوننا .

فشهق أغناطيوس نفسا عميقا ، ورفع رأسه ، وقال :

ــ إن الصحيفة تقول هنا : «إن الفلاح قد ضيع كل صلة بالكائن الانساني» . بالطبع ضيّع ذلك .

ومرَّ على وجهه البسيط الصريح السماء ظل إهانة وإذلال .

ــ تعال وتسلق حتى مكاني ، أيها العالم العظيم . وابق ههنا مدة ، ولسوف نرى ماذا تشبه عندئذ .

وقالت الأم لصوفيا :

ــ سأضطجع قليلا . إني متعبة نوعا ما ، وهذه الرائحة تكاد تفقدني الوعي . وأنت ؟

ــ لست أريد شيئا .

وتمددت الأم على دكة في الزاوية وشرعت تغفو . وجلست صوفيا إلى جانبها تراقب القرّاء ، وهي تطرد في رفق وحنان كل نحلة أو دبور يقترب من المرأة العجوز فيعكر صفو راحتها . ولاحظت الأم ، من خلال أهدابها المسبلة ، هذا الحنان وذلك الرفق ، وكافت بهما سعيدة .

واقترب ريبين منهما ، وقال في همس أجش :

ــ نائمة ؟

ــ نعم .

فوقف فترة في سكون يتطلع في وجه الأم ، ثم تنهد وقال بصوت خفيض :

ــ إنها الأولى من دون أدنى ريب التي تبعت ابنها في هذه الطريق .

ــ يجب ألا تزعجها ، هيا بنا ..

ــ نعم يجب أن نعود إلى العمل . وبودّي أن أحادثك قليلا ، ولكن لا بدّ من تأجيل ذلك حتى المساء . هيا بنا أيها الفتيان .

وخرج ثلاثتهم مخلفين صوفيا وراءهم في الكوخ ...

وفكرت الأم :

ــ شكرا لله على أنهم تصادقوا .

واستغرقت في النوم ، ورائحة الغابات والقطران تملأ خيشوميها ...

6

وعاد الفحامون جذلين بتصرّم نهارهم ، وأيقظت أصواتهم الأم فخرجت من الكوخ متثائبة باسمة ؛ وقالت وهي ترنو إليهم بحنان :

ــ لقد كدحتم أنتم ، ونمت أنا كسيدة !

فأجابها ريبين : إننا نغفر لك ذلك .

وكان كثير الهدوء ، فلقد استنفد التعب انفعاله الشديد . وتلفت إلى انياس قائلا :

ــ تحرك يا انياس لإعداد الغداء .

ثم تابع : إننا هنا نتناوب الخدمة ، واليوم هو دور انياس في إعداد الطعام .

وأجاب انياس وهو يصيخ بسمعه إلى الحديث :

ــ ليتني أجد من يبادلني نوبتي .

ثم راح يجمع الخشب والأغصان اليابسة لإشعال النار .

وقال إيفيم وهو يجلس إلى جانب صوفيا :

ــ في الزيارات فوائد للجميع .

وقال جاك : ــ سأقوم بمساعدتك في عملك يا انياس .

ومضى إلى الكوخ فأحضر قطعة من الخبز فقطعها ثم وضعها على المائدة .

وقال إيفيم بهدوء : — إصغ .. إنه يسعل .

وأصغى ريبين : — نعم ... إنه قادم .

ثم مال على صوفيا يوضح لها :

— سترين شاهداً أتمنى لو أستطيع أن أعرضه في المدن والساحات ليستمع إليه الناس . إنه يردد دائماً الكلام نفسه ، ولكن يجب أن يسمعه الناس جميعاً .

وكان الظلام والسكون يزدادان عمقاً ؛ فتزداد الأصوات معهما رقة ، وكانت صوفيا والأم ترقبان القوم : لقد كانوا جميعاً يتحركون ببطء وتثاقل ، يشوبهما نوع من الحذر الغريب . وكان هؤلاء بدورهم يرقبون حركات المرأتين .

وبرز من الغاب رجل فارع الطول محدودب الظهر ، يمشي ببطء متوكئاً على عصاه بقوة ؛ وكان تنفسه الخشن يُسمع من بعيد .

— ها أنذا .

قال ذلك ثم راح يسعل .

وكان يرتدي معطفاً خلقاً يغمره حتى كاحليه ، وكان شعره الأشقر المجدول ، يتفلت من تحت قبعته المستديرة الرثة في خصل هزيلة قاسية ؛ وتغطي وجهه الشاحب البارز العظام لحية وضاءة . وكان فمه نصف فاغر ، وفي محجريه الغائرين تلمع عيناه محمومتين كما لو كانتا تومضان من أعماق الكهوف المظلمة .

وسأل صوفيا عندما قدّمه ريبي إليها :

— لقد حملتِ إلينا كتباً على ما يبدو ؟

— نعم .

— شكراً لك بالنيابة عن الشعب . هذا الشعب الذي لم يستطع حتى الآن أن يدرك الحقيقة بنفسه . أما وإني قد أدركتها ؛ فإني أشكرك نيابة عنه .

وكان يتنفس بسرعة ويعب الهواء في جرعات نهمة ، وكان صوته متقطعاً وأصابعه الضاوية تنزلق منهكة على صدره ، محاولاً أن يبكل أزرار معطفه .

وقالت صوفيا :

— إن مرورك في الغاب ، وفي ساعة متأخرة يؤذي صحتك ، فالأوراق ؛ في مثل هذا الوقت ، رطبة ، ورطوبتها تعلق بحنجرتك .

فأجابها وهو يلهث :

— لم يعد هناك شيء صحي بالنسبة لي أبداً . والشيء الوحيد الذي يريحني حقاً هو الموت .

وكان الاصغاء إليه يبعث الألم ، ومظهره يثير الشفقة ، تلك الشفقة التي لا طائل تحتها ، والتي ترغم على الاعتراف بعجزه ، وتولد في النفس نوعاً من الخنق المستسلم .

وجلس فوق برميل ، وطوى ركبتيه بحذر كأنه يخشى على ساقيه أن يتحطما ثم مسح جبينه المتصبب عرقاً ، وكان شعره جافاً لا حياة فيه .

وتأججت النار ، وتراقصت حولها الأشياء وارتعشت ، وترامت الظلال التي كان يلعقها اللهب ، ترامت نحو الغاب مذعورة ، وظهر فوق النار ، للحظة قصيرة ، وجه انياس المستدير ، منتفخ الأوداج ، ثم خمد الألق ، وفحت رائحة الدخان وسيطر على الساحة من جديد الصمت والضباب . وكان الجميع يصغون للكلمات المبحوحة ، كلمات المريض :

— ... ولكنني أستطيع أن أكون مفيداً للشعب .. كشاهد على الجريمة ها أنذا فانظروا إلي . إني في الثامنة والعشرين ، ومع ذلك إني أموت . منذ عشر سنوات كنت أرفع على منكبي ، وبدون أي جهد ، ما يقارب المايتي كيلو غراماً ؛ وكنت أقول لنفسي : بمثل هذه العافية سأتخطى السبعين دون أن أكبو ولكنني عشت من السبعين عشراً فقط ، ولم أعد أستطيع المضي بعيداً . لقد استنزفني الأسياد ، سرقوا أربعين عاماً من عمري ، أربعين عاماً .

وهمس ريبين : ـــ تلك هي معزوفته .

وتألقت دفقة من اللهب أشد قوة وضراماً من ذي قبل، وتراكضت الظلال نحو الغابة من جديد ، في رفات خاطفة؛ ثم كرت ثانية نحو النار، وحامت حول جذوتها في رقص صامت حاقد. وكانت الأغصان الرمادية تفرقع في الجذوة وتئن، وأوراق الأشجار تتهامس وتضج، وقد أثارتها نفحة من الهواء الحار. وكانت ألسنة النار تعلو وتتعانق نشيطة جذلى، وتتصاعد في الفضاء حمراء وصفراء، لتزرعه شرراً؛ وفي السماء كانت النجوم تبسم للشرر كأنها تدعوه إلى الأعالي.

وقال المريض : ـــ إنها ليست معزوفتي وحدي . إن آلاف الناس يرددونها دون أن يدركوا أن حياتهم البائسة هي أمثولة خلاص للشعب وكثيرون هم الذين يموتون جوعاً بعد أن استنفد الكدح قواهم أو أورثهم العاهة .

وراح يسعل وهو يرتعش وينطوي على نفسه ، كأنه إنما حطم إلى جزئين .

ووضع جاك على المائدة وعاءً من « الكفاس » وألقى إلى جانبه حزمة من البصل الأبيض وقال للمريض :

ـــ تعال يا سافولي ... لقد أحضرت لك بعض اللبن .

فهز رأسه علامة الرفض ، ولكن جاك أخذه من ذراعه ، وجره إلى الطاولة .

وقال صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عاتبة :

ـــ لِمَ أرسلتم في طلبه ؟ إنه قد يموت بين لحظة وأخرى .

وقال ريبين موافقاً :

ـــ هذا ممكن ، وبانتظار ذلك ليس لنا إلا أن ندعه يتكلم . لقد دمر صحته من أجل لا شيء ، ويمكنه أن يتعذب قليلًا في سبيل الناس ، فليس هذا بالأمر الخطير .

وصاحت صوفيا :

ـــ سيقال عنكم أنكم تتلذذون بما لا أدري ...

ورشقها ريبين بنظرة خاطفة ، ثم أجاب مقطب الجبين :
ــ إن « الأسياد » هم الذين يتلذذون برؤية المسيح وهو يئن على صليبه ، أما نحن ، فإننا نريد من الانسان أماثيل ، ونريدكم أنتم أن تحملوا بذرتها .
وقالت له الأم مذعورة :
ــ يكفيك هذا .
واستأنف المريض ؛ وهو يجلس إلى المائدة :
ــ أسألكم لماذا يدمرون الانسان بالكدح ؟ لماذا ينهبون عمره ؟ إن رب عملنا ــ لقد صرفت عمري في مصنع نيفدوف ــ إن رب عملنا هذا أهدى إحدى المغنيات حوضاً من الذهب لتستحم به ؛ كما أهداها « مقعدة ليلية » من ذهب أيضاً ؛ ولقد كانت حياتي كلها وقوتي في هذا الذهب ؛ إنها هُدرت في هذا السبيل ؛ لقد قتلني الرجل ، قتلني كدا وجهدا ليدخل البهجة إلى قلب عشيقته ، وقدم لها من دمي إناء منزلياً من ذهب .
وقال إيفيم مبتسماً :
ــ لقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله فانظروا فيم يستخدم ؟
وصاح ريبين وهو يضرب الطاولة بقبضته :
ــ يجب أن ترفع صوتك بالشكوى .
وأضاف جاك بصوت خافت خافت : يجب ألا تتحمل ذلك .
أما انياس فقد افتر ثغره عن ابتسامة .
ولاحظت الأم أن الفتيان الثلاثة كانوا يصغون بانتباه ، وبشَرَه النفوس الغرثى ، وأنهم كانوا يتطلعون إلى ريبين ، باهتمام كلما تحدث ، ويراقبونه بدقة .
وأثارت كلمات سافولي بسمة غريبة ارتسمت بنزق على شفاههم ، فلم يعودوا يستشعرون معها شيئاً من العطف على المريض .
ــ ومالت الأم نحو صوفيا تسألها همساً :
ــ هل أن ما قاله صحيح ؟

ــ نعم . إنه صحيح ، فلقد تحدثت الصحف عن هذه الهدية ، وقد حصل ذلك في موسكو .

وقال ريبين :

ــ ولم ينل هذا الرجل عقابه ؟ يجب أن يُقاصص . أن يجر إلى ساحة عامة فيقطع إرباً ؛ ويلقى بلحمه النتن إلى الكلام . إن الشعب هو الذي سيوقع القصاص الأكبر عندما ينهض من كبوته . إنه سيسفك كثيراً من الدم ليغسل مهانته ، فهذا الدم هو دمه الذي امتص من عروقه ... لذلك فهو سيده وصاحبه .

وقال المريض : لقد برد الطقس .

وساعده جاك على النهوض ، والاقتراب من النار .

وكانت النار تشتعل متألقة ، وكانت الظلال المشوشة تتراقص حولها وترنو بدهشة إلى ألسنة اللهب اللعوب . وجلس سافولي على أحد الجذوع ، ومد نحو الدفء يديه الشفافتين الجافتين . وأشار ريبين إليه بهزة من رأسه وقال لصوفيا :

ــ إن هذا أبلغ من الكتب بكثير ؛ فعندما تنتزع الآلة ذراع عامل أو تصرعه يقال بأن ذلك كان نتيجة لخطأه هو ... ولكنهم عندما يُمتص دم إنسان ثم يُطرح بعد ذلك كالجيفة ، لا يجدون لذلك تفسيراً أبداً . أنا أفهم أن يقع حادث قتل ، قتل مهما كان نوعه ، ولكنني لا أفهم أن يعذب إنسان لمجرد اللذة فحسب .

علامَ يقتلون الشعب ؟ علامَ يعذبوننا نحن الآخرين ؟ إنهم يفعلون ذلك ليمزحوا ويمجنوا ، ويمتعوا أنفسهم على هذه الأرض ، ليشتروا بدمنا كل شيء ، ليشتروا مغنيةً ، وجياداً ، وآنية من فضة ، وصحافاً من ذهب ، ودمىً لأطفالهم غالية الثمن .

ويقول لك رب العمل : إكدح أنت ، اكدح ما استطعت لأكدس أنا الثروة من جهدك فأقدمها لعشيقتي إناءً من ذهب .

وكانت الأم تصغي وترنو ، فيتوضح لها ، مرة أخرى ، الطريق الذي اختاره بول ورفاقه جميعاً ، وتراه يتألق في الظلمات ، ويتلوى في شريط وضاء.

... وفرغوا من طعامهم ، وقعد جميعهم حول النار التي كانت تشتعل وتلتهم الحطب اليابس بسرعة ونهم . وكانت وراءهم ترقد الظلمات ، وتغمر السماء والغاب ، وكان المريض يرنو إلى اللهب بعينين جاحظتين، ويسعل بلا انقطاع ، فتهزه الرعشات بعنف ، حتى لتحسب أن بقايا الحياة فيه ، تهجر صدره وقد عيل صبرها ، وتتعجل الرحيل من جسده الذي نخزه الداء ؛ وكانت انعكاسات اللهب تتراقص فوق وجهه فلا تفلح في إذكاء الحياة في ذلك الجلد الميت ، غير أن عينيه فقط كانتا تشتعلان بنارٍ لا تخمد أبداً .

ومال إليه جاك يسأله : ـــ ربما كنت تود الذهاب إلى الكوخ يا سافولي ؟

فأجاب بجهد :

ـــ ولِمَ ؟ إني أود البقاء هنا فلن يطول مكثي بين الناس .

وتصفحت نظراته بسرعة وجوه الرفاق ، وبعد فترة من الصمت ، تابع كلامه ، وعلى شفتيه تنطرح بسمة شاحبة :

ـــ إني أشعر براحة وأنا بينكم . أتصفح وجوهكم فأقول في نفسي :

ربما كنتم أنتم الذين ستثأرون لكل ما سُلب منا ، لكل الناس الذين قتلهم شره الآخرين ...

ولم يجبه أحد ، وغلبه النعاس فتدلى رأسه على صدره ، ونظر إليه ريبين ثم قال بصوت خافت :

ـــ إنه يأتي إلينا فيجلس ويقص علينا دائماً نفس القصة . دائماً قصته كإنسان مُهان ، فيفرغ فيها كل روحه ، كأن تلك المهزلة القذرة وحدها قد غطت على عينيه فلا يرى سواها أبداً .

وقالت الأم وهي تطرق :

ـــ ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟ إذا كان الآلاف من الناس يموتون إرهاقاً ، ويوماً بعد يوم ، لكي يتاح للنسيدان يبدد المال في مباذل ونزوات كهذه ؟

ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟

وهمس انياس :

ـ إن الاصغاء إليه شيء ممل . إن قصته لا يمكن أن تُنسى حتى ولو سُمعت مرة واحدة ... ولكنه هو لا ينفك يرددها .

وأجابه ريبين بحدة :

ـ إنها بالنسبة له ، تحتوي كل شيء ، حياته كلها ... يجب أن نفهم ذلك . لقد استمعت إليه عشرات المرات وهو يروي مصيره ، أما أنت فكم من مرة خامرتك الشكوك . إن في الحياة لحظات طيبة تود معها ألا تؤمن بقذارة الانسان وجنونه ؛ لحظات ، تأخذك فيها الشفقة على الناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم . إن الغني أيضاً يضل الطريق ؛ إن أحدهما يعميه الجوع ، والآخر يعميه الذهب . فيا أيها الناس ، يا أيها الأخوة ، احنوا الرؤوس قليلًا ، وفكروا ، ولا يخيفنكم أن تفكروا .

... وانتفض المريض مرتعشاً ، وفتح عينيه ، ثم انطرح على الأرض ، فنهض جاك بهدوء ، وتوجه إلى الكوخ ، فأحضر غطاءً من الفرو ، وغطى به سافولي ثم عاد فجلس إلى جانب صوفيا .

وكانت الجذوة ذات الوجه الوردي والبسمة المثيرة ، ما تزال تلقي نورها على الأشباح السوداء التي كانت تحيط بها ، وكانت أصوات الرفاق تختلط بالفرقعة الجلوة ووشوشة اللهب .

وراحت صوفيا تتحدث عن معركة الشعوب في العالم كله من أجل حق الحياة ؛ عن المعارك القديمة التي خاضها الفلاحون في ألمانية ، عن بؤس الايرلنديين ، وانتصارات العمال الفرنسيين الباهرة في كفاحهم المستمر من أجل الحرية .

وفي الغابة المتدثرة بمعطف الليل المخملي ، وفي الفسحة الصغيرة بين الأشجار ، وتحت سقف السماء القاتمة ، وأمام الجذوة الضاحكة ، في قلب دائرة من الظلال المندهشة الحاقدة ... كانت تُبعث من جديد ، الأحداث التي زلزلت عالم المتخمين والطماعين ، وتُستعرض شعوب الأرض وهي دامية الجراح ، تنهكها

المعارك ، وتتردد أسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة .

وكان صوت صوفيا الذي تشوبه بحة خفيفة يرن بعذوبة ، لقد كان كأنه آت من الماضي لينعش الآمال ويوقظ الثقة ، وكان المستمعون يصغون بصمت إلى حكاية إخوانهم بالروح ، ويحدقون في الوجه الشاحب الهزيل ، وجه صوفيا .

وكان ضياء ساطع ينير لهم القضية المقدسة ، قضية شعوب الدنيا كلها ، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية ؛ وكان كل واحد منهم يجد أمانيه وأفكاره في الماضي السحيق ، الملفع بنقاب قاتم ، يجدها في الماضي السحيق لشعوب أخرى مجهولة ، ويشارك في الكون عقلًا وقلباً ؛ ويلتقي فيه بأصدقاء صمموا منذ أمد بعيد ، وبكثير من الحزم ونكران الذات ، على أن يقيموا العدالة في الأرض ، أصدقاء عمدوا تصميمهم هذا بالآلام التي لا تحصى ، وسفكوا الأنهار من دمائهم من أجل انتصار حياة جديدة ، حياة صافية سعيدة . وكان شعور القربى الفكرية التي تربطه بالناس جميعاً ، كان هذا الشعور يشمخ في قلبه ويتنامى ؛ إنه قلب جديد هو ذاك الذي كان يولد على الأرض ، قلب يملأه التوق الحار إلى أن يفهم كل شيء ، ويتحد بكل شيء .

وقالت صوفيا بصوت واثق :

ـــ سيأتي اليوم الذي يرفع فيه الكادحون في شتى أقطار الأرض رؤوسهم ؛ ليقولوا بحزم : كفى ... إننا لا نريد هذه الحياة أبداً ... عندئذ تنهار تلك القوة الخداعة ، قوة أولئك الذين ليسوا أقوياء إلا بشرهم ؛ وستميد الأرض تحت أقدامهم ، فلا يجدون ما يتشبثون به .

وقال ريبين وهو يحني رأسه : ـــ هذا ما سيحدث إننا نستطيع إذا ما اهتممنا بأمر أنفسنا ، أن نذلل كل عقبة .

وكانت الأم تصغي مشرئبة الحاجب ، وبسمة الدهشة المرحة تتسمر على شفتيها ، وكانت تلاحظ أن كل ما كان يعتمر في صدر

صوفيا من عنف وحدة ، قد تلاشى الآن على ما يبدو ، وانصهر في السياق العارم السري لقصتها . وكان سكون الليل وارتعاش النار ووجه صوفيا ، وإصغاء القرويين الشديد ... فوق ذلك كله ، يبعث الارتياح في نفسها .

ولبثوا جامدين بلا حراك ، جاهدين ألا يعكروا تدفق حديثها الهاديء ، وألا يقطعوا ذلك الخيط الوضاء الذي يصلهم بالعالم . وكان واحدٌ من بينهم فقط ، يلقي إلى النار ، أحياناً ، بقطعة من الحطب ، يلقيها باحتراس ، حتى إذا تعالى الدخان وتطايرت زمر الشرر راح يذبها عن السيدتين يكفيه .

وبعد قليل نهض جاك وقال :

ــ إنتظروا قليلاً .

ثم راح يعدو إلى الكوخ، فأحضر بعض الملابس التي أخذ انياس يدثر بها جنوب الضيفتين وأكتافهما . واستأنفت صوفيا الكلام ، وكانت تصف يوم النصر وتبعث في الحضور الايمان بقواهم ، وتوقظ فيهم حس الاتصال الوجداني بأولئك الذين يكرسون حياتهم للكد التافه العقيم ، في سبيل الترفيه السخيف عن المتخمين . ولم تكن هذه الكلمات لتثير قلق الأم ، ولكن إحساسها بشيء ما عظيم ، أثاره حديث صوفيا وتغلغل في نفوس الجميع ، هذا الاحساس كان يملأ نفسها بعرفان الجميل ، والتقديس لأولئك الذين اجتازوا المخاطر ، اجتازوها إلى قوم كبلتهم سلاسل الكدح ، فحملوا إليهم عطايا عقولهم وإخلاصهم وحبهم للحقيقة .

وكانت تتمتم وهي تغمض عينيها :

ــ ساعدهم يا رب .

وصمتت صوفيا عند الفجر تعبى ، ورنت باسمة إلى الوجوه الساهمة الطلقة التي كانت تحيط بها .

وقالت الأم : ــ لقد آن لنا أن نرحل .

وردت صوفيا بإعياء : ــ أجل لقد آن ذلك .

وتنهد أحد الفتيان بصوت مسموع ، وتعالى صوت ريبين في رقة غير معتادة :

ــ يؤسفنا جداً أن ترحلا ، إنكما تحسنان الكلام ، وإنه لشيء عظيم أن تعملا على إقامة أواصر القربى فيما بين الناس . إن المرء ليشعر أن قلبه أضحى أفضل من ذي قبل ، عندما يعلم أن الملايين تتوق إلى نفس ما نتوق إليه نحن الآخرين ... والطيبة ، قوة عظيمة .

وغمغم إيفيم وهو ينهض بخفة :

ــ إنك حين تحدثهم عن طيبة القلب ، يردون عليك بالمذراة يجب أن ترحل السيدتان ، يا عم ميشال ، قبل أن يراهما أحد ؛ فستوزع النشرات وستنطلق السلطات للبحث عن مصدرها ، وقد يكون هناك واحدٌ يتذكر : لقد مرت امرأتان من هنا .

وقاطعه ريبين :

ــ حسناً . وشكراً أيتها الأم على ما تحملته من مشقة . إنني عندما أراك أفكر طول الوقت ببول . لقد سلكت الطريق الخير .

وارتسمت على شفتيه بسمة طيبة عريضة ، وكان موفور النشاط يرتدي قميصاً يكشف عن صدره . وتأملت الأم قامته الضخمة ونصحته بود :

ــ يجب أن تضع شيئاً عليك فالطقس بارد .

فأجابها : ــ إني أشتعل دفئاً في الداخل .

وكان الفتيان الثلاثة يتبادلون الحديث بصوت خفيض ، وهو وقوف بالقرب من النار ، في حين كان المريض يرقد عند أقدامهم وقد دثره رداء من الفرو . وكانت السماء تشحب ، والظلال تنصهر ، والأوراق ترتعش بانتظار بزوغ الشمس .

وقال ريبين ... وهو يشدّ يد صوفيا :

ــ وداعاً إذن ... كيف نهتدي إليك إذا أحببنا أن نراك في المدينة ؟

فأجابت الأم :

ــ ليس لك إلا أن تعثر عليّ أنا .

واقترب الفتيان الثلاثة من صوفيا بتؤدة ، وشدوا يدها واحداً بعد واحد بارتباك ودود ، ودون أن ينبسوا بكلمة : وكان جلياً أن كلًا منهم يستشعر في قرارة نفسه ، شعور العرفان بالجميل ، شعور الصداقة نحوها ، وكان هذا الشعور يربكهم ، بلا شك ، بما فيه من جدة لم يتعودوها ، وكانوا يرنون إليها بصمت ، والبسمة في عيونهم ، هذه العيون التي يشيع فيها شحوب السهاد .

وسأل جاك :

هل لكما بقليل من اللبن قبل أن ترحلا ؟

فقال إيفيم : ــ ولكن هل بقي عندنا لبن ؟

وأجاب انياس وهو يمر يده على شعره بارتباك :

ــ كلا ... فلقد عثرت بالاناء فاندلق .

وغرق الثلاثة في ضحك طويل .

لقد كانوا يتحدثون عن اللبن . ولكن الأم شعرت بأنهم كانوا يفكرون بأمر آخر ، كانوا يتمنون لها ولصوفيا الخير كل الخير ، دون أن يفصحوا ، ولقد أثر ذلك في نفس صوفيا ، وأثار فيها الاضطراب والتواضع الحي ؛ فلم تقو معهما على التفوه بأكثر من هذه الكلمة الهزيلة :

ــ شكراً أيها الرفاق .

وتبادلوا النظرات ، وبدا كأن هذه الكلمة قد أثملتهم فراحوا يترنحون بهدوء .

وتعالى من جديد سعال المريض الخشن ، وكان الفحم يخبو في الموقد ، والقرويون يرددون : وداعاً .

وتشيع هذه الكلمة الكئيبة السيدتين ، وتواكبهما خلال فترة طويلة .

وسارتا على مهل ، في طريق حرجي ، وسط غبش الفجر ، وكانت الأم تقول وهي تسير وراء صوفيا :

ـــ لقد مر كل شيء كالحلم ... وكانت الأمور على ما يرام . إنهم يودون معرفة الحقيقة ، يودون ذلك يا عزيزتي . لقد كان ذلك أشبه بما يجري في الكنيسة قبل قداس الصباح في يوم عظيم . الكاهن لم يصل بعد ، والجو قاتم ، وكل شيء يسوده الهدوء . ويستولي الخوف عليك ، وتضاء هنا شمعة أمام الأيقونة ، وتضاء أخرى هناك ، وتُطرد الظلمة شيئاً فشيئاً ؛ ويملأ النور بيت الله .

وأجابت صوفيا بمرح :

ـــ هذا صحيح ، ولكن بين الله هنا هو الأرض بأسرها .

ورددت الأم وهي تهز رأسها مفكرة :

ـــ الأرض بأسرها ... ذلك جميل جداً ، وإن كان يصعب تصديقه ؛ ولقد أجدت يا عزيزتي صوفيا في حديثك ، أجدت الاجادة كلها ، وقد كنت أخشى ألا تعجبيهم .

وأجابت صوفيا بعد قليل ، وبصوت خفيض لا بهجة فيه :

ـــ إن المرء ليزداد بساطة حين يكون بينهم .

وتحدثنا طوال الطريق عن ريبين ، والمريض ، والفتيان الذين كانوا يصغون بكثير من الاهتمام والذين عبروا عن صداقتهم الشاكرة تعبيراً بليغاً بما أحاطوهما به من لطف العناية ؛ وبلغنا الحقول الواسعة ، وكانت الشمس تستيقظ أمامهما ، ولم تك بعد قد برزت من أفقها ، بل كانت تنشر في السماء مروحة شفافة من شعاعها الوردي ، وكانت حبات الطل تتلألأ فوق العشب كومضات متعددة الألوان ، من فرحة ربيعية مزهوة ، وكانت العصافير تستفيق ، فتبعث الحيوية في الصباح بأغاريدها المرحة ، والغربان الكبيرة ترسل نعيبها المغموم ، وتطير ، وهي تنفض أجنحتها بتثاقل ، وكان كناريٌّ ، يطلق من مكانٍ ما ، لحنه ، في الفضاء ، وكانت الأبعاد تنحسر ، وتخلع عن الذرى ظلال الليل ،لتواجه الشمس .

وقالت الأم حالمة :

ـــ في بعض الأحيان يحدثكِ أحد الناس ، يحدثك فلا تفهمينه ،

إلى أن يتفوه بكلمة ما لا تدرين ما هي ، كلمة بسيطة ، ومع ذلك ، لا شيء سوى هذه الكلمة يوضح لكِ فجأة كل شيء . ذلك هو حال هذا المريض . لقد سمعت كثيراً ، وأنا أيضاً أعرف بنفسي كيف يُرهق العمال في المصنع ، وفي كل مكان ، ولكن المرء يتعود ذلك فلا يهزه ولا يحركه . لقد قال شيئاً فيه كثير من المهانة ، وكثيرٌ مما يخجل .

يا إلهي : أيمكن أن يسلخ الناس حياتهم كلها في الكدح ، ليتيحوا للأرباب عملهم مثل هذه المهازل ؟ إن ذلك لا يمكن تبريره .

وتوقف تفكير الأم عند قصته التي رواها ، والتي أوضحت لها ، بما فيها من بلاهة وصفاقة ، كثيراً من الغرائب التي وقفت عليها من قبل ، ثم نسيتها .

ــ إنهم يتخمون لدرجة يصابون معها بمرض القلب . لقد كان هناك مدير ناحية يرغم الفلاحين على تأدية التحية لجواده حين يخرج به لنزهة في البلدة ، ومن لا يفعل ، فالسجن عقابه . تُرى ما حاجته إلى مثل هذا العمل ؟ أبداً .. لم يتوصل أحد إلى فهم السبب . وراحت صوفيا تغني أغنية نشيطة ، منتصرة كالصباح .

7

وكانت حياة الأم تنساب بهدوء عجيب ، وكان هذا الهدوء يثير دهشتها أحياناً . لقد كان إبنها في السجن ، وكانت تعلم أن عقاباً قاسياً ينتظره ، ولكنها كانت كلما فكرت بذلك يمثل في ذاكرتها ، رغم إرادتها ، وجه أندريه ، وثيو ، وكثيرين غيرهما . وكانت صورة إبنها ، وهي تذكرها بكل أولئك الذين يشاطرونه مصيره ، تتضخم في عينيها ، وتحملها إلى جو من التأمل يحول دون تركز أفكارها على بول ، بل تشتتها في كل اتجاه ، وكانت هذه الأفكار تتشعب ، وتتفرع إلى شعاعات دقيقة غير متساوية ، فتلامس كل شيء ، وتحاول أن تلقي النور على كل شيء ، وأن تجمع كل شيء في لوحة واحدة ، وتحول بينها

وبين التوقف عن إحدى التفاصيل المعينة ، وتلهيها عن حزنها ، وعن ذلك الرعب الذي كان يبعثه في نفسها مصير إبنها .

وكانت صوفيا قد بكرت في الرحيل ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى الظهور بعد خمسة أيام أو ستة : عادت مرحة موفورة النشاط لتختفي من جديد بعد ساعات قليلة ثم أنها لم تشاهد بعد ذلك إلا بعد أسبوعين ؛ حتى لكأنها تنطلق في الحياة في دائر واسعة ، فلا تلج منزل أخيها إلا وهي عابرة ، لتملأ هذا المنزل مرحاً وموسيقى .

وكانت الأم قد أخذت تتذوق هذه الموسيقى . لقد كانت تشعر وهي تصغي إليها ، كأن مويجات دافئة تلطم صدرها ، وتتسلل إلى قلبها فينتظم نبضه أكثر من ذي قبل . وكما تبرعم البذور المغروسة في تربة جيدة الحرث ، منتظمة الري ، هكذا كانت تولد في رأسها الأفكار الجريئة العنيفة ، وتزهو التعابير الخفيفة الرشيقة التي توقظها قوة الألحان .

وكانت تجد عنتاً في الصبر على فوضوية صوفيا التي كانت تبعثر في كل زاوية ، أشغالها ، وأعقاب سجائرها ، ورماد هذه السجائر ؛ كما تجد مثل ذلك العنت في مجاراتها بطريقة كلامها الشديدة الجرأة ، والتي تختلف اختلافاً بيناً عن هدوء نيقولا وصفاته ، وروعة ألفاظه العذبة ، تلك الروعة التي لا يفسدها شيء أبداً . لقد كانت صوفيا في نظرها مراهقة تتعجل الوصول إلى أن تكون شخصية مرموقة ، وتعتبر الناس كدمى فضولية . كانت تتحدث كثيراً عن قداسة العمل ، ولكنها بإهمالها البليد تزيد من مشاغل الأم ؛ وكانت تخطب عن الحرية ، ولكن الأم ترى أنها كانت تضايق الآخرين برعونتها الجارحة ، ومجادلاتها التي لا تنتهي . وكانت ترى فيها كثيراً من المتناقضات فتعاملها بحذر ناعم وانتباه يقظ ، ولا تحس معها ، مثل ذلك الدفء الذي يغمر قلبها ، ويثيره فيها نيقولا .

وكان هذا ، وهو المنهمك أبداً ، يحيا يوماً بعد يوم ، حياة رتيبة منتظمة . يتناول طعام الفطور في الثامنة ، ثم يقرأ الصحيفة ، ويفضي

بما تحمله من أنباء إلى الأم ، وكانت وهي تصغي إليه ، تتبين بوضوح مدهش كيف تسحق عجلة الحياة الثقيلة ، الناس دونما رحمة ، لتحيلهم إلى مال ؛ وكانت تكتشف فيه مزايا يشترك بها مع أندريه ، فهو مثله يتحدث عن الناس دونما حقد ، ويعتبرهم جميعاً مسؤولين عن التنظيم الاجتماعي السيء ، ولكن إيمانه بحياة جديدة لم يكن أكثر حرارة ولا إشراقاً . وكان يتكلم دائماً بهدوء ، وبلهجة قاض نزيه صارم ، وكانت البسمة الوادعة العذبة لا تفارق شفتيه ، حتى ولو كان الحديث يتعلق بأشياء رهيبة ، ولكن عينيه ، في مثل هذه الحال ، كانتا تلتمعان بألق بارد قاس . وعندما كانت الأم ترى هذه النظرة تدرك أن هذا الرجل لا يمكن أن يغفر شيئاً لأحد ، وأنه لا يستطيع الغفران ، وكانت تشعر أن هذه القسوة تؤلمه فترثي له ، له هو الذي كان حبها له يزداد على الدوام .

وفي التاسعة كان يمضي إلى مكتبه ، فتنصرف هي إلى ترتيب المنزل ، وتعد الطعام وتستحم ، ثم ترتدي ثوباً نظيفا ، وتجلس في غرفتها تتأمل صور الكتب ، وكانت قد أصبحت تحسن القراءة ، إلا أن القراءة كانت تقتضيها جهداً ، وتتعبها بسرعة ، فلا تستطيع أن تدرك الترابط بين الكلمات ، أما الصور ، فقد كانت على العكس ؛ تسليها كطفل ، وتكشف لها عن عالم يكاد يكون ملموساً ، عالم جديد رائع يمكن فهمه . لقد كانت ترى أمامها مدناً واسعة تفجأها ، وبنايات رائعة ، وآلات ، وبواخر ، وآثاراً . كانت ترى الثروات التي لا تحصى ، والتي أبدعها الناس ، وترى بدائع الطبيعة التي تدهش عقلها بتنوعها ، وكانت الحياة تتسع أمامها حتى اللانهاية ، وتطلع عليها كل يوم بأشياء ضخمة ، لم تسمع بها ، جنية الملامح ، وكانت ، بوفرة غناها ولا نهاية جمالاتها ، تثير روحها الغرثى التي كانت تتفتح ، وكانت تحب بشكل خاص ، تصفح كتاب مصور في علم الحيوان ، وبالرغم من أن هذا الكتاب كان بلغة أجنبية ، فإنه كان يضع بين يديها أوضح صورة عن جمال الأرض ، وثروتها ، واتساعها .

وكانت تقول لنيقولا : ـــ ما أكبر الأرض .

وكانت الحشرات تستهويها أكثر من كل شيء ، وعلى الأخص ، الفراش ، فتتأمل صورها بدهشة وتقول :

ـــ يا لجمالها . أليس كذلك يا نيقولا ؟ كم يوجد من هذه الأشياء الجميلة الغالية في كل مكان ، ولكنها جميعها تتخفى فلا تبدو لأعيننا . إنها تمر أمامنا بسرعة عجيبة فلا نراها أبداً . إن الناس يتحركون فلا يعرفون شيئاً ، ولا يستطيعون أن يروا شيئاً ، وأن يعجبوا به ، إذ لا وقت لديهم لذلك ولا رغبة . لكم باستطاعتهم أن يغنموا من مباهج ، لو عرفوا كم هي غنية أرضنا ؛ وكم من أشياء مدهشة يجدون على ظهرها . إن هذه الأشياء كلها هي للجميع .. وكل واحد هو لهذه الأشياء جميعاً . أليس كذلك ؟

ويجيب نيقولا باسماً :

ـــ تماماً . ويقدم إليها كتباً أخرى مصورة .

وفي المساء ، تكون الزيارات غالباً ، ومن بين الزائرين الذين يترددون : اليكسي فاسيليف ، وهو رجل وسيم وقور صموت ، شاحب الوجه ، أسود اللحية ، ورومان بيتروف وهو ذو وجه نحاسي ، ورأس شديد الاستدارة ، تصطك شفتاه دائماً في حركة مشفقة ؛ وجان دانيلوف وهوصغير هزيل ، مدبب اللحية ، وذو صوت نحيف صخاب مثير ، حادٍ كأنه المخرز ، وإيغور ؛ الذي يسخر من نفسه ، ومن رفاقه ، ومن شقائه الذي يتعاظم بلا انقطاع . وآخرون غيرهم كانوا يقبلون من المدن النائية ، فيعقد نيقولا معهم أحاديث طويلة ، تدور دائماً حول موضوع واحد : الطبقة العاملة في العالم كله . وكانوا يتجادلون ، ويتحمسون ، ويكثرون من الحركات ، ويشربون كثيراً من الشاي ؛ وفي غمرة النقاش ، يدبج نيقولا النداءات ، فيتلوها على الرفاق الذين يسارعون إلى نسخها أثناء الجلسة ، في حين تنصرف الأم إلى جمع نتف المسودات الممزقة وحرقها .

وكانت هي تقدم الشاي لهم ، تدهش لتلك الحماسة التي تسيطر

عليهم وحين يتحدثون عن حياة العمال ومصيرهم ، وعن أفضل الطرق وأسرعها لنشر الحقيقة في صفوفهم ، ورفع روحهم المعنوية ، وكثيراً ما كانت الآراء تتضارب ، فيغضبون ويتبادلون التهم ، ويظهر الغم في وجوه البعض ، ولكنهم لا يلبثون أن يستأنفوا نقاشهم من جديد .

وكانت الأم تحس أنها تعرف حياة العمال أكثر مما يعرفونها هم، ويتراءى لها أنها تدرك بوضوع أكثر، جسامة المهمة التي تصدوا لها، وهذا ما يحملها على أن تعاملهم معاملة فيها بعض التنازل الكئيب، كتنازل رجل ناضج، يشارك أطفالاً يلعبون لعبة الزوج والزوجة، دون أن يدركوا ما فيها من معنى المأساة؛ وكانت، دون أن تتعمد ذلك، تحاول أن تقارن بين أقوالهم وأقوال إبنها وأندريه، فتلمس الفارق الذي كان يفوتها في البدء أن تلمسه، وكان يتملكها بعض الأحيان، شعورٌ بأن الأصوات ترفع هنا، أكثر مما ترفع هناك في الضاحية؛ فتعلل ذلك بقولها:

إنهم يعرفون أكثر منهم لذلك فهم يتكلمون بصوت أقوى . ولكنها كانت تلاحظ في أغلب ايحيان أن هؤلاء القوم إنما يتحمسون وفقاً لخطة ، وأن انفعالهم ليس إلا إنفعالًا مصطنعاً ، وأن كلا منهم يود أن يثبت لرفاقه أن الحقيقة هي أغلى عليه ، وأقرب إليه من الآخرين ؛ وهذا ما يجرحهم ، فينهدوا ، لكي يثبتوا معرفتهم لهذه الحقيقة ، إلى إستئناف الجدال ، بضراوة وقسوة . لقد كان كل منهم يود أن يقفز أكثر من الآخر ، وكان الحزن الكئيب يستولي على الأم بسبب ذلك ، فتحرك حاجبيها ، وهي تنظر إليهم بعينين متوسلتين ، وتفكر :

ــ لقد نسوا صغيري بول ورفاقه .

كانت تصغي وهي حاضرة الذهن ، إلى مناقشاتهم التي لم تلك طبعاً تفهمها ، وكانت تحاول أن تغربل الكلمات لتقف على المشاعر . في الضاحية عندما يتكلمون عن الخير يتناولونه بمجموعه ككل ، أما هنا فكل شيء يجزأ إلى جزئيات صغيرة دقيقة . إن المشاعر هناك أعمق وأقوى ، أما هنا فالسيطرة للأفكار التافهة التي تفتت كل شيء . هنا كانوا يتكلمون عن تهديم النظام القديم ، في حين كانوا هناك يحلمون

بالنظام الجديد ، ومن أجل ذلك كانت أحاديث إبنها وأندريه أيسر فهماً بالنسبة لها ، وأقرب تناولًا .

وكانت تلاحظ أن نيقولا يغدر ، حين يأتي أحد العمال ، أكثر إنطلاقاً وحرية معه ، وأن تعبيراً فيه عذوبة يرتسم على ملامحه ، فيتغير أسلوبه في الحديث تغيراً كلياً ، وإذا كان هذا الحديث لا يغدو أكثر خشونة ، فإنه ليغدو على الأقل ، أكثر عفوية .

وكان هذا الخاطر يدور في رأسها :

« إنه يجتهد في أن يُفهم » .

ولكن ذلك لم يكن ليعزيها ، وكانت ترى أن الزائر يستشعر الضيق ، ويحس بكبت داخلي ، ولا يستطيع أن يتكلم بسهولة وطلاقة إلا معها ، معها هي ، إبنة الشعب .

وفي أحد الأيام ، وكان نيقولا قد خرج من المنزل ، سألت أحدهم :

ــ لِمَ تشعر بالضيق ؟ إنك لست صبياً يؤدي إمتحاناً ..؟

وابتسم الفتى ابتسامة عريضة :

ــ إن السراطين نفسها تحمر خجلًا عندما تُحمل على غير عادتها .. ثم إنه ، على كل حال ، ليس منا .

وكانت ساندرين تأتي أحياناً ، ولكنها لا تمكث طويلًا . وكانت تتكلم دائماً بانهماك ولا تضحك أبداً ؛ وفي كل مرة كانت تسأل الأم قبل إنصرافها :

ــ وبول ؟ كيف حاله ؟ لعله غير مريض ؟

ــ شكراً لله ، إن صحته حسنة ، وهو مغتبط .

وتقول الفتاة : ــ أبلغيه تحياتي .

ثم تتوارى .

وكانت الأم تشكو لها بأن سجن بول قد طال كثيراً دون أن يحدد موعد لمحاكمته فيتجهم وجه ساندرين ، وتصمت ، في حين تضطرب أصابعها بعصبية .

وكانت تتآكلها الرغبة في أن تقول لها :
ـــ يا عزيزتي الصغيرة . أنا أعلم جيداً أنك تحبينه .
ولكنها لم تك تفعل ، لأن ملامح الفتاة القاسية ، وشفتيها المزمومتين بشدة ، ولهجتها الجافة المغمومة ، كانت تنبيء بأنها لا تحتمل الدعاب ، فتصعّد الأم زفرة وهي تشد صامتة ، اليد التي تمدها الفتاة إليها ، ثم تهمس في سرها :
ـــ إنك لشديدة التعاسة يا إبنتي المسكينة .
وفي أحد الأيام أقبلت ناتاشا ، وسُرّت كثيراً لرؤية الأم . لقد عانقتها وأسرّت إليها فجأة بهذا النبأ ، في جملة ما حملته إليها من أنباء :
ـــ لقد توفيت أمي .. توفيت المسكينة .
وأحنت رأسها ، وكفكفت دموعها بحركة سريعة .
ـــ لقد آلمني ذلك أشد الإيلام ، فهي لم تتجاوز الخمسين من عمرها ، وكان من الممكن أن تعيش أكثر . ولكنني من جهة أخرى أقول بأن الموت ، كان ، بلا ريب ، أخف وطأة عليها من الحياة ، لقد كانت دوماً وحيدة ، غريبة عن الناس ، لا يحتاجها أحد . وكانت تعيش في خوف دائم من ثورات والدي ... فهل تراها كانت تعيش حقاً ؟ إن المرء ليعيش الحياة وهو يرجو أن تحمل إليه الخير .. أما هي فلم تكن لترجو من حياتها شيئاً ؛ لم تكن تنتظر منها إلا المهانة .
وقالت الأم بعد لحظة تفكير :
ـــ هذا صحيح ياناتاشا إن المرء ليعيش الحياة عندما يرجو شيئاً فيها خيّراً ، أما إذا تلاشى هذا الرجاء ، فأي معنى يبقى للحياة بعد ؟
ثم أردفت وهي تتحسس يد الفتاة بحنان :
ـــ والآن .. هل أنت وحيدة ؟
وأجابت ناتاشا برفق : ـــ نعم .
وصمتت الأم ثم قالت وهي تبتسم :
ـــ لا بأس فالطيب لا يعيش وحيداً ، وهناك كثيرون تشدهم إليك أواصر ...

8

وعُينت ناتاشا مدرّسة في مقاطعة قريبة من مصنع للنسيج ؛ وأخذت بيلاجي تزودها بالكتب الممنوعة ، والنداءات والصحف ، حتى أضحى هذا شغلها الشاغل وكانت تجوب المقاطعة ، عدة مرات في الشهر ، وهي تتنكر بثياب راهبة ، أو بائعة دانتيلا أو خرضوات ، أو بثياب بورجوازية ثرية ، أو زي حاجّة ، تجوبها سيراً على الأقدام ، أو في القطار ، أو في عربة ، وفي يدها حقيبة ، وفوق منكبها كيس .

وكانت تتصرف بهدوء أعصاب وبساطة سواء كانت في القاطرة أو على ظهر الزورق ، أو في الفنادق ، وتتحدث مع أشخاص لا تعرفهم ، وتبادئهم هي بالحديث ، وكانت تستلفت الانتباه ، دونما خوف ، بما تدير من أحاديث ودية واجتماعية ، وبوثوقها بنفسها كامرأة رأت الكثير ، واستوعبت الكثير .

وكانت تحب التحدث إلى الناس والاصغاء إليهم وهم يسردون حيواتهم وشكاياتهم ، وهمومهم ؛ وكان قلبها يفيض بالغبطة كلما أنست من محدثها تلك النقمة العنيفة التي تفتش بالحاح ، رغم أنها منصبة على ضربات الحظ ، عن أجوبة لأسئلة يعج بها رأسه ؛ وكانت تنبسط أمامها دوماً لوحة الحياة وهي أكثر إتساعاً وتلوناً ، وتمر عليها حياة الناس ومشاغلهم كلها ومتاعبهم من أجل الرغيف . وكانت تلمس أنّى اتجهت ، الجشع بعريه الوقح ، الجشع الذي يعمل على خداع الناس وسلبهم ، على إبتزازهم وامتصاص دمائهم .

وكانت ترى الخيرات موفورة على الأرض ، وترى الشعب مع ذلك يعيش في العوز والحرمان . إنه نصف جائع إلى جانب ثروات هائلة لا يمكن حصرها . وفي المدن تقوم معابد تعج بالذهب والفضة ، ويحار الله ماذا يفعل بهذه الكنوز ، في حين يحتشد البؤساء في ساحات هذه المعابد وهم يرتجفون ، وينتظرون أن تدُس في أكفهم الممدودة سحاتيت الاحسان .

وكانت قد رأت من قبل هذا المشهد ، رأت الكنائس وحلل

الكهنة الموشاة بالذهب ، وأكواخ المعدمين ، وأسمالهم المخزية ، ولكن ذلك كان يبدو لها أمراً طبيعياً . أما الآن فإنها تجد هذا الوضع شيئاً مهيناً لا يطاق ، ولا يرتضيه الفقراء الذين يحبون الكنيسة ، على ما تعلم ، أكثر مما يحبها الأغنياء ، ويرونها ضرورية لهم أكثر من أولئك .

وكانت تعرف من الصور التي رأتها للمسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، إنه كان صديقاً للفقراء . لقد كان يلبس ببساطة ... ولكنها تراه في الكنائس التي يقبل عليها الفقراء ليلتمسوا العزاء ، تراه راسفاً في سلاسل من ذهب بطر ، أسير حرير يهفهف بازدراء حين يبصر البائسين . وكانت كلمات ريبين تقفز إلى ذاكرتها :

ــ لقد استخدموا حتى الله لكي يخدعونا !

ودون أن يخامرها شك بذلك أخذت تقلل من صلواتها ، وتكثر من التفكير بالمسيح ، وبأولئك الذين كانوا يعيشون ، كما يبدو لها ، وفق تعاليمه ، وإن توانوا عن ذكر اسمه ، أو تظاهروا بعدم معرفته ، أولئك الذين كانوا مثله يعتبرون الأرض مملكة للفقراء ، ويبغون أن توزع بين الناس بالعدل ، ثروات العالم كلها . وكانت تفكر في هذا كثيراً ، فتنمو هذه الخاطرة في نفسها ، وكانت هي بدورها تعمّقها ، وتقيم نوعاً من الترابط بينها وبين كل ما تقع عينها عليه . وكانت هذه الأفكار تنمو ، وتتخذ شكلًا وضاءً لصلاة تسبغ نورها على العالم العبوس ، على الحياة كلها ؛ والمخلوقات كلها . وكان يخيل للأم أن يسوع ، الذي أحبته من قبل حباً غامضاً ؛ وبعاطفة معقدة يختلط فيها الأمل بالرهبة ، والحنان بالأسى ، كان يخيل إليها أن يسوع هذا هو الآن أقرب إليها من ذي قبل ، وأنه قد تغير فأمسى أكثر سمواً ووضوحاً ، حتى لكأنه قد بعث حقاً بعد أن غسله ، وملأه حياة ، ذلك الدم الحار الذي يسفحه بسخاه من أجله ، من أجل هذا الصديق البائس للناس ، أولئك الذين يمنعهم الخفر من التلفظ باسمه .

وكانت الأم تعود من رحلاتها هذه سعيدة متأثرة بما رأت وسمعت

خلال الطريق ، ويبعث فيها الشجاعة وحسن الرضى ، شعورها بأنها قد قامت بعملها على خير وجه . وفي المساء كانت تقول لنيقولا :

ــ جميل أن يسافر المرء إلى كل مكان ، وأن يرى كثيراً من الأشياء . إنه بذلك يدرك كنه الحياة . لقد عُزل الشعب ونحّي جانباً ، فأقعي مهاناً ، ولكنه لم يتقبل ذلك مختاراً ، فهو يسائل نفسه ، لِمَ يُراد لي أن أظل معزولاً ؟ لِمَ أجوع والخير دافق ؟ لِمَ أنا بهيم جاهل ؟ في حين تنتشر المعرفة في كل مكان ؟ أين هو الله الرحيم الذي لا فقراء ، في عرفه ، ولا أغنياء ، بل الناس جميعاً بالنسبة له ، أبناء أعزاء ؟ لقد بدأ الشعب يثور شيئاً فشيئاً على الحياة التي يحياها ؛ إنه يشعر أن الجور سيخنقه إذا لم يأخذ هو بنفسه قضيته بين يديه .

وكانت تستشعر رغبة طاغية متنامية في أن تتحدث إلى الناس بلغتها ، أن تحدثهم عن مظالم الحياة ، وكان من العسير عليها أحيانا أن تلجم هذه الرغبة .

وكان نيقولا يفاجئها وهي تتملّى الصور ، فيبتسم ، ويقص عليها قصصاً كانت ترميها دائماً بالذهول .

وكانت تسأله وقد جبهتها قسوة المشاكل التي يطرحها الناس ، تسأله بلهجة متشككة :

ــ ولكن هل هذا ممكن ؟

وكان يصور لها بصبر ، وإيمان لا يتزعزع بصدق نبوءته ، يصور لها الغد كحكاية من حكايا الجن وعيناه الطيبتان ترنوان إليها من خلال نظارتيه :

ــ إن رغبات الانسان لا حدود لها ، وقوته لا تنفد أبداً ، ولكن العالم لا يغتني بالفكر إلا ببطء شديد ، فكل إنسان مجبرٌ ، لكي يتحرر ، أن يكدس المال ، بدلًا من المعرفة ، ولكن عندما يقضي الناس على شرههم ، عندما يتحررون من عبودية العمل الاجباري ...

وقلما كانت بيلاجي تفهم معنى أقواله هذه ، إلا أن حِس الايمان

الصافي الذي يلهب هذه الأقوال ، كان يقربها دوماً من فهمها . لقد كان يقول :

ــ إن الأحرار على هذه الأرض قلة ضئيلة جداً ، وهذا هو سر شقائها .

وكانت تفهم هذا ، فهي تعرف كثيرين تحرروا من الجشع والخبث ، وتعتقد أنه لو زاد عدد هؤلاء الناس ، فإن وجه الحياة الرهيب العبوس سيغدو أجمل وأكثر بشاشة وإشراقاً وبساطة .

وكان نيقولا يجيب بأسى :

ــ إنما يرغم الانسان على القسوة .

وتهز هي رأسها موافقة ، وتتذكر كلمات البيوروسي .

9

وفي أحد الأيام رجع نيقولا ، وهو المعروف بدقة مواعيده ، رجع من مكتبه متأخراً على غير عادته ، وقبل أن يخلع معطفه ، قال بعنف وهو يفرك يديه بانفعال :

ــ هل عرفت ؟ لقد هرب أحد رفاقنا اليوم من السجن . ولكن من هو هذا الذي هرب ؟ هذا ما لم أوفق إلى معرفته .

فترنحت الأم ، وقد سيطر عليها الانفعال ، ثم جلست وسألت مغمغمة : ــ أيمكن أن يكون الهارب بول ؟؟

وهز نيقولا كتفيه قائلاً :

ــ هذا ممكن ... ولكن كيف يمكن أن نساعده على الاختفاء ؟ وأين نستطيع العثور عليه ؟ لقد جبت الشوارع علّني ألتقي به ... فكان ذلك بلاهة مني ، ولكننا على كل حال يجب أن نفعل شيئاً ... وها أنذا أخرج ثانية .

وصاحت الأم : وأنا أيضاً .

واقترح نيقولا : ــ إذهبي إذن إلى إيغور ، وتسقطي لنا الأخبار ...

ثم توارى سريعاً .

وألقت على رأسها غطاءً ، ثم خرجت في أثره يحدوها الأملٍ وتسير مضطربة ، وقلبها يخفق بسرعة وعنف ، حتى لتكاد تنطلق عدواً . لقد كانت تسير لتواجه المحتمل مطأطأة الرأس لا ترى شيئاً مما حولها ؛ وكان هذا الأمل الوامض يدفعها إلى الأمام :

ـــ سوف أصل ، وأجده هناك .

وكان الجو حاراً ، وكانت هي تلهث من التعب . وعندما وصلت إلى أسفل السلم المؤدي إلى منزل إيغور توقفت وقد خانتها قواها فلم تعد تستطيع التقدم ؛ وارتدت إلى الوراء ، وندت عنها صرخة دهشة مكبوتة ، ثم أغمضت عينيها لحظة فخيل إليها أنها ترى نيقولا فيسوشيكوف قرب الباب ، ويداه في جيبه ؛ ولكنها عندما فتحتهما لم تر أحداً ، فقالت في نفسها :

ـــ لقد كان ذلك مجرد رؤيا !

وصعدت السلم وهي تصيخ بسمعها ، وفي الساحة تحتها تعالى وقعٌ أخرس لخطى بطيئة فتوقفت ، وانحنت تنظر ، فإذا بها تبصر من جديد ، الوجه المجدور يبسم لها ، فصاحت ، وهي تنحدر للقائه ، في حين كان قلبها ينقبض خيبة :

ـــ نيقولا ... نيقولا .

وقال لها بصوت خفيض وهو يشير بيده :

ـــ كلا ... إصعدي ... إصعدي .

وتسلقت السلم بسرعة ، ودخلت على إيغور ، فرأته متمدداً على مقعدٍ ، فغمغمت وهي تلهث :

ـــ لقد هرب نيقولا من السجن .

وسأل إيغور بصوته الصافر ، وهو يرفع رأسه عن الوسادة :

ـــ أيهما ... فهناك إثنان يحملان هذا الاسم .

ـــ فيسوشيكوف . لقد جاء إلى هنا .

ـــ عظيم .

وكان فيسوشيكوف قد دخل ، وأقفل مزلاج الباب ، ونزع قبعته ، وراح يضحك بهدوء ، ويمسد شعره ؛ فاتكأ إيغور على مرفقيه ، وسعل وهو يهز رأسه : ــ مرحباً بك .

وتقدم فيسوشيكوف من الأم ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ثم أخذ يدها :

ــ لو لم أرك لكان عليّ أن أعود إلى السجن ، فأنا لا أعرف أحداً في المدينة ولو عدت إلى الضاحية لقبض عليّ حالًا . لقد قلت لنفسي وأنا أهيم على وجهي : أيها الخبيث .. لِمَ أقدمت على الهرب ؟ وفجأة لمحت بيلاجي تسير مسرعة ... فلحقت بك .

وسألته الأم :

ــ كيف استطعت الهرب ؟

فجلس بلا مبالاة على حافة المقعد ، وقال وهو يشقل كتفيه مُحرَجاً :

ــ لقد كانت مناسبة ... كنت أتمشى في باحة السجن ، فإذا بالسجناء ينهالون على الحارس ضرباً . إنه دركي قديم طُرد من وظيفته من أجل سرقة ارتكبها . وكان يتجسس ، ويحيل حيوات الناس إلى جحيم ... لقد طرحوه أرضاً وجلسوا فوقه ... يا له من خليط عجيب . وخاف الحراس فتراكضوا وهم يصفرون ، ورأيت أنا الباب الحديدي مشرعاً ، ووراءه الساحة والمدينة ، فخرجت على مهل . كأني في حلم ... وعندما ابتعدت قليلًا أخذت أسائل نفسي : أين أذهب ؟ وتلفت نحو السجن ، فإذا أبوابه قد أقفلت .

وهمهم إيغور :

ــ هم هم ... حسناً يا سيد . لقد كان عليك أن تعود فتطرق الباب بأدب وتتوسل إليهم ليسمحوا لك بالدخول ، وتقول لهم : المعذرة ... لقد كنت شارد الفكر قليلًا ...

وابتسم فيسوشيكوف وأردف :

ــ نعم ... إنها لحماقة ، خصوصاً وقد أسأت التصرف مع

الرفاق ، إذ كان عليّ أن أقول لهم شيئاً قبل خروجي ...... وعلى كل حال ... فلقد أبصرت في الطريق جنازة لطفل ، فسرت وراء النعش مع المشيعين ، وطأطأت رأسي ، ولم أتلفت حولي أبداً ؛ ولبثت بعض الوقت في المقبرة ، فأتاح لي مكثي القصير هناك أن أتنشق الهواء ... ثم جاءتني فكرة ......

وقال إيغور : ــ فكرة واحدة فقط ؟

ثم أضاف باسماً : أعتقد أن هذه الفكرة لم تكن في حرج ...

ولم يغضب فيسوشيكوف بل راح يضحك :

ــ أوه ... إن رأسي لم يكن فارغاً كما كان من قبل ... وأنت يا إيغور أتظل مريضاً أبداً ؟

وأجاب إيغور وهو يسعل سعالًا لزجاً :

ــ كلّ يعمل ما في طاقته أن يعمل . أكمل .

ــ وبعد ذلك ... ذهبت إلى المتحف ؛ وطفت فيه على غير هدى ، وتفرّجت ، وكنت أفكر طوال الوقت : أين سأذهب الآن ؟ ونقمت على نفسي ، وكنت أعاني أشد الجوع فخرجت ، وسرت وأنا أشعر بالانفعال يهزني . ولاحظت أن رجال الشرطة كانوا يراقبون الناس جميعاً ، فقلت في نفسي : إني بمثل هذه السحنة أسهل لهم التعرف عليّ وسأقع سريعاً بين « قوائم » القضاة ؛ وفجأة أبصرت بيلاجي وهي ترقى السلم ، فابتعدت قليلاً ثم لحقت بها وهذا هو كل شيء .

وقالت الأم وعلى وجهها سيماء الخاطيء :

ــ وأنا التي لم أنتبه لك ؟

وكانت تتفحص فيسوشيكوف ، فيخيل إليها أنه أمسى أقل غفلة من ذي قبل .

وقال نيقولا وهو يهرش رأسه :

ــ حقاً ... إن الرفاق لن يطمئن لهم بال .

وسأله إيغور :

ــ والجند ؟ ألا ترثي لهم ؟ إنهم بلا ريب سينزعجون !

وفغر فاه ، وراح يحرك شفتيه كأنه يمضغ الهواء ، وتابع :
ــ يكفي مزاحاً ، وعلينا الآن أن نخبئك ... إنها مهمة لذيذة ولكنها ليست باليسيرة . ليتني أستطيع النهوض .
وأخذته نوبة ضيق في التنفس ، فرفع يديه إلى صدره ، وراح يدلكه بعناء .
وقال نيقولا :
ــ إن مرضك لشديد يا إيغور ...
ثم طأطأ رأسه .
وزفرت الأم ، وأجالت بصرها الكئيب في جوانب الغرفة الضيقة ، ورد إيغور : ــ ذلك من شأني أنا ... إسأليه يا أماه عن بول ولا تتغابي .
وابتسم فيسوشيكوف ابتسامة عريضة حتى أذنيه :
ــ أما من ناحية بول فهو يتمتع بصحة جيدة . إنه رئيسنا إلى حد ما ، وهو الذي يناقش الادارة ، وبصورة عامة هو الذي يصدر الأوامر ؛ ويحظى باحترام الجميع .
وكانت الأم تلتهم كلمات الشاب ، وتحدق بشرود في وجه إيغور المنتفخ المزرق ، وتبدو جامدة كالقناع ، كأن وجهها قد تجرد من كل تعبير ؛ وكانت عيناها وحدهما ، تومضان بألق النشاط والغبطة .
وصاح نيقولا فجأة :
ــ ليتكما تعطياني شيئاً آكله ، فأنا جد جائع .
ــ أماه ، يوجد على الرف خبز ، وبعد ذلك ... سيري في الممشى واقرعي الباب الثاني الذي تجدينه على يسارك ، وستفتح لك إمرأة ، فاطلبي إليها أن تأتي إلى هنا ، وأن تحمل معها كل ما لديها من طعام .
واعترض نيقولا :
ــ ولِمَ تحمل كل ما لديها ؟
ــ لا تهيج كبدك ... فإن ما عندها ليس بالشيء الكثير .

وخرجت الأم وقرعت الباب المعين ، وأصاخت بسمعها وهي تفكر حزينة :

ــ إنه يموت ...

وارتفع صوت من الداخل :

ــ من الطارق ؟

وأجابت الأم بصوت خفيض :

ــ إني آتية من قبل إيغور .. وهو يرجوك أن تذهبي إليه .

وجاء الجواب دون أن يفتح الباب :

ــ سآتي حالًا .

وانتظرت لحظة ، ثم طرقت الباب ثانية ، فانفتح الباب حالًا ، وظهرت على العتبة امرأة فارعة تلبس نظارتين ، وسألت بلهجة جافة وهي تسوّي بعنف كمها المجعد :

ــ ماذا تريدين ؟

ــ إني آتية من قبل إيغور .

ــ آه .. آه .. هيا بنا .. لقد عرفتك فمرحباً .. إن الظلام هنا كثيف ..

ورمقتها بيلاجي ، وتذكرت أنها كانت تراها أحياناً في منزل نيقولا ، فغمغمت :

ــ دائماً من جماعتنا .

وطلبت إلى بيلاجي أن تسير أمامها ، ثم سألتها :

ــ هل حالته سيئة ؟

ــ نعم ... إنه في سريره ، وهو يرجوك أن تحملي معك شيئاً من الطعام .

ــ أوه ... لا فائدة من ذلك .

وعندما دخلتا منزل إيغور ، قال هذا والحشرجات تخنق صوته :

ــ إني منطلق للقاء أجدادي يا صديقتي العزيزة لوميلا ، وهذا الفتى خرج من السجن ــ يا للوقاحة ــ دون إذن من

السلطات .. فاعطه بادىء ذي بدء ما يأكله ، وخبئيه بعد ذلك في مكان ما .

وهزت لوميلا رأسها ، وقالت بقسوة وهي تتفرس وجه المريض :

ــ كان عليك يا إيغور أن ترسل في طلبي حال وصولهما ... فماذا يعني هذا الاهمال ؟ تعال معي يا رفيق وسنعود حالًا لنقل إيغور إلى المستشفى.

وسأل إيغور :

ــ هل أنت مصرة على نقلي ؟

ــ أجل وسأذهب معك .

ــ إلى هنا أيضاً ؟ آه يا رب .

ــ لا تتباله .

وسوّت الشابة ، وهي تتكلم ، الغطاء على صدر إيغور ، ونظرت بإمعان إلى وجه نيقولا ، وقاست بعينها كمية الدواء المتبقية في الزجاجة ، وكانت تتكلم بصوت متزن خافت ، وكانت حركاتها لطيفة ، وفي وجهها الشاحب يكاد حاجباها الأسودان يلتقيان عند أعلى أنفها .

ولم يعجب الأم شكلها ، فقد حكمت عليها من خلاله ، بأنها شديدة الصلف ، ولم تك عيناها تومضان ببسمة أو ألق ؛ وكانت تتكلم بلهجة الآمر :

ــ هيا بنا ، وسأعود بعد قليل ... جرّعي إيغور ملعقة من هذه الزجاجة ، وامنعيه عن الكلام .

ثم خرجت وهي تأخذ بيد فيسو شيكوف .

وقال إيغور وهو يصعّد زفرة :

ــ إنها إمرأة مدهشة .. وإنسانة رائعة ، وكان من الواجب أن تقيمي عندها يا أماه .. فهي تجهد نفسها كثيراً .

وقالت الأم برقة :

ــ لا تتكلم .. وخذ ، اشرب .

وجرع الدواء ، واستأنف الكلام وهو يغمض إحدى عينيه :

ـــ كان من الأفضل ألا أتكلم ، ولكني ميت على كل حال ..

ورنا بعينه الأخرى إليها ، وافترت شفتاه ببطء عن ابتسامة ، فأطرقت الأم برأسها ، وأهاج الاشفاق الدمع في عينيها :

ـــ هذا لا يجدي فتيلا ... إنه أمر طبيعي ، فالشبع من الحياة يجر وراءه ضرورة الموت .

ووضعت الأم يدها على رأسه وهمست ثانية :

ـــ لا تتكلم ...

وأغمض عينيه كأنه يصغي إلى الحشرجات في صدره ، ثم عاد إلى الكلام بعناد :

ـــ من البلاهة أن أصمت .. وماذا يجديني الصمت ؟ بضع ثوان أخرى من النزع .. ثم أفقد بعد ذلك الثرثرة مع إمرأة طيبة . وأنا أعتقد أنه ليس في العالم الآخر قوم طيبون كناس هذا العالم .

وقاطعته الأم وقالت بأسى :

ـــ لقد أوشكت السيدة أن تعود ، وسوف تقرّعني لأنني سمحت لك بالكلام .

إنها ليست سيدة ، بل ثائرة . إنها رفيقة . إنها روح مثير للاعجاب .. وأما أنها ستقرعك فذلك مما لا شك فيه ، فهي تقرع الجميع دائماً ...

وراح إيغور وهو يحرك شفتيه بإجهاد وبطء، راح يقص عليها حياة جارته، وكانت عيناه تبتسمان، وكانت الأم تلاحظ أنه يتعمد مضايقتها، فترنو إلى وجهه الذي يخضله طل أزرق اللون ، وتفكر بضيق:

ـــ إنه يموت .

وعادت لوميلا وأوصدت الباب وراءها برفق ، ثم خاطبت بيلاجي :

ـــ على صديقك أن يستبدل ثيابه ، وأن يترك هذا المكان بأسرع ما يمكن . وعليك الآن أن تدبري له هذه الثياب حالًا ، وأن تأتي بها

إلى هنا . من سوء الحظ ألا تكون صوفياً هنا ... فإخفاء الناس يدخل في إختصاصها .

وقالت الأم وهي تطرح شالها على كتفيها :

ـــ إنها ستصل غداً .

وكانت الأم كلما كلفت بمهمة تحس برغبة طاغية في أن تؤديها بسرعة واتقان ، وكانت لا تستطيع أن تتحول بتفكيرها إلى شيء آخر غير واجبها ، لذلك سألت ، وهي مُقطبة الجبين ، مغمومة الملامح ، بادية الاهتمام :

ـــ ماذا ترتأين أن ألبسه ؟

ـــ لا أهمية لذلك ، فسيخرج من المدينة ليلًا .

ـــ ذلك أسوأ مما لو خرج في النهار ، إذ يقل مرور الناس في الشوارع ويسهل تتبعهم ... ثم إنه ليس بارعاً ...

وضحك إيغور ضحكة مبحوحة ، فسألته الأم :

ـــ هل تسمح لي بزيارتك في المستشفى ؟

فهز رأسه وهو يسعل ، ورنت لوميلا إلى الأم بعينيها السوداوين واقترحت :

ما رأيك في أن نسهر على راحته بالتناوب ؟ أتوافقين ؟ حسناً ، أما الآن .. فأسرعي لتنفيذ مهمتك .

وأمسكت الأم من ذراعها بحركة ودودة ، ولكنها آمرة ، وسارت بها نحو الباب وهمست في أذنها وهما وراءه :

ـــ لا يغضبنك إخراجي لك ، فالكلام يضره كثيراً ، وأنا ما زال لدي بعض أمل ...

وضغطت على يديها وفرقعت أصابعها في حين كانت أجفانها المنهكة تنسدل على عينيها بإعياء .

وأزعج هذا التبرير الأم فغمغمت :

ـــ ماذا تقولين ؟

وأوصتها ، بصوت خافت :

ــ احذري الجواسيس ...

ثم راحت تفرك صدغيها بأناملها ، وكانت شفتاها ترتعشان ، وملامحها ترق .

وأجابت الأم بشيء من الزهو .

ــ أعرف ذلك .

وعندما اجتازت مدخل البناية توقفت قليلًا فسوَّت نقابها ، وأجالت فيما حولها نظرة خاطفة مختلسة ، ولكنها حذرة ، فلقد كانت على مثل اليقين بأنها تستطيع أن تميز أي جاسوس من بين الناس ، فهي تعرف الخطو اللامبالي ، وسهولة الحركات المفتعلة ، وآثار التعب والضيق المرتسم في الملامح ، وانسدال الجفون الوجل المرتبك ... فوق عيون نفاذة مغمومة .

ولم تلحظ هذه المرة ، ذلك الشبح الذي تعرف ، فاندفعت في الشارع على مهل ، ثم استقلت عربة ، وأمرت سائقها أن يتوجه إلى السوق . واشترت ثياباً لنيقولا ، وساومت بإسراف ، وهي تغرق زوجها السكير بسيل من الشتائم ، هذا الزوج الذي يجب أن يستبدل ثيابه كلها ، بأخرى جديدة ؛ وفي كل شهر تقريباً . ولكن هذه « الأسطورة » التي اخترعتها لم تحرك حس الباعة مطلقاً ، بل شعرت هي معها بنشوة عارمة ؛ وكانت تحدث نفسها ، وهي في الطريق ، بأن رجال البوليس يعرفون ــ بلا شك ــ أن نيقولا سيتنكر ، وأنهم ، قد أوفدوا عيونهم إلى السوق ، ليراقبوا .

وبعد أن اتخذت احتياطاتها الساذجة عادت إلى منزل ايغور ؛ وكان عليها أن ترافق نيقولا حتى طرف المدينة ، وأن يسير كل منهما على رصيف ، وكانت بيلاجي تضحك ، ويبهجها أن ترى نيقولا وهو يسير بتثاقل مطأطيء الرأس ، يتعثر بأذيال معطفه الرمادي ، ويرفع قبعته التي لا تنفك تنحدر على أنفه . وفي أحد الشوارع المقفرة جاءت ساندرين للقائهما ، ثم قفلت الأم راجعة إلى المنزل ، بعد أن حيت فيسوشيكوف بإشارة من رأسها .

وكانت تحدث نفسها :
ـــ وبول ما زال هناك ... وكذلك أندريه .

10

واستقبلها نيقولا إيفانوفيتش باضطراب :
ـــ إن حالة إيغور في غاية السوء . لقد نُقل إلى المستشفى وجاءت لوميلا وهي ترجوك اللحاق بها .
ـــ إلى المستشفى ؟
وركز نظارتيه بحركة عصبية ، وساعد بيلاجي على ارتداء معطفها ، ثم قال لها بصوت متهدج وهو يشد على يدها بأصابعه الخشنة الحارة :
ـــ خذي هذه الرزمة معك ... هل دُبر أمر فيسوشيكوف ؟
ـــ نعم ... فكل شيء على ما يرام .
ـــ سوف أذهب أنا أيضاً لرؤية إيغور .
وكانت الأم منهكة ، لدرجة أن رأسها كان يدور ، ثم جاءت لهجة نيقولا الكئيبة فأشعرتها بدنو الفاجعة :
« إنه سيموت » .
وكانت هذه الفكرة القاتمة تطرق رأسها بعنف ، ولكنها عندما ولجت الغرفة الصغيرة المشرقة النظيفة ، في المستشفى ، ورأت إيغور جالساً في كومة بيضاء من الوسائد ، وبسمته الخشنة تطوف على شفتيه ؛ هدأ روعها في الحال ، وتوقفت عند العتبة باسمة ، فسمعت المريض يقول لطبيبه :
ـــ الدواء ضرب من الإصلاح ..
ويصيح به الطبيب بصوت نحيل قلق :
ـــ لا تتصنع الدجل يا إيغور .
وأنا ثوري أمقت الاصلاحات .
وأخذ الطبيب يد إيغور بحذر ، ووضعها على ركبته ثم نهض وهو يمسد لحيته ساهم الملامح ، وجس بأصبعه التورمات في وجه المريض .

وكانت الأم تعرف الطبيب جيداً ، فهو من أخلص أصدقاء نيقولا ، ويدعى إيفان دانيلوفيتش . ودنت من إيغور الذي مد لها لسانه ، أما الطبيب فالتفت إليها قائلاً :

ـــ أوه نيلوفنا ... صباح الخير . ماذا تحملين في يدك ؟

ـــ كتباً بلا ريب .

وقال الطبيب الصغير :

ـــ يجب ألا يقرأ أبداً .

واحتج إيغور : ـــ إنه يريد أن يجعل مني إنساناً غبياً .

وندت من صدره زفرات بسيطة أليمة ، رافقتها حشرجة بلغمية خشنة ، وكان وجهه يكتسي بقطرات صغيرة من العرق ؛ ويداه ترتفعان ببطء ثقيلتين عصيتين ، ليمسح بهما جبهته . وكان الجمود الغريب الذي يرين على وجنتيه المتورمتين يشوه وجهه العريض الوسيم ، فلقد توارت ملامحه كلها تحت قناع ميت ، وظلت عيناه الغارقتان في الورم ، تبتسمان بسماح ، وتنبعث منهما إرناءة وضاءة .

وسأل طبيبه :

ـــ هيه يا رجل العلم .. إني تعب فهل أستطيع أن أتمدد ؟

وأجاب الطبيب بإيجاز :

ـــ كلا ...

ـــ حسناً ، سأتمدد عندما تذهب .

ـــ لا تسمحي له بذلك . إرفعي له الوسائد ، وأرجو ألا تتحدثي معه ، فالكلام يؤذيه .

وهزت الأم رأسها بالايجاب ، ومضى الطبيب بخطىً سريعة قصيرة ، وألقى ايغور رأسه إلى الوراء ، وأغمض عينيه ، وظل بلا حراك ، وكانت أنامله وحدها ترتعش برفق .

وكانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء تبعث في الجو نسمات من البرودة الجافة والحزن الكئيب ، وأغصان الزيزفون السامقة الظليلة ، تحدق في الداخل ، من النافذة الواسعة ، وعلى الأوراق القاتمة المغبّرة ،

تلتمع بقع صفراء وضاءة هي البواكير الباردة للخريف الوليد .
وغمغم ايغور دون أن يتحرك أو يفتح عينيه :
ـ إن الموت يقترب مني ببطء وهو اسف . ويبدو أنه يشفق عليّ بعض الاشفاق ، فلقد كنت فتىً اجتماعياً .
وتوسلت إليه الأم وهي تداعب يده بلطف :
ـ يجب ألا تتكلم يا ايغور .
ـ مهلاً ، فعما قليل سأصمت .
تابع ، وهو يلهث ، ويلفظ الكلمات بجهد ، ويخرجها مقاطع مقاطع :
ـ إنه لجميل أن تكوني معنا ، وحسن أن نرى وجهك . لقد ساءلت نفسي حين رأيتك : تُرى ماذا سيكون مصيرها ؟ وانه لمحزن أن أفكر ... بأن السجن وشتى ضروب العنت هي التي تنتظرك ، تنتظرك أنت كما تنتظر الجميع . ألا ترهبين السجن ؟
وأجابت ببساطة :
ـ كلا .
ـ هذا أكيد ، ومع ذلك فالسجن شيء رهيب ، إنه هو الذي هدّ كياني . وإذا أردت الصراحة ، فأنا لا أود أن أموت .
وأحبت أن تقول له : « قد لا تموت » ولكن نظرة خاطفة إلى وجهه ألجأتها إلى الصمت .
ـ لقد كان باستطاعتي أيضاً أن أعمل . ولكن إذا لم يك ذلك مستطاعاً فلِمَ العيش ؟ إن هذا لمنتهى الغباء .
ولمعت في ذاكرتها ، بلا وعي ، عبارات اندريه ؛ فزفرت بألم :
« هذا صحيح ... ولكنه ليس عزاء . »
وكانت قد سلخت نهاراً منهكاً ، وعضها الجوع ، وكانت حشرجة المريض الرتيبة البلغمية ، تملأ الحجرة ، وتنزلق مجهدة على الجدران الملساء ؛ وكانت ذرى أغصان الزيزفون تلوح وراء النافذة ، كغيوم انحدرت نحو الأرض ، وحومت منخفضة ، وراحت تفجأ العين بلونها

الحزين القاتم ؛ وكان كل شيء يسيطر عليه الجمود المظلم بشكل غريب ، بانتظار الليل .

وقال ايغور : ــ لكم أشعر بسوء حالي !

وأغمض عينيه ، وصمت .

ونصحته الأم : ــ نم ، فلعل ذلك يحمل إليك بعض الراحة .

ثم راحت تصغي إلى أنفاسه ، وتتلفت حواليها ، وظلت على هذه الحال ، بضع دقائق دون أن تتحرك ، يتآكلها حزن كالح ، إلى أن استولى عليها النعاس ؛ ولكن جلبة مكبوتة عند الباب أجفلتها ، فتطلعت ، فإذا ايغور ما زال مفتوح العينين .

وقالت له همساً :

ــ لقد استولى علي النعاس فسامحني .

وأجابها برقة : ــ وأنت أيضاً سامحيني .

وعند النافذة كان المساء يهبط ، وقلق بارد يعصر الأعين ، فيبهت كل شيء بشكل غريب ، ويتجهم وجه المريض .

وسُمع حفيف ، ثم تبعه صوت لوميلا :

ــ إنهما يجلسان في الظلام ويتوشوشان ؛ فأين مفتاح النور ؟

وفجأة غمر الحجرة نور أبيض كريه ، وإذا بلوميلا أمامهما فارعة منتصبة ، يجللها السواد .

وسرت الرعشة في كيان ايغور كله ، ورفع يده إلى صدره ، وصاحت لوميلا ، وهي تعدو نحوه :

ــ ماذا أصابه ؟

وكان يرنو إلى الأم بعينين جامدتين تبدوان واسعتين متألقتين ، ورفع رأسه وهو فاغر الفم ، ومد يده إلى الأمام ؛ فأخذتها الأم برقة ، وحدقت به ، وهو يمسك أنفاسه ، وبحركة تشنجية ، ألقى برأسه إلى الوراء ، وقال بصوت مرتفع :

ــ لا أستطيع ...... لقد قضي الأمر ...

وتشنج جسده قليلًا ، وتدلى رأسه برفق على كتفه ، وانعكس

الضئوء البارد ، ضوء المصباح المعلق فوق السرير ، في عينيه المفتوحتين على اتساعهما ، وانبعث منهما بريق ميت .

وغمغمت الأم :

ـــ ايغور ، يا صغيري ..

وابتعدت لوميلا عن السرير ببطء ، ووقفت بالقرب من النافذة ، وقد ضاع بصرها في المجهول ؛ وصرخت بصوت قوي هائل لم تألفه بيلاجي من قبل : ـــ لقد مات .

وانحنت فأسندت مرفقيها إلى النافذة ، ثم هوت راكعة إلى الأرض وقد هدها الإعياء ، كأن ضربة شديدة نزلت على رأسها ، وغمرت وجهها بكفيها ، وراحت تنتحب بصمت .

وشبكت الأم ذراعي ايغور المتثاقلين فوق صدره ، ورفعت إلى الوسادة رأسه الشديد الثقل ، ثم دنت من لوميلا وهي تكفكف دموعها ، وانكبت عليها تمسح شعرها الكثيف بلطف ، فأدارت المرأة الشابة نحو الأم ببطء ، عينيها الخابيتين المتسعتي المآقي ، ثم نهضت وتمتمت بين شفتيها المرتعشتين :

ـــ لقد كنا معاً في المنفى ، وعشنا فيه معاً . وضمتنا معاً نفس السجون وكان ذلك سمجاً ، فوق الاحتمال أحياناً ، وكان الكثيرون يفقدون شجاعتهم ....

وشدت الغصة الجافة حنجرتها ، ولكنها تمالكت نفسها بجهد ، وأدنت من الأم وجهها الوديع الهاديء وقد ارتسمت على ملامحه مسحة حنان وألم ؛ واستأنفت بغمغمة عجلى ، وزفرات لا تواكبها الدموع :

ـــ وكان هو دائم المرح لا يعتور مرحه وناء . وكان يمزح ويضحك فيخفي بذلك آلامه . وكان يجهد نفسه ليرد على الضعفاء شجاعتهم ، وكان كثير الطيبة شديد الحساسية .

وهناك في سيبيريا ، كانت البطالة تفسد الناس ، وتبعث فيهم غالباً الأحاسيس المنحطة ... أما هو فكان يعرف كيف يحارب هذه الأحاسيس . لو عرفته ، لعرفت أي رفيق كان . لقد كانت حياته

الخاصة شقية أليمة ، ولكن أحداً لم يسمعه أبداً يضج بالشكوى . لم يسمعه أحد أبداً . لقد كنت صديقة حميمة له ، وإني لمدينة له بالشيء الكثير . فلقد وهبني من عقله كل ما استطاع أن يهب . وكان وحيداً متعباً ، ولكنه لم يطلب إليّ يوماً مقابل ما أعطى ، لم يطلب إليّ أبداً أن أبادله اهتماماً باهتمام ، وعاطفة بعاطفة .

واقتربت من ايغور ، وانحنت تقبل يده ، وتقول بصوت خافت حزين :

ــ يا رفيق ، يا رفيقي الغالي الحبيب . شكراً لك . شكراً لك من كل قلبي ، ووداعاً .. سأعمل كما عملت أنت ، دونما كلل ، وبإيمان لا يتزعزع ... سأعمل طوال حياتي ... فوداعاً .

وهدتها الزفرات وخنقتها ، فألقت برأسها على السرير عند أقدام ايغور وكانت الأم تسفح دموعها الغزيرة بصمت ، وتحاول أن تكفكفها لسبب لا تدريه ؛ وودت أن تسبغ على لوميلا من حنانها ، وأن تبرهن لها عن عاطفة خاصة عميقة ؛ وأن تحدثها عن ايغور بعبارات تفيض محبة وأسى ؛ وكانت ترنو من خلال عبراتها إلى وجه الميت المتورم ، إلى عينيه اللتين تبدوان كأنهما تغفوان تحت أهدابه المسبلة ، إلى شفتيه القائمتين اللتين تجمدت فوقهما بسمة خفيفة . وكان كل شيء يلفه الصمت ، تحت نور المصباح ، هذا النور الذي يشيع الضجر والسأم .

... ودخل الطبيب بخطواته العجلى كعادته ، ولكنه توقف فجأة في وسط الحجرة ، وبحركة سريعة دس يديه في جيوبه وسأل بصوت نزق صارخ :

ــ أمنذ وقت طويل ؟

ولم يتلق جواباً ، فترنح قليلًا ، ودنا من إيغور وهو يمسح جبهته ، ثم أخذ يده ، فضغط عليها وارتد إلى الوراء .

ــ ليس ذلك بمستغرب .. فلقد كان قلبه تعباً ، وكان هذا المصير منتظراً منذ ستة أشهر على الأقل .

وفجأة خفت صوته الحاد ، المضطرب الرنة ، وراح ، وقد أسند ظهره إلى الجدار ، يمسد لحيته بأصابعه المضطربة ، ويرنو إلى السيدتين الجاثمتين قرب السرير وأجفانه ترتعش باستمرار . وقال بهدوء :

ــ وهذا رفيق آخر نفتقده !

ونهضت لوميلا ، ودنت من النافذة فشرّعتها ، وبعد لحظة كان الثلاثة قد اكتظوا أمامها يحدقون في وجه الليل الخريفي المظلم ، وكانت النجوم تتلألأ فوق ذرى الأشجار السوداء ثم تغيب في اللانهاية ، في المدى البعيد للسماوات .

وأمسكت لوميلا بخصر الأم ، واستندت إلى كتفها دون أن تتفوه بكلمة ، وكان الطبيب يمسح نظارتيه بمنديله وهو مطرق ، وكان ضجيج المدينة الليلي يتنهد ، والنسيم البارد يتنفس في وجهه ، ويداعب شعره . واعترت لوميلا الرعشات ، وانسابت على خدها دمعة ، وفي ردهة المستشفى كانت تهيم أصوات مشوشة وجلة ، ويسمع وقع خطى مسرعة ، ونحيب ووشوشة حزينة . وكان الرفاق الثلاثة جامدين أمام النافذة ، يحدقون في الظلمات صامتين .

وشعرت الأم بأن وجودها غير ضروري فسحبت ذراعها بلطف من يد لوميلا ، وتوجهت نحو الباب ، وانحنت أمام ايغور .

وسألها الطبيب بصوت خافت ، دون أن يلتفت إليها :

ــ أأنت ذاهبة ؟

ــ نعم .

وفكرت وهي في الشارع بلوميلا ، وذكرت دموعها الشحيحة :

ــ إنها لا تعرف ... حتى كيف تبكي .

وأطلقت الكلمات الأخيرة التي لفظها ايغور العنان لزفراتها ، وتخيلت وهي تسير بخطى بطيئة ، عينيه المشتعلتين ، واستعادت في ذاكرتها مزاحه وأحاديثه .

ــ إن حياة الرجل الطيب أليمة ، وموته يسير ... فكيف ستراني أموت ؟

ثم تخيلت لوميلا والطبيب منتصبين بالقرب من النافذة ، في الحجرة البيضاء التي يغمرها الضياء ، وعينا ايغور الخامدتان وراءهما ، فاجتاحها إشفاق مرهق ، أطلق من صدرها زفرة عميقة ، ثم انطلقت مسرعة ، يدفعها إحساس قاتم لا تعرف كنهه .

وتمتمت وهي تستكين لقوة داخلية يمتزج فيها الأسى باليأس :

ــ يجب أن أعد نفسي .

11

وقضت الأم يومها التالي منهمكة بإعداد الترتيبات اللازمة لتشييع ايغور ، وفي المساء ، بينما كانت تتناول الشاي مع نيقولا وصوفيا ، أقبلت ساندرين نشيطة صخابة بشكل مثير للدهشة ، وكانت ملتهبة الوجنتين يبرق النشاط في عينيها ؛ وبدت للأم كأن هناك رجاءً فرحاً يفعمها ، ولم يلبث مزاجها اللطيف أن شن هجوماً ضارياً ضاجاً على جو الأسى الذي تملأه ذكرى الراحل ؛ فأربكته ساندرين ، ولم تنغمس فيه ؛ وطرفته كالشعلة حين تتلألأ فجأة في قلب الظلمات .

وقال نيقولا وهو ينقر على الطاولة ساهماً :

ــ لست اليوم كعادتك يا ساندرين .

وأجابت : صحيح ؟ ربما .

ثم أطلقت ضحكة فرحة .

ونظرت إليها الأم نظرة توبيخ صامت ، ونبهتها صوفيا بنبرة ذات مغزى : ــ كنا نتحدث عن ايغور ...

واندفعت ساندرين :

ــ يا له من رجل مدهش ... أليس كذلك ؟ أنا لم أره مطلقاً إلا والبسمة على شفتيه أو المزحة . ويالله كم كان يعمل . لقد كان فنان الثورة ، يعي النظرية الثورية كمعلم عظيم . وبأية بساطة وقوة كان يرسم لوحة الكذب والكبت والجور .

وكانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينيها بسمة حالمة لم تطفيء في نظرتها لهب البهجة .. هذه البهجة التي كان الجميع يقرأونها ، دون أن يفهمها أحد منهم .

وكان الحزن يسيطر عليهم ، فلم يستسلموا للبهجة التي حملتها ساندرين ، وكانوا بصورة لا واعية ، يدافعون عن حقهم المرير في التغذي من ألمهم ، ويحاولون لا شعورياً أن يجبروا الفتاة لتشاركهم مزاجهم الحزين .

وقالت صوفيا وهي تتطلع إلى ساندرين بيقظة :

ــ وها هو ذا قد مات .

فأجالت ساندرين في وجوه الرفاق نظرة متسائلة ، وقطبت حاجبيها وطأطأت رأسها بصمت ، ثم ردت شعرها المتهدل إلى الوراء بحركة بطيئة ، ورددت بصوت مرتفع ، بعد لحظة صمت :

ــ لقد مات .

ومن جديد راح بصرها المستغفر يطوف بالحاضرين :

ــ وماذا يعني ذلك ؟ لقد مات . وما الذي مات ؟ هل مات تقديري لايغور ؟ هل مات شعوري نحوه ؟ نحو الرفيق ؟ هل ماتت ذكرى صنيع أفكاره ؟ هل مات هذا الصنيع نفسه ؟ هل انطفأت تلك المشاعر التي أيقظها فيّ ؟ هل امّحت تلك الصورة التي رسمتها له في ذهني ؟ صورة الانسان الباسل الشريف ؟ هل مات هذا كله ؟.. كلا إن ذلك ، في نظري ، لا يموت أبداً . أعرف ذلك ، ويبدو لي اننا نتسرع كثيراً حين نقول عن إنسان ما ، أنه مات . لقد ماتت شفتاه ، ولكن كلماته ما برحت حية ، وستظل إلى الأبد ، حية في قلوب الأحياء .

وعادت فجلست ، وقد سيطر عليها الانفعال الشديد ، وأسندت مرفقها إلى الطاولة ، ثم تابعت مبتسمة ، وهي أكثر هدوءاً وسهوماً ، تابعت ، وهي تلقي على رفاقها نظرة غائمة :

ــ ربما كان ما قلته مجرد حماقات ؛ ولكنني أؤمن أيها الرفاق بخلود

الشرفاء ، بخلود أولئك الذين وهبوني السعادة في أن أحيا حياتي الرائعة ، هذه الحياة التي تمنحني الفرح ، وتسكرني بتعقدها المدهش ، وتنوع ظواهرها ، وتقدم الأفكار الغالية على قلبي . ربما كنا جميعاً شديدي الحرص على مشاعرنا ، نخفيها ونعيش بالفكر ونسرف ، وهذا ما أفسدنا بعض الشيء ، إذ أننا نفكر بدلًا من أن نحس .

وسألتها صوفيا باسمة :

ـــ هل وقع لك حادث سعيد ؟

وضحكت ساندرين ، وأجابت بهزة من رأسها :

ـــ نعم ... حادث سعيد جداً ؛ كما أعتقد . لقد تحدثت طوال الليل مع فيسوشيكوف وكنت من قبل ، لا أحبه ، إذ كنت أحسبه بدائياً فظاً ، ولقد كان كذلك بالفعل . لقد كان يحقد على الدنيا حقداً قاتماً ، لا يتزعزع ، ويضع نفسه دائماً في نقطة المركز من كل قضية ، وبطريقة مؤلمة مثيرة للسخط . وكان يتبجح : أنا ، أنا ، أنا ...

وما هذا إلا إحساس برجوازي حقير مثير للكراهية .

وابتسمت ثم أجالت فيما حولها نظرة مشعة :

ـــ أما الآن فهو يتحدث عن « رفاقه » .. وحبذا لو تسمعونه كيف يلفظ هذه الكلمة بانفعال ورقة ودود ، لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات . لقد أضحى بسيطاً كل البساطة ، مخلصاً ، تفعمه الرغبة في أن يتقن عمله . لقد وجد نفسه ، وتبين قوته وعرف ماذا ينقصه . ويكفي أن يكون شعور الزمالة ، على الأخص ، قد ولد فيه .

وكانت بيلاجي تصغي إلى ساندرين ، ويسعدها أن ترى الفتاة القاسية رقيقة فرحة ، ولكن فكرة غيوراً كانت في الوقت نفسه تولد في أعماق نفسها :

ـــ وبول ؟ أين هو من كل هذا ؟

واستأنفت ساندرين كلامها :

ــ إن همه الوحيد الآن ينحصر في رفاقه . أفتدرون بماذا أقنعني ؟ لقد أقنعني بأن أنظم حركة فرارهم ... نعم ... وقال أن ذلك بسيط جداً وسهل .

ورفعت صوفيا رأسها ، وقالت بلهجة قوية :

ــ وأنت ماذا تقولين في ذلك يا ساندرين ؟ إنه أمر يستلزم التفكير .

وراح قدح القهوة يرتعش في يد الأم ، واكّمد وجه ساندرين وحاولت أن تخفي انفعالها ، وبعد أن صمتت لحظة ، تابعت بلهجة مغيظة وهي مرتبكة ، إلا أن بسمة الاغتباط كانت رغم ذلك ، تلوح على شفتيها :

ــ أجل .. كل شيء هو كما قال في الواقع . ويجب أن نحاول . هذا هو واجبنا .

وتضرج وجهها ثم سكتت .

وغمغمت الأم باسمة : ــ يا عزيزتي ، يا عزيزتي .

وابتسمت صوفيا بدورها ، وأطلق نيقولا ضحكة خفيفة ، وراح يتأمل الفتاة برقة ، أما هي فقد رفعت رأسها ، ورنت إليهم بقسوة ، وقالت بصوت غاضب ، وهي شاحبة اللون متألقة العينين :

ــ إنكم تضحكون ، وأنا أفهمكم .. انكم تعتقدون أن هناك دافعاً شخصياً يدفعني !

ونهضت صوفيا ، ودنت منها ، وسألتها بخبث :

ــ ولِمَ يا ساندرين ؟

ورأت الأم في السؤال تحدياً لساندرين وإهانة لها ، فزفرت ، وتطلعت إلى صوفيا ، وفي ملامحها تقريع .

وصاحت ساندرين :

ــ إني أرفض ، أرفض النقاش في هذا الموضوع إذا شئتم بحثه .

وقال نيقولا بهدوء :

ــ كفى يا ساندرين .

ودنت الأم منها وراحت تداعب شعرها برقة ، فأمسكت ساندرين

يدها ، ورنت إليها بارتباك ، وهي ترفع نحوها وجهها المتضرج . وابتسمت بيلاجي لها ، ثم تنهدت بأسى بعد ما أعياها أن تجد ما تقوله ؛ وجلست صوفيا إلى جانب ساندرين وطوقت عنقها بذراعها ، وقالت لها وهي تحدق بها ، وتبتسم بفضول :

ــ لكم أنت غريبة .

ــ أجل ... فأنا أعتقد إني تفوهت بحماقات كثيرة ..

وتابعت صوفيا :

ــ كيف استطعت أن تفكري ...

ولكن نيقولا قاطعها قائلاً بلهجة فيها وقار واهتمام :

ــ إذا كان الفرار ممكناً فيجب أن ننظمه ، ولا مجال للتردد . ولكن علينا قبل كل شيء أن نعرف ما إذا كان الرفاق السجناء يوافقون على ذلك .

وأطرقت ساندرين ، وتطلعت صوفيا التي كانت تشعل لفافتها ، إلى أخيها ثم قذفت بعود الثقاب إلى زاوية من زوايا الحجرة .

وزفرت الأم :

ــ ولِمَ لا يوافقون ؟ أما أنا فلا أعتقد أن الفرار ممكن .

وصمتوا جميعاً ، وكانت بيلاجي ترجو أن تسمع صوتاً واحداً يؤكد لها إمكانية الفرار .

وقالت صوفيا : يجب أن أقابل فيسوشيكوف .

وردت ساندرين : سأخبرك غداً متى وأين تستطيعين مقابلته .

وسألت صوفيا وهي تذرع أرض الغرفة :

ــ ماذا يود أن يفعل ؟

ــ لقد تقرر الاحتفاظ به كعامل لصف الأحرف في المطبعة الجديدة ؛ وسيقيم بانتظار ذلك ، في منزل أحد حراس الغابات .

وتجهم وجه ساندرين ، واستعادت ملامح هذا الوجه قسوتها ، واسترد صوتها جفافه ، واقترب نيقولا من الأم التي كانت تغسل الأقداح وقال لها :

ــ ستذهبين إلى السجن بعد غد ، فمن الضروري أن توصلي لبول قصاصة من الورق .. أفهمت ؟ يجب معرفة ....

وأجابت الأم بحماسة :

ــ لقد فهمت ... لقد فهمت ... وسأوصلها إليه .

وأعلنت ساندرين : ــ إني منصرفة الآن .

وخرجت منتصبة القامة ، مقطبة ، وسارت بخطى ثابتة بعد ما صافحتهم جميعاً واحداً بعد واحد .

ووضعت صوفيا يدها على كتف الأم وسألتها باسمة :

ــ هل تحبين أن يكون لك فتاة مثلها ؟

فهتفت الأم وهي تكاد تبكي :

ــ يا إلهي ... ليتني أستطيع أن أراهما معاً .. ولو ليوم واحد .

وعلق نيقولا :

ــ نعم ... إن القليل القليل من السعادة كافٍ لكل إنسان ، ولكن ليس هناك من يتمنى هذا القليل . وإذا كانت السعادة كبيرة ، فإنها تصبح رخيصة ..

وجلست صوفيا إلى البيانو ، وراحت تعزف لحناً كئيباً .

12

وفي صباح اليوم التالي كان بضع عشرات من الرجال والنساء يقفون عند باب المستشفى ينتظرون أن يُخرج جثمان رفيقهم ، وكان عددٌ من رجال الأمن يدورون حولهم بحذر وقد ارتدوا الثياب المدنية ، ونشروا آذانهم لتلقف كل نأمة ، وأطلقوا عيونهم تتفحص الوجوه وتحصي الحركات ، في حين كانت ترابط ، في الناحية الثانية من الشارع ، ثلة من رجال الشرطة ، مسلحة بالمسدسات .

وكانت وقاحة الجواسيس والبسمات الساخرة على شفاه رجال البوليس المستعدين لعرض قوتهم ، كان ذلك كله يثير حنق الجمهور ، فيلجأ بعضهم إلى المزاح ، يخفون به غضبهم ، ويُطرق البعض الآخر ،

مقطبين ، كيلا تقع أعينهم على ذلك المشهد المهين ؛ ويطلق آخرون غيرهم العنان لثورتهم ، فيهزأون بالسلطات التي تخشى قوماً لا سلاح لهم إلا الكلام . وكانت سماء خريفية زرقاء شاحبة تسكب ضوءها على الشارع الذي تبلطه أحجارٌ داكنة مستديرة ، تتناثر فوقها أوراق ميتة ، كان الهواء يتلاعب بها ، ويطرحها تحت الأقدام .

وكانت الأم في وسط الحشد تفكر بأسى وهي تطالع الوجوه التي ألفتها :

« إنكم قلة ، ويكاد ألا يكون بينكم عمال . »

وشرّعت الأبواب ؛ وظهر في الشارع غطاء النعش تزينه الأكاليل ذات الشرائط الحمر ، وبحركة واحدة ، نزع الرجال جميعاً قبعاتهم فبدت فوق رؤوسهم كسرب من الطيور السوداء ، واخترق الجميع ، بقوة ، ضابط شرطي ، مديد القامة ، كثيف الشاربين متورد الوجه ، ومشى رجاله وراءه يدفعون الناس بفظاظة ؛ ويركلون أرض الشارع بأحذيتهم الثقيلة .

وقال الضابط بصوت فظ ولهجة آمرة :

ــ أرجوكم أن تنزعوا الشرائط .

وأحاطوا به رجالاً ونساءً ، في حلقة متراصة ، وراحوا يخاطبونه كلهم في وقت واحد ، غاضبين ملوحين بأيديهم ، يريدون أن يمروا واحداً بعد آخر . وتراقصت أمام عيني الأم الغائمتين وجوهٌ شاحبة مُستفزة ، مرتعشة الشفاه ، وكرجت على وجنتي إمرأة دموع المذلة .

وتعالى صوتٌ فتيٌ ، ضاع وحيداً في ضجيج الجدل .

ليسقط العنف .

وشعرت الأم أيضاً بالمرارة في قلبها ، فخاطبت جارها بحنق ، وكان شاباً رث الثياب :

ــ هذا فظيع . إنهم لا يسمحون حتى بدفن رجل ... كما يريد رفاقه !

وتنامى الحقد ، وتهادى غطاء النعش فوق الرؤوس ، وكان الهواء

يداعب الشرائط ويغلف الوجوه ، وكان حفيف الحرير يُسمع جافاً متوتراً .

وخشيت الأم أن ينشب العراك ، فقالت بصوت سريع خافت لمن كان حولها :

ـــ إذا كان الأمر كذلك ، فليس لهم إلا أن يطيعوا ، وأن ينزعوا الشرائط ؛ فماذا ترون ؟

وهدر صوت جهوري قاس ، فطغى على الجلبة :

ـــ إننا نطلب أن نُترك بسلام لنشيع إلى المثوى الأخير رفيقاً سمتموه العذاب ...

وصاح أحدهم بصوت نحيف حاد : ـــ « سندخل المعترك » .

ـــ أرجوكم أن تنزعوا الشرائط . اقطعها يا جاكوفليف .

وسُمع صليل حسام يُسلّ من غمده ، وأغمضت الأم عينيها تتوقع صرخة ، ولكن الضجيج هدأ وتعالت دمدمة الناس ، وكشروا عن أسنانهم كالذئاب الجائعة ، ثم ساروا بصمت ، مطرقي الرؤوس ، يملأون الشارع بصدى خطاهم .

وكان غطاء النعش المعرّى ، يتموج في الطليعة مع حطام الأكليل ، وكان رجال البوليس يسيرون وراءه وهم يترنحون على وقع سنابك خيولهم ، وكانت الأم تمشي على الرصيف ، ولا تستطيع رؤية النعش لكثرة المزدحمين حوله ، وكان الحشد يتعاظم ، ويتعاظم رويداً رويداً فيملأ عرض الشارع كله .

ووراء الحشد كانت تنتصب الأشباح الرمادية ، أشباح فرسان البوليس ، ويكتنف الجمهور من كل جانب ، المشاة منهم ، ويسيرون وأيديهم على قبضات سيوفهم ، وفي كل مكان تتراقص عيون نفاذة لجواسيس تعرفهم الأم ، عيون تتفحص ملامح الناس بدقة وحذر .

وارتفع صوتان عذبان ينشدان بأسىً :

ـــ وداعاً ، رفيقنا ، وداعاً .

وصاح واحد من بين الجميع :

ــ يجب ألا ننشد ، ولنصمت يا سادة .

وتميزت هذه الصرخة بشيء فيه قسوة واتزان ، فانقطع الانشاد الكئيب ، وخفتت ضجة الأصوات ، وظل وقع الخطى الحازم وحده يملأ الشارع بضجيج أخرس رتيب ، ثم يرتفع فوق الرؤوس ، ويحلق في السماء الشفافة ، فيزلزل الفضاء كرجع الزمجرة الأولى لعاصفة ما تزال بعيدة . وكانت الريح الباردة الحاقدة تزداد عنفاً : تقذف وجوه الناس بالغبار والقذي ، وتعصف بثيابهم وشعورهم ، وتطرف أعينهم ، وتدق صدورهم ، وتزوبع بين أرجلهم .

وكان هذا المأتم الصامت الذي لا كهنة فيه ولا تراتيل مؤثرة ، وهذه الوجوه المنقبضة الباسرة ، تثير في الأم إحساساً حزينا ، فيدور تفكيرها ببطء ، ويسدل على انطباعاتها قناعًا من الأفكار الكئيبة .

ــ إنكم لقلة ... أنتم الذين تناضلون من أجل الحقيقة .

وكانت تتقدم مطأطأة الرأس ، ويخيل إليها أنه ليس هو ايغور الذي يُحتفل بدفنه ، وإنما شيء آخر يختلف عنه ، شيء كانت قد ألفته وكان قريباً منها ، ضرورياً بالنسبة إليها ، وكانت من أجل ذلك حزينة ، تعبى ، يفعم قلبها شعور عنيف ، يقض مضجعها : فهي ليست منسجمة في التفكير مع هؤلاء الذين يشيعون إيغور ، لقد كانت تفكر :

ــ لا شك أن إيغور لم يكن يؤمن بالله ، وأن هؤلاء جميعا لا يؤمنون به كذلك .

ولكنها كانت لا تود الاسترسال في التفكير بهذا الموضوع ، فتتأوه ، لتطرح ذلك الحمل الذي يبهظ روحها :

ــ يا إلهي ... يا يسوع ... أيمكن أن أكون أنا أيضاً كذلك ......

وبلغوا المقبرة ، وداروا دوراتٍ طويلة في معابر ضيقة بين القبور حتى انتهوا إلى مكانٍ خاوٍ غرست فيه بعمق صلبان بيضاء ؛ فتجمعوا حول حفرةٍ هناك ، ثم ساد الصمت . وكان هذا الصمت العبوس الذي ران

على الأحياء بين القبور ، ينبيء بشيء رهيب ارتعش له قلب الأم وجمد يترقبه . وكانت الريح تنفخ بين الصلبان وتعوي ، والأزهار المتناثرة ترتعش ، اسيانةً ، فوق النعش .

وكان رجال البوليس على استعداد تام ، يسمّرون أبصارهم على قائدهم . وانتصب فوق القبر شابٌ فارع ، شاحب الوجه حاسر الرأس ، طويل الشعر ، أسود الحاجبين .

وفي اللحظة نفسها ، ارتفع صوت خشن ، صوت ضابط البوليس :

ــ أيها السادة .

وصاح الشاب بصوت جهور :

ــ أيها الرفاق .

وصرخ الضابط : ــ انتبهوا ، إني لا أستطيع السماح بالقاء الخطب .

وقال الشاب بهدوء :

ــ لن أقول إلا بضع كلمات فقط . أيها الرفاق : لنقسم على ضريح معلمنا ورفيقنا ألا ننسى تعاليمه أبداً ، لنقسم على أن كلًا منا سيعمل طوال حياته ، دونما كلل ، للقضاء على ينبوع آلام وطننا كلها ، وعلى أن نحفر قبر القوة الشريرة التي تضطهد هذا الوطن ، قبر الأوتوقراطية .

وصاح الضابط :

ــ اقبضوا عليه . .

ولكن صوته ضاع في دوي الصيحات العاتية التي ارتفعت :

ــ لتسقط الأوتوقراطية .

واندفع رجال البوليس نحو الخطيب وهم يشقون طريقهم إليه بين الجمع ، ولكنها ، وقد أحاط به الناس من كل جانب ، كان يصيح وهو يلوح بيده :

ــ عاشت الحرية .

وألقى بالأم جانباً ، فاستندت في غمرة رعبها إلى أحد الصلبان ، ثم أطبقت عينيها كأنها تتوقع ضربة ما ، وأصمت أذنيها عاصفة صاخبة من الأصوات المتنافرة ، ومادت الأرض تحت قدميها ومنعها الخوف والريح من أن تتنفس ، وكانت صفارات البوليس تمزق الفضاء ، وصوت فظ آمر يلعلع ، ونساء يطلقن صرخاتهن الهستيرية ، وكان خشب الأسوار يطقطق ، وخطو الناس الثقيل على الأرض الصلبة ، يرسل صداه الأخرس . واستمر ذلك وقتاً طويلاً ولم تستطع الأم أن تظل مطبقة العينين ، وكان رعبها قد ربا ، حتى أصبح لا يحتمل .

وفتحت عينيها ، وأطلقت صرخة ، ثم اندفعت إلى الأمام وهي باسطة ذراعيها ، وبالقرب منها ، وفي أحد المسالك الضيقة بين القبور ، كان رجال البوليس ، قد أحاطوا بالشاب ذي الشعر الطويل ، وراحوا يردون عنهم الجمهور الذي كان يهاجمهم من كل صوب ؛ وكانت السيوف المشرعة تبرق في الفضاء بألق ناصع بارد ، وترتفع فوق الرؤوس ثم تتهاوى بسرعة . وكانت العصي وشظايا الأسوار تتطاير . إنها عاصفة ، إنها رقصة من الأصوات مجنونة ؛ وفوق الحشد الثائر كان وجه الشاب الشاحب ينتصب ، وصوته القوي يهدر فوق العاصفة ، عاصفة الأحقاد المتفلتة من أغلالها .

ــ أيها الرفاق . يجب ألا نبدد قوانا .

وأطاعوه ، فأخذوا يلقون عصيهم واحداً بعد آخر ، ويبتعدون بسرعة عن ساحة المعركة وكانت الأم تشق طريقها أبداً إلى الأمام مدفوعة بقوة غير منظورة ، وكانت ترى نيقولا يدفع المتظاهرين الذين أعملهم الحقد ، وقبعته معلقة في عنقه ، وتسمع صوته مشحوناً بالتأنيب :

ــ يا لكم من مجانين . الهدوء . الهدوء .

وبدا لها أن إحدى يديه كانت مضرجة بالدم ، فصاحت وهي تندفع نحوه :

ــ نيقولا ... انصرف من هنا .

ــ إلى أين تذهبين ؟ إنك تتعرضين للضرب .

وأمسكت بكتفها يد ، وإذا هي صوفيا . وكانت حاسرة الرأس منفوشة الشعر ، تسند فتىً يكاد يكون طفلاً ، وكان الفتى يمسح بيده وجهه المتورم المدمى ، وشفتاه المرتعشتان تغمغمان :

ــ دعوني .. فالجرح بسيط ليس بذي بال .

وقالت صوفيا بسرعة وهي تضع يد الفتى في يد الأم :

ــ اهتمي بأمره ، وخذيه إلى منزلنا . وهذا منديل فاعصبي به وجهه .

ثم ولت الأدبار وهي تقول :

ــ إذهبا بأسرع ما يمكن ... إنهم يعتقلون ...

وكان الناس يتفرقون في كل اتجاه ، ورجال البوليس يسيرون بتثاقل بين القبور ، ويتعثرون بأذيال معاطفهم ، ويشتمون ويلوحون بسيوفهم ، وكان الفتى الصغير يتتبعهم بنظرة ذئبية .

وصاحت به الأم بفتور وهي تمسح وجهه :

ــ هيا بنا بسرعة !

فغمغم وهو يبصق دماً :

ــ لا تقلقي . فليس بي من أذى . لقد ضربني بقبضة سيفه ، ولكنني سددت له بدوري ضربة من هذه العصا ... فراح يعوي .

ثم طوى قبضته المضرجة وقال بصوت متقطع :

ــ إنتظري . لم ينته الأمر بعد . وسنسحقهم دونما ضجيج ، عندما نثور ، نحن العمال .

واستعجلته الأم : ــ هيا بنا .

ثم اتجهت مسرعة نحو باب صغير في سور المقبرة ، وكان يخيل إليها أن رجال البوليس قد كمنوا وراء السور ، في أحد الحقول ، ينتظرونهما ، وأنهم ، سيقبضون عليهما عند خروجهما فيقتلونهما ؛ ولكنها فتحت الباب الصغير بحذر ، وألقت نظرة خاطفة على الحقول التي ارتدت حلةً رمادية من غبش الخريف ، فهدّأ من روعها ، فجأة ، ما كان يخيم على هذه الحقول من وحدة وصمت .

وقال للفتى : ــ مهلاً ... دعني أعصب جرحك .

ــ لا حاجة لذلك فهو لا يخجلني . لقد أصبت بجرح وأصيب هو بمثله فتساوينا .

وضمدت الأم الجرح على عجل ، فملأها منظر الدم شفقة ، وعندما أحست أناملها رطوبته الفاترة اعترتها رعشة رعب ، فقادت الجريح بسرعة عبر الحقول وهي تجره من ذراعه ، صامتة ؛ ولكن الفتى أزاح الضمادة عن فمه ، وقال ، وفي صوته ضحكة صغيرة :

ــ إلى أين تقودينني يا رفيقة ! إني أستطيع السير وحدي .

ولكنها كانت تحس أنه يترنح ، وأن خطوته لم تكن ثابتة ، وأن ذراعه يرتعش ، وكان يتكلم بصوت متهافت ، ويسألها دون أن ينتظر جواباً :

ــ إني أدعى جان ، ومهنتي سمكري .. وأنت ؟.... لقد كنا في حلقة إيغور ثلاثة ، ثلاثة سمكريين . وكان مجموع الحلقة أحد عشر عضواً . وكنا نحبه كثيراً ، رحمة الله عليه ... وإن كنت لا أومن بالله .

وعندما بلغوا أحد الشوارع استأجرت الأم عربة ، فأجلست جان فيها ووشوشته :

ــ الآن ... عليك أن تلزم الصمت .

ثم عصبت بالمنديل فمه ثانية ، فرفع يده ليزيحه ، وعندما أعياه أن يحرر شفتيه ، هوت يده بإعياء ، واستقرت فوق ركبتيه ، رغم ذلك فقد ظل يغمغم من خلال العصابة :

ــ هذه الضربات سأقيدها لكم على الحساب ، يا أعزائي الطيبين ... وقبل إيغور كان ثمة تيتوفيتش ... وهو طالب كان يعلمنا الاقتصاد السياسي ... ثم أوقفوه .

وأحاطت الأم جان بذراعها ، وأسندت رأسه إلى صدرها ، وإذا به يثقل فجأة ويصمت . وراحت وقد جمدها الرعب ، تطلق نظراتها الوجلى في كل ناحية ، ويخيل إليها أن رجال البوليس سيتواثبون من كل زاوية من زوايا الشارع عندما يرون رأس جان المعصوب ؛ يتواثبون ليقبضوا عليه ويقتلوه ..

وتلفت الحوذي من على مقعده وسأل بابتسامة لطيفة :
ــ لعله شرب ؟
فزفرت الأم :
ــ أجل .. ولقد أسرف كثيراً ، وهذا ما ينهكه .
ــ هل هو ابنك ؟
ــ نعم ... وهو إسكافي ... أما أنا فطاهية .
ــ مهمة شاقة ... نعم ...
وألهب ظهر جواده بلسعة من سوطه ثم تلفت ثانية وتابع بصوت أشد خفوتاً :
ــ يظهر أنه كان هناك بعض الضوضاء في المقبرة ، لأنهم كانوا يدفنون واحداً من أولئك الذين يشتغلون بالسياسة ، والذين هم ضد السلطات . أما الذين كانوا يقومون بدفنه فهم رفاق بلا ريب ، وكانوا يهتفون : لتسقط السلطات فهي التي تجلب الخراب للشعب . وهاجمهم رجال البوليس بالسيوف ، وأسكتوهم ويقال أن هناك قتلى ؛ وأنه قد وقع بين رجال البوليس أيضاً بعض الاصابات .
وصمت ، وهز رأسه بأسىً ثم استطرد يقول بصوت غريب :
ــ يضايقون الموتى ، ويوقظون الراحلين ...
وكانت العربة تقفز بضجيج فوق بلاط الشارع ، ورأس جان يتمايل على صدر الأم والحوذي يستدير نحوها نصف استدارة ويغمغم مطرقاً :
ــ الشعب في هياج ، والفوضى تنبع من الأرض . نعم ... ففي هذه الليلة اقتحم الدرك بيت الجيران ، ولا أدري ماذا « فبركوا» طوال الليل ... ثم أنهم قبضوا على حداد وساقوه معهم ، ويشاع أنهم سيقتادونه ، في إحدى الليالي ، إلى ضفاف النهر ويغرقونه سراً ، رغم أن هذا الحداد كان نموذجاً للرجل الطيب .
وسألته الأم : ــ وماذا يدعى ؟
ــ من ؟ الحداد ؟ إنه يدعى « سافيل » وأنه ما زال صغير السن ، ولكنه يدرك أموراً كثيرة ... أما ما كان يدركه فهو محرّم على

ما يبدو . لقد كان يأتينا دائماً فيسأل : أية حياة تحيونها أنتم الحوذيين ؟ فنقول له إن حياتنا ، في الواقع ، أسوأ من حياة الكلاب .

وقالت الأم فجأة :

ــ قف هنا .

وأيقظ التوقف المفاجيء جان ، فراح يئن بإعياء .

وعلق الحوذي :

ــ لقد صُدم الفتى ... مسكين ... شارب الفودكا .

وكان جان يجتاز الساحة مترنحاً لا يكاد يستوي على رجليه ، ويقول :

ــ إنه أمر غير ذي بال ... إني أستطيع أن أمشي ...

13

وكانت صوفيا قد عادت منهمكة منفعلة ، فاستقبلت الأم ، وسيجارتها في فمها ثم مددت الجريح على أريكة ، وراحت وهي توزع أوامرها ، تفك بمهارة الضمادة التي تعصب رأسه ، وكان دخان سيجارتها المتصاعد يحملها على إغماض إحدى عينيها .

ــ لقد وصلا يا دكتور . أأنتِ متعبة يا نيلوفنا ؟ لقد استولى عليك الخوف أليس كذلك ؟ حسناً ... استريحي . إعطها كأساً من الشراب يا نيقولا .

وكانت الأم وقد أذهلتها التجارب التي مرت بها ، تتنفس بصعوبة ، وتحس بألم في جنبها ؛ وتغمغم : ــ لا تزعجوا أنفسكم من أجلي .

ولكن كيانها كله ، كيانها المتوتر كان يستدعي الاهتمام والعطف المواسي .

وخرج نيقولا من الغرفة المجاورة معصوب اليد ، وتبعه الطبيب الذي كان شعره منفوشاً كشعر القنفذ ، واقترب هذا من جان بسرعة ، وانحنى فوقه :

ــ آتوني بماء ، بكثير من الماء ، وبعض الخرق النظيفة والقطن ،

وتوجهت الأم نحو المطبخ ، ولكن نيقولا أمسكها من ذراعها ، وقال لها بود وهو يجرها إلى غرفة الطعام :
ــ إنه لا يطلب ذلك منك بل من صوفيا . لقد تحملتِ كثيراً من الانفعالات أيتها الصديقة العزيزة .. أليس كذلك ؟
والتقت نظراتها بنظراته اليقظة الحادية ، ولم تستطع أن تكبت زفرتها فاندفعت :
ــ لقد كان ذلك رهيباً يا نيقولا . لقد كانوا يحصدون الناس بسيوفهم ..
وقال نيقولا وهو يهز رأسه ، ويصب لها كأساً من النبيذ :
ــ لقد رأيت ذلك . كلاهما خرج عن طوره بعض الشيء ؛ ولكن هدئي من روعك ، فلقد كانوا يضربون بعرض سيوفهم ، ولم يصب بجراح خطيرة إلا شخص واحد ، رأيته يتلقى الضربات فسارعت إلى سحبه من ساحة العراك .
وكانت ملامح نيقولا وصوته ، والدفء الذي يشيع في الغرفة ، والنور الذي يغمرها ، كان ذلك كله يهدىء من أعصاب بيلاجي ، فرمقته بنظرة شاكرة وسألته :
ــ وأنت ، هل أصبت أيضاً بضرباتهم ؟
ــ لقد حملت الجريح وحدي ، وجُرحت يدي على غير انتباه ، وانكشط جلدها . خذي اشربي هذا القدح من الشاي ، فالجو بارد ، وثيابك خفيفة .
ومدت يدها إلى القدح فأبصرت الدم المتجمد يصبغ أناملها ؛ وبحركة لا إرادية تهاوت يدها إلى ركبتيها ، وكان ثوبها مبللا . وكانت تنظر إلى أصابعها ، وعيناها جاحظتان ، وحاجبها مرتفع ، وكان رأسها يدور ، وخاطرة تطرق رأسها :
ــ قد يعاملون بول هكذا ... وإنهم لقادرون .
ودخل الطبيب وقد خلع سترته وشمر عن ساعديه ؛ وأجاب بصوته النحيل على سؤال نيقولا الصامت :

ــ إن جرح الوجه سطحيّ ، إلا أن هناك كسراً في الجمجمة ، وهو ليس بخطر لأن بنية الفتى قوية ، ومع ذلك فقد نزف منه كثير من الدم ، وسنقوم بإرساله إلى المستشفى .

ورد نيقولا : ــ لماذا ؟ ليبقَ هنا .

ــ هذا ممكن اليوم وغداً أيضاً ... أما بعد غد فلا ... إذ لا يبقى لدي متسع من الوقت زيارته . هل ستضع بياناً عن حادث المقبرة ؟

ــ طبعاً .

ونهضت الأم بسكون ، واتجهت نحو المطبخ ، فسألها نيقولا بكآبة وهو يستوقفها :

ــ إلى أين يا نيلوفنا ؟ ستقوم صوفيا بالعمل وحدها .

ورنت إليه ، وأجابته مرتعشة وعلى شفتيها ابتسامة غريبة :

ــ إني ملطخة بالدم .

وأبدلت ملابسها في غرفتها وراحت تفكر مرة أخرى بهدوء ، تفكر بهؤلاء القوم ، وبموهبتهم في التغلب السريع على الهول في أي موقف . وأعادها هذا التفكير إلى نفسها ، فطردت الرجل من قلبها ، وعندما رجعت إلى الحجرة حيث كان الجريح وجدت صوفيا تقول له ، وهي تنحني فوقه :

ــ إنك تتفوه بالحماقات يا رفيق .

فأجابها بصوت ناحل ضعيف :

ــ ولكنني سأسبب لكم الازعاج .

ــ اسكت إذن .. فذلك أفضل .

ووقفت الأم وراء صوفيا ، ووضعت يدها على كتفها ، وحدقت باسمة في وجه المريض الشاحب ، وراحت تقص الأشياء التي هذى بها وهو في العربة ، وتصف الرعب الذي استحوذ عليها من جراء كلامه المتهور ، وكان يصغي وعيناه تلمعان من الحمى ، وأسنانه تصطك ولسانه يردد بارتباك :

ــ أوه ... لكم أنا غبي .

وقالت صوفيا بعد أن سوّت غطاءه :

ــ حسناً ، سنتركك الآن ، فاسترح .

وانتقلت السيدتان إلى غرفة الطعام حيث تحدثنا طويلًا ، مع نيقولا والطبيب عن أحداث النهار . لقد كانوا يبحثون المأساة كأنها شيء من الماضي السحيق ، وينظرون إلى المستقبل بصفاء ، ويتناقشون في عمل الغد ؛ وإذا كانت ملامحهم تنم عن الانهاك فإن أفكارهم كانت تملأها العافية ؛ وعندما كان أحدهم يتحدث عما يشغله كان يعلن عدم رضاه عن نفسه . وكان الطبيب يتململ في مقعده بعصبية ، ويقول مجتهداً في أن يسبغ على صوته النحيف الحاد وقاراً أكثر :

ــ الدعاوة ، الدعاوة ... إنها ليست كافية الآن . إن الشبيبة الكادحة محقة ، ويجب أن تتحرك وفق مخطط أوسع .. العمال محقون ... هذا ما أقوله لكم ..

وأجاب نيقولا بلهجة قاتمة :

ــ إن الشكوى تتعالى لعدم توفر الكتب ، ومع ذلك فلا تتوفر لنا دائماً مطبعة جيدة . إن لوميلا مُنهكة ، وستقع فريسة المرض إذا لم نوفر لها مساعدين .

وسألت صوفيا :

ــ وفيسوشيكوف ؟

ــ إنه لا يستطيع الاقامة في المدينة . ولن يباشر العمل إلا في المطبعة الجديدة ، ولكننا من أجل ذلك بحاجة أيضاً إلى شخص آخر .

وقالت الأم بهدوء :

ــ ألا أصلح أنا لذلك ؟

وهتفت صوفيا :

ــ إنها فكرة طيبة .

ورد نيقولا بجفاف :

ــ كلا ، فالعمل مرهق بالنسبة إليك يا بيلاجي .. ثم إنه يقتضيك العيش خارج المدينة حيث لا تتاح لك رؤية بول .

وقاطعته وهي تتنهد :

ــ ليس في ذلك بالنسبة لبول حرمان كبير ، أما بالنسبة إليّ ، فهذه الزيارات تهصر قلبي . إننا لا نستطيع أن نقول شيئاً . إني أقبع كالحيوان أمام ابني ، ويركزون هم أبصارهم على فمك ، ليروا ما إذا كنت ستتمادى في الحديث ..

لقد استنفدت أحداث الأيام الأخيرة قواها ، والآن ، ها هي الفرصة تسنح لها لتعيش بعيداً عن مآسي المدينة ، وإنها لترغب في ذلك أشد الرغبة .

وغيّر نيقولا مجرى الحديث فسأل الطبيب :

ــ بماذا تفكر ؟

فرفع هذا رأسه وأجاب متجهماً :

ــ إننا قلة ؛ هذا ما أفكر فيه . وعلينا أن نعمل بحيوية أكثر ، وأن نقنع أندريه وبول بضرورة الفرار ، فكلاهما أثمن من أن يظل عاطلاً عن العمل . وزوىّ نيقولا ما بين عينيه وهز رأسه مرتاباً ، وهو يلقي على الأم نظرة خاطفة ، وأدركت هي أنهم لا يستطيعون التحدث بحرية عن إبنها بحضورها فانسحبت إلى غرفتها ، وفي قلبها بعض الحقد عليهم ، عليهم هم الذين لم يعيروا رغبتها إلا القليل من اهتمامهم .

وتمددت في سريرها وهي مفتوحة العينين ، يهدهدها همس أصواتهم ، ثم لم تلبث أن استسلمت لهمومها ، وكان النهار الذي ولّى ، يبدو لعينيها متجهماً ، مستعصياً على الفهم ، طافحاً بالرؤى الحزينة ، وكان يؤلمها أن تفكر فيه ، لذلك راحت وهي تطرد من ذهنها انطباعاته الكئيبة ، تركز تفكيرها ببول .

لقد كانت تود أن تراه حراً ، وفي الوقت نفسه كانت هذه الرغبة تخيفها ، فهي تحس حولها توتراً ، واصطداماتٍ قاسية وشيكة الوقوع !

لقد تلاشى استسلام الناس الصامت ، وحل مكانه التيقظ ، وتنامت النقمة بشكل محسوس ، وراحت المناقشات الحادة تدوّي ، وفي كل مكان تنفخ ريح هياج جديد .

وكان كل منشورٍ يثير الجدل العنيف في السوق والحوانيت ، بين الخدم والحرفيين ، وكل اعتقال يترك صدىً خائفاً قلقاً ، ويولّد ، في بعض الأحيان ، وبصورة لا شعورية ، شعوراً من التعاطف مع تلك التعليلات التي كان الثوريون يقدمونها للكشف عن دوافع هذا كله . وكانت بيلاجي غالباً ما تسمع من أفواه الناس البسطاء كلمات كانت من قبل تبعث رعبها : تمرد ، إشتراكيون ، سياسة . وكانوا يرددون هذه الكلمات بسخرية ، إلا أن هذه السخرية كانت لا تفلح في إخفاء نهمهم إلى المعرفة ، وكانوا يرددونها بتفكير ، ولكن هذا التفكير كانت تشوبه ملامح من الرجاء والوعيد .

وأخذ الاضطراب ينتشر ببطء ، ولكن في دوائر واسعة ، تنتظم الحياة الراكدة الكالحة ؛ وكان الفكر الخدر يستفيق ، والاستسلام الهادىء المألوف الذي واجه به الناس أحداث يومهم ، يفقد سلطانه .

لقد كانت بيلاجي تميز ذلك بوضوح أكثر من رفاقها ، لأنها كانت تعرف وجه الحياة الحزين أكثر مما يعرفونه ؛ هذا الوجه الذي ترى الآن فيه ، تغضّنات التفكير والسخط ، فتستشعر الغبطة والخوف في آن واحد . أما الغبطة فلأنها كانت تعتبر أن ذلك من صنع ابنها ، وأما الخوف ، فلأنها كانت تعلم أنه سينطلق إذا ما خرج من السجن ، على رأس رفاقه جميعاً ، سينطلق بهم إلى النقطة الأشد خطراً ، وسيهلك .

وكانت صورة ابنها ، تأخذ في عينيها ، أحياناً ، تقاطيع بطلٍ من أبطال الأسطورة ، بطلٍ يتحد في شخصه كل ما سمعته من قولٍ حق ، جريء ، وكل ما أحبت من كائنات ، وكل ما كانت تعرف من بسالة وصفاء ، وكانت تمجد هذا البطل بحماسة وزهوٍ وحنان ، وتقول في نفسها ، والآمال تغمرها :

ـــ سيسير كل شيء على ما يرام ... كل شيء .

وكان حبها ، حبها كأم ، يزداد ضراماً ، ويهصر قلبها حتى ليكاد يحملها على الصراخ ، وكان ، من ثم ، يحول دون نمو حبها للانسانية ، بل يستغرق هذا الحب كله ، فلا يظل مكان هذا الشعور العظيم ، إلا فكرة حزينة تنبض بوجل في الرماد الداكن ، رماد القلق :

ـــ سيلقى حتفه ... سيهلك .

14

وعند الظهيرة كانت أمام حاجز السجن ، تجلس تجاه بول ، وتتفرس في وجهه الملتحي ، بعينين غائمتين ، وتترقب اللحظة التي تتمكن فيها من تسليمه القصاصة التي كانت تشد عليها بين أصابعها .

وقال لها بول بصوت خافت :

ـــ إن صحتي جيدة ، وكذلك رفاقي ، فكيف حالك أنتِ ؟

وأجابته بآلية :

ـــ لا بأس ... ولكن إيغور قد مات .

ورد عليها :

ـــ آه ... نعم ؟

ثم أطرق برأسه إلى الأرض .

وتابعت هي ببساطة :

ـــ وعند الدفن ، حصلت مشادة مع رجال الشرطة ، وأوقف أحد الأشخاص وسقسق معاون مدير السجن منفعلاً ، ودمدم وهو يقفز من مقعده :

ـــ هذا ممنوع . يجب أن تفهما ذلك بالحسنى . فلا يجوز التحدث هنا في السياسة .

ووقفت الأم وقالت محتجة :

ـــ أنا لا أتحدث في السياسة ، بل عن الخلاف الذي حصل ،

والواقع أنهم اشتبكوا في عراك ، حتى أن أحدهم أصيب بشج في رأسه .

ـــ هذا سواء عندي . لذلك أرجوك أن تكفي . يعني انك لا تستطيعين الكلام إلا فيما يتعلق بك ، بك شخصياً وبعائلتك ، وبيتك .

وعندما شعر أنه سيقع في الارتباك ، جلس إلى طاولته ، وأضاف بلهجة خافتة كئيبة ، وهو يرتب أوراقه :

ـــ إني مسؤول ... نعم ...

وحدجته الأم بنظرة ، ثم دست القصاصة في يد بول وتأوهت بارتياح :

ـــ إننا لا ندري ما الذي يريد أن نتحدث عنه .

وابتسم بول :

ـــ وأنا كذلك لا أدري .

وأضاف المعاون بانفعال :

ـــ إذاً لا داعي للزيارات . لا شيء لديكم تقولونه ... ثم تأتون مع ذلك لازعاج الناس جميعاً .

وسألت الأم بعد فترة من الصمت :

ـــ هل سيكون موعد المحاكمة قريباً ؟

ـــ لقد جاء النائب العام إلى هنا مؤخراً ، وقال أن الموعد سيكون قريباً .

وتبادلا أحاديث لا معنى لها ، أحاديث لا فائدة فيها لكليهما ، وكانت الأم تلاحظ أن بصر بول يستقر عليها بعذوبة وحنو .

إنه لم يتغير ، إنه ما زال هادىء الطبع متزناً ، غير أن لحيته الخصبة النمو ، كانت تجعله يبدو طاعناً في السن ، وكانت يداه أشد بضاضة من ذي قبل . وساورتها رغبة في أن تدخل النشوة إلى قلبه ، أن تحدثه عن فيسوشيكوف بنفس الصوت وبنفس اللهجة ، التي تتحدث بها عن أشياء لا جدوى فيها ، فقالت :

ــ لقد رأيت ابنك بالعماد ... (فليونك)

فرمقها بول بنظرة متسائلة ، ولكي تذكّره بوجه فيسوشيكوف المجدور ، راحت تنقر على وجهها بأصبعها وتقول :

ــ إنه على ما يرام . وهو فتىً قوي فشّار ، وسيلتحق عما قريب بعمل .

وفهم بول ؛ ورد عليها بإشارة من رأسه خبيثة ، وبسمة في عينيه مرحة :

ــ هذا جميل .

ــ حسناً ... هذا ما عندي .

وكانت راضية عن نفسها كل الرضى ، متأثرة بالبهجة البادية في ملامح ابنها ، وعندما ودعته ، شد يدها بحرارة :

ــ شكراً يا أماه .

وكنشوة المخمور تصاعد الاحساس بالفرحة إلى رأسها ، فرحة الاحساس بأن قلب ابنها قريب كل القرب من قلبها ، ولم تقو على أن ترد عليه بالكلمات ، فردت فقط بضغطة صامتة على يده .

ولدى عودتها وجدت ساندرين عندها ، فلقد تعودت الفتاة أن تأتي مع الأيام التي تذهب فيها الأم إلى السجن ، كما تعودت ألا تسألها أبداً عن بول ، فإذا اعتصمت الأم بالصمت ، ولم تتحدث عنه من تلقاء ذاتها ، اكتفت ساندرين بأن تقرأ في عينيها ما تريد أن تعلم . ولكنه ، هذه المرة ، استقبلتها بسؤال قلق :

ــ حسناً ! ماذا يفعل ؟

ــ إنه بخير .

ــ هل سلمته القصاصة ؟

ــ بكل تأكيد ، ولقد فعلت ذلك بمهارة فائقة لدرجة ...

ــ وهل قرأها ؟

ــ أين يستطيع أن يفعل ؟

واستدركت الفتاة فقالت ببطء :

ـــ هذا صحيح . لقد نسيت . لننتظر أسبوعاً آخر ... أسبوعاً آخر . هل تعتقدين أنه سيوافق ؟

وتجهم وجهها ولم يبارح بصرها عيني الأم التي أجابت وهي تفكر :

ـــ لا أدري ... ولكن لِمَ لا يوافق إذا لم يكن في الأمر مخاطر .؟

وهزت ساندرين رأسها ، وخففت من اهتمامها وسألته ببرود :

ألا تعرفين ماذا يجب أن نطعم المريض ؟ إنه يطلب طعاماً .

ـــ نستطيع أن نطعمه كل شيء ، كل شيء ... سأذهب إلى ...

ودخلت المطبخ فتبعتها ساندرين بتثاقل :

ـــ هل لي أن أساعدك ؟

ـــ شكراً . لا ضرورة لذلك .

وكانت الأم تنحني فوق الموقد ، تتناول طنجرة ، عندما دنيت الفتاة منها وقالت لها بصوت خفيض :

ـــ مهلاً .

وشحب لونها ، وكانت عيناها المفتوحتان على اتساعهما تقطران كآبة ، وشفتاها المرتعشتان تتمتمان بجهد ، ولكن بغير حرارة :

ـــ وددت أن أسألك ... ولكني أعلم أنه لن يوافق . فاقنعيه ، قولي له بأننا نحتاج إليه من أجل قضيتنا ؛ وبأننا لا نستطيع الاستغناء عنه ، وبأنني أخشى عليه من المرض ... ألا ترين ؟ إن موعد المحاكمة لم يحدد بعد .

ولقد كان واضحاً انها تجد في الكلام عنتاً ، وكان الجهد يوتر أعصابها ، وصوتها ينساب متقطعاً ، وكانت وهي تسبل أجفانها التعبى ، تقضم شفتيها ، وتضغط على أناملها بشدة .

وهزت هذه الثورة العاطفية الأم هزاً عنيفاً ، ولكنها أدركت دوافعها ، فاحتضنت الفتاة وقد ملأها الاضطراب والأسى ، وأجابتها بصوت خافت :

ـــ إنه لا يستمع لأحد ، يا صغيرتي الغالية ... لا لأحد إلا لنفسه .

وظلتا كلتاهما صامتتين ، وهما تتعانقان بحرارة ، ثم تفلتت ساندرين بلطف ، وقالت وهي ترتعش :

ـــ نعم ... إنك على حق ، وما تفوهتُ به مجرد حماقات ... إن أعصابي ...

... ولكنها استعادت هدوءها فجأة فتابعت ببساطة :

ـــ لنحمل إلى الجريح إذن ما يأكله .

وجلست عند رأس جان ، وسألته بكثير من الاهتمام والعطف :

ـــ أيؤلمك رأسك كثيراً ؟

وأجاب جان وهو يشد الغطاء بارتباك ، ويرفعه حتى ذقنه :

ـــ كلا ... ولكنني أشعر بدوار ، وبأني خائر القوى .

وكانت أجفانه ترتعش بلا انقطاع كأن النور يطرفها ، ولاحظت ساندرين أنه لن يتناول طعامه بحضورها ، فنهضت وخرجت .

وجلس جان في سريره ، وتتبعها ببصره ، وقال وهو يغمز بعينيه :

ـــ فتاة رائعة .

وكانت عيناه صافيتين جذلتين ، وأسنانه صغيرة متراصة ، وصوته لا ترن فيه نبرات الرجولة .

وسألته الأم مطرقة :

كم هو عمرك ؟

ـــ سبعة عشر عاماً .

ـــ أين هم أهلك ؟

ـــ إنهم في الريف . أما أنا فإني هنا منذ سبع سنوات .. أي منذ أنهيت دراستي . وأنت ... ما اسمك يا رفيقة ؟

وكان يبهج الأم ويعزيها دائماً أن يتوجه إليها أحدٌ بالحديث ، لذلك أجابته باسمة :

ـــ لِمَ تريد أن تعرف إسمي ؟

وأوضح الفتى بارتباك ، وبعد لحظة من الصمت :

ـــ لأنه كان في حلقتنا طالب ... أقصد ... طالبٌ كان يدرس

معنا ، وقد حدثنا عن والدة بول فلاسوف العامل ... أتعلمين أنه في احتفال أول أيار ...؟ .

... وهزت الأم رأسها ، وأصاخت بسمعها ، فأضاف الفتى لزهو ، لاقى وقعه الحسن في نفسها :

ـــلقد كان هو أول من رفع علم حزبنا عالياً . ولم أوهزت الأم رأسها، وأصاخت بسمعها، فأضاف الفتى بزهو، لاقى وقعه الحسن في نفسها:

ـــ لقد كان هو أول من رفع علم حزبنا عالياً . ولم أك أنا موجوداً . وكنا نفكر بأن نقيم هنا احتفالاً خاصاً بنا ، ولكننا لم ننجح . لقد كان عددنا قليلاً في ذلك الحين ، أما هذه السنة ، فسيكون ذلك ممكناً بلا ريب ... سترين .

وأخذ التأثر منه كل مأخذ وهو يتذوق مسبقاً أحداث المستقبل ، ثم تابع ، وهو يحرك ملعقته :

ـــ وإذن ... فإن أم فلاسوف التي حدثتك عنها، قد انخرطت هي أيضاً في الحزب... انخرطت فيما بعد... ويقال إنها إمرأة مدهشة.

وابتسمت الأم ابتسامة عريضة ، فلقد كان يلذ لها أن تسمع ثناء الفتى الحار ، وكادت تقول له : « إني أنا ... أم فلاسوف » ولكنها أحجمت ، وقالت في نفسها بحزن يمازجه بعض السخرية :

ـــ آه ... يا لي من عجوز حمقاء .

والتفتت إليه فجأة ، وقال بتأثر وهي تميل نحوه :

ـــ هيا ... كُل أكثر ... واستعد صحتك بسرعة من أجل قضيتنا الخيرة .

وفُتح الباب ، وسبقت صوفيا نفحة من برودة الخريف الرطبة ، ودخلت هذه بادية المرح ، متوردة الخدين :

ـــ أقسم بشرفي أن الجواسيس يلاحقونني كما يلاحق العرسان وارثة ثرية ... يجب أن أرحل من هنا .

وكانت وهي تشعل لفافتها ، تطرح الأسئلة دون أن تنتظر الجواب عليها :

ـــ وجان كيف حاله؟ هل هو بخير؟ وأخبار بول يانيلوفنا؟ هل ساندرين هنا؟ وكانت عيناها الرماديتان تلفان الأم والشاب بنظرة ناعمة لطيفة، وكانت الأم تتأملها، وتبتسم فيما بينهاوبين نفسها، وتفكر:

ـــ ها أنذا قد أصبحت أيضا شخصاً ذا قيمة .

ومالت من جديد نحو جان لتقول له :

ـــ هيا ، إشفَ سريعاً يا صغيري .

وتوجهت نحو غرفة الطعام حيث كانت صوفيا تحدث ساندرين :

ـــ لقد أعدّتْ حتى الآن ثلاثمّاية نسخة ، وهي تكاد تقتل نفسها في هذا العمل . إنها لبطولة حقاً . أفتدرين يا ساندرين انه لمن السعادة الكبرى أن يعيش المرء بين قوم كهؤلاء ؛ وأن يكون رفيقاً لهم ، وأن يعمل معهم .؟

وأجابت الفتاة بصوت خفيض :

ـــ نعم .

وفي المساء قالت صوفيا للأم :

ـــ ينبغي أن تذهبي ثانية إلى الريف يانيلوفنا .

ـــ حسناً . إني موافقة ... فمتى يكون ذلك ؟

ـــ خلال يومين أو ثلاثة ... هل هذا ممكن ؟

ـــ أجل .

ونصحها نيقولا :

ـــ لا تذهبي مشياً على الأقدام بل استأجري جياد بريد ، واسلكي طريقاً آخر عبر مقاطعة « نيكولسكواي » .

وصمت ، وتجهم وجهه ، وطفت على ملامحه الهادئة أبداً ، مسحة من الغرابة والدمامة .

وردت الأم :

ـــ إنه طريق طويل ، ثم إن الجياد تكلف غالياً . وتابع نيقولا :

ـــ اسمعي ... إني في الواقع لا أوافق على هذه الرحلة لأن الاضطراب يشمل تلك الناحية ، وقد أعتقل عدد من الناس ، بينهم

على الدقيق ، معلم مدرسة . يجب أن نكون أكثر حذراً ، ومن الأفضل أن ننتظر قليلاً ...

وعلقت صوفيا على هذا الكلام وهي تنقر على الطاولة بأصبعها :

ــ المهم أن يستمر توزيع النشرات بلا انقطاع

ثم وجهت الكلام فجأة إلى الأم :

ــ ألا تخشين الذهاب إلى تلك المنطقة يا نيلوفنا ؟

وآلم ذلك الأم فقالت :

ــ ومتى كنت أخاف ؟ إنني في المرة الأولى نفسها لم أشعر بأي خوف ، والآن ..

وطأطأت رأسها دون أن تكمل جملتها ، ففي كل مرة كانوا يسألونها عما إذا كانت تخاف ، وعما إذا كان هذا الأمر يوافقها ، وعما إذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الشيء أو ذاك ، وكانت ترى في هذه الأسئلة توسلاً ، ويخيل إليها أنهم يعزلونها ، ويعاملونها بشكل مغاير لما يعاملون به بعضهم بعضاً .

وعادت إلى الكلام متنهدة : ــ عبثاً تسألونني عما إذا كنت أخاف . إنكم لا تطرحون هذا السؤال على بعضكم بعضاً .

ونزع نيقولا نظاريته بحدة ، ثم أعادهما ، وحدج أخته . وهز السكون الحائر الذي جاء في أعقاب ذلك ، هز بيلاجي ، فنهضت ، منزعجة الملامح ، وبودها أن تقول شيئاً ، ولكن صوفيا لمست يدها برفق ، وقال لها بصوت خافت كل الخفوت :

ــ سامحيني ، لن أعود لمثل ذلك أبداً .

وأضحك هذا القول الأم ، وبعد لحظات قليلة انهمك الثلاثة ، بكثير من الاهتمام ، في حديث ودي عن تفاصيل الرحلة إلى الريف .

15

وعند الفجر كانت الأم تتمدد في العربة التي تطفر فوق الطريق المبلل بمطر الخريف ، وكان الهواء الرطب يهب عليها ، والوحل يتطاير

حولها ، في حين كان الحوذي يستدير نحوها ، وهو في مقعده ، نصف استدارة ، ويشكو إليها بصوت ناحب أخن :

ــ وقلت له ... أعني لأخي ، حسناً ، لنقتسم ، وبدأنا في إجراء القسمة .

ولسع بسوطه فجأة ، ظهر الجواد الأيسر ، وصرخ بصوت حانق :

ــ ذيه ... هيا ، اسرع يا ابن الساحرة .

وكانت غربان الخريف الفارهة تسير مغمومة فوق اثلام الحقول ، والهواء البارد يعصف بها نافخاً ، فتدير جنوبها لهبّاته التي تعبث بريشها وتفقدها توازنها ، فلا ترى بدأً من الرضوخ للقوة ، إذ لا تلبث أن تحرك أجنحتها الكسلى ، وتنطلق لترتاح في مكان آخر .

وتابع الحوذي :

ــ ثم غلبني ... فرأيت أنه قد أُسقط في يدي ...

وكانت الأم تتلقف كلماته كأنها في حلم ، وكانت ذاكرتها تستعرض أمامها سلسلة الأحداث الطويلة التي عاشتها في سنواتها الأخيرة . لقد كانت الحياة ، من قبل ، تبدو لها خارجية نائية ، لا يدري أحدٌ من صنعها ، ولماذا صنعها ؟ أما الآن ، فإن كثيراً من الأشياء تتكون تحت سمعها وبصرها ، وبمآزرتها ؛ وكان هذا يوقظ فيها إحساساً مشوشاً يمتزج فيه الشك بشعور الرضى عن الذات ، والحيرة بالحزن الهادىء .

وكان كل شيء يتذبذب في تحرك بطيء ، وفي السماء تهيم الغيوم الرمادية وهي تتطارد بتثاقل ، وعلى جانبي الطريق تتراكض الأشجار البليلة وتهتز ذراها العارية ؛ وكانت الحقول تنأى في حركة دائرية ، وترتفع هضاب ثم لا تلبث أن تغيب .

وكان صوت الحوذي الأخن ، ورنين الجلاجل ، ونفح الريح الرطبة وضجيجها ، كان ذلك كله ينصهر في جدولٍ متثنٍّ ، نابض ، يتدفق فوق الحقول بقوةٍ رتيبة لا تتغير .

وأكمل الحوذي وهو يجرجر كلماته ويترنح فوق مقعده :

ــ وحتى في الجنة نفسها يعيش الثري في ضيق ... هكذا ... ثم أخذ يعتصرني فلقد كان على صلة طيبة بالسلطات .

وعندما وصلا إلى محطة البريد أوقف جواديه وقال للأم بصوت لا أمل فيه :

ــ ليتك تعطيني قطعة نقدية صغيرة لأشرب كأساً ؟

وأعطته خمسة « كوبيكات » فخشخش بها في يده وأعلن باللهجة نفسها :

ــ ثلاثة للفودكا ... واثنان للخبز .

وبعد الظهر بلغت بيلاجي قرية كبيرة تدعى «Nikolskiè» وهي منهكة القوى ترتعش من البرد ؛ فدخلت فندق المحطة، وطلبت قدحاً من الشاي ، وجلست قرب النافذة بعد أن وضعت حقيبتها الثقيلة تحت المقعد ؛ وكانت النافذة تطل على ساحة صغيرة يغطيها بساطٌ من العشب المصفر ، وعلى مبنى مديرية المقاطعة ، وهو ذو لون رمادي غامق ، وسقف كثير التثني ، وكان ثمة على سلم المبنى ، قروي أصلع طويل اللحية ، يرتدي قميصاً فقط ، ويدخن غليونه . وكان هناك خنزير يسير فوق العشب ، ويحفر الأرض بخرطومه ، محركاً رأسه وأذنيه ، وملامحه تنم عن عدم الرضا .

وكانت الغيوم تتراكض في كتل متجهمة ، ويتداخل بعضها ببعض ، وكان الجو قاتماً هادئاً حزيناً ، يخيل للمرء معه أن الحياة قد توارت ، وأمسكت أنفاسها .

وفجأة ، وصل جاويش قوزاقي مسرعاً ، فأوقف جواده الأشقر أمام سلم المديرية وصرخ ببعض الكلمات في وجه القروي وهو يهز كرباجه ، وكانت صيحاته ترتطم بزجاج النافذة ، ولكن الأم لم تكن تسمع ما يقول . ووقف القروي ومد ذراعه يشير به نحو الأفق ، فترجل الجاويش ، ودار على عقبيه كالحائر ، ثم ألقى إلى الرجل بأعنة جواده ، وأمسك بحاجز السلم وراح يرتقي درجاته بتثاقل إلى أن اختفى في البناء .

وخيم الهدوء من جديد ، وضرب الجواد الأرض الرخوة بحوافره

ضربتين ، ودخلت إلى الغرفة التي كانت بيلاجي فيها ، فتاة صغيرة تنسدل على عنقها ضفيرة قصيرة صفراء ، وتلمع في وجهها المستدير عينان ملاطفتان . وكانت تحمل فوق ذراعيها الممدودين وهي تعض شفتيها ، طبقاً متآكل الحوافي ، مثقلا بالأواني المطبخية . وحيت الأم بهزات متتابعة من رأسها ؛ فقالت لها الأم بود :

ــ صباح الخير أيتها الصغيرة الشاطرة .

ــ صباح الخير .

ووضعت الصغيرة الأكواب والأطباق على الطاولة ، وفجأة أعلنت بحيوية :

ــ لقد ألقوا القبض على لص ، وسيأتون به إلى هنا .

ــ من هو هذا اللص ؟

ــ لا أدري .

ــ ماذا فعل ؟

ــ لا أرى . لقد سمعت فقط أنهم قبضوا عليه ، وأن حارس المديرية قد أسرع لإحضار مفوض الشرطة .

ومدت الأم بصرها من النافذة ، فرأت رهطاً من الفلاحين يقتربون ؛ بعضهم يسيرون ببطء وتثاقل ، وبعضهم الآخر يتقدمون ، وهم يزررون على عجل ، معاطفهم المصنوعة من الفرو ... وتوقفوا عند سلم البناية ، وتوجهت أبصارهم نحو الجهة الشمالية .

وألقت الفتاة الصغيرة أيضاً نظرة عجلى على الشارع ثم خرجت بسرعة وصفقت الباب وراءها . وارتعشت الأم ، ودفعت حقيبتها إلى الوراء تحت المقعد ، ما وسعها ذلك ، ثم توجئت مسرعة نحو الباب وهي تطرح نقابها على رأسها ، وتغالب رغبة مفاجئة معقدة ، رغبة في ألى الوراء تحت المقعد ، ما وسعها ذلك ، ثم توجهت مسرعة نحو الباب وهي تطرح نقابها على رأسها ، وتغالب رغبة مفاجئة معقدة ، رغبة في أن تسرع الخطى ، في أن تركض .

وعندما أصبحت على سلم الفندق ، واجهتها نفحة باردة لسعت

صدرها وعينيها فشعرت بالخدر في ساقيها ، وبأنها تكاد تختنق . وفي وسط الساحة أبصرت ريبين يسير ويداه مكبلتان وراء ظهره ، ويحف به حارسان يضربان الأرض بعصاهما ضربات موزونة ، وكان بقرب سلم المديرية حشدٌ من الناس ينتظر بصمت .

وتولاها الذهول فلم تحول بصرها عن ريبين ؛ وكان ريبين يتكلم وكانت هي تسمع صوته ، ولكن كلماته كانت تحلق بلا صدى في فراغ قلبها المظلم المرتعد .

وعادت إلى نفسها ، واستردت أنفاسها ، وكان هناك فلاح وضاء اللحية عريضها يقف قرب السلم ويحدجها بعينيه الزرقاوين . وسعلت ، وأمرّت على حنجرتها يديها اللتين أوهنهما الرعب ، وسألت بإعياء :

ـــ ماذا حدث ؟

وأجابها الفلاح : ـــ هاكي ... أنظري .

ثم تحوّل عنها ، واقترب منها فلاحٌ آخر ووقف إلى جانبها .

وتوقف الحارسان أمام الجمع الذي كان يتضخم بلا انقطاع وهو محتفظ بصمته ، وارتفع فجأة صوت ريبين الممتلىء :

ـــ أيها المسيحيون .. سمعتم بتلك الأوراق التي رُويت فيها الحقيقة عن حياتنا كفلاحين ؟ إنهم من أجل هذه الأوراق يضطهدونني لأنني أنا الذي وزعتها على الشعب .

وضيّق الناس حلقتهم حول ريبين ، وكان صوته يهدر بهدوء واتزان ، فيهدىء من اضطراب الأم ..

وبصوت خفيض سأل أحد الفلاحين الرجل ذي العينين الزرقاوين ، وهو يلكزه بمرفقه :

ـــ أتسمع ؟

ورفع هذا رأسه دون أن يجيب ، وراح يرنو إلى الأم من جديد ؛ فحذا الفلاح الآخر حذوه وكان أصغر منه سناً ، أسود اللحية خفيفها ، نحيل الوجه ، تتناثر في وجهه هذا بقعٌ من النمش ، ثم لم يلبثا أن ابتعدا كلاهما عن السلم ، فقالت الأم لنفسها :

ــ لقد تملكهما الخوف .

وتضاعف اهتمامها ، وكانت ترى من أعلى السلم ، بوضوح ، وجه ريبين الأسود المنتفخ ، ونظرته الملتهبة ؛ وتود لو يراها هو أيضاً ، فتقف ، من أجل ذلك ، على رؤوس أصابعها متطاولة ، مادة عنقها نحوه .

وكان الناس يحدقون إليه مرتابين ، متجهمي الوجوه ، لا ينبسون بكلمة ، وفي الصفوف الأخيرة من الحشد فقط كان يُسْمع صدى مخنوق .

وقال ريبين بصوت ممتلىء حازم :

ــ أيها الفلاحون : ثقوا بما تقوله هذه الأوراق ، فقد يقتلونني بسببها . لقد ضربوني وعذبوني ، وأرادوا أن يرغموني على البوح بمصدرها ، وسيضربونني مرة أخرى وسأتحمل كل شيء لأن الحقيقة قد سُطرت في هذه الأوراق ، والحقيقة يجب أن تكون أغلى لنا من الخبز ! هذه هي القضية .

وقال أحد الفلاحين بصوت خفيض :

ــ ولِمَ يقول هذا القول ؟

ورد عليه ذو العينين الزرقاوين ببطء :

ــ لا أهمية لذلك الآن ، فالمرء لا يموت مرتين ، ولكنه على كل حال ، يجب أن يتذوق الموت مرة .

وكان الناس ما يزالون هناك صامتين يتسارقون النظر وهم كاسفو الوجوه ، ويبدو عليهم جميعاً أنهم ينوؤون تحت عبء غير منظور ، ولكنه شديد الوطأة .

وظهر الجاويش على السلم ، وعوى بصوت مخمور ، مترنحاً :

ــ من الذي يتكلم ؟

وتدحرج فجأة على درجات السلم ، فأخذ ريبين من شعره ، وشد رأسه إلى الأمام ، ثم دفعه صائحاً :

ــ أهذا أنت الذي تتكلم يا ابن الكلبة ..؟ أهذا أنت ؟

وماج الحشد وتلاطم ، وأطرقت الأم وقد عصف بها غم عاجز ، ودوى صوت ريبين من جديد :

ــ أنظروا أيها الناس الطيبون ...

ــ إخرس :

ولطمه الجاويش لطمة على أذنه ، فترنح وشقل كتفيه :

ــ إنهم يوثقون يديْ المرء ... ويعذبونه كما يشتهون ...

ــ أيها الحرس ، خذوه ... وأنتم الآخرين .. هيا تفرقوا .

وكان الجاويش يضرب ريبين بقبضته ، يضربه في وجهه وصدره وبطنه ، وينط أمامه كالكلب المربوط أمام قطعة من اللحم .

وصاح واحدٌ من بين الجمع :

ــ لا تضربه .

وسانده صوت آخر :

ــ وعلام تضربه ؟

وأشار الفلاح ذو العينين الزرقاوين بإيماءة من رأسه ، وقال لرفيقه :

ــ هيا بنا .

وتقدما على مهل نحو مسرح الحادث ، وكانت الأم تتتبعهما بنظرة عطف ومحبة ، وتتنفس الصعداء ، وعاد الجاويش فتسلق السلم بتثاقل ، وزمجر بجنون وهو يهدد بقبضته :

ــ أقول لكم جرّوه إلى هنا !

وأجاب صوت قوي من بين الجميع :

ــ لن نسمح بذلك . لا تدعوهم يفعلون أيها الفتيان . إنهم إذا ما اقتادوه إلى هناك ، فسيضربونه حتى الموت ، وسيقولون بعد ذلك اننا نحن الذين قتلناه . فلا تسمحوا لهم بأن يفعلوا .

وعرفت الأم أن هذا الصوت لم يكن سوى صوت الفلاح ذي العينين الزرقاوين .

وصاح ريبين :

ــ أيها الفلاحون : ألا ترون كيف تعيشون ؟ ألا تعرفون أنهم

يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ إن كل شيء يتوقف عليكم ؛ فأنتم القوة الرئيسية على الأرض ، ومع ذلك ما هي الحقوق التي تملكونها ؟ إن حقكم الوحيد الذي تملكونه هو أن تنفلقوا من الجوع !

وفجأة علا صراخ الفلاحين واختلطت أصواتهم :

ــ إنه يقول حقاً .

ــ نادوا المفوض ، أين هو المفوض ؟

ــ لقد ذهب الجاويش لإحضاره .

ــ ولكنه ثمل .

ــ ليس من شأننا نحن أن نستدعي السلطات .

وكان الضجيج يزداد باستمرار ، ويتعالى أكثر فأكثر :

ــ تكلم ، فلن ندعهم يضربونك .

ــ فكّوا وثاق يديه .

ــ حذار أن يصاب بمكروه .

وقال ريبين وهو يسيطر على الضجيج بصوته الجهور المتزن :

ــ إن يديّ تؤلماني ، ولن أهرب أبداً أيها الفتيان . ليس لي أن أختبىء من وجه حقيقتي ، فحقيقتي تعيش فيّ .

وانفصل بعض الأشخاص عن الحشد ببطء ، وابتعدوا وهم يتحدثون بصوت منخفض ويهزون رؤوسهم ، ولكن جماعات أخرى مهتاجة كانت تتراكض وقد ارتدت ثيابها الرثة على عجل ، لتنضم إلى الجمع ، وكانوا يغلون حول ريبين كالزبد القاتم ، في حين كان هو يشبك ذراعيه فوق رأسه ككنيسة في الغابة ويصيح :

ــ شكراً لكم أيها القوم الطيبون شكراً لكم . إن واجبنا أن نتعاون هكذا لنحرر أيدينا من الأغلال ، وإلا فمن ذا الذي سيساعدنا إذا لم نفعل نحن ؟

ومسح لحيته ثم رفع من جديد يده المضرجة بالدم :

ــ أنظروا إلى دمي ... إنه يسيل من أجل الحقيقة .

وهبطت الأم عن السلم ، ولكنها ، وهي على الأرض ، لم تعد ترى

ربيين الذي يزجمه الناس ، فعادت تتسلق درجات السلم ، تلهب صدرها الحرارة ، وتحس في قلبها خفقة الفرح .

— أيها الفلاحون ، فتشوا عن تلك الأوراق واقرأوها . لا تصدقوا السلطات والكهنة حين يقولون لكم أن أولئك الذين يحملون لنا الحقيقة ليسوا سوى كفرة عصاة ، إن الحقيقة تتسرب إلى العالم كله خفية ، وتبحث عن اعشاش لها في ضمير الشعب . إنها بالنسبة للسلطات كالسكين ، كالنار ، إنهم لا يتقبلونها لأنها ستذبحهم وتحرقهم . إن الحقيقة بالنسبة لكم خير صديق ، ولكنها بالنسبة لهم عدوٌ أشر ... وهي من أجل ذلك تتخفى .

وعادت صيحات الاستحسان تتعالى من جديد بين الحشد :

— اصغوا إليّ أيها المسيحيون .

— هيه أيها الأخ إنك تهلك نفسك .

— من الذي خانك . فسلمك إليهم ؟

وقال أحد الحراس : — إنه الكاهن ...

وأطلق الفلاحان بضراوة سيلاً من الشتائم ..

ودوى صوت محذّر : — إنتبهوا أيها الفتيان .

16

وأقبل مفوض الشرطة الريفية ، وكان رجلاً فارع القامة ، قوي البنية ، مستدير الوجه ، تتكىء قبعته على أذنه ، ويشرئب أحد شاربيه إلى أعلى ، ويتدلى الآخر نحو الأرض ، فيبدو وجهه معوجاً ، تشوهه بسمة ميتة بلهاء . وكان يمتشق سيفه بيسراه ، ويلوح في الفضاء بيمناه ، وكانت خطاه ثقيلة واثقة .

وانكفأ الحشد أمامه، وارتسم على الوجوه تعبير كالح منهك، وهدأ الضجيج، وخفت، كأنه إنما غار في الأرض . وشعرت الأم بجليد جبهتها يرتعش وبحرارة تشتعل في عينيها، وعاودتها الرغبة في أن تختلط بالحشد من جديد، ولكنها انحنت إلى الأمام، وجمدت في ترقب مغموم.

وسأل المفوض وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بنظراته :
ــ ما هذا ؟ لِمَ لم تُوثق يداه ؟ اربطوه يا حراس .
وكان صوته جهوراً مرتفعاً ، ولكنه لا لون له .
وأجاب أحد الحراس :
ــ لقد كانتا موثقتين ولكن الشعب فك وثاقهما .
ــ ماذا ؟ الشعب ، وأي شعب ؟
وتطلع المفوض إلى الحشد الذي كان يحيط به على شكل نصف دائرة ، وتابع بنفس الصوت الأبيض ، الرتيب الجرس ، ودون أن يرفع من هذا الصوت أو يخفض :
ــ ومن هو الشعب ؟
وسدد ضربة من قبضة حسامه إلى صدر الفلاح ذي العينين الزرقاوين :
ــ أأنت هو الشعب يا تشوماكوف ؟ ومن أيضاً ؟ أأنت يا ميشين ؟
وشد بيمناه لحية فلاح آخر وصاح :
ــ هيا تفرقوا أيها الأوباش ، وإلّا فسأريكم من أنا !
ولم يكن في صوته وملامحه امارة غضب أو تهديد ، فلقد كان يتكلم بهدوء ، ويضرب الناس بحركات متساوية ، كما لو كانت يداه الطويلتان القويتان قد تعودتا ذلك . وكان الحضور يتراجعون إلى الوراء إذا ما اقترب منهم ، ويطأطئون رؤوسهم ويشيحون بوجوههم .
وتلفت إلى الحرس وقال لهم :
ــ حسناً ... وماذا تنتظرون ؟ هيا أوثقوه .
وبعد أن أطلق سرباً من الشتائم ، تلفت إلى ريبين وصاح به :
ــ وأنت ... ضع يديك وراء ظهرك .
وقال ريبين :
ــ أنا لا أريد أن يوثقوني . إني لن أهرب ، ولن أقاوم ، فعلامَ إذن يشدون وثاقي ؟

وسأله المفوض وهو يدنو منه خطوة : ـــ ماذا ؟

وتابع ريبين وهو يرفع من صوته :

ـــ لقد عذبتم الشعب بما فيه الكفاية أيها الوحوش الشقر ، وعما قريب سيأتي اليوم الأحمر ، يومكم أيضاً .

وكان المفوض يحدق به جامداً وشارباه يتراقصان ، ثم انكفأ إلى الوراء خطوة ، وقال بصوت تسيطر عليه الدهشة :

ـــ آه . آه . آه . يا ابن الكلب . ما هذا ؟ ماذا تعني بهذه الكلمات ؟

وفاجأه بصفعة قوية خاطفة على وجهه .

وصاح ريبين وهو يتقدم نحوه :

ـــ إنك لن تقضي على الحرية بضربات قبضتك ؛ ثم أنه ليس من حقك أن تضربني أيها الكلب القذر .

وهمر المفوض وهو يساحب كلماته :

ـــ أأنا .. لا أجرؤ ؟ أنا ؟

ورفع ذراعه ليهوي بها على رأس ريبين ، ولكن هذا انحنى قليلاً فلم تصبه الضربة ؛ وكاد المفوض وقد عصف به الغضب ، أن يهوي إلى الأرض ، وقهقه أحدهم من بين الجمع ، بصخب ، وراح صوت ريبين الرهيب يدوي من جديد :

ـــ لا أسمح لك بضربي أيها الشيطان .

وتلفت المفوض حواليه فإذا الفلاحون قد اقتربوا صامتين كالحي الوجوه ، وضربوا حوله حلقة كثيفة قاتمة ؛ فهتف وعيناه تبحثان عن أحدهم :

ـــ نيكيتا ... هيه ، يا نيكيتا .

وبرز من الحشد فلاح صغير مربوع القامة ، يرتدي سترة قصيرة من فرو الغنم ويحدق في الأرض مطأطئاً رأسه الضخم الأشعث الشعر .

وقال المفوض بتؤدة وهويمسد شاربيه :

ـــ إصفعه يانيكيتا صفعة قوية على أذنه .

وتقدم الفلاح خطوة ، ثم وقف أمام ريبين ورفع رأسه ، ولكن ريبين صعقه بهذه الكلمات المثقلة بالحقيقة :

ــ أنظروا أيها الناس الطيبون ، كيف يخنقكم هؤلاء الأشرار بأيديكم . أنظروا وتبصروا !

ورفع الفلاح ذراعه ببطء ، وضرب ريبين على رأسه ضربة خفيفة ، ولكن المفوض صاح به غاضباً :

ــ ليس هكذا الضرب أيها الوغد .

وارتفع صوت من بين الجمع :

ــ هه يا نيكيتا .. اتق الله .

وصرخ المفوض وهو يدفعه آخذاً بخناقه :

ــ اضرب ... أنا أقول لك اضرب .

ولكن الفلاح طأطأ رأسه وتنحى وهو يقول بلهجة كئيبة :

ــ لن أفعل ذلك أبداً .

ــ ماذا ؟

وانقبضت ملامح المفوض ، ولبط الأرض بقدميه من الغيظ ، ثم هجم على ريبين شاتماً . ورن صدى صفعة خرساء ، ترنح لها ريبين ، ولوح بذراعه في الفضاء . وفي الهجوم التالي طرحه المفوض أرضاً وقفز فوقه ، وراح ، وهو يزمجر ، يوسعه ركلًا برجليه ، على رأسه وصدره وأضلاعه .

وتعالى الصخب الحاقد من الجمع المتوج ، الذي اندفع نحو المفوض ، ولكن هذا احتاط للأمر فقفز جانباً ، واستل سيفه من غمده ، وتهدج صوته ، واعترته بحة ، فبدا كالمحطم :

ــ آه ، أهكذا ؟ إنكم تتمردون أليس كذلك ؟ أجل ..

وخارت قواه ، كما تلاشى صوته من قبل ، وغار رأسه بين كتفيه ، واحدودب ظهره ، فانكفأ إلى الوراء وهو يدير عينيه الخاويتين في كل اتجاه ، ويتحسس الأرض بقدميه حذراً ، ثم صرخ و وهو ينسحب ، بصوت كئيب أبح :

ـــ حسناً ؛ خذوه . ها أنذا ذاهب . ها ؟ ألا تعلمون أيها الأنذال الملعونون أنه مجرم سياسي يعمل ضد قيصرنا ، ويحرض على الشعب ؟ أتعرفون ذلك ثم تدافعون عنه ؟ آه .. آه ... إنكم إذن لمتمردون .

وكانت الأم جامدة ، لا يطرف لها جفن ، وترزح تحت وطأة الرعب والاشفاق ، خائرة القوى ، خامدة الفكر كأنها تعاني عذاب كابوس ثقيل . وكانت أصوات الاستنكار الحانقة الكالحة المنذرة بالشر ، تضج في رأسها كطنين النحل ، وكان صوت المفوض يتهدج ، والهمس يتعالى :

إذا كان مذنباً فليس لهم إلا أن يحاكموه .

ـــ إصفح عنه .

ـــ حقاً إنك تتصرف كما لو لم يكن هناك قانون .

ـــ أهذا ممكن ؟ إلى م يؤدي هذا إذا أخذوا يضربون الناس هكذا ؟

وكان الفلاحون قدانشطروا إلى فريقين : أحاط بعضهم بالمفوض وراحوا يجادلون ويضججون أما الآخرون وهم أقل عدداً ، فإنهم ظلوا حول الجريح ، يتعالى صخبهم الأصم . وأنهضه بعضهم ، وأراد الحرس أن يوثقوا يديه من جديد ، ولكن صوتاً هدر يقول :

ـــ إصبروا إذن أيها الشياطين ...

ومسح ميشال الدم والوحل عن وجهه ، وتلفت حواليه بصمت فوقعت عينه على الأم ، وارتعشت هذه ، وتطاولت نحوه ، وهزت يدها حركة غريزية ، فأشاح ميشال بوجهه عنها ، غير أن عينيه عادتا بعد لحظات لتستقرا عليها ، وخيل لبيلاجي أنه ينتصب ويرفع رأسه ، وأن وجنتيه الداميتين ترتعدان :

ـــ لقد عرفني ... أهذا ممكن ؟

وأومأت له برأسها ، وقد هزتها غبطة تفعمها الكآبة الموجعة ، ولكنها سرعان ما لاحظت أن الفلاح الأزرق العينين الذي يقف إلى جانبه ، كان يحدق بها أيضاً ؛ مما أثار في نفسها الاحساس بخطر ما .

ـــ ماذا أفعل ؟ لسوف يقبضون عليّ أيضاً بلا ريب .

... وصب الفلاح بضع كلمات في أذن ريبين فهز هذا رأسه وراح يتحدث بصوت محطم ولكنه واضح جريء :

ـــ لا بأس في ذلك ، فلست وحدي على الأرض . إنهم لن يسجنوا الحقيقة كلها ، وسيذكرني الناس في كل مكان مررت به ... لقد تهدّم العش ولم يعد الأصدقاء والرفاق فيه .

ودار في خاطر الأم : ـــ إنه يوجه هذا الكلام إليّ .

ـــ ولكن سيأتي اليوم الذي تحلق فيه النسور بحرية ، اليوم الذي يتحرر فيه الشعب .

وحملت إحدى النسوة سطلاً من الماء ، وراحت تغسل وجه ريبين وهي تعول وتنتحب ساخطة ، وكان صوتها النحيل الشاكي يختلط بكلمات ميشال فلا يتيح للأم أن تفهمها . وتقدم رهطٌ من الفلاحين ، على رأسهم المفوض ، وصاح واحدٌ من بينهم :

ـــ آتونا بعربة تحمل السجين . من منكم يقوم بهذه المهمة ؟

ثم دوى صوت المفوض شديد التغيّر كالمختنق :

ـــ أنا أستطيع أن أضربك أيها النذل ، أما أنت فلا ، لأن ذلك ليس من حقك .

وصاح ريبين :

ـــ نعم ... وأنت ... من أنت ؟ أأنت آله الناس ؟

وطغى على صوته دويّ مخنوق لا انسجام فيه ، دويّ صراخات :

ـــ لا تجادله ياصديق ، إنه ممثل السلطة .

ـــ لا تحنق ... فهو لا يعي نفسه .

ـــ إخرس أيها الفتى المضحك .

ـــ إنهم سيأخذونك تواً إلى المدينة .

ـــ إنهم هناك يحترمون القانون أكثر .

وكانت أصوات القوم تتعالى ، وفيها استعطاف ونصح ، وتختلط في ضوضاء شاكية مرتبكة ، لا تند منها نفحة أمل . وأمسك الحرس

بريبين من إبطه ، وتسلقوا به السلم ، ودخلوا معه المنزل فاختفوا عن الأنظار .

وأخذ الفلاحون يتفرقون ببطء ، ورأت الأم الرجل الأزرق العينين يتجه نحوها ، وينظر إليها خلسة ؛ فأخذت ركبتاها تصطكان ، وشد على قلبها إحساس بالوهن ، ورغبة بالتقيؤ ، وقالت في نفسها :

ــ يجب ألا أنصرف ... يجب ألا أنصرف .

ولبثت عند أسفل السلم تنتظر .

وكان المفوض على سلم المديرية يتكلم ويكثر من إشارات يديه ، وكانت الشتائم تنصهر في صوته الذي غدا أبيض لا حياة فيه :

ــ يا لكم من حمقى يا أبناء الكلاب ؛ إنكم لا تفهمون شيئاً . إنكم تدسون أنوفكم في هذه القضية ... في قضية تتعلق بالدولة . وعليكم أيها البهائم اللعينة أن تنحنوا أمامي حتى الأذقان ، وأن تتوجهوا إليّ بالشكر ، جزاء طيبتي ، لأنني لو شئت ، لكنتم في السجن جميعاً .

وكانوا نحواً من عشرين فلاحاً يصغون إليه حاسري الرؤوس ، وكان المساء يهبط بظلامه ، والغيوم تهيم على وجهها وتنخفض حتى تكاد تلامس الأرض . واقترب الفلاح الأزرق العينين من الأم وقال لها متأوهاً :

ــ هذا ما يجري عندنا ...

وقالت الأم بهدوء : ــ أجل .

فحدق بها وهو صريح الملامح وسألها :

ــ ماذا تفعلين هنا ؟

ــ أشتري المطرزات من الفلاحات ... والنسيج أيضاً .

فمسد لحيته ببطء ، ثم رنا إلى البناء المقابل ، وقد بدا عليه الضيق .

ــ لكن ذلك لا تجدينه هنا .

وتأملته الأم وراحت تنتظر الفرصة السانحة لتعود إلى الفندق ، وكان

هو ساهم النظرات وسيماً ، كئيب العينين ، عريض المنكبين ، يرتدي صدرية كثيرة الرقع ، وقميصاً نظيفاً من الكتان الهندي ، وبنطالاً أصهب من الجوخ الريفي ، وينتعل حذاءين باليين دون أن يكون في قدميه جوارب .

وتنفست الأم الصعداء دون أن تدري سبباً لذلك ، ثم استسلمت فجأة لحدس كان يسبق تفكيرها المضطرب ، وراحت تطرح على الفلاح سؤالاً فوجئت به هي نفسها :

ــ هل أستطيع أن أقضي هذه الليلة في ضيافتك ؟

وتقلصت بشدة عضلاتها ، وعظامها ، وكيانها كله ، ثم انتصبت ، وسمرت بصرها على الفلاح ، وراحت الخواطر المزعجة تتراقص في رأسها :

« ... سأكون سبباً في هلاك نيقولا ... لن أرى بول أبداً ... خلال وقت طويل ... إنهم سيفتكون بي ... »

وأجابها الفلاح بتؤدة ، وهو يرنو إلى الأرض ، ويشد صدريته ليغطي به صدره :

ــ تقضين الليل عندي ؟ هذا ممكن ... ولِمَ لا ؟ ... ولكن منزلي ليس فخماً ...

وردت عليه لا واعية :

ــ ولكنني لست ابنة نعمة مدللة .

وأجابها وهو يقيسها بنظرة متفحصة : ــ هذا ممكن .

وكان الظلام قد خيّم ، وكانت عينا الفلاح تلتمعان بألق بارد ، ووجه يبدو شديد الشحوب . وقالت بيلاجي بصوت خفيض وقد خالجها شعورٌ كشعور من يتدحرج نحو الهاوية :

ــ حسناً ؛ سآتي معك حالاً ، وستحمل لي حقيبتي .

ــ حسناً .

وهزت كتفيها ارتعاشة ، وشد الفلاح ثانية صدريته ، وقال بصوت خافت : هي ذي العربة ...

وظهر ريبين على سلم المديرية ، موثق اليدين من جديد ، تعصب رأسه ووجهه هنة رمادية اللون ، وتعالى صوته في الغسق البارد :

ــ وداعاً أيها الطيبون ، فتشوا عن الحقيقة ، واحرصوا عليها ، وثقوا بمن يحمل إليكم الكلم الطيب ، ولا تضنوا بقواكم من أجل الدفاع عن الحقيقة .

وصاح المفوض :

ــ إخرس أيها الكلب .. وأنت أيها الحارس النذل ، أطلق الجياد .

ــ لا شيء يمكن أن تأسفوا عليه ... يا لها من حياة ؛ حياتكم ؟

وتحركت العربة ، وتابع ريبين وهو يجلس بين الحارسين :

ــ لِمَ تدعون أنفسكم تموتون جوعاً ؟ إعملوا من أجل الحرية ، فستهبكم الحرية الخبز والحقيقة . وداعاً أيها الطيبون .

وطغى صخب العجلات ، ووقع الحوافر وصوت المفوض ، طغت جميعها على صوته ، وتضافرت فخنقت هذا الصوت .

وقال القروي وهو يهز رأسه :

ــ لقد انتهى كل شيء .

ثم استدار نحو بيلاجي واستأنف :

ــ ابقي هنا قليلًا فسأعود حالًا .

... وعادت إلى فندقها ، فجلست إلى المائدة قرب الموقد ، وتناولت قطعة من الخبز ، فحدقت بها ، ثم وضعتها بهدوء في الصحن . إنها لم تكن جائعة ، ولكنها كانت تحس من جديد إضطراباً في أعماق معدتها ، وحرارة أليمة تنهكها وتوقف حرارة دمها ؛ وتسبب لها الدوار . وكان الفلاح ذو العينين الزرقاوين ينتصب أمامها بوجهه الغريب الذي لا يوحي الثقة والذي يبدو كأنه ناقص الخلق ؛ وكانت لا تود أن تقول لنفسها بصراحة : « سيخونني » .

ولكن هذه الفكرة كانت قد ولدت في رأسها، وجثمت ثقيلة على قلبها ...

ــ لقد راقبني ... راقبني واستنتج أن ...

ولم يذهب تفكيرها إلى أبعد من ذلك ، بل غرق في وهن أليم ، وإحساس لزج بالغثيان .

وأعقب الضجيج صمت جبان ، كان ينبسط وراء النافذة ، ويشيع في القرية ضرباً من الخوف والعياء ، ويزيد شعور الأم بالوحدة ، ويملأ نفسها بظلمات كدراء ، رخوة كالرماد .

ودخلت عليها فتاة الفندق ، وتوقفت عند الباب تسألها :

ـــ هل آتيك بطبق من العجة ؟

ـــ كلا ، لا رغبة لي في ذلك ... لقد أرعبتني هذه الأصوات ...

واقتربت الصغيرة وراحت تقص ، بحرارة ، ولكن بصوت خفيض :

ـــ لكم صفعه المفوض ... لقد كنت جد قريبة ، وشاهدت كل شيء . لقد حطم له أسنانه كلها ، فبصق دماً كثيفاً ، كثيفاً ، أسود اللون ، وحتى عيناه كان الدم يسيل منهما . إنه يعمل في القار ... والجاويش عندنا ، انه ثمل لا يستطيع أن ينهض ومع ذلك فإنه يطلب دائماً المزيد من الخمر . ويقول إنهم كانوا عصابة كاملة ، وأن الملتحي ذاك هو رئيسهم . لقد قبض على ثلاثة منهم ... وهناك واحد استطاع النجاة ، كما ألقي القبض أيضاً على معلم مدرسة كان معهم . إنهم لا يؤمنون بالله ، وهم يوصون الناس بأن سلب الكنائس واجب ... فتأملي أي قوم هم . هناك بعض الفلاحين داخلتهم الشفقة على ذاك ... وآخرون كانوا يقولون : يجب الاجهاز عليه . آوه ... لكم بين فلاحينا من أشرار ...

وكانت الأم تعير حديث الفتاة المتقطع السريع أذناً صاغية ، وتجهد نفسها للتغلب على قلقها ، وتبديد غم الانتظار ؛ وكانت الصبية ، وقد أسعدها بلا شك أن تجد من يصغي إليها ، كانت تثرثر بلا انقطاع وبكثير من الاندفاع ، وتتابع وهي تبتلع كلماتها وتخفض من صوتها :

ـــ يقول والدي أن سبب ذلك هو قحط الموسم . فهذه هي السنة الثانية التي تجدب فيها ، والناس لا يستطيعون أن يفعلوا إزاء ذلك شيئاً . ولهذا السبب يوجد الآن فلاحون هكذا يعانون بؤساً

حقيقياً ... إنهم يتصايحون في الاجتماعات ، ويتعاركون . وبالأمس عندما بيعت موجودات فاسيوكوف بسبب الضرائب المتراكمة عليه والتي لم يدفعها ، سدد ضربة من قبضته إلى وجه المختار قائلًا : خذ هذه المتأخرات عليّ من ديوني ...

ورن صدى خطىً ثقيلة وراء الباب .فاتكأت الأم إلى المائدة ، لتنهض ودخل الفلاح ذو العينين الزرقاوين ، وسأل دون أن ينزع قبعته : — أين هي أمتعتك ؟

ورفع الحقيبة في يده دون عناء ، ثم هزها قائلًا :

— إنها فارغة . يا ماريون رافقي المسافرة إلى المنزل .

ثم خرج دون أن يلتفت إلى أحد .

وسألت فتاة الفندق الأم : — هل ستقضين الليلة في القرية ؟

— نعم فأنا أبحث عن مطرزات لأشتريها .

وأوضحت الفتاة : — إنهم لا يشتغلون منها عندنا ... إنهم يشتغلونها في « تانكوف » و « دارينو » وليس هنا .

— سأذهب إلى هناك غداً .

ودفعت ثمن الشاي ، ونفحت الصغيرة ثلاثة « كوبيكات » بهرتها ...

... وفي الشارع ، اقترحت هذه وهي تجرّر قدميها الحافيتين على الأرض الرطبة :

— هل تريدين أن « أخطف رجلي » إلى دارينو ، فأطلب إلى نسائها أن يحملن إليك ما عندهن من مطرزات ؟ فلا تضطرين الذهاب إلى هناك . ومع ذلك يوجد إثنا عشر كيلو متراً ...

وردت عليها الأم وهي تسير إلى جانبها :

— لا جدوى في ذلك يا عزيزتي .

وأنعشها الهواء البارد وكان هناك حلٌ يتكون ببطء في رأسها ، حلٌ ما زال قلقاً ، ولكنه حلٌ واعد يتنامى في داخلها . وكانت ، ولكي تستعجل تفتحه ، تسأل نفسها بالحاح :

ــ ما العمل ؟ هل أتصرف بصراحة ؟ هل أتصرف كما يوحي الضمير ؟

وكان الليل قد هبط بارداً رطباً ، والنوافذ تتلألأ بضوء أحمر ، جامد ، أكمد ؛ وفي قلب الصمت كانت الماشية تخور بلا مبالاة ، وتتعالى بعض الصيحات الخاطفة ثم تلف القرية كآبة ساحقة .

وقالت الصبية : ــ من هنا الطريق .. لقد اخترت منزلاً سيئاً ... فهذا الفلاح شديد الأملاق .

وتلمست الباب ففتحته ، ثم نادت منبهة :

ــ أيتها الأم تاتيانا .

ثم ولت الأدبار ، وجاء صوتها من قلب الظلمات .. خفيفاً :

ــ وداعاً .

17

ووقفت الأم في العتبة ، وراحت تتفحص المنزل وهي تُظل عينيها بيدها ، وكان أول ما لاحظته أنه ضيق ، ولكنه نظيف . وأطلت امرأة شابة برأسها من وراء المدفأة ، وحيت بصمت ، ثم توارت . وكان هناك في إحدى الزوايا مصباح يشتعل على طاولة :

وكان رب البيت يجلس في الداخل ، وأصابعه تنقر طرف الطاولة ، وبصره يتسمر على الأم . وبعد هنيهة قال :

ــ أدخلي ... إذهبي يا تانياتا ونادى « بيير » ... هيا !

وخرجت المرأة بسرعة دون أن تلقي نظرة على الزائرة ، وجلست هذه على المقعد المواجه للفلاح ، تبحث ببصرها عن حقيبتها التي لم تكن تراها ، وران على الكوخ صمت ثقيل ، وكان لهب المصباح وحده يزفر زفرات خفيفة ، ووجه الفلاح المكفهر المغموم يتذبذب بغموض ، في عينيها ، فيشحن نظراتها باليأس .

وفجأة سألت بيلاجي بصوت قوي فاجأها هي نفسها :

ــ أين هي حقيبتي ؟

وهز الفلاح كتفيه وأجاب ساهماً :
ـــ إنها ليست ضائعة .
وأكمل بصوت أكثر خفوتاً ، وهو متجهم الملامح :
ـــ عندما قلتُ أمام الصغيرة في الفندق أنها فارغة ، قلت ذلك عمداً ، في حين أنها ليست كذلك ... بل أنها ثقيلة الوزن .
ـــ ثقيلة جداً ؟ ومعنى ذلك ؟
ونهض ، واقترب منها ، ثم انحنى وسألها بصوت منخفض :
ـــ وذلك الرجل ... هل تعرفينه ؟
وارتعشت الأم ، ولكنها أجابت بحزم :
ـــ نعم .
ويبدو أن هذه الكلمة الموجزة قد فجّرت الضياء فيها ، وغمرت بالنور كل شيء حولها ، فندت عنها زفرة عزاء ، ثم تقدمت ، فجلست على المقعد .
وارتسمت على شفتي الفلاح ابتسامة عريضة :
ـــ لقد رأيتكما تتبادلان الاشارات فهمستُ في أذنه : ربما كنت تعرفها جيداً ... تلك التي تقف هناك على السلم !؟
وسألته الأم بحرارة : ـــ وماذا قال ؟
ـــ هو ؟ لقد قال : « إنهم كثيرون .. نعم .. كثيرون » هذا ما قاله ...
ورشقها الرجل بنظرة متسائلة وتابع وهو يبتسم ثانية :
ـــ هذا الرجل ... قوة هائلة ... إنه جريء ؛ يقول لهم دونما مواربة : « أنا » ويضربونه هم ... ولكنه لا يرضخ .
وكان صوته الواهي المتشكك ، ووجهه الصارم ، وعيناه الصافيتان الصريحتان ، كان ذلك كله يبعث الطمأنينة في قلب الأم شيئاً فشيئاً ، وكان القلق والاعياء يتقلصان من نفسها ، ليحل محلهما الاشفاق على ربيبن .. وهو إشفاق حادٌ أكّال . وتملكها غضب مفاجيء مرير لم تستطع له كبتاً ، فصاحت بإعياء :

ـــ يا لهم من لصوص ... يا لهم من غيلان .
وأطلقت العنان لزفراتها .
ونأى الفلاح عنها ، وهو يهز رأسه ، حزين الملامح :
ـــ إن السلطات تكتسب أصدقاء صغاراً طيبين ... نعم ...
ثم عاد ، فاقترب منها فجأة ، وقال لها بصوت خفيض :
ـــ حسناً . إني أتكهن بأن حقيبتك تحتوي على الصحيفة .. أليس ذلك صحيحاً ؟
وأجابت الأم ببساطة وهي تمسح دموعه :
ـــ نعم ... لقد حملتها له .
وقطب حاجبيه ، وجمع لحيته في قبضته ، ثم لاذ بالصمت وهوضائع النظرة .
ـــ لقد جاء إلى هنا ومعه أيضاً كتبٌ صغيرة . إننا نعرف هذا الرجل وكنا نراه أحياناً ...
وتوقف عن الكلام وفكر قليلًا ثم سأل :
ـــ والآن ماذا ستفعلين بهذه ؟ أعني الحقيبة ؟
فرنت إليه الأم وقالت باندفاع المتحدي :
ـــ سأتركها لكم .
ولم يُفاجأ بذلك ، ولم يعترض بل ردد :
ـــ لنا نحن ...
وهز رأسه موافقاً ، وارتخت قبضته التي كانت تمسك لحيته ، ومشط هذه اللحية بأصابعه ثم جلس .
وكان مشهد تعذيب ريبين يعود بإلحاح حاقد مزعج ، فيتراءى لعيني الأم ، وكان ما تستشعره من أجل هذا الرجل ، من عذاب ومهانة ، يعفي على كل مشاعرها الأخرى ، فلا تستطيع التفكير في الحقيبة ، ولا في شيء آخر سواها ، وكانت دموعها تنهمر بلا انقطاع ، ولكن وجهها كان متجهماً ، والرعشة لا تعتري صوتها وهي تقول :

ــ لتحل اللعنة عليهم ، إنهم يسرقون الناس ، ويسحقونهم ، ويمرغونهم في الوحل .

وأجاب الفلاح بهدوء :

ــ إنهم أقوياء ... أقوياء بضراوة .

وتساءلت الأم بحقد :

ــ ومن أين استمدوا قوتهم ؟ إنهم يستمدون كل هذا منا نحن ... من الشعب .

وكان هذا الفلاح يثيرها ، يثيرها بوجهها الصريح ... الذي لا يمكن مع ذلك حل لغزه .

وقالت بصوت متساحب :

ــ نعـ ... ـم ... صوت عجلة ...

وأصاخ بسمعه وهو يميل برأسه نحو الباب ، ثم قال بصوتٍ كالهمس :

ــ لقد أقبلوا .

ــ من ؟

ــ جماعتنا على ما أعتقد .

ودخلت زوجته ، وتبعها فلاح ما كاد يخطو الخطوة الأولى في الكوخ حتى قذف بقبعته إلى إحدى الزوايا ، واقترب بسرعة من رب البيت يسأله :

ــ وأخيرا ؟

فأومأ الآخر برأسه إيماءة التأكيد .

وقالت المرأة وهي تقف بالقرب من المدفأة :

ــ إيتيين ... ربما كانت ضيفتنا تريد أن تأكل .

وأجابت الأم :

ــ كلا ... أشكرك ... إنك لطيفة جداً .

ودنا القادم الجديد منها ، وراح يحدثها بصوت مبحوح :

ــ أتسمحين في أن نتعارف ؟ إنني أدعى « بيير رابينين » وألقب

بـ « آلين » ؛ وأعرف القليل من أعمالك . اني أعرف القراءة والكتابة ، ولست غبياً إذا استطعنا القول ...

وأخذ يد بيلاجي التي مدتها إليه فهزها ثم استدار نحو ايتيين :

ــ أترى يا إيتيين ؟ إن زوجة « معلمنا » سيدة طيبة ... لا شك في ذلك ، وهي تقول بأن هذا كله ليس إلا حماقات وأحلاماً ... وبأن أولئك الذين يعكرون بالحماقة صفو العالم ليسوا سوى صبيان أزقة ... وأنواع شتى من الطلبة ... ومع ذلك ... فلقد شاهدنا كلانا ، أنهم قد أوقفوا منذ قليل ، فلاحاً جاداً ، كما يجب ، والآن .. هي ذي ، كما ترى ، سيدة ليست من الرعاع ، ولا يبدو عليها أنها زوجة سيد ! ... لا تغضبي ... إلى أية عائلة تنتمين ؟

وكان يتكلم بسرعة ووضوح ، ودونما توقف ، وكانت لحيته الصغيرة المدببة تهتز بعصبية ، وعيناه المتغضنتان تتفحصان ، على عجل ، وجه بيلاجي ومظهرها .

وكان رث الثياب أشعث الشعر ، يخيل إليك أنه آت لتوه من عراك ، وأنه قد انتصر على قرنه ، وأن حماس النصر الطروب يملأ اهابه . وأعجب الأم مَرحهُ النشيط واستلامه منذ البدء مبادرة الحديث ببساطة ودونما مواربة . وأجابت على سؤاله وهي ترمقه بنظرة ودود ، فهز يدها ثانية بقوة ، وراح يضحك بهدوء ، وكانت ضحكته قصيرة جافة متقطعة .

ــ أرأيت يا ايتيين ؟ إنه عمل شريف وقضية رائعة . لقد قلت لك إن االشعب بدأ يتحرك من تلقاء ذاته ؛ وامرأة « معلمنا » لن تقول لك الحقيقة ، لأنها ستخطيء إن تفعل . أنا أحترمها ، ليس في ذلك جدال ، فهي إنسان طيب يبغي لنا الخير ؛ بل لنقل ، قليلاً جداً من الخير ، بشكل لا تخسر معه شيئاً . ولكن الشعب نفسه يريد أن يسير بعزم ، إنه لا يخشى الخسران ، ولا يعرف أيّان يتجه . إنه لا يسمع شيئاً حوله ، لا يسمع شيئاً سوى كلمة « قف » يُرشق بها من كل جانب .

وقال إيتيين وهو يهز رأسه :
ــ إني أرى ...
ثم أضاف على الفور :
ــ إنها ليست مطمئنة بسبب متاعها .
وغمز بيلاجي بخبث ، ثم استأنف كلامه ، وهو يشير إليها بيده ليطمئنها :
ــ لا تقلقي ، فكل شيء قد نُظم . إن حقيبتك الصغيرة في منزلي ، لأنه عندما حدثني عنك ، وأخبرني بأنك تعملين حتماً في سبيل القضية ، وبأنك تعرفين « الرجل » قلت له : حذار يا إيتيين ، حذار أن تفتح فمك بكلمة ، فالأمر شديد الخطورة ، حسناً ... ولقد لاحظنا ، يا أماه ، عندما كنا نقف بالقرب منك ، انك أنت أيضاً تملكين حاسة شمّ جيدة ، وهذا ما يميز أنوف الناس الشرفاء ، لأن هذه الأنوف ، في الحقيقة ، لا تهيم في الشوارع طويلاً ، وعلى غير هدى ، إطمئني ... إن حقيبتك في منزلي .
وجلس إلى جانبها وتابع وفي نظرته ضراعة :
ــ إذا شئت إفراغ محتواها ، فإننا نقدم لك المعونة بكل سرور ، فنحن بحاجة ماسة إلى الكتب .
وعلق إيتيين :
ــ إنها تريد أن تترك لنا هذه الكتب كلها .
ــ هذا رائع ... وسنعرف نحن كيف نتدبر الأمر .
وقفز واقفاً على قدميه ، وانخرط في الضحك ، ثم قال مغتبطاً ، وهو يذرع الأرض بخطىً واسعة :
ــ يمكن القول أنها قصة مدهشة ، وأنها ، مع ذلك ، في منتهى البساطة . إن الأمر يسوء في ناحية ، ويصلح في ناحية أخرى . ليس هذا بسيء . إن الصحيفة مفيدة جداً ، ولها أثرها . إنها تفتح العيون ، وهذا ما لا يروق للأسياد . إني أشتغل ، على بعد سبعة أو ثمانية كيلو مترات ، في معمل للنجارة تملكه سيدة ، يجب الاعتراف ، بأنها

فاضلة . إنها تقدم لك كتباً من كل نوع ، وغالباً ما نقرأ هذه الكتب ، فتعطينا كثيراً من الأفكار . وعلى هذا فنحن مدينون لها ؛ ولكنني أطلعتُها يوماً على عددٍ من هذه الصحيفة ، فأغضبها ذلك قليلًا ، وقالت لي : « اطرحها يا بيير . إن الذين يصدرونها صبيان أزقة لا عقل لهم . إنها لا تملك إلا أن تزيد من عذابكم ، ولن تحمل لكم إلا السجن وسيبيريا .

وصمت فجأة يفكر ، ثم سأل :

ــ اخبريني ... هل هذا الرجل قريبٌ لك ؟

فأجابت الأم :

ــ كلا ... فنحن غريبان .

وراح بيير يضحك بصمت دون أن يدري أحدٌ سر اغتباطه ؛ وهز رأسه ، فأحست بيلاجي أن كلمة « غريب » لم تكن لتليق بريبين ، وبأنها ، بالنسبة لها ، لفظة مهينة ، فاستدركت :

ــ إنه ليس من عائلتي ولكنني أعرفه منذ أمدٍ بعيد ، وأحترمه كأخي الحقيقي ، كأخي الأكبر .

وكانت لا تجد اللفظة الضرورية للتعبير ، فساءها ذلك ، ولم تقو على كبت زفرة صغيرة ندت عنها ، وران على الكوخ صمت انتظار كئيب . وكان بيير يبدو ، وهو منتصبٌ ، ورأسه يميل نحو كتفه ، كأنه إنما يصغي إلى شيء ما . أما زوجته فأسندت ظهرها إلى المدفأة ، في الظل ، وكانت الأم تشعر بأن نظرها يستقر عليها فلا يريم ، وكانت هي بدورها تحدق بين الفينة والفينة ، في وجهها الأسمر ذي الأنف الأقني ، والذقن الذي يشكل زاوية حادة . وكانت عيناها الخضراوان تلتمعان بألق الحذر واليقظة .

وقال بيير بهدوء :

ــ هو إذن صديق لكِ . إنه خلوق ... نعم ، نعم ، وشديد الزهو بنفسه ، كما يجب أن يكون . إنه رجل ... أليس كذلك يا تانياتا ؟ إنكِ تقولين ...

وقاطعته تانياتا وهي تزم بقوة شفتيها الرقيقتين :
ــ هل هو متزوج ؟
وأجابت الأم بأسىً :
ــ انه أرمل .
وقال تانياتا بصوت عميق يخرج من أعماق صدرها :
ــ هٰذا هو سبب شجاعته ، فالرجل المتزوج لا يقدم على عملٍ كهذا ..
إنه يخاف ..
وصاح بيير :
ــ أنا متزوج ومع هذا ...
فأجابته وهي تقلب شفتيها ، ودون أن تنظر إليه :
ــ حسناً يا صاح .. ماذا دهاك ؟ إنك لا تفعل شيئاً سوى الكلام ، وفي بعض الأحيان تقرأ كتاباً صغيراً .. إن ذلك لا يفيد كثيراً أولئك الذين تتهامس أنت وإيتيين عنهم في الزوايا .
ورد الفلاح محنقاً :
ــ هناك كثيرون يسمعونني ، فأنا كالخميرة ... لقد أحسنت القول ...
ونظر إيتيين إلى زوجته دون أن يتفوه بكلمة ثم طأطأ رأسه من جديد .
وسألت تانياتا :
ــ وعلامَ يتزوج الفلاحون ؟ يقولون انهم بحاجة إلى نساءٍ تعمل ... تعمل بماذا ؟
ورد ايتيين بهدوء :
ــ أليس لديك من العمل ما يكفيكِ ؟
ــ وأي جدوى في هذا العمل ؟ إننا ، في كل الأحوال ، لا نأكل حين نجوع ، كما أن أولادنا يأتون إلى الدنيا فلا نجد لدينا وقتاً للعناية بهم بسبب العمل الذي لا يعطينا حتى الخبز .

ودنت من الأم وجلست إلى جانبها ، وتابعت بإصرار ، دون أن يبدو عليها الحزن أو التشكي :

ــ لقد كان لي طفلان .. أحدهما احترق في الماء المغلي وهو في الثاني من عمره ، أما الآخر فقد ولد ميتاً ، وكان ذلك بسبب هذا العمل اللعين . فهل في ذلك بهجة لي ؟ أنا أقول أن الفلاحين يفقدون عذابهم بالزواج .. إنهم يكبّلون به أيديهم .. وهذا كل شيء . أما إذا كانوا أحراراً فإنهم سيعملون للحصول على كل ما يلزمنا ، وسيسيرون ، جهاراً ، إلى الحقيقة .. كهذا الرجل . أليس هذا صحيحاً ؟

وقالت الأم : ــ بلى ... إنه صحيح يا عزيزتي تانيانا ، وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فإننا لن نكون أسياد حياتنا .

ــ ألك زوج ؟

ــ لقد توفي ... ولي ابن واحد .

ــ وأين هو ؟ هل يعيش معك ؟

ــ إنه في السجن .

وأحست بأن زهواً هادئاً ، يمتزج في قلبها ، بحزنها المعهود الذي تعودت هذه الكلمات دائماً أن تثيره .

ــ إنها المرة الثانية التي يُسجن فيها ، لا لشيء إلا لأنه أدرك حقيقة الله ، وبشّر بها جهاراً . إنه شاب وسيم ، ذكي ، وهو الذي تخيل فكرة الصحيفة ، وهو الذي دفع ميشال ريبين في طريق الحقيقة ، رغم أن ميشال هذا يكبره بضعف سنه . والآن يهمون بمحاكمة ابني من أجل ذلك ، وسيدينونه ، وسيهرب من سيبيريا ليعود من جديد إلى العمل .

وكانت تتكلم وشعور الزهو الذي يتملكها يتنامى دائماً ، ويشد حنجرتها ، ويحملها على أن تتخير الكلمات لترسم صورةً لبطل ، وكانت تستشعر حاجة طاغية ، لأن ترفع لوحة من العقل والضياء ، مقابل المشهد القاتم الذي كانت اليوم شاهداً عليه ، والذي سحقها بفظاعته المجنونة ، وقسوته الوقحة ؛ وكانت وهي تنقاد بلا وعي لحكم

سليقتها السليمة ، تبوتق كل ما رأته من صافٍ ونير ، في شعلة واحدة تطرف عينيها بألقها الصافي .

ـــ لقد ولد كثير من أولئك الناس ، ويولد الكثير منهم أبدا ، ولسوف يناضلون جميعاً حتى الموت ، من أجل الحرية ، من أجل الحقيقة .

وراحت ، وقد نسيت كل حذر ، تتحدث ، دون أن تتعرض لذكر الأسماء عما تعرفه عن العمل السري الذي يتم لتحرير الشعب من أغلال الشره ، وكانت وهي ترسم الصور الغالية على قلبها ، تصب في كلماتها كل قوتها ، وكل الحب الذي أيقظته فيها ، بعد فوات الأوان ، هموم الحياة وصدماتها ؛ وكانت هي نفسها ، تتحمس ، وبغبطة ، لأولئك الذين تستحضرهم في ذاكرتها ، وقد جمّلهم ، وأضفى النور عليهم ذلك الاحساس الذي كان يتملكها .

ـــ إنه عملٌ تشترك فيه الأرض كلها ، والمدائن كلها ، فالناس الطيبون قوة لم تُقدَّر ، ولم يحسب لها حساب بعد ، وهي تنمو باطّراد ، وستظل تنمو إلى أن تجيء ساعة انتصارنا .

وكان صوتها ينساب متزناً ، وكانت تجد سهولة في التعبير ، وتنضد كلماتها كلآلىء بلورية متعددة الألوان ، تنضدها بيسر ، في خيط الرغبة المتين ، رغبتها في أن تطهر قلبها من دم نهارها وحوله . وكانت تحس كأنما قد امتدت للفلاحين جذورٌ هناك ، في المكان الذي نقلهم إليه حديثها ، وأنهم كانوا يرنون إليها ولا يبدون حراكاً . وكانت تسمع الأنفاس المتقطعة ، أنفاس المرأة الجالسة إلى جانبها ، فيقوي ذلك كله من إيمانها بما تقول ، وبما تعد به ...

ـــ على كل أولئك الذين يحيون حياة أليمة ، والذين سحقهم البؤس وجُردوا من كل حق ، وأذلوا للأغنياء وأجرائهم ؛ على هؤلاء جميعاً ، على أبناء الشعب كلهم أن يسيروا للقاء أولئك الذين يهلكون في السجون من أجلهم ؛ ويواجهون الموت والتعذيب .. إنهم يدلون الناس أين هي طريق السعادة ، سعادة الجميع ، دون أن يكون لهم في ذلك

نفع شخصي ؛ ويعترفون بإخلاص أنها طريق شاقة ؛ ولا يجرون أحداً إليهم بالقوة ، ولكن إذا ما انتظم المرء في صفوفهم ، فإنه لن يخرج منها أبداً ؛ لأن سيقتنع بأنهم على حق ، وبأن طريقهم هذا هو الطريق الخير ، ولا طريق آخر سواه .

وكان يُسرُّ الأم أن تحقق رغبتها في النهاية : أن تحدث الناس عن الحقيقة بنفسها .

ـــ يستطيع الشعب أن يسير مع أصدقاء كهؤلاء ؛ أصدقاء لا يلقون السلاح مكتفين بمكاسب ضئيلة ، ولا يتوقفون عن الكفاح قبل أن يدحروا الخداعين ، والأشرار ، والطماعين جميعاً ؛ ولا تتشابك أيديهم إذا لم يكن الشعب بأسره روحاً واحدة ، وإذا لم يصح بصوت واحد : إني أنا السيد ، وسأضع بنفسي الشرائع العادلة للجميع .

وصمتت متعبة ، ورنت إلى رفاقها ، وهي على يقين مطمئن بأن كلماتها لم تتلاشَ دون أن تترك آثاراً لها . وكان الفلاحون يسمّرون أبصارهم عليها ، وفي ملامحهم أنهم ينتظرون منها المزيد . وكان بيير يشبك ذراعيه ، وكانت عيناه ترفان وعلى وجنتيه اللتين تغطيهما بقع الكلف ، ترتعش بسمة . وكان إيتيين ينحني مائلًا بكل ثقله إلى الأمام ، وهو يسند مرفقه إلى الطاولة ، متطامن العنق كأنه ما زال يصغي . وكان هناك ظلٌّ ينعكس على وجهه ، فيضفي على ملامحه الكمال ، وكانت تاتيانا جالسة إلى جانب الأم تسند مرفقيها إلى ركبتيها ، وتحدق في قدميها .

وغمغم بيير :

ـــ هذا هو الحال .

ثم جلس بهدوء على المقعد ؛ وهو يهز رأسه .

ونهض إيتيين ببطء ، ورنا إلى زوجته ، وفتح ذراعيه كأنه يود أن يعانق شيئاً ما . ثم قال بصوت خفيض متأمل :

ـــ الحق أنه إذا ما أردنا أن ننخرط في هذا العمل ، فعلينا أن نتفرغ له بكل قلوبنا .

وقاطعه بيير باستحياء :
ــ أجل ، ودونما تَلفتٍ إلى الوراء .
وتابع إيتيين :
ــ إنه مشروع ضخم .
وأكمل بيير : للأرض كلها .

18

وكانت الأم تصغي إليهم وهي تسند ظهرها إلى الجدار وتلقي برأسها إلى الوراء . ونهضت تاتيانا ، وتطلعت حولها ، ثم عادت إلى الجلوس ، وكانت عيناها الخضراوان تلتمعان بألقٍ جاف ، وتصبان على الرجلين نظرات يختلط فيها الازدراء بعدم الارتياح .

وقالت للأم فجأة :
ــ يظهر أنك قد قاسيت كثيراً من الأسى ؟
ــ نعم ... لقد قاسيت .
ــ إنك تحسنين الكلام ، وأحاديثك تجذب السامع حتى ليقول في نفسه :
يا إلهي ... ليتني أستطيع الا أرى إلا من خلال ناس كهؤلاء ، وحياة كهذه . كيف ترانا نعيش ؟ إننا نعيش كالخراف ... فأنا مثلاً أعرف القراءة والكتابة ، أطالع الكتب وأفكر كثيراً ، وتخطر لي أحياناً ، خلال الليل ، أفكاراً تمنع عني الكرى . وأية فائدة في ذلك ؟ إذا لم أفكر سببت لنفسي القلق بلا جدوى ، وإذا فكرت ففي سبيل اللاشيء أيضاً .

وكان في نظرتها سخرية ، وكانت تتوقف بين الفينة والفينة ، فتقطع بذلك مجرى حديثها ، على حين غرة ، كما تقطع خيطاً بين أسنانها . وكان الفلاحان صامتين ، والهواء يداعب زجاج النوافذ ، ويعبث بقش السقف ؛ ويزمجر في المدخنة بصوت منخفض . وكان هناك كلبٌ يهر ، وبعض قطرات من المطر ، تنقر البلاط ، على كره منها . وارتعش

لهب الصباح وشحب لونه ، ولكنه عاد على الفور إلى التألق بنشاط وثبات :

— لقد كنت أصغي إلى ما تقولون : « هو ذا السبب الذي يحيا من أجله الناس » وبدا لى غريباً إنني كنت أعرف كل هذا من قبل ، ولكنني لم أك أسمع به قبل أن أعرفكم ؛ ولم تراودني أبداً أفكارٌ من هذا النوع .

وقال إيتيين بصوت بطيء كئيب :

— يجب أن نتناول العشاء ياتاتيانا ، وأن تطفئي المصباح ، فقد يلاحظ الناس أن النور ، في منزل آل تشوماكوف ، قد ظل مضاءً إلى وقت متأخر . إن ذلك لا أهمية له بالنسبة لنا نحن ، ولكنه قد يكون بالنسبة لضيفتنا غير مناسب .

ونهضت تاتيانا ، وربضت بالقرب من الفرن .

وقال بيير بصوت خفيض وهو يبتسم :

— نعـ ... ـم يا صاح ، يجب أن نكون على أتم الاستعداد ، وعندما تظهر الصحيفة ...

— أنا لا أقول ذلك لمصلحتي ... لأنه لو أدّى الأمر إلى اعتقالي ، فلن يكون في ذلك كارثة كبرى .

واقتربت زوجته من المائدة وقالت :

— تنحّ قليلًا .

فنهض وابتعد ، ولكنه قال ، وهو يراها تضع غطاء المائدة :

— خمسة دراهم ثمن الحزمة ... هذا هو سعرنا ، وهيهات أن يصل إلى هذه القيمة . وعندما تضم الحزمة مئة منا ...

وداخل الأم فجأة إشفاق عليه ، ثم أخذت ترتاح إليه شيئا فشيئا وقد شعرت بعد أن أصغت إلى كلماته ، انها قد تخففت من حمل النهار الثقيل القذر ، وكانت راضية عن نفسها ، تود أن تكون طيبة بالنسبة للجميع .

وقالت :

ـــ ليس صحيحا ما تقوله يا «معلم» . إن المرء غير ملزم بأن يرتضي الثمن الذي يحدده أولئك الذين لا يبتغون منه شيئا إلا دمه . وعليك ان تعرف ، أنت نفسك قيمتك لا بالنسبة إلى أعدائك ، بل بالنسبة إلى أصدقائك .

وصاح الفلاح :

ـــ أي أصدقاء لنا ؟ انهم يظلون أصدقاء .. حتى تلوح لهم عظمة يتنازعونها .

ـــ بلى ... فللشعب أصدقاؤه .

ورد ايتيين ساهما :

ـــ حسنا ... يجب أن نوجد من هؤلاء الأصقاء هنا .

واطرق ايتيين :

ـــ أجل ... هذا ما يجب أن نفعله .

ودعتهم تانيانا :

ـــ تفضلوا إلى الطعام .

وراح بيير خلال العشاء يتحدث بحيوية وقد بدا عليه ان كلمات الأم قد أثرت فيه وادهشته :

ـــ عليك ان ترحلي من هنا في الصباح الباكر لكيلا تستثيري الانتباه ، استأجري عربة من المحطة التالية ، ولا تتوجهي إلى المدينة .

وقال اتيين :

ـــ لماذا ؟ سأوصلها بنفسي .

ـــ لا حاجة لذلك . لأنه اذا حدث شيء ما فإنهم سيسألونك : هل قضت الليل عندك ؟ ـــ «نعم ...» ـــ والى أين توجهت ؟ ـــ لقد رافقتها ... ـــ أوه ، أوه لقد رافقتها ؟ تفضل اذن إلى السجن ... مفهوم ؟ فهل أنت مستعجل للذهاب إلى السجن ؟ ولم العجلة ؟ فلكل شيء أوان ، وسيحين الوقت ، كما يقال ، ويموت القيصر . على أنك اذا قلت ببساطة : ـــ لقد نامت

هنا ، ثم استأجرت عربة وذهبت ... فلن يؤذوك لأن قريتنا معبر ، وهناك دائما من يقضي ليله عند بيير أو بول .

وسألته تاتيانا بسخرية :

ــ أين تعلمت الخوف يا بيير ؟

فصاح وهو يربت على ركبته :

ــ يجب أن يعرف المرء كل شيء يا عزيزتي . أن يعرف كيف يخاف ، وان يعرف كيف يكون شجاعا . ألا تتذكرين كيف أساء رئيس المقاطعة معاملة فاغانوف بسبب هذه الصحيفة، والآن ... انك لن تستطيعي أن تحملي صاحبنا فاغانوف على أن يمسك بيده كتابا ؛ مهما أغريته بالمال . انكم تستطيعون أن تصدقوني ، فأنا امرؤ عجيب أستطيع أن أحسن الحيلة ، والناس جميعا يعرفون ذلك جيدا . سأبذر لكم الكراريس ، والوريقات الصغيرة ، كما يجب ، وبالكميات التي تشاؤون ، صحيح أن جماعاتنا ليسوا متعلمين ، وانهم قوم رعاديد ، ولكن زمننا هذا ، يحطم مع ذلك أضلاعهم لدرجة لا يستطيع أحدهم معها الا أن يحملق بعينيه ، وان يتساءل ماذا يعني هذا ؟ عندئذ يجيبه الكراس الصغير ببساطة : خذ ، هذا ما يعنيه ، فكر ، وع . وهناك حالات يفهم فيها الأمي أكثر من المتعلم ، لا سيما إذا كان هذا المتعلم يأكل جيدا .. اني أعرف البلاد معرفة جيدة ، وأرى كثيرا من الأشياء ، فلا يكفي القول بأننا نستطيع أن نعيش ، ولكننا بحاجة إلى دماغ ... وإلى كثير من البراعة ،لكيلا نقع سريعا في الفخ ؛ فالسلطات ، تشم هي أيضا ما هنالك من جديد ، والفلاح يضربها ببرود ، ويتبسم قليلا دون أن يكون في بسمته أية عذوبة . وبالاختصار ... إنه يريد أن يستغني عن السلطات ...

بالأمس جاؤوا إلى « سموليا كوفو » وهي مزرعة ليست ببعيدة عنا ، جاؤوا لتحصيل ضرائبهم ، ولكن الفلاحين تمردوا ، وامتشقوا المذاري في وجوههم ، فخاطبهم المفوض بحزم : آه يا ابناء العاهرات ... إنكم اذا تتمردون على القيصر ؟ وكان هناك فلاح اسمه « سبيكافين » تصدى

لهم قائلا : ـــ الجحيم لك ولقيصرك . فما هو هذا القيصر الذي يسلبنا آخر قميص على أجسادنا ؟ ... هذا ما وصلت إليه الحال أيتها الأم ... ومن الأكيد أن سبيكافين قد أودع السجن ، ولكن كلمته يرددها حتى الصغار ، إنها تدوّي ، إنها دائما حية .

وكان لا يأكل ، بل يتكلم ، ويتكلم بوشوشة متلاحقة سريعة ، وكانت عيناه السوداوان الماكرتان تبرقان بحيوية ، وكان يفرغ أمام الامام بسخاء ، ملاحظاته التي لا تحصى عن الحياة في الريف ، كأنه إنما يفرغ أمامها كيسا من القطع النقدية الصغيرة .

ويقاطعه ايتيين مرتين قائلا له :

ـــ كل إذن ..

فيتناول لقمة ويحسو ملعقة من الطعام ، ثم يعود من جديد فيتدفق في الحديث كحسون صغير مستغرق في التغريد . وأخيرا انتهى العشاء ، ووثب هو واقفا على قدميه ثم أعلن :

ـــ حسنا ... لقد آن لي أن أعود .

ووقف أمام الأم يهز يدها :

ـــ وداعا ؛ فقد لا نلتقي ثانية أبدا ، وعليّ أن أقول لك بأن هذا كله جيد جدا ، وانه لجميل أن ألتقي ، بك وان استمع إليك . ترى هل في حقيبتك شيء آخر غير الكتب والصحف ؟ شال من صوف ؟ تماما .. شال من صوف ، تذكر ذلك يا ايتيين . سيأتيك بحقيبتك في الحال . هيا بنا يا ايتيين ... وداعا ... وعوفيتم .

وعندما خرجا ، سمع صراخ الصراصير ، وعبث الريح في السقف ، وغطيطها في المدفأة ، ونقرات المطر الخفيف الرتيبة على النافذة . وأعدّت تاتيانا فراشا للأم من بعض الملابس التي فرشتها على المقعد .

وقالت بيلاجي :

ـــ إنه فتى لبق .

ـــ بل جرسٌ صغير يرن ، ويرن ، ولكنه لا يسمع من بعيد .

ـــ وزوجك ؟

ــ رجل طيب لا يشرب أبدا ، ونحن منسجمان أشد الانسجام ... إلا أنه ضعيف الشكيمة .

وانتصبت ثم تابعت بعد صمت قصير :

ــ ماذا يجب أن نفعل الآن ؟ نثير الشغب ؟ هذا أكيد ، إن الناس جميعا يفكرون بذلك ... ولكن ... كل في زاويته الصغيرة ؛ ويقتضي أن نجهر به عاليا ، وأن يكون هناك واحد يوطد عزمه أولا ...

وجلست على المقعد ثم سألت فجأة :

ــ لقد قلت أن هناك أيضا فتيات صغيرات يهتممن بالأمر ، ويقمن بتعليم القراءة للعمال . أفلا يبعث ذلك ضجرهن وخوفهن ؟

وبعد أن استمعت بانتباه إلى جواب الأم ، اطلقت زفرة عميقة ، ثم استأنفت الكلام وهي مطرقة :

ــ لقد قرأت مرة في أحد الكتب هذه الكلمات : «ان الحياة لا معنى لها» ، وقد فهمت ذلك سريعا ، لأنني كنت قد عرفت الحياة . إننا نملك أفكارا ، ولكنها غير مترابطة . إنها تهيم كالنعاج بدون راع ؛ وليس هناك ما يجمعها ولا من يجمعها . هذه هي الحياة التي لا معنى لها ، فليتني أستطيع الهرب بعيدا عنها ، دون أن ألتفت حتى إلى الوراء . ألا ما أشد حزن المرء حين يكون على هذا المستوى من الفهم .

وكانت الأم تقرأ هذا الحزن في الألق الجاف الذي ينعكس من عينيها الخضراوين ، وفي وجهها الناحل ، وتسمعه في صوتها . فأرادت أن تسري عنها ، وان تلاطفها :

ــ ولكنك يا عزيزتي تدركين ما يجب عمله ..!

وقاطعتها تاتيانا بهدوء :

ــ يجب أن نعرف ... إن سريرك جاهز ... فهيا إلى الرقاد .

ومضت نحو المدفأة ، ولبثت هناك صامتة منتصبة ، قاسية الملامح منقبضة الصدر .

ونامت الأم دون أن تخلع ثيابها ، واستشعرت تعباً أليماً في عظامها . فأنّت بهدوء . وأطفأت تاتيانا المصباح ، وعندما غمرت الظلمة الكثيفة

الكوخ ، رنّ صوتها الخفيض الرتيب ، رن من جديد كأنه إنما يمسح شيئاً عن الوجه العريض ، وجه الظلمات الخانقة :

ــ أرى انك لا تصلين ... وأنا أيضاً لا أعتقد بوجود الله ولا بالمعجزات .

وتقلبت الأم في مضجعها بقلق ، وكان الظلام الذي لا غور له ، يحدق إليها من النافذة ، وحفيف خفيف ، وضجيج لا يكاد يُسمع ، يزحفان في الصمت بعناد ، وقالت برعبٍ كأنها إنما تهمس همساً :

ــ فيما يتعلق بالله لا أعرف شيئاً ، ولكنني أؤمن بالمسيح وكلماته : « أحب جارك كما تحب نفسك » ... أُجل ... إني أؤمن بهذا .

وصمتت تاتيانا ، وكانت الأم ترى في العتمة الخطوط الغامضة لشبحها المنتصب الذي يبدو أكمد اللون فوق سواد المدفأة ، وظلت المرأة الشابة واقفة أمامها جامدة . أما الأم ، فقد أغمضت عينيها مغمومة .

وفجأة ارتفع صوت جليدي يقول :

ــ أنا لا أستطيع أن أغفر لله والناس موت أبنائي ... لا أستطيع ذلك أبداً .

ونهضت الأم متأثرة ، وكانت تدرك عمق الألم الذي ألهم هذه الكلمات ، فقالت لتاتيانا بحنان :

ــ إنك ما زلت شابة وسيكون لك أولاد آخرون .

ــ كلا ... إني بائسة ... فلقد قال لي الطبيب إني لن أرزق أطفالًا أبداً .

وركضت فوق أرض الغرفة فأرة ، ومزقت جمود الصمت ، كبرقٍ غير مرئي ، أصوات قرض جاف جهور ، وسُمع من جديد ، وبوضوح ، حفيف المطر وصخبه ، وهو ينهمر على قش السقف الذي يبدو كأنما بعثرته أصابع دقيقة جبانة ، وعلى الأرض كانت

قطرات الماء تتساقط كئيبة ، فتنغّم الانسياب البطيء لهذه الليلة من ليالي الخريف .

وسمعت الأم ، في سهدها الثقيل ، وقع خطىً في الشارع ثقيلة ، ثم فتح البابِ بحذر ، وهتف صوت مخنوق :

ــ تاتيانا ، هل نمتِ ؟

ــ كلا .

ــ وهي ... هل نامت ؟

ــ بلا شك .

واندلع لهبٌ ارتعش قليلًا ثم غرق في الظلمة . واقترب الفلاح من سرير الأم ، فسوىّ الفراء الذي كان يلف ساقيها . وأثرت هذه العناية في نفس بيلاجي ، فابتسمت وهي تطبق عينيها . ونضا إيتيين ثيابه بصمت ، ثم صعد إلى « التتخيتة » وهدأت بعد ذلك كل حركة .

ولبثت الأم جامدة لا تتحرك ، تصيخ بسمعها إلى الذبذبات الكسول ، ذبذبات الصمت المسهد ، ويرتسم أمامها في الظلمات وجه ريبين المضرج بالدم .

وتناهى إليها من « التتخيتة » همس :

ــ أترى ؟.. أنظر إلى القوم الذين انخرطوا في العمل .. إنهم طعنوا في السن ، وركبتهم آلاف الأحزان ، وجهدوا طويلًا ، وقد آن لهم أن يرتاحوا ... وأنت يا إيتيين .. أنت الشاب السليم المنطق ... هه ؟

ورد صوت الفلاح الخشن :

ــ لا يمكن التورط في أمر كهذا ، قبل التفكير ...

ــ لقد سمعت هذا منك قبل الآن .

وخمدت الأصوات ، ثم عادت من جديد ، وغمغم إيتيين :

ــ يجب التصرف هكذا . التحدث معهم أولًا على حدة . خذي مثلًا الكسي ماكوف . إنه فتى ذكي متعلم تحتاجه السلطات ، وكورين أيضاً رجل راجح العقل ، و « نيازر » فاضل وشجاع . وبعد ذلك سنرى . يجب أن أقابل أولئك الذين كانت تتحدث عنهم ،

وسآخذ فأسي ، وأنط إلى المدينة متظاهراً بأني أسعى لربح بعض الدريهمات من تقطيع الحطب . يجب أن نكون حذرين . إنها على حق حين تقول : إن قيمة الرجل هي عمله الشخصي . أرأيت إلى ذلك الفلاح الذي يدعى ريبين ؟ إنه لن يخضع حتى لله ؛ لقد صمد للضربة ورجلاه ثابتتان في الأرض . ونيكيتا ؟ لقد سيطر عليه الخجل . هذا فظيع .

ـ يضربون رجلًا أمامكم ، وتظلون أنتم مطبقي الأفواه ؟

ـ مهلًا ... واشكري الله ، لأنهم لم يرغمونا نحن على ضربه .

ووشوش طويلًا ؛ تارة بصوت منخفض جداً لدرجة كانت الأم معها لا تكاد تسمع كلماته ، وتارة أخرى كان يرفع من صوته فجأة ، فتضطر زوجته أن تنهره :

ـ على رسلك ... إنك توشك أن توقظها .

وغرقت الأم في نوم عميق ، كأن غمامة ظليلة قد هبطت عليها فلفتها وحملتها .

وأيقظتها تاتيانا عندما كان الفجر الأغبش الذي ما زال أعشى ، يُطل من نوافذ الكوخ ، والأنغام النحاسية ، أنغام جرس الكنيسة ، تحوم وسنى فوق القرية ، ثم تموت في الصمت البارد .

ـ لقد هيأت الشاي ... فاشربي ، وإلا فإنك ستبردين في العربة ...

وسأل إيتيين الأم وهو يمشط لحيته الشعثاء ، سألها بلهجة عادية عن عنوانها في المدينة ، فخيل إليها أن ملامحه قد نضجت ، وأنه أقرب إلى القلب منه في السهرة . وفيما كانوا يتناولون الشاي قال إيتيين ضاحكا :

ـ ما أغرب الشيء الذي حدث .

وسألته تاتيانا : ـ ماذا ؟

ـ تعارفنا . لقد كان بمنتهى البساطة .

وقالت الأم وهي ساهمة الملامح ، ولكنها مقتنعة :

ـــ في هذه الأمور بساطة مدهشة في كل شيء .

واستأذنها ، ولم يفرطا في الكلام بل كانا به بخيلين ، ولكنهما أغدقا عليها آلاف التوصيات والتنبيهاتِ فيما يتعلق برحلتها .

وعندما جلست بيلاجي في العربة ، راحت تفكر في هذا الفلاح : لقد كان يقوم بواجبه بحذر ، ودونما ضجيج أو هوادة تماماً كالخلد . إن صوت زوجته الناقم سيرنّ أبداً في أذنها ، وستظل عيناها الخضر أو ان تلتمعان بالألق المشتعل ، ومهما عاشت ، فسيظل يعيش فيها ذلك الألم الحاقد ، ألم الذئبة ، ألم الأم التي تبكي أولادها الراحلين .

وتذكرت ريبين . تذكرت دمه ووجهه وعينيه الملتهبتين ، وكلماته ، وعصر قلبها ذلك الاحساس المرتسم على وجهه ، الاحساس المر بعجزه أمام الوحوش . وطوال الطريق ، وعلى اللوحة الباهتة ، لوحة النهار الأكمد ، كان شبح ميشال القوي ينتصب أمام عينها ، ينتصب بلحيته السوداء وقميصه الممزق ، ويديه الموثقتين وراء ظهره ، ورأسه المشعث ، ووجهه الذي يضيؤه الغضب والايمان بالحقيقة . وكانت تفكر في القرى التي لا تحصى والتي تفترشِ الأرض خائفة ، وفي الناس الذين كانوا ينتظرون مقدم العدالة ، وفي آلاف الكائنات التي كانت تعمل صامتة ، بلا هدف ، طوال حياتها ، ودون أن تنتظر شيئاً .

وكانت الحياة تبدو لها كسهل وعر ، ينتظر الفلاحين بصمت وترقب ؛ كأنه يعِد الأيدي الحرة الشريفة قائلا :

ـــ اخصبيني ببذور العقل والحقيقة ، أعدها إليك مئة ضعف .

وتذكرت النجاح الذي حالف رحلتها ، فأحست في أعماق قلبها بنبضة فرح حلوة ، ما لبثت أن كبتتها بخفر .

19

وفتح نيقولا لها الباب ، وهو منفوش الشعر ، وفي يده كتاب ، وصاح بفرح غامر : ـــ لقد عدتِ بسرعة !

وكانت عيناه اليقظتان تبرقان بود تحت نظاريته . وساعدها على

خلع معطفها وقال لها ، وهو ينظر إليها بابتسامة حميمة : هل عرفتِ ؟ لقد جاؤوا ففتشوا ، هذه الليلة ... هنا ... فساءلت نفسي عن السبب وخشيت أن يكون قد حدث لك شيء ما .. إلا أنهم لم يوقفوني .. ولكن من المؤكد أنك لو كنت هنا لما أطلقوا سراحي أبداً .

وأدخلها إلى غرفة الطعام وهو يتابع باندفاع :

ـــ ومع ذلك فقد أطلقوني .. إن ذلك لا يحزنني ... ولكني سئمت إحصاء الفلاحين الذين لا يملكون جياداً .

وكانت الغرفة تبدو كأن مارداً قد طرق من الخارج جدران المنزل ، طرقها في نوبة من مزاح بليد فزلزلها لدرجة انقلب معها ما في الداخل ، فإذا عاليه سافله ، وكانت اللوحات ملقاة على الأرض وطنافس الجدران منزوعة ، تتدلى خرقاً ، وركيزة النافذة مبتورة ، والرماد منتشراً بالقرب من المدفأة .

وهزت الأم رأسها عندما رأت المسكن المألوف لديها ، وتسمر بصرها على نيقولا الذي كانت تحس في منزله ، بشيء من الجدة .

وعلى الطاولة ، بالقرب من الموقد الخامد كانت بعض الأواني المطبخية الوسخة ، وقليل من المقانق والجبن ، على ورقة بدلًا من صحن ، وفتات خبز مبعثرة وكتب ، وجمرات في الموقد منطفئة . وابتسمت الأم ، وابتسم نيقولا كذلك بسمة مرتبكة :

ـــ إني أنا الذي أكملت لوحة التخريب هذه .. ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا لا بأس ؛ فإنهم كما أعتقد ، سيعودون ، ولهذا تركت كل شيء على حاله .. حسناً .. وكيف كانت رحلتك ؟

وصعقها هذا السؤال ، وانتصبت أمامها من جديد صورة ريبين ؛ وشعرت أنها أخطأت لأنها لم تبدأ الحديث عنه في الحال ، ودنت من نيقولا ، وأخذت تقص عليه ما حدث ، وهي تجهد نفسها للاحتفاظ بهدوئها ، خشية أن تنسى شيئاً من التفاصيل :

ـــ لقد قبضوا عليه ...

وارتعش نيقولا . — وكيف ذلك ؟

وأوقفت الأم سؤاله بإشارة من يدها ، وأتمت حديثها كأنها إنما تمثل العدالة متجسدة وقد جاءت تشكو إليها التعذيب الذي لقيه كل إنسان منا ... واستلقى نيقولا على متكأ مقعده ، وراح يصغي وهو شاحب الوجه ، ثم نزع ببطء نظارتيه ، ووضعهما على الطاولة ، ومسح وجهه بيديه ، كأنه إنما يمسح عنه خيوط عنكبوت غير مرئي ، وتصرمت ملامحه ، ونفرت وجناته بشكل غريب وارتعشت فتحتا أنفه ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تراه بيلاجي فيها بمثل هذه الحال ، فداخلها من ذلك بعض الرعب .

وعندما أنهت حديثها نهض ، وخطا ، صامتاً بضع خطوات ، وقبضتاه في أعماق جيوبه ، ثم لاك بين أسنانه هذه الكلمات :

— إنه رجلٌ قادر ، وسيقاسي كثيراً في السجن ، لأن أمثاله من الرجال يستشعرون الضيق في غيابه .

وأوغلت قبضتاه في جيوبه أكثر من السابق ، محاولًا إخفاء إنفعالٍ كانت الأم ، رغم ذلك ، تحسه ، وتشعر أنه ينتقل إليها ، وتقلصت عيناه حتى غدتا كرأس سكين ، وقال بغضب بارد وهو يستأنف سيره :

— يا للفظاعة . حفنة من الأغبياء ، يضربون ويخنقون ويسحقون ليحموا سلطانهم المشؤوم على الشعب . إن الوحشية تزداد ، والقسوة تغدو شريعة الوجود فتأملي . أن بعضهم يضرب ، وينطلق من قيده كالوحوش مطمئناً إلى فجوره . إنهم مصابون بظمأ إلى التعذيب شهواني ، مصابون بذلك الداء الكريه ، داء العبيد الذين يُباح لهم أن يظهروا غرائزهم المنحطة ، وعاداتهم البهيمية ؛ بكل ما فيهم من قوة . أما الآخرون فشهوة الثأر تسممهم ، انهم يصبحون ، وقد أخبلتهم الضربات ، بكماً وعمياناً ، لقد أفسد الشعب ، الشعب بكامله .

وتوقف قليلًا ، وصمت وهو يكز أسنانه ثم استأنف بهدوء :

— إن المرء ليغدو ، رغماً عنه ، ضارياً ... في هذه الحياة الضارية .

وسيطر على انفعاله ، واستعاد بعض هدوئه ، ولمعت عيناه ببريق حازم ، ثم رنا إلى الأم والدموع الصامتة تتدحرج على مقلتيه :
ــ ليس لدينا وقت لنضيعه يا نيلوفنا ، فلنتمالك أنفسنا أيتها الرفيقة الغالية ..
واقترب منها ، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة ، ثم أخذ يدها وسألها :
ــ أين هي حقبتك ؟
ــ إنها في المطبخ .
ــ إن المنزل محاط بالعيون ، ولن ننجح في إخراج شيء من الأوراق دون أن نُرى ... لا أدري أين نخبيء هذه المنشورات ، فأنا أعتقد أنهم سيعودون الليلة ليفتشوا ... لنحرق إذن كل هذا ، لنحرقه مهما كلفنا الأمر .
وسألته الأم : ــ نحرق ماذا ؟
ــ كل ما في الحقيبة .
وأدركت ماذا يقصد ، ورغم أن حزنها كان عظيماً ، فإن الزهو الذي إستشعرته لكونها قد نجحت ، هذا الزهو طرح على شفتيها بسمة فقالت :
ــ لا يوجد شيء في الحقيبة ... حتى ولا قصاصة واحدة من الورق ...
وراحت وهي تزداد حيوية شيئاً فشيئاً، راحت تتحدث عن اجتماعها بتشوماكوف. وأصغى نيقولا إليها باديء الأمر، وهو كئيب، مقطب الحاجبين، ولكنه ما لبث أن صاح دهشاً، وقاطعها:
ــ آه ... هذا رائع ... إن حظك مدهش .
وشدّ على يدها ، ثم قال بهدوء :
ــ إن إيمانك بالشعب أثّر فيّ لدرجة ... في الحقيقة ، إني أحبك كأمي نفسها .
وكانت هي تتتبعه ببصرها باسمة ، يدفعها الفضول ، فتحاول أن تدرك من أين فاض عليه هذا الألق ، وتلك الحيوية .

وقال وهو يفرك يديه ويضحك ضحكة صغيرة لطيفة :

ـــ إنه حقاً لرائع . أتعلمين ؟ لقد قضيت هذه الأيام الأخيرة بطريقة مدهشة ... كنت طوال الوقت مع العمال ، أقرأ لهم ، وأحدثهم ، وأنظر إليهم ... فتزودت بشيء من الصفاء والطهارة . يا لهم من قوم طيبين يا نيلوفنا ... أعني العمال الشبان ... إنهم أشداء ، حساسون ، يملأهم التعطش لفهم كل شيء . إن من يراهم لا يستطيع إلا أن يقول في نفسه : إن روسيا ستكون أعظم بلدٍ ديموقراطي على وجه الأرض .

ورفع ذراعه في حركة تأكيدية كأنه إنما يؤدي قسماً ، ثم تابع بعد فترة من الصمت :

ـــ لقد كنت أعيش كالسجين ، وأكتب و ... ، وإلى حد ما يمكن القول إني تخثرت ، وتعفنت على الأوراق التافهة والأرقام إن عاماً من حياة كهذه هو نوع من المسخ . لقد تعودت الحياة بين الكادحين ، لذلك فقد شعرت بشيء من عدم الارتياح عندما انتزعت نفسي من صميم تلك الحياة . والآن ... أستطيع أن أعيش من جديد بحرية ، أستطيع أن أراهم .. أن أشغل وقتي معهم ، فأظل بذلك قريباً من مهد الأفكار الناشئة ، قريباً من الفتوة ، من الطاقة الخلّاقة . إن هذا لبسيط بشكل مدهش ، وجميل ومثير بشكل رهيب ؛ إذ يغدو المرء فتياً صلب العود ، يحيا حياة ثراء ...

وأخذ يضحك بمرح يشوبه بعض الارتباك ، وكانت غبطته تنتقل إلى الأم التي كانت تدرك سبب هذه الغبطة ... ثم أردف :

ـــ ثم ... إنك امرأة خارقة . ما أبرعك في وصف الناس بطريقة مؤثرة ... وما أشد فهمك لهم .

وجلس إلى جانبها وهو يشيح بوجهه المغتبط ، ويمسد شعره ، ليخفي بذلك ارتباكه ، ولكنه ما لبث أن التفت إليها ، وراح يصغي بنهم إلى بقية حديثها ، الذي كان ينساب ببساطة ووضوح .

وصاح فجأة :

ــ يا لطالعك المدهش . لقد كان حظلك بالاعتقال يعادل نسبة تسعة على عشرة .. ثم تغير الوضع فجأة ... نعم ... إننا نشعر أن الفلاح قد بدأ يتحرك ، وهذا أمر طبيعي ... هذه المرأة أراها جيداً ... إننا بحاجة إلى ناس يهتمون ، على وجه الخصوص ، بالريف ، ناس ... إن هؤلاء ينقصوننا ... والحياة تتطلب مئات السواعد .

وهمست الأم :

ــ ليت ولدي بول يسترد حريته هو وأندريه !

ورمقها بنظرة ثم أطرق :

ــ إسمعي يا نيلوفنا . إن ما سأقوله سيؤلمك كثيراً ، ولكني مع ذلك سأقوله : أنا أعرف بول جيداً . إنه لن يفر من السجن . إنه يرغب في أن يُحاكَم ... أن يبدو في أوج قوته ، ولن يتخلى عن ذلك أبداً . ويجب ألا يفعل ... إنه سيهرب من سيبيريا .

وزفرت الأم وأجابت بهدوء :

ــ سيان عندي ... إنه يعرف ما هو الأفضل ...

وهمهم نيقولا ، بعد لحظة ، وهو يحدق بها من خلال نظارتيه :

ــ هم . ليت « صاحبك » الفلاح يتعجل المجيء لزيارتنا . أرأيت ؟ إنه لضروري جداً أن نكتب منشوراً عن ريبين ، ونخصصه للريف . فلن يضيره ذلك إذا ما تصرف بشجاعة . وسأكتب المنشور اليوم ، وستطبعه ليوميلا بسرعة ، ولكن كيف نستطيع إيصاله إلى هناك ؟ هنا المشكلة ..

ــ سأحمله أنا .

وأجاب نيقولا بحدة :

ــ كلا ... شكراً ... ولكني أفكر في الأمر وأرى أن فيسوشيكوف جدير بهذه المهمة ... أليس كذلك ؟

ــ هل يجب أن نفاتحه بها ؟

ــ جربي ... وافهميه كيف يقوم بها .

ــ وأنا ماذا أفعل ؟

ــ طمني بالك .

وجلس ، ثم راح يكتب ، وكانت الأم تنظر إليه وهي تنظف المائدة ، فترى قلمه الذي يرتعش في يده ، ويغطي الورقة بكثير من الكلمات ، وكان عنقه يختلج أحياناً ، فيرفع رأسه ، ويغمض عينيه ، وتهتز ذقنه ، فيؤثر ذلك في نفس بيلاجي .

وقال وهو ينهض :

ــ هو ذا المنشور جاهز . خبئي هذه الورقة في ثيابك ، ولا تنسي انه إذا ما جاء الدرك فإنهم سيفتشونك أنت أيضاً .

وقالت بهدوء :

ــ ليحملهم الشيطان .

وعند المساء جاء الطبيب ، وقال وهو يمشي في الحجرة بخطى محمومة :

ــ ما الذي أثار قلق السلطات فجأة ؟ لقد قاموا خلال هذه الليلة بسبع حملات تفتيشية !.. أين هو مريضنا ؟

وأجاب نيقولا :

ــ لقد رحل البارحة ... وهذا النهار هو نهار السبت ... ألا تعلم أنه لا يستطيع أن يتخلف عن جلسة القراءة ؟..

ــ إنه لمن الحمق أن يفعل ذلك ورأسه منفلق !

ــ هذا ما أردت أن أقنعه به فلم أوفق .

وعلقت الأم :

لقد تملكته الرغبة في أن يتباهى قليلًا أمام الرفاق ، أن يقول : انظروا إلي ؛ فلقد سفحت دمي ...

وقذفها الطبيب بنظرة عجلى ، وبدت في ملامحه الضراوة ، ثم قال وهو يكز أسنانه :

ــ أوه ، أوه . انكم دمويون .

ــ حسناً ، يا عجوزي ، ليس لك ما تفعله هنا ، ونحن ننتظر ضيوفاً ، فانصرف . إعطه الورقة يا نيلوفنا !..

ــ ورقة أيضاً ؟
ــ خذها وأوصلها إلى المطبعة .
ــ حسناً ، سأوصلها ... أهذا كل شيء ؟
ــ نعم ... هناك جاسوس عند الباب .
ــ لقد رأيته ... وعند بابي أيضاً جاسوس . والآن إلى اللقاء أيتها المرأة الضارية ، أما أنتم يا أصدقائي فاعلموا أن النزاع في المقبرة شيء حسن قطعاً ، والمدينة كلها تتحدث عنه . وأما أنت فمقالك كان جيداً ، وقد وصل في الوقت الملائم . لقد كنت أقول دائماً أن خصاماً طيباً خيرٌ من سلمٍ رديء .
ــ إننا نوافق على ذلك .. فانصرف .
ــ إنك في الواقع لا تُحب ... هاتي يدك يا نيلوفنا ، لقد تصرف الفتى بحمق .. فهل تعرفين أين يقيم ؟
وأعطاه نيقولا العنوان .
ــ يجب أن أمرّ غداً لأراه . إنه فتى طيب . أليس كذلك ؟
ــ بمنتهى الطيبة .
ورد الطبيب وهو ينصرق :
ــ يجب العناية به ، فهو ليس غبياً . هؤلاء الفتيان هم بالضبط الذين يؤلفون البروليتاريا الحقيقية ... المثقفة . إنهم هم اللذين سيخلفوننا حين ننطلق إلى حيث لا يوجد ، بلا شك ، صراع طبقات ...
ــ لقد غدوت ثرثاراً جداً ...
ــ ذلك لأني فرح ... إذن فأنت تنتظر السجن ؟ أتمنى لك أن تجد الراحة فيه .
شكراً ... فأنا لست تعباً .
وكانت الأم تصغي إليهما ، سعيدة بأن تراهما شديدي الاهتمام بالعامل الفني . وانصرف الطبيب وجلس نيقولا والأم إلى المائدة بانتظار ضيوفهما الليليين . وتحدث نيقولا طويلاً عن رفاقه الذين كانوا يعيشون في المنفى ، وعن أولئك الذين فروا منه ، واستأنفوا عملهم تحت أسماء

مستعارة . وكانت جدران الحجرة العارية تعكس رنة صوته المخنوقة كأنها دَهِشة مرتابة لسماع هذه القصص ، قصص الأبطال المتواضعين ، المتجردين عن كل نفع ، والذين يكرسون قواهم كلها للعمل العظيم ، لإصلاح العالم .

وكانت ظلال ناعمة ودودة تكتنف الأم ، فتملأ قلبها عطفاً حاراً على هؤلاء المجهولين الذين كان خيالها يختزلهم جميعاً في كائن واحد عملاق ، لا تنفد قدرته ولا تغيض شجاعته . وكان هذا الكائن يرود الأرض ببطء ، ولكن بهمة لا تعرف الكلل ، فينتزع منها ، بيديه الممتلئتين حباً لعمله ، ينتزع عفن الدجل الذي راكمته العصور ، ويكشف لأعين الناس الحقيقة البسيطة المتألقة ، حقيقة الحياة . وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتجددة ، تدعو إليها الكائنات جميعاً ، تدعوها بمحبة ودونما تمييز ، وتعدها كذلك بأن تحررها من الحسد والحقد والدجل ، من هذه الغيلان الثلاثة التي تسترق الأرض بقوتها الماجنة ، وتبعث فيها الرعب .

وكانت هذه الصورة تبعث في نفس الأم شعوراً كذاك الذي كانت تستشعره وهي راكعة أمام الايقونات ، لتنهي بصلاة سعيدة شاكرة ، يوماً كان يبدو لها أقل عذاباً من أيامها الأخر . أما الآن فقد نسيت تلك الأيام ، وتنامى الشعور الذي كانت توحيه ، فغدا أكثر وضوحاً ومرحاً ؛ وصارت له فيها جذورٌ بعيدة الغور فراح يعيش أبداً ويزداد اشتعالًا أكثر فأكثر .

وأعلن نيقولا وهو يقطع حديثه فجأة :

ــ لن يأتي الدرك .

فنظرت إليه الأم وقالت بحنق :

ــ حسناً ... فليذهبوا إلى الشيطان .

ــ صحيح ... ولكنه قد آن لك أن ترقدي يا نيلوفنا ، فقد تكونين منهكة أشد الانهاك ... ويجب الاعتراف أنك شديدة الجلد لدرجة مدهشة ؛ إذ ما أكثر ما تتعرضين له من انفعالات ، وهموم ،

ولكنك تتحملين ذلك كله بسهولة ولم يشب فيك سريعاً سوى شعرك . هيا خذي قسطاً من الراحة ، هيا !

20

واستيقظت الأم على باب المطبخ يُطرق طرقات عنيفة ، ويُقرع بلا انقطاع وبعناد صابر ، وكان الظلام والسكون ما زالا يخيمان ، وهذا الالحاح في الطرق يثير القلق . وارتدت الأم ثيابها على عجل ، وهرعت إلى المطبخ ، وسألت من وراء الباب :

ـــ من الطارق ؟

وأجاب صوتٌ مجهول : ـــ أنا .

ـــ من أنت ؟

ورد الصوت منخفضاً متوسلًا :

ـــ إفتحي .

وشدت الأم المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، ودخل انياس ، وقال بفرح :

ـــ آه ... لم أخطىء إذن ؟

وكان الوحل يغطيه حتى وسطه ، وكان وجهه أكمد اللون وعيناه تحيط بهما هالة سوداء ، وشعره المضفور يتفلت من تحت قبعته ليتناثر في كل اتجاه .

وغمغم بعد أن أغلق الباب : ـــ لقد حاق بنا شر ...

ـــ أعرف ذلك .

وبدت الدهشة في ملامحه :

ـــ من أين عرفتِ ؟

وقصت عليه بسرعة وإيجاز قصة لقائها .

ـــ والآخران ... أعني رفيقيك ، هل قبض عليهما ؟

ـــ لم يكونا موجودين ، بل كانا قد ذهبا إلى مجلد التجنيد ، ولكنهم اعتقلوا خمسة بما فيهم الأب ميشال ...

ونشق انياس ثم قال باسماً :
ـــ وبقيت أنا ... وهم بلا شك يبحثون عني .
ـــ ولكن كيف استطعت الافلات ؟
وفُتح باب الحجرة بهدوء .
وصاح إيناس وهو يجلس على أحد المقاعد ويتطلع حواليه :
ـــ أنا ؟ قبل وصول رجال الدرك بدقيقة ، أقبل حارس الغابات راكضاً ، وقرع النافذة وقال : حذار أيها الفتيان ... لقد جاؤوا للقبض عليكم .
وأخذ يضحك بتؤدة ، ثم مسح وجهه بكم ردائه وتابع :
ـــ ولم ييأس الأب ميشال بسهولة ، بل قال لي على الفور : إنطلق إلى المدينة يا إيناس . تحرك . ألا تتذكر المرأة الهرمة ؟ وفي الوقت نفسه كتب عجالة وقال : « خذها » وانطلقت بأسرع ما يمكن وراء العليق . وسمعتهم ينحدرون . وكانوا ـــ يا للأبالسة ـــ كانوا يتحركون من كل صوب ، فإذا هم كالشبكة حول ورشتنا . وانطرحت أرضاً ، ومروا بجانبي ثم نهضت ، بعد ذلك ، ورحت أمشي وأمشي ، ولبثت ليلتين ونهاراً طويلاً على هذا المنوال دون أن أرتاح .
وكان يبدو عليه أنه راضٍ عن نفسه ، وكانت البسمة تضيء عينيه السمراوين ، وشفتاه الضخمتان الحمراوان تختلجان .
وقالت الأم وهي تقترب من موقد الشاي :
ـــ سأعد لك بعض الشاي حالاً .
ـــ العجالة .. سأعطيك إياها .
ورفع ساقه بعناء شاتماً مجدفاً ، ووضع رجله على المقعد .
وظهر نيقولا على عتبة الباب وقال وهو يغمز بعينيه :
ـــ صباح الخير يا رفيق . أتسمح لي بمساعدتك ؟
وانحنى يفك بسرعة العصائب الموحلة التي تلف ساق انياس .
وقال الفتى بهدوء وهو يسند فخذه بيده :
ـــ حسناً .

وراح ينظر إلى الأم بدهشة ، ولكن هذه قالت دون أن تلحظ ذلك :

ــ يجب أن نفرك قدميه بالكحول ...

وأجاب نيقولا : ــ هذا أكيد .

ونشق انياس بارتباك .

وعثر نيقولا على العجالة فمهدها بيديه ، وقرأ وهو يُدني القصاصة الرمادية الرثة من عينيه :

« لا تتخلي عن المهمة أيتها الأم ، وقولي إذا أردت لتلك السيدة الكبيرة ألا تنسى الكتابة عنا أكثر ؛ عنا نحن الآخرين . وداعاً . »

الامضاء : ريبين

وأرخى نيقولا ببطء يده التي تمسك القصاصة وقال بصوت واهٍ :

ــ رائع !

وكان انياس ينظر إليهما وهو يحرك بلين الأصابع القذرة ، أصابع قمه الحافية . ودنت الأم منه وهي تخفي وجهها المبلل بالدموع ، وتحمل إليه وعاء من الماء ، وجلست على الأرض ومدت يدها إلى ساقه ولكنه أبعدها بسرعة ، وخبأ رجله مذعوراً تحت المقعد :

ــ ماذا تريدين ؟

ــ هات قدمك حالًا .

وقال نيقولا : ــ سأحضر قليلًا من الكحول ...

ولكن الفتى دفع رجله تحت المقعد أكثر من ذي قبل ، وغمغم :

ــ ولِمَ ذلك ؟ إننا لسنا في مستشفى ... ومع هذا ...

وأخذت الأم تفك ضمادات رجله الأخرى .

ونشق انياس بصوت مسموع ، ولوى عنقه ، ثم انحدرت عيناه نحو الأم وهو يمط شفتيه في حركة ساخرة .

واستأنفت هي الكلام وفي صوتها رجفة :

ــ هل تعلم ؟ لقد ضربوا ميشال ريبين .

وأجاب بوجل : ــ لا ؟

ــ بلى ... لقد أشبعوه ضرباً عندما اقتادوه إلى « نيكولسكواي » وهناك استأنف الشاويش والمفوض ضربه على وجهه ، وركله بأرجلهما ... وكان مضرجاً بالدم !

وسرت في منكبيه رعشة فقال : وهو يقطب حاجبيه :

ــ إنهم يحسنون هذا العمل ؛ وإني لأخافهم كما أخاف الشياطين . ترى ماذا كان موقف الفلاحين ... أما ضربوه ؟

ــ لم يضربه منهم سوى واحد فقط بأمر من المفوض . ولكن الآخرين لم يفعلوا شيئاً ... بل أنهم تدخلوا صائحين : « يجب ألا تضربوه » .

ــ أجل ... لقد بدأ الفلاحون يدركون أين هم الذين يدافعون عنهم ، ولماذا يدافعون ؟

ــ ثم أن بينهم من يفكر تفكيراً سليماً .

ــ وأي مكان لا يوجد فيه أمثال هؤلاء ؟ إنهم في كل مكان ، ولكن من الصعب العثور عليهم .

وأحضر نيقولا زجاجة كحول ، ووضع قليلًا من الفحم في المدفأة ، ثم خرج .

وتتبعه انياس بنظرة فضولية ، وسأل الأم بصوت خفيض جداً :

ــ هل « المعلم » الذي هناك ... طبيب ؟

ــ لا معلم في هذه القضية ، بل كلنا رفاق .

وقال وهو يبتسم ابتسامة حائرة متشككة :

ــ إنه لأمر محير .

ــ ماذا إذن ؟

ــ جميل .. هكذا . في ناحية يطحنون عظامك ، وفي ناحية أخرى يغسلون قدميك ... فماذا يكون الحال في الوسط ؟

وفتح باب الغرفة وظهر نيقولا على العتبة .

ــ بين هذا وذاك قوم يلحسون أيدي أولئك الذين يطحنون عظام ضحاياهم ويمتصون دماءها .

ورنا انياس إليه باحترام وقال بعد قليل من الصمت :

ــ هذه هي الحقيقة .

ونهض وهو يميل بثقله على قدمه اليمنى تارة ، وعلى اليسرى تارة أخرى ثم أردف :

ــ لقد أصبحتا الآن جديدتين ، فشكراً جزيلًا .

ومضوا إلى غرفة الطعام لتناول الشاي ، وهناك راح انياس يروي لهم بصوت جاد :

ــ لقد كنت موزع الجريدة لأني جلود على المشي ...

وقاطعه نيقولا :

ــ هل يقرأها كثير من الناس ؟

ــ كل الذين يعرفون القراءة حتى الأغنياء منهم ، وهؤلاء لا يأخذونها بالطبع من أجلنا ، فهم يفهمون الأمور على هذا الشكل : سيغسل الفلاحون بدمهم أرض النبلاء والأثرياء ، وهذا يعني أنهم سيقتسمونها هم ، وسيكون الاقتسام بلا شك بطريقة لا يظل فيها أرباب عمل ولا شغيلة ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فعلامَ الخصام إذن ؟

وكان يبدو عليه الانفعال ، وينظر إلى نيقولا نظرة فيها ريبة وتساؤل . وكان هذا يبتسم بصمت :

ــ وإذا تخاصموا اليوم في العالم كله ، فإن الأمر سيعود إلى سيرته الأولى غداً عندما ينتصرون : سيكون الواحد منهم ثرياً ، والآخر فقيراً ، وشكراً لكم . المعروف أن الثروة كالرمل لا تبقى جامدة أبداً في مكانها . إنها ستسيل من جديد ، وستتوزع في كل اتجاه ، فما الفائدة إذن من ذلك ؟؟

وقاطعته الأم مازحة : ــ لا تحنق .

وقال نيقولا وهو ساهم :

ــ ما العمل لإيصال المنشور ، عن توقيف ريبين ، بأسرع ما يمكن من الوقت ؟

مد انياس أذنه :

ـــ نعم .

واقترح انياس وهو يفرك يديه :

ـــ إعطني إياه لأوصله .

وضحكت الأم بهدوء دون أن تنظر إليه :

ـــ ولكنك منهك وخائف ، وقد قلت ذلك أنت نفسك !

فأمر يده العريضة على شعره المضفور ، وأجاب بلهجة جادة هادئة :

ـــ الخوف شيء ، ومهماتنا شيء آخر ... إن مهماتنا هي مهماتنا ... لماذا تسخرين مني ؟ إنك حقاً لغريبة .

وصاحت به بغير إرادة منها :

ـــ يا طفلي ...

ـــ اسمعوا ... أنا الآن طفل !

وقاطعه نيقولا الذي كان يتفحصه بعينين عطوفتين رفافتين :

ـــ لن تذهب إلى هناك ...

وسأله انياس بقلق : ـــ إلى أين سأذهب إذن ؟

ـــ سيذهب آخر سواك وستشرح له أنت بتفصيل كيف يتصرف . هل يعجبك هذا الحل ؟

فأجاب ، مرغماً ، وبعد لحظة من التردد :

ـــ حسناً .

ـــ سنحصل لك على بطاقة هوية ، وسنعتبرك كمأمور أحراش ...

فرفع رأسه فجأة وقد امتلأ غماً .

ـــ وماذا أفعل إذا جاء الفلاحون ليحتطبوا أو لأمر غير ذلك ، هل أنكل بهم ؟ إن ذلك لا يليق بي .

وأخذت الأم تضحك وكذلك نيقولا ، مما جعل الفتى يضطرب من جديد ويبتئس .

وطمأنه نيقولا :
ــ لا تكن سيء المزاج . إنك لن تنكل بالفلاحين ... فاطمئن .
وغمغم انياس :
ــ لقد اختلف الأمر الآن .
ثم ابتسم باغتباط وطمأنينة وقال :
ــ أود أن أذهب إلى المعمل ، فهناك كما يقال ، قوم ذوو عقول رشيدة .
ونهضت الأم عن المائدة ورنت من النافذة وقالت وهي ساهمة :
ــ هذه هي الحياة . نضحك في النهار خمس مرات ونبكي مثلها .. والآن هل انتهيت يا انياس ؟ هيا إلى النوم .
ــ ولكنني لا أريد .
ــ إذهب ، إذهب .
ــ إنك قاسية . حسناً ، سأذهب . وشكراً لك على الشاي الذي قدمته والعناية البسيطة ...
وفيما كان يتمدد على سرير الأم ، كان يغمغم وهو يهرش رأسه :
ــ إن هذا سينشر رائحة القار في منزلك . هه ؟ لِمَ ذلك كله ؟ أنا لستَ نعساناً ...
وغفا فجأة وتعالى شخيره ، وظل حاجباه مشقولين ، وفمه مفتوحاً نصف انفتاحة .

21

وفي المساء نفسه كان انياس يجلس وجهاً لوجه أمام فيسوشيكوف ، في حجرة صغيرة من طابق تحت الأرض . ويقول له وهو يخفض من صوته ويقطب حاجبيه :
ــ أربع مرات على النافذة الوسطى .
ويردد فيسوشيكوف باهتمام :
ــ أربع مرات ؟

ـــ ثلاث مرات أولًا هكذا .

وينقر الطاولة بأصبعه المطوي وهو يعد :

ـــ واحد ، اثنان ، ثلاثة ... وثم نقرة أخرى أيضاً .

ـــ حسناً .

ـــ وسيفتح لك رجل أصهب الوجه ويسألك : هل أتيت من أجل القابلة ؟ فتجيبه : نعم .. من قِبَل المعلم ... وهذا وحده يكفي ، لأنه سيفهم .

وكان أحدهما يميل برأسه نحو الآخر ، وكلاهما صلبٌ ، قوي البنية ؛ ويتحدثان ، وهما يمسكان صوتيهما ، والأم ترنو إليهما وهي واقفة بالقرب من الطاولة مشبكة الذراعين ، وكانت تلك النقرات الغامضة ، والأسئلة والأجوبة المتفق عليها ، تحملها على الابتسام فيما بينها وبين نفسها ، كما تحملها على التفكير :

ـــ إنهم ما زالوا أطفالًا .

وكان هناك في الجدار مصباح يشتعل ، ناثراً ضوءه على بقع الرطوبة القاتمة ، وعلى صور مقتطفة من المجلات . وفي الأرض دلاءٌ منبعجة ، وصفائح متساقطة من السقف ، وجو الحجرة يعبق برائحة الصدأ والعفن والدهان .

وكان انياس يرتدي معطفاً سميكاً من جوخ ويرى أنه معجب به كثيراً ، وكانت الأم تراه وهو يداعب كمه بحب ، ويمد عنقه الضخم بجهد ليتفحص مظهره ، فيفعم قلبها حنان حار وتهمس :

ـــ يا أولادي الأعزاء ...

وقال انياس وهو ينهض :

ـــ والآن تذكر جيداً ... إسأل أولًا عن الجد في منزل آل موراتوف .

وأجاب فيسوشيكوف :

ـــ لن أنسى ذلك .

ولكن انياس لم يك ليصدقه على ما يبدو ، إذ كرر له

مرة أخرى كل الاشارات وكلمات المرور ؛ ثم مد يده إليه أخيراً وهو يقول :

ــ أبلغهم تحياتي ، إنهم قوم طيبون ، سترى ...

ونظر إلى نفسه نظرة إعجاب ، وتحسس بيده معطفه ، وسأل الأم :

ــ هل أذهب ؟

ــ هل تعرف الطريق ؟

ــ بالتأكيد ... إلى اللقاء يا رفاق .

ومضى شامخ المنكبين ، منتفخ الصدر ، تتكيء قبعته الجديدة على إحدى أذنيه ، وتغوص يداه في أعماق جيوبه ، وترتعش على صدغه ، بمرح ، خصل وضاءة .

وقال فيسوشيكوف وهو يدنو بتؤدة من الأم :

ــ حسناً .. هو ذا أنا في العمل ثانية . لقد انتابني الضجر من قبل .. وكنت أتساءل : لماذا هربت من السجن ؟ لا لشيء إلا لأختبيء . لقد تعلمت في السجن بعض الأشياء ، وكان بول يدخل في رؤوسنا أن السجن متعة ... والآن ماذا تقرر بشأن الفرار ؟

وأجابت الأم بزفرة لا شعورية :

ــ لا أدري .

وألقى يده على كتفها ؛ وأدنى وجهه من وجهها وقال :

ــ إشرحي لهم فسيستمعون إليك . إن الفرار يسير جداً ، وباستطاعتك أنت نفسك أن تتحققي من ذلك . إسمعي : للسجن جدار ، وإلى جانب هذا الجدار مصباح عاكس للنور ، وقبالته أرض موات . وإلى اليسار تقوم المقبرة ، وإلى اليمين الشارع ، أي المدينة . يأتي المولج بإيقاد المصباح لتنظيفه في وضح النهار ، فيسند سلمه إلى الجدار ويتسلق ، ثم يثبت في أعلى الجدار خطاطيف سلم من حبال ويدليه إلى باحة السجن ، ومن الأمام . وفي هذا الوقت يكون الرفاق على علم بأية ساعة من النهار يجري ذلك ، فيوعزون إلى السجناء

بافتعال حادثة شغب ، أو أنهم يقومون بذلك بأنفسهم ، وفي أثناء ذلك يتسلق الذين أُنفق عليهم السلم ، وبلحظتين ... وثلاث حركات ينتهي الأمر .

ولوّح بيده تحت أنف الأم وهو يشرح خطته ، وكان يرى أن كل شيء يجب أن يتم ببساطة ووضوح وبراعة . لقد عرفته من قبل بطيئاً متردداً ، تشع عيناه بالريبة ، وبمزاج غضوب متجهم ، أما الآن فهما على ما يبدو لها ، مختلفان . انهما تشعان بضياء رتيب دافيء ؛ فتسيطران عليها ، وتثيران قلقها .

ــ فكري ... سيكون ذلك في النهار . في النهار . فمن من الناس يخطر في باله أن سجيناً يجرؤ على الفرار في وضح النهار ، وعلى مرأى ممن في السجن جميعاً ؟

وقالت الأم وهي ترتعش :

ــ وإذا أطلقوا النار عليهم وهم فوق !؟

ــ من سيطلق النار ؟ ليس هناك جنود .. والنظّار يستخدمون مسدساتهم في دق المسامير .

ــ يكاد يكون ذلك يسيراً كل اليسر .

ــ سترين أن هذه هي الحقيقة . باحثي الآخرين بالخطة ، فلقد أعددت كل شيء : سلم الحبال ، والخطاطيف ... ثم أن صاحب البيت الذي أستأجره سيقوم بدور موقد المصباح .

وتحرك شخص وراء الباب وسعل ، وسمعت ضوضاء صفائح التنك . وقال فيسوشيكوف :

ــ هو ذا قد أقبل .

وظهر في إطار حوضٌ من صفيح ، ودمدم صوت مبحوح :

ــ ألن تمر يا لعين ؟

ثم بدا رأس مستدير رمادي الشعر أشعثه ، جاحظ العينين ، ولاح شارب في وجه كله دماثة .

وساعده نيقولا فيسوشيكوف على إدخال الحوض ، ودخل

الرجل ، فإذا هو فارع القامة محدودب الظهر ؛ ثم سعل نافخاً أوداجه الحليقة ، وبصق ثم قال بصوته المبحوح :

ــ مرحباً .

ونظر نيقولا إلى الأم :

ــ هيا اسأليه .

ــ تسألني أنا ؟ عماذا ؟

ــ بشأن الفرار .

فصاح الرجل وهو يمسح شاربه بأصابعه السوداء :

ــ اه .. اه ...

ــ أرأيت يا جاك ؟ انها لا تصق أن ذلك سهل !

ــ هُمْ ... انها لا تصدق ؟ ذلك لأنها لا تريد ، أما نحن فنريده كلانا ومن أجل هذا فإننا نصدق .

قال ذلك بهدوء ، وانحنى فجأة كأنه انقصم إلى شطرين ثم أخذ يسعل ، واستمرت نوبة سعاله طويلاً ، وكان هو يقف في منتصف الحجرة يدلك صدره متنشقاً ، ويرنو إلى الأم بعينيه المتسعتين .

وقالت الأم :

ــ لبول ورفاقه أن يقرروا ...

وأطرق نيقولا فيسوشيكوف برأسه مفكراً .

وسأل المؤجر وهو يجلس :

ــ ومن هو بول ؟

ــ انه ابني .

ــ من أي عائلة ؟

ــ من عائلة فلاسوف .

فهز رأسه وأخرج كيس تبغه وغليونه ، فحشا الغليون وهو يقول بصوت متقطع :

ــ لقد سمعت هذا الاسم من قبل . أن ابن أخي إيفشنكو

يعرفه .. فهو أيضاً في السجن ... فهل تعرفين ابن أخي ؟ أما أنا فادعى « غوبون » . إن الشبان جميعاً سيكونون في السجن عما قريب ، وستطيب الحياة عندئذ لنا نحن الشيوخ . لقد وعدني الدركي بإرسال ابن أخي نفسه إلى سيبيريا ، وسيبر الوغد بوعده .

وأخذ يدخن ، ويبصق بين الفينة والفينة على الأرض ، ثم ما لبث أن استأنف موجهاً الحديث إلى فيسوشيكوف :

ــ إنها لا تريد ؟ هذا شأنها ، وهي حرة . وأنت إذا كنت قد تعبت من الجلوس فامش ، ألا تريد أن تمشي ؟ ابق إذن جالساً ... أيسرقونك ؟ إخرس . أيضربونك ؟ أستسلم . أيقتلونك ؟ أمكث هناك . إني أعرف ذلك ولكنني سأنتشل ابن أخي من هناك .. أجل سأنتشله .

وكانت عباراته القصيرة المتقطعة كالعواء ترمي الأم في أحضان القلق ، إلا أن كلماته الأخيرة أثارت فيها كوامن الحسد .

وفيما كانت تسير في الزقاق باتجاه معاكس لاتجاه المطر الذي حملته ريح باردة ، كانت تفكر بفيسوشيكوف :

ــ أترين كيف غدا ؟

وتذكرت غوبون ، فقالت في نفسها كأنها تصلي :

ــ في الظاهر لست أنا الوحيدة التي تحيا من جديد .

وشمخت في قلبها صورة إبنها فأكملت :

ــ ليته فقط يوافق على الخطة .

22

ونهار الأحد ، فيما كانت تستأذن بول بالانصراف وهي في قاعة الاستقبال في السجن ، شعرت به يدس في كفها كرة صغيرة من الورق ؛ فارتعشت كأن تلك الكرة قد أحرقت كفها ، ورمقت ابنها بنظرة متسائلة متوسلة ، ولكن نظرتها هذه لم تلقَ جوابًا ، وكانت

البسمة الحازمة المطمئنة التي تعرفها جيداً ، تطيف كالعادة في عينيه الزرقاوين .

وقالت وهي تتأوه :

وداعاً ...

فمد إليها يده ثانية ، في حين كانت موجة من الحنان تعبر وجهه مرتعشة :

ــ وداعاً أماه .

وانتظرت قليلًا وهي تحضن بيدها يده ؛ فإذا به يقول :

ــ لا تقلقي ، ولا تغضبي .

وكان في هذه الكلمات ، وفي التغضن العصي في جبهته ، الجواب الذي تنتظر ؛ فغمغمت وهي تطأطىء رأسها :

ــ لِمَ تقول هذا ؟ ماذا تقصد ؟...

وخرجت مسرعة دون أن تنظر إليه ، لكيلا تفضح انفعالها دموع عينيها وارتعاش شفتيها . وفي الطريق ، كان يخيل إليها أن مفاصل يدها التي تنطوي على جواب إبنها تؤلمها ، وأن ذراعها كله ثقيل كأن لطمة قوية نزلت على كتفها .

وألقت القصاصة إلى نيقولا بسرعة وهي تدخل المنزل ؛ ونبض في أعماقها أمل جديد وهي تراه يفضها ، غير أن نيقولا قال :

ــ هذا طبيعي . إسمعي ماذا كتب : « لن نهرب أيها الرفاق فنحن لا نستطيع ذلك ، ولا يستطيعه أحد منا ، لأننا أن نفعل نفقد احترامنا في عين أنفسنا .

اهتموا بالفلاح الذي أوقف مؤخراً فهو يستحق عنايتكم ، وهو جدير بجهودكم إنه يتعذب أربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة . إنهم يعذبونه ، ولقد توسلناهم جميعاً من أجله . واسوا أمي ، وكونوا عطوفين عليها . واشرحوا لها فتفهم كل شيء . »

ورفعت رأسها وقالت بصوت راعش :

ــ ماذا يشرحون لي ؟ لقد فهمت .

واستدار نيقولا وسحب منديله ثم مخط بصوت مرتفع ودمدم :
ــ يجب أن أكون قد أصبت بالرشح .
وأمرّ يده على عينيه ، ليعيد نظارتيه إلى مكانهما ، وليستأنف وهو ينقّل الخطى في الحجرة :
ــ أرأيت ؟ إننا لن ننجح بأية وسيلة ...
وقالت الأم منبسطة الأسارير ، في حين كان الغم القاتم يفعم صدرها :
ــ لا بأس دعوه يحاكم .
ــ لقد تلقيت رسالة من صديق لي في بطرسبورغ ...
ــ إنه يستطيع أن يهرب من سيبيريا أيضاً ... أليس كذلك ؟ أهذا ممكن ؟
ــ طبعاً . لقد كتب إلى الرفيق يقول : « ستبدأ المحاكمة عما قريب ، والقرار معروف وهو النفي للجميع » أرأيت ؟ القرار يعرف في بطرسبورغ قبل المحاكمة .
وقالت الأم باستسلام :
ــ دع هذا يا نيقولا ، فعبثا تحاول أن تسرّي عني وأن تشرح لي . أن بول لا يسيء التصرف أبداً . إنه لا يعذب نفسه ولا يعذب الآخرين عبثاً . ثم إنه يحبني . أجل . إنه يفكر في كما ترى ، فيقول : اشرحوا لها وواسوها . أليس كذلك ؟
وكان فؤادها يخفق بشدة ، والانفعال يجعلها تشعر بدوار ، وصاح نيقولا بقوة لم تتعودها منه :
ــ إبنك رجل مدهش ، وأنا أكنّ له كثيراً من الاحترام .
واقترحت : ــ يجب أن نفكر بما سنفعله من أجل ريبين .
وكانت تود أن تباشر العمل فوراً ؛ أن تذهب إلى ناحية ما ، أن تمشي حتى تتعب ولكن نيقولا رد عليها وهو يذرع الغرفة بخطاه :
ــ أجل ... يجب على ساندرين أن ...

ــ لن تلبث أن تحضر ، إنها تأتي دائماً في الأيام ألتي أقابل بول فيها .

وجلس نيقولا إلى جانب الأم ، على الأريكة ، مفكراً مطرقاً ، يقضم شفتيه ويداعب لحيته :

ــ الشيء الذي يؤسف أن شقيقتي ليست هنا .

ــ حبذا لو استطعنا أن نهيء ذلك في الحال ، وفي الوقت الذي يكون فيه بول ما يزال هناك ؛ فإنه سيكون سعيداً .

وصمتا فترة ، ثم قالت الأم فجأة وبصوت منخفض بطيء :

ــ أنا لا أفهم لماذا يرفض ؟

ونهض نيقولا على الفور ، ولكن الجرس رنّ ، فتبادلا النظرات وهمس نيقولا :

ــ هُمْ ، إنها ساندرين ...

وقالت الأم بصوت خفيض أيضاً :

ــ كيف نقول لها ؟

ــ أجل ... إنه لأمر صعب .

ــ إني لأرثي لها .

ورنّ الجرس ثانية أقل عنفاً من ذي قبل ، كما لو كان الطارق الذي يقف عند العتبة ، يتردد هو أيضاً . ومضت الأم ونيقولا معاً لاستقبال هذا الطارق ، ولكن نيقولا تراجع إلى الوراء عندما اقترب من الباب :

ــ من الأفضل أن تستقبليها أنت .

وسألت الفتاة بحزم عندما فتحت لها الأم :

ــ ألم يقبل ؟

ــ كلا .

وقال ساندرين ببساطة :

ــ لقد كنت أعرف ذلك .

وشحب وجهها وراحت تفك أزرار معطفها ، ثم تعيد اثنين منها إلى ما كانا عليه ، ثم تحاول أن تخلعه فلا توفق ، وأخيراً قالت :

ــ طقس مزعج . مطرٌ وريح ... وهو .. هل صحته جيدة ؟
ــ نعم .
وأردفت ساندرين بصوت خفيض وهي تتفحص يدها :
ــ مسرورٌ ويتمتع بصحة طيبة .
فردت الأم دون أن تنظر إليها :
ــ لقد كتب طالباً تدبير وسيلة لتسهيل فرار ريبين .
وغمغمت الفتاة ببطء :
ــ نعم ؟ يبدو لي أن علينا أن نلجأ إلى تلك الخطة ...
وقال نيقولا وقد ظهر في الباب :
ــ هذا هو رأيي أيضاً ... صباح الخير يا ساندرين .
ومدت له الفتاة يدها :
ــ ما هي العقبة التي تعترض تنفيذها ؟ إن الجميع يعترفون بأن هذه الخطة يجب أن تنجح .
ــ ومن سينفذها ؟ فالكل مشغولون .
وقالت الفتاة وهي تنهض بسرعةٍ :
ــ دعوني أقوم بها ... فلديّ الوقت الكافي ..
ــ ليكن ... ولكن يجب أن تطلبي إلى الآخرين ...
ــ حسناً . سأفعل ، وسأذهب إليهم فوراً .
وأخذت تبكل أزرار معطفها بحركات واثقة .
واقترحت الأم :
ــ يجب أن ترتاحي قليلًا .
فابتسمت ابتسامة خفيفة وأجابت وهي تخفف من صوتها
ــ لا تزعجي نفسك ، لست متعبة .
وشدت يديهما بصمت ، وانطلقت مقرورة قاسية الملامح .
واقتربت الأم ونيقولا من النافذة ، وتتبعاها ببصريهما وهي تجتاز الساحة وتتوارى وراء الحاجز ، وأخذ نيقولا يصفر ، ثم جلس إلى الطاولة ، وبدأ يكتب ، أما الأم فقد همست بسهوم :

ــ سيشغلها هذا العمل ... وستجد فيه ما يعزيها .
وأجاب نيقولا : ــ نعم . هذا أكيد .
ثم استدار نحوها والبسمة تطيف في وجهه الطيب :
ــ هل فاتك أن تتجرعي هذا الكأس ؟ أما تأوهت أبداً في أعقاب الرجل الحبيب ؟
فصاحت وهي تشير بيدها :
ــ يا لها من فكرة . أنا أتأوه ؟ إن الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه هو أن أرغم على الزواج من هذا أو ذاك .
ــ ألم يكن هناك من يحظى باعجابك ؟
ففكرت قليلاً ثم أجابت :
ــ لا أذكر يا صديقي العزيز . مما لا شك فيه أنه كان هناك واحد .. ولكنني لا أذكر أبداً ...
ورنت إليه ثم أكملت كلامها ببساطة وبحزن هادىء :
ــ لقد كان زوجي يضربني كثيراً ، وكل ما كان قبله قد امّحى تماماً من ذاكرتي .
وانكب من جديد على قرطاسه ، وخرجت هي لحظة ثم عادت ، فرنا إليها بحنان ، واستأنف الكلام هامساً ، وراح يداعب ذكرياته بمحبة :
ــ اسمعي ... لقد كان لي أنا أيضاً كساندرين قصة حب . لقد كنت أحب فتاة بل مخلوقة مدهشة رائعة ، وها قد مضى على لقائنا الأول عشرون عاماً ، وأعترف أني ما زلت حتى الآن أحبها، وأحبها دائماً ومن كل ذاتي ؛ أحبها بعرفان وإلى الأبد .
وكانت الأم ترى عينيه ، وهي بجانبه ، تشتعلان بلهب حار وضاء ، وكان يسند رأسه إلى يديه المستقرتين على متكأ الكرسي ، ويرنو إلى ناحية ما في البعيد . وكان جسده كله ، جسده الهزيل الرشيق ، القوي في الوقت نفسه ، يبدو كأنه يميل إلى الأمام ، كما يميل جذع النبتة نحو ضياء الشمس .

ونصحته الأم :

ــ إذا كان الأمر كذلك فتزوج .

ــ لقد مر على زواجها خمس سنوات ...

ــ ولِمَ لم تتزوجها من قبل ؟

ففكر لحظة ثم أردف :

ــ أرأيت ؟ لم يكن ليحالفنا الحظ . فعندما كنت في السجن كانت هي طليقة وعندما كنت أنا طليقاً كانت هي في السجن أو المنفى . تماماً كوضع ساندرين . وأخيراً أرسلوها إلى سيبيريا لمدة عشر سنوات ، وإنه لنأي رهيب ، وقد أحببت أن ألحق بها إلى هناك ، ولكننا خجلنا أنا وهي . وهناك التقت برجل آخر ، بصديق لي ، وهو فتى طيب جداً ... فلم يلبثا أن هربا معاً ، وهما الآن يعيشان في الخارج ... نعم ...

وتوقف ، ونزع نظارتيه فمسحهما ثم نظر إلى زجاجهما في الضوء وعاد يفركهما .

واندفعت الأم تقول وهي تهز رأسها متأثرة :

ــ آه ... يا صديقي المسكين .

لقد كانت تشفق عليه ... ولكن شيئاً ما فيه كان يطرح ، على شفتيه ، في الوقت نفسه ، بسمة حارة .. بسمة أمومة .. وغيّر من وضعه ، وأخذ القلم بيده ثانية ، ثم تابع وهو يلوّح به على وقع كلماته :

ــ إن الحياة العائلية تضائل فعالية الرجل الثوري : تضائلها باستمرار : الأطفال ، وفقدان الموارد ، وضرورة العمل الدائب لكسب العيش ، في حين أنه لا بد للثوري من أن ينمّي فعاليته بلا انقطاع ، وفي كل اتجاه . وهذا يتطلب وقتاً . ومن واجبنا أن نكون دائماً في الطليعة ، لأننا نحن الكادحين الذين اختارتهم قوة التاريخ لتهديم العالم الهرم ، وبناء الحياة الجديدة ، فإذا ما ظللنا في المؤخرة ، وإذا ما استسلمنا للنصَب ، أو لإغراء مغنم صغير قريب ، كان ذلك وبالًا ،

بل كاد أن يكون خيانة. ليس هناك من نستطيع أن نسير معه، بنفس الخطى، دون أن يفسد علينا إيماننا، ومن واجبنا ألا ننسى أبداً أن مهمتنا ليست في تحقيق مغانم صغيرة، ولكنها فقط في تحقيق نصر كامل.

وتجلّى الحزم في نبرته ، وشحب لونه ، وتألقت في عينيه قوة الشكيمة التي عرف بها .

ورنّ الجرس من جديد ، عنيفاً هذه المرة ، فقطع عليه كلامه ؛ ودخلت لوميلا مضرجة الوجنتين من البرد ، ترتدي معطفاً خفيفاً لا يصلح للشتاء ، وقالت بصوت حانق ، وهي تخلع حذاءها الممزق :

ــ لقد حُدد موعد المحاكمة . إنه سيكون خلال ثمانية أيام .

وصرخ نيقولا من داخل الحجرة :

ــ صحيح ؟

واندفعت الأم نحوها ، دون أن تدري ما إذا كان الفرح أو الخوف هو الذي يقلقها ؛ وتبعتها لوميلا وهي تكمل بصوت خفيض تمازجه السخرية :

ــ أجل ... وفي المحكمة يقولون بصراحة أن القرار مهيأ سلفاً . ولكن ماذا يعني ذلك ؟ هل تخشى الحكومة أن يعامل موظفوها أعداءها بلين ونعومة ؟ لا يبدو أن عملاءها أنذال ؛ رغم أنها قد أفسدتهم ، وربتهم على الفساد خلال زمن طويل ، وبذلت في سبيل ذلك كثيراً من الجهد والمران .

وجلست على المقعد وهي تفرك وجنتيها المزيلتين ، ويشع الازدراء من عينيها المتجهمتين ، ويهدر صوتها بنقمة متنامية .

وقال لها نيقولا محاولاً أن يهدىء من ثورتها :

ــ إنهم لن يسمعوك ... فلا تضيعي جهدك عبثاً .

وكانت الأم تصغي إلى الفتاة بكل انتباهها ، ولكنها كانت تردد وراءها دون وعي ، وبصورة آلية ، نفس الكلمات :

ــ المحاكمة ... خلال ثمانية أيام ... المحاكمة ...

وأحست فجأة بدنو حدث شديد القسوة ، وحشي الضراوة .

23

وعاشت الأم نهارين طويلين ، في هذا الضباب من القلق والوهن ، وتحت وطأة غم الانتظار الثقيل . وفي اليوم الثالث أقبلت ساندرين لتقول لنيقولا :

ــ كل شيء معدّ ، للساعة الواحدة اليوم ..!

وأجاب هذا بدهشة :

ــ أعد كل شيء ؟

ــ ولِمَ لا ؟ لم يكن عليّ إلا أن أجد ملجأ لريبين وثياباً ... أما الباقي فقد تكفل به غوبون . وليس على ريبين إلا أن يسير بضع مئات من الأمتار فحسب ، وسيسير فيسوشيكوف أمامه ، متنكراً بالطبع ، فيسلمه معطفاً وقبعة ... ويدله على الطريق ... أما أنا فسأنتظر أوبته ، فأبدل ملابسي ثم أقوده ...

وقال نيقولا :

ــ لا بأس ... ولكن من هو غوبون هذا ؟

ــ إنك تعرفه ... فلقد كنت تقوم في منزله بالمحادثات مع صانعي الأقفال .

ــ آه... أجل لقد تذكرت. إنه رجل عجوز... طريف نوعاً ما...

وأجابت ساندرين وهي تنظر عبر النافذة :

ــ إنه جندي قديم ، ومهنته اليوم سقف السطوح ... وهو واسع الأفق بعض الشيء ، ويكره كل عنف ، كرهاً لا ينفد ... إنه فيلسوف نوعاً ما ...

وكانت الأم تصغي إليهما بصمت ، وفي رأسها خاطرٌ غامض ينضج ببطء :

ــ يود غوبون أن يدبر فرار ابن أخيه إيشانكو . ذلك الفتى الذي أثار إعجابك بأناقته ونظافته المتصنعة بعض الشيء ... هل تتذكر ؟

وهز نيقولا رأسه بالايجاب .

وتابعت ساندرين :

ـــ لقد أعدّ كل شيء بدقة ، ولكنني بدأت أشك في نجاح العملية ، فالسجناء يخرجون إلى باحة السجن للنزهة في نفس الساعة ... وسيود الكثير منهم أن يفروا عندما يرون السلم .

وصمتت هنيهة ، مغمضة العينين ، فدنت منها الأم :

ـــ وبالطبع ، سيزاحم بعضهم بعضاً .

وكانوا ثلاثتهم أمام النافذة ، وكانت الأم تقف وراء نيقولا وساندرين، وكان حديثهم الخاطف يثير فيها إحساساً شديد الغموض.

وقالت فجأة :

ـــ سأذهب .

وسألتها ساندرين :

ـــ ولماذا ؟

ونصحها نيقولا :

ـــ لا تذهبي إلى هناك يا صديقتي ؛ فقد يصيبك حادث ما . يجب ألا تذهبي .

فرنت إليهما ، ورددت بصوت أكثر خفوتاً ... ولكنه يزخر بالاصرار :

ـــ بلى . سأذهب .

وتبادلوا النظرات ، وهزت ساندرين كتفيها :

ـــ هذا مفهوم ...

ثم استدارت نحو الأم ، واحتضنتها بذراعها ، وقالت لها ببساطة وتصميم :

ـــ ومع ذلك فإني أحذرك ... عبثاً تأملين ...

وصاحت الأم وهي تجذبها إلى صدرها بيد مضطربة :

ـــ خذيني معك يا عزيزتي . فلن أضايقك . يجب أن أرى . فأنا لا أصدق أن الفرار ممكن .

وقالت الفتاة لنيقولا :

ـــ دعها تأتي معنا .

وردَ نيقولا ، مطأطئاً رأسه : ذلك شأنكِ أنتِ .

ــ ولكننا لن نستطيع البقاء معاً . ستسلكين أنت طريق الحقول نحو الجنائن ، فإن سور السجن يُرى من هناك ... ولكن ... ماذا ستقولين إذا ما سئلت عما تفعلين في ذلك المكان ؟

وأجابت الأم بيقينٍ وهي شديدة البهجة :

ــ لن أعدم جواباً .

وقال ساندرين :

ــ لا تنسي أن حراس السجن يعرفونك ؛ وإذا ما رأوك هناك فإنهم ...

ــ لن يروني .

وفجأة اضطرم الرجاء الذي كان يستكنّ فيها طوال الوقت ، دون أن ترتاب فيه ، فملأها بالحيوية ، وفكرت وهي ترتدي ملابسها على عجل :

« ربما هو أيضاً ... »

وبعد ساعة كانت في الحقول وراء السجن ؛ وكانت الريح تهب عاتية فتعصف بثيابها ، وتسفع الأرض التي يغطيها الجليد ؛ وتتعتع السياج الممزق ، سياج الحديقة التي كانت تمر بقربها ، وتلطم بعنف جدار السجن القليل الارتفاع ، ثم تنطرح في باحته فتكنس الأصوات المتصاعدة منها ، وتبعثرها ، وترق بها نحو العلاء . وكانت الغيوم تفر مسرعة ، تاركة وراءها فجوات صغيرة من زرقة السماء .

ووراء الأم كانت تنبسط الحدائق وأمامها المقبرة ، وعلى يمينها يقوم السجن ؛ على بعد نحوٍ من عشرين متراً . وكان هناك بالقرب من المقبرة جندي يجر جواداً من عنانه ، وآخر إلى جانبه ينفض سرجه ، ويصرخ ويصفر ويضحك ؛ ولم يكن بالقرب من السجن أحدٌ غيرهما .

وتجاوزتهما ببطء وهي تتجه نحو سور المقبرة ، وتلقي نظرات مختلسة إلى اليمين وإلى الوراء ، وأحست فجأة بساقيها يصطكان ، ويثقلان كأن الجليد قد سمّرها في الأرض ؛ وظهر عند زاوية السجن

رجلٌ محدوب الظهر ، يحمل سلماً على كتفه ، ويسير بخطىً سريعة كما يفعل موقدو المصابيح .

وألقت ، وعيناها ترفان من الرعب ، ألقت نظرة خاطفة على الجنديين اللذين كانا يضربان الأرض بأقدامهما في حين كان الجواد يخبّ حولهما . ثم أبصرت الرجل حامل السلم ، يسند سلمه إلى الجدار ثم يتسلقه بتؤدة ، ويومىء بيده نحو الساحة ، ثم ينحدر بسرعة ، ويختفي في منعطف السجن . وكان قلب الأم يخفق بشدة ، والثواني تمر ببطء ، والسلم لا يكاد يُرى على الجدار القائم ، الملطخ بالوحل ، وبالبقع التي انقشر عنها الجير ، فانكشف تحتها القرميد .. وفجأة ظهر فوق الجدار رأس أسود ، ثم تأرجح من الناحية الأخرى جسم وانزلق إلى أسفل ، وبعد قليل ظهر رأس آخر يعتمر قبعة من وبر ، وقفزت كتلة سوداء إلى الأرض ، واختفت بسرعة وراء منعطف الجدار . وانتصب ريبين ، وتطلع فيما حوله ، وهز رأسه . وكانت الأم تغمغم وهي تركل الأرض بقدمها :

ــ هيا . انج بنفسك . انج بنفسك .

وملأ الطنين أذنيها ، وتناهت إلى سمعها بعض صرخات ، وظهر فوق الجدار رأس ثالث ، وكانت هي تراقبه جامدة ، ويداها تتشنجان فوق صدرها ، ووثب الرأس الأشقر الحليق الذقن ، في الفضاء ، كأنه يود أن ينفصل عن جسده ، ثم اختفى فجأة وراء الجدار .

وكانت الصيحات قد ازدادت ارتفاعاً وعتواً ؛ وكانت الريح تحملها في الفضاء ، وتحمل معها رجع الصفير الحاد . وسار ريبين بمحاذاة الجدار ، ثم تخطاه ، وعبر فسحة حرة بين السجن وبيوت المدينة ؛ وكان يبدو للأم أنه يمشي ببطء شديد ، وأنه يشمخ برأسه عالياً وبلا جدوى لدرجة لا يمكن أن ينسى معها من يلتقيه ، وجهه ، فنغمغم :

ــ اسرع ، اسرع .

وطرطق بجفاف شيء ما في باحة السجن ، وسُمع صوت ناحل كصوت كأس محطم ، وشد الجندي الجواد إليه ، وهو يثبت قدميه في

الأرض ، أما الآخر فقد صرخ ، بعد ما جعل من قبضته شيئاً كالبوق ، صرخ ببعض الكلمات باتجاه السجن ، ثم مال برأسه وراح يصغي .

وكانت الأم تتلفت إلى كل جهة ، متشنجة الأعصاب ، فلا تصدق عينيها أن ما كانت تتخيله رهيباً معقداً ، تم بكل بساطة وسرعة ، وقد أذهلتها هذه السرعة وأفقدتها صفاءها .

ولم يعد ريبين يُرى في الشارع ، بل كانت العين تقع على رجل مديد القامة ، يمشي متدثراً بمعطفه الطويل ، وعلى صبية صغيرة تركض . وبرز حراس ثلاثة عند زاوية السجن ، وكانوا يسيرون متراصين ، وأيديهم اليمنى ممدودة إلى الأمام . واندفع أحد الجنديين للقائهم ، أما الآخر فقد ظل يدور حول الجواد ، ويبذل جهده لامتطاء صهوة هذا الحيوان الذي كان يراوغ ويثب ، ويلوب حول نفسه . وكانت أصوات الصفارات تمزق الفضاء بلا انقطاع ثم تختنق ، وكانت نداءاتها القلقة التائهة توقظ في بيلاجي حس الخطر ، فتستبد بها رعشة ، وتسير بمحاذاة سور المقبرة ، وهي تتتبع الحراس بعينيها ، ولكن هؤلاء يلفون مع الجنود ، الزاوية الأخرى من السجن ، ثم يختفون ، ويجري في أثرهم نائب المدير الذي تعرفه جيداً ، ببذلته الرسمية المفككة الأزرار .

وكانت الريح تزوبع وتعصف كأنها فرحة ، وتحمل إلى أذنيّ الأم أشلاء الصراخ المختلط ، ودوي الصفارات ، فيبهجها هذا الذعر ، وتغذّ من سيرها وهي تفكر :

ـــ « إذن ... يمكن أن يكون هو أيضاً قد استطاع ... »

وفجأة إلتقت عند زاوية سور المقبرة إثنين من رجال البوليس فصاح بها أحدهما وهو يلهث :

ـــ قفي . ألم تري رجلًا ذا لحية ...؟

فأشارت بيدها إلى الحدائق ، وأجابت برباطة جأش :

ـــ لقد هرب في هذا الاتجاه ... فماذا حدث ؟

ـــ انفخ صفارتك يا إيغوروف .

وعادت إلى المنزل يملأها أسفٌ مظلم ، ويفعم قلبها الغضب

والمرارة ، وعندما بلغت المدينة قطعت الطريق عليها عربة ، فرفعت رأسها ، فإذا بها تبصر في داخلها شاباً أشقر الشاربين ، شاحب الوجه ، منهكاً ، ووقع بصره هو أيضاً عليها ، وكان يجلس جلسة جانبية بحيث بدا لها أن كتفه الأيمن أعلى من الأيسر .

وتلقاها نيقولا بفرح :

ــ والآن ... كيف جرت الأمور ؟

ــ أعتقد أن الخطة قد نجحت ...

وأخذت تقص عليه عملية الفرار ، جاهدة في أن تتذكر التفاصيل كلها ؛ وكانت تتكلم كأنها تقص عليه قصة سمعتها من شخص آخر ، ولا تصدقها هي .

وقال نيقولا وهو يفرك يديه :

ــ لقد حالفنا الحظ ، ولكن الله يعلم كم ساورني من خوف عليك . اصغي إليّ يانيلوفنا ، فسأقدم إليك نصيحة صديق . « لا تخيفك المحاكمة أبداً ، وصدقيني أنه كلما اقترب موعدها ، اقترب اليوم الذي يطلق فيه سراح بول . ومن يدري ... فقد يهرب وهو في الطريق إلى سيبيريا ؟... أما فيما يتعلق بالمحاكمة فستكون هكذا على التقريب ...

وراح يصف لها الجلسة ، وكانت هي تصغي ، وتدرك أن المخاوف تساوره ولكنه كان يود أن يمدها بالشجاعة .

وفاجأته بهذا السؤال :

ــ ربما كنت تعتقد إني سأقول شيئاً للقضاة ، وإني سأتقدم إليهم بعريضة ؟

ــ ماذا تقولين ؟

ــ أنا خائفة ، هذا صحيح ، ولكن مِمَّ أخاف ؟ لا أدري !

وصمتت ، وظلت نظراتها تائهة في الحجرة .

ــ يخيل إليّ أحيانا أنهم سيهينون بول ويسخرون منه ... وأنهم سيقولون له : « فلاح ... ابن فلاح ، فماذا حسبت نفسك ؟ » ... نول عتيّ الكبرياء ، لذلك سيوقفهم عند حدهم أو يهزأ بهم

أندريه ... وأقول في نفسي : إن صبرهم سينفد بسرعة ، فهم جميعاً شديدو الفوران ، وسيصدرون عليهما أحكاماً قد لا نراهما بعدها أبداً .

وتابعت بصوت خفيض ، في حين كان نيقولا يحتفظ بصمته المتجهم ، ويمد لحيته المدببة :

ـــ أنا لا أستطيع أن أنتزع هذه الأفكار من رأسي . إن الأمر لرهيب عندما يجلسون للتدقيق والتمحيص ؛ فليس العقاب هو الرهيب ، بل المحاكمة . ما أرهب المحاكمة ... لا أدري ماذا أقول ...

وسيطر عليها إحساسٌ لم يك نيقولا يدرك كنهه ، وأربكها هذا الاحساس وزاد من عجزها في التعبير عن هلعها .

وكان هذا الهلع ، كالعفن ، تسد عليها رطوبته مجاري النفَس ، ولا يفتأ يتنامى في داخلها ، وعندما حان يوم المحاكمة حملت معها إلى المحكمة حملًا ثقيلًا قاتماً ، كان يقوس ظهرها ويحني رأسها .

وفي الشارع التقت بجيران من الضاحية تعرفهم ، فانحنت لهم بصمت رداً على تحياتهم ، وشقت طريقها بين الحشد الذي يرين عليه الغم ، وفي الأروقة ، وداخل القاعة اصطدمت بأقارب المتهمين ، وكانوا يتحدثون بأصوات خفيضة ، ويخيل إليها أن حديثهم الذي يترامى إلى سمعها ، تافهٌ لا جدوى فيه ، بل إنها كانت لا تفهمه . وكان يستحوذ على الناس جميعاً إحساس واحد من الكآبة ، كآبة تنتقل عدواها منهم إلى الأم ، فتضاعف من كمدها وغمها .

وقال لها سيزوف وهو يفسح لها مكاناً إلى جانبه على المقعد :

ـــ اجلسي هنا .

فأطاعت ، وسوّت ثنايا ثوبها ، ثم رنت إلى ما حولها ، وكان خليطٌ من الخطوط الخضراء والقرمزية يتراقص أمام عينيها ، وخيوط صفراء دقيقة تلمع في هاتين العينين .

وهمست امرأة كانت تجلس بجانبها :

ـــ إن ابنك هو الذي جر ولدنا غريغوار إلى الهلاك .

وأجاب سيزوف بلهجة مغمومة : ـــ اخرسي ياناتالي .

ونظرت الأم إلى المرآة فإذا هي والدة ساموالوف ، وكان والده على بعد قليل منها ، وهو رجل أصلع ، حلو التقاطيع ، ذو لحية صهباء ، متشعبة كالمروحة ، وعينين غائرتين في وجهه النافر العظم ، وكان يحدق أمامه ، ولحيته ترتعش .

ومن النوافذ العالية ، كان ينهمر ضياء رتيب كدر ، وتنزلق نتف الثلج على الزجاج ؛ وبين النوافذ كانت لوحة كبيرة معلقة ، تمثل القيصر ، ويحيط بها إطار مذهب شديد الألق ، تندس حواشيه تحت طيات ثقيلة ليلكية ، تتدلى من النوافذ ؛ وأمام اللوحة كانت تقوم طاولة مغطاة بقماش من الجوخ الأخضر ، تكاد تستغرق عرض القاعة كله ؛ وإلى اليمين ، ووراء حاجز مشبك مقعدان من الخشب ، وصفان من الأرائك القرمزية اللون . وكان عدد من الحجاب ذوي الياقات الخضراء والأزرار المذهبة على الصدر ، والبطن ، يروحون ويجيئون دونما ضجيج .

وفي هذا الجو المضطرب كانت تهيم بخفر ، دمدمة من الأصوات المكبوتة ، وتفح رائحة غامضة كرائحة صيدلية .

هذه الألوان كلها ، وهذه الانعكاسات كلها ، وهذه الأصوات والروائح ، كانت جميعها تثقل على الأعين ، وتملأ القلب الخاوي بخوف مستكين يمازجه الاضطراب والوهن .

وفجأة أطلق أحدهم بضع كلمات بصوت مرتفع ، فارتعشت الأم ، ووقف الحضور جميعاً ، ووقفت هي أيضاً ، ولكنها عندما فعلت تعلقت بذراع سيزوف .

وانفتح إلى الزاوية الشمالية باب مرتفع ، وخرج منه عجوز ضئيل ، ذو نظارتين ، يترنح في مشيته ، وترتجف في وجهه الصغير الرمادي لحية بيضاء هزيلة ، وتغور شفته العليا الحليق في فمه ، وكانت وجنتاه الناتئتان وذقنه تستند إلى ياقة بذلته العالية ، فيبدو كأنما لا عنق له .

وكان يسنده من الوراء شاب ضخم ، ذو وجه خزفي أحمر مستدير . ثم تقدم نحو المنصة ثلاثة رجال آخرين يرتدون زياً رسمياً ، موشىً بالذهب ، وتبعهم بعد ذلك ثلاثة من المدنيين .

وتشاغلوا طويلاً وراء المنصة ، ثم استقروا في أرائكهم ، وراح أحدهم ، بعد أن جلسوا ـــ وهو أمرد الوجه ـــ يتحدث إلى العجوز الضئيل وهو يحرك بتثاقل وصمت شفتيه المنتفختين . وكان العجوز يصغي جامداً مشدود العضلات بشكل غريب ، وكانت الأم ترى وراء زجاج نظارتيه بقعتين صغيرتين لا لون لهما .

وفي أقصى المنصة ، كان يقف أمام مكتب صغير ، رجل ضخم ، أصلع الرأس ، يقلب أوراقه ويسعل .

واهتز العجوز إلى الأمام ثم بدأ يتكلم ، ولفظ الكلمة الأولى بوضوح ولكن كلماته الأخرى كانت كأنها تتبخر على شفتيه الرقيقتين الرماديتين .

ـــ إنني أعلن ... أدخِلوا ...

ووشوش سيزوف وهو يدفع الأم برفق ، وينهض :

ـــ أنظري .

ووراء الحاجز شُرِع بابٌ ، ظهر منه جندي يتنكب سيفه المسلول ، ويتبعه بول وأندريه وثيومازين والأخوان غوسيف ، وبوكين ، وساموالوف ، وسوموف ، وخمسة شبان آخرين لم تكن الأم تعرف أسماءهم . وكان بول يبتسم بود ، كما كان أندريه يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنانه ، ويوميء برأسه ، وكانت ابتساماتهما وملامحهما وحركاتهما النشيطة تضفي على الصمت المتوتر المصطنع ، كثيراً من البساطة والوضوح . وبهت الألق الشديد ، ألق الذهب الذي يوشي الملابس الرسمية ، ومن قلب الأم تيار من الثقة والبسالة ، ونفحة من القوة والحياة ؛ فأخرجها ذلك من خَدَرِها .

وسرت خلفها ، على المقاعد ، حيث كان الحشد ما يزال ينتظر مرهقاً ، سرت غمغمة هي الرد على تحايا المتهمين .

وسمعت سيزوف يهمس :

ـــ إنهم غير هيابين !

في حين كانت والدة ساموالوف إلى يمينه تجهش بالبكاء .

وصاح صوت فيه قسوة :

ـــ الصمت .

وقال العجوز الضئيل :

ـــ إني أخطركم ...

وكان بول وأندريه يجلسان جنباً إلى جنب ، ولمس معهم على المقعد الأمامي مازين وساموالوف والأخوان غوسيف . وكان بول قد حلق لحيته وأطلق العنان لشاربيه فتهدلت أطرافهما ، وبات رأسه المستدير شبيهاً برأس القط ، وكان لقسماته تعبيرٌ جديد ، ففي ثنيات فمه معنًى حادّ لاذع ، وفي عينيه تجهم ... وكان يظلل شفة مازين العليا خط غامق اللون ، أما وجهه فكان ممتلئاً ، وكان شعر ساموالوف مضفوراً أكثر من ذي قبل ، أما جان غوسيف فكان يحتفظ دائماً بنفس البسمة العريضة ، كعادته .

وكان سيزوف يغمغم وهو مطأطأ الرأس .

ـــ آه ... ثيو ... ثيو ...

وكانت الأم تصغي إلى الأسئلة الغامضة التي كان الرجل العجوز يطرحها على المتهمين دون أن ينظر إليهم ، وتصغي إلى أجوبة ابنها الهادئة الموجزة ، ويخيّل إليها أن رئيس المحكمة ورفاقه جميعاً لا يمكن أن يكونوا أشراراً قساة . لقد كانت تتفرس بانتباه في وجوه القضاة ، محاولة أن تستشف فيها شيئاً ، وكانت تحس أن أملًا جديداً يتنامى في قلبها .

وكان الرجل ذو الوجه الخزفي يقرأ بتؤدة وبلهجة لا مبالية ، وكان صوته الذي لا طابع له يملأ القاعة بضجر يخدّر الجمع الجاثم على المقاعد بلا حراك ؛ وكان أربعة من المحامين يتحدثون مع المتهمين بصوت خفيض ، ولكنه حار ، وتند عنهم حركات عريضة سريعة تذكّرها بالطيور السوداء الكبيرة .

وكان إلى جانب العجوز قاض ضخم بدين تغرق عيناه الصغيرتان في الشحم ، ويفيض جسمه من المقعد ؛ وإلى الجانب الآخر كان ان يجلس رجل مقوس الظهر ، ذو شاربين أصهبين يشطران وجهه الشاحب ، وكان ، وقد بدا عليه الإنهاك ، يسند رأسه إلى ظهر مقعده ، ويفكر وأجفانه مطبقة نصف إطباقة .

وكان النائب العام يبدو أيضاً متعباً ضجراً ، ووراء القضاة يظهر عمدة المدينة وهو رجل قوي ممتلىء يداعب وجنتيه بسهوم ، ثم ماريشال النبلاء وهو ذو شعر أشيب ، ولحية طويلة ، ووجه قرمزي ، وعينين ناعمتين ؛ ثم نقيب المقاطعة ، وكان واضحاً أن كرشه يضايقه ، وأنه كان يحاول أن يغطيه بمعطفه ولكن هذا المعطف لا ينفك ينحسر عنه .

وارتفع صوت بول يعلن بحزم :

ـــ لا قضاة هنا ولا مجرمون . بل سجناء ومنتصرون ...

وران الصمت ، ولم يتناه إلى سمع الأم ، لبضع دقائق ، إلا خفق قلبها ، وصرير القلم وهو ينساب على الطرس عجلان ناعماً .

وبدا رئيس المحكمة كأنه هو أيضاً ينصت إلى شيء ما ، وينتظر ، وتململ زملاؤه . وأخيراً خرج عن صمته :

ـــ نعـ ... ـم ... اعترف يا أندريه ناكودكا .

ووقف أندريه بتثاقل وهو يمسد شاربه ، وينظر إلى رئيس المحكمة العجوز شزراً ، ثم قال بصوته الغرّيد المركز ، وهو يشقل كتفه :

ـــ وماذا اقترفت لأعترف ؟ لست بقاتل ولا سارق ، ولكنني ببساطة ثائرٌ ضد نظام يُكرهُ الناس على أن يختلس بعضهم بعضاً ، وأن يقتل بعضهم بعضاً .

وزجره العجوز بإجهاد ، ولكن بوضوح :

ـــ أجب بإيجاز أكثر .

وشعرت الأم بتحرك وراءها على المقعد : فلقد كان الحضور يتحدثون همساً ، ويتململون كأنهم إنما يحاولون أن يتملصوا من خيوط

العنكبوت التي نسجتها الكلمات الذكناء ، كلمات الرجل ذي الوجه الخزفي .

ووشوش سيزوف : ـــ أرأيت كيف يجيبون ؟

ـــ أجب يا ثيو مازين ؟

ورد ثيو بوضوح وهو يثب واقفاً :

ـــ لا أريد أن أجيب .

وكان الإنفعال يضرج وجهه ، وعيناه تبرقان . ولأمر ما كان يخبيء يديه وراء ظهره .

وصعّد سيزوف آهة مخنوقة ، وجحظت عينا الأم من الدهشة .

لقد رفضت توكيل محام ، ولن أتكلم أبداً . إني أقدر محكمتكم اللاشرعية . من أنتم ؟ هل منحكم الشعب حق محاكمتنا ؟ كلا ... إنه لم يفعل ، وأنا لا أعترف بكم .

وجلس ، وتوارى وجهه المشتعل وراء كتف أندريه .

ومال القاضي الضخم برأسه نحو الرئيس ، ووشوشه ، ورفع القاضي ذو الوجه الشاحب أجفانه وألقى على المتهمين نظرة مزوّرة ، ومد يده فخط بقلمه الرصاصي ، شيئاً على الورقة المبسوطة أمامه ، وهز نقيب المقاطعة رأسه ، وحرك قدميه بحذر ، وألقى بكرشه على ركبتيه ، ثم غطاه بيديه . واستدار العجوز الضئيل دون أن يحرك هامه ، نحو القاضي الأصهب اللون ، ثم ارتعشت شفتاه ... فحنى الآخر رأسه وراح يصغي إليه ؛ وأدار ماريشال النبلاء حديثاً مهموساً مع النائب العام ، في حين كان العمدة يصغي إليهما وهو يفرك وجنتيه . وأخيراً هدر من جديد صوت الرئيس الخابي .

ووشوش سيزوف في أذن الأم دَهِشا :

ـــ أرأيت كيف أهانهم ؟ إنه ، في الحقيقة أفضل من الآخرين .

وكانت الأم تبتسم دون أن تفهم ما يقول ، وبدا لها أن ما حصل كله ليس إلا مقدمة تافهة مملة لأمرٍ رهيب سيسحق النظارة عما قريب ، دفعةً واحدة ، بما يحمل من رعب شديد .

وجاءت أجوبة بول وأندريه الهادئة فدوّت بكثير من الشجاعة والحزم ، كأنهما إنما يتفوهان بها في ذلك المنزل الصغير بالضاحية ... لا أمام المحكمة .

ولكن جواب ثيو الفائر ألهبها ، ونشر في القاعة جواً من الجرأة ، واستنتجت الأم من تحركات الناس الذين يجلسون وراءها ، أنها ليست الوحيدة التي تستشعر ذلك .

وسأل العجوز القميء النائب العام :

ــ وما هي مطالعتكم ؟

فنهض النائب العام ، وأبدى مطالعته بسرعة ، سارداً بعض الأرقام ، ولم يكن في صوته ما يخيف ، ولكن وخزة قاسية في قلب الأم بعثت في الوقت نفسه قلقها ، فأحست معها إحساساً غامضاً بشيءٍ عدائي ، بعداءٍ لا صراخ فيه ولا وعيد ، ولكنه يتنامى دون أن تراه عين أو تلمسه يد . وكان هذا العداء يرف حول القضاة أعشى ، ويبدو كأنه يلفهم بضبابة لا يمكن اختراقها ، ولا يمكن أن يتسرب إليهم عبرها شيء من الخارج .

وكانت الأم ترنو إليهم ، فيبدون لعينيها كسر لا يمكن اكتناهه ، وعلى غير ما كانت تنتظر ، لم يُثرهم تصرف بول وثيو ، ولم يوجهوا إليهما كلاماً جارحاً ، بل لاحظت أن أسئلتهم جميعها لم يكن لها شيء من الأهمية في نظرهم ، وأنهم إنما كانوا يطرحونها عليهما مرغمين ، ويصغون إلى أجوبتهم بجهد . لقد كانوا يعرفون سلفاً كل شيء ، لذلك لم يكن هناك ما يثير اهتمامهم .

ومثل أمامهم دركي ، وقال بصوت خفيض :

ــ لقد أجمع الناس على أن بول فلاسوف هو المحرض الرئيسي .

وسأله القاضي البدين بلا مبالاة : ــ وناكودكا ؟

ــ وهو أيضاً ...

ووقف أحد المحامين :

ــ هل أستطيع ؟...

فسأل العجوز أحدهم :

ــ هل من اعتراض لديك ؟

وكان يخيل للأم أن القضاة جميعاً يعانون انحرافاً في صحتهم ، وأن أوضاعهم وأصواتهم تنم عن إعياء مرضي . وكانت تقرأ هذا الإعياء في وجوههم ، وتقرأ معه الضجر القاتل . فأزياؤهم الرسمية والقاعة والجند ، والمحامون وتسمّرهم في مقاعدهم ، واستجواب المتهمين والاصغاء إليهم ... كل ذلك كان بلا شك ، ثقيلاً عليهم ، مثيراً لاشمئزازهم .

وجاء الآن دور الضابط الأصفر اللون الذي تعرفه ، لقد كان يتكلم جاد الملامح ، متساحب الكلمات ، يتكلم بصوت مرنان عن بول وأندريه ، وكانت تقول في نفسها بعفوية ، وهي تصغي إليه :

ــ إنك لا تعرف شيئاً كثيراً ...

ولم يكن يداخلها أي خوف ، أو إشفاق ، نحو أولئك الذين كانت تراهم وراء الحاجز . إن إشفاقها لم يك ينصب عليهم بحرارة ، فلقد كانوا جميعاً يثيرون فيها الدهشة ، فحسب ، وحباً كان يشد قلبها بحراة ؛ وكانت دهشتها تلك هادئة ، وحبها ذاك سعيداً صافياً .

لقد كانوا ، وقد بدت عليهم أمائر الفتوة والبأس ، ينزوون بالقرب من الجدار ، ويكادون لا يولون أي اهتمام لأقوال الشهود المملة الرتيبة وحديثهم مع القضاة ، ولا للجدل القائم بين المحامي والنائب العام . وكانت تند عن أحدهم ــ أحياناً ــ بسمة إزدراء ، ثم يلقي ببضع كلمات إلى رفاقه الذين كانت وجوههم أيضاً تطفح بالبسمة الساخرة .

وكان بول وأندريه يتحدثان همساً ، وباستمرار تقريباً ، إلى واحد من وكلاء الدفاع كانت الأم قد رأته في السهرة عند نيقولا ، وكان مازين وهو أكثر رفاقه انفعالاً واضطراباً يصيخ بسمعه إلى حديثهم ؛ وأحياناً كان ساموالوف يتحدث إلى جان غوسييف ؛ وكانت الأم ترى هذا الأخير ، في كل مرة ، يلكز زميله ، خفية ، بمرفقه ، ويكبت بجهد ضحكة مدوية ، ثم يتضرج وجهه ، وتنتفخ وجنتاه ، ويخفض رأسه

ليختبيء . وقهقه مرتين أو ثلاثاً ، ثم ظل بضع دقائق يتصنع محاولًا أن يكون أكثر جدية واتزاناً . لقد كانت تغلي في كل منهم فتوة ، يبذل قصارى جهده ، ليحد من فورانها .

لكن سيزوف الام بمرفقه لكزة خفيفة ، فاستدارت نحوه فإذا هو منشرح الملامح ، بادي الاهتمام :

ــ أنظري ... إلى « الأشقياء » كم هم مطمئنون ... إنهم يبدون كالأسياد ... أليس كذلك ؟

وكان الشهود في القاعة يدلون بإفادتهم بأصوات عجلى لا لون لها ، وكان القضاة يستجوبونهم بلا مبالاة ، وعلى مضض ، وكان القاضي الضخم يتثاءب فيغطي فمه بيده المنتفخة ، أما الآخر ذو الشارب الأصهب ، فقد كان يبدو أكثر شحوباً ، وكان يرفع ذراعه أحياناً فيضغط باصبعه على صدغه بقوة ، ويحدق في السقف تائه النظرات ، بعينين متمدتين لدرجة تثير الاشفاق .

وكان النائب العام يدوّن ، من حين إلى آخر ، بعض الكلمات بقلمه الرصاصي ، ثم يستأنف الحديث مع ماريشال النبلاء الذي كان يقلبّ ، فيما حوله ، عينيه الواسعتين الحلوتين ، ويمسد لحيته الدكناء ، ويبتسم ، وهو يثني من جيده بشيء من التعاظم .

وكان العمدة يشبك ساقيه ، وينقر على ركبتيه دونما ضجيج ، ويراقب بانتباه حركة أصابعه ، وكان كرشه المندلق يستريح على ركبتيه ، وتسنده كلتا يديه بحذر . أما نقيب المقاطعة فكان يحني رأسه ، ويبدو كأنه الوحيد الذي يصغي إلى طنين الأصوات الرتيب ، يشاركه في الاصغاء ، ذلك العجوز الضئيل المنغرز في مقعده ، حيث يبدو نافراً ، جامداً كناعورة الهواء ، في يوم لا ريح فيه .

واستمر الحال طويلًا على هذا المنوال ، ثم عاد فتور الضجر يخدّر النظارة من جديد .

وقال العجوز الضئيل :

ــ إني أعلن ...

ثم نهض بعد أن خنق الكلمات التالية بين شفتيه الرقيقتين .

وماجت القاعة بالصخب والزفرات ، والهتافات الصماء ، والسعال ، وضجيج الأقدام المتحركة ، واقتيد المتهمون ، وهم يبتسمون ويومئون برؤوسهم إلى ذويهم وأصدقائهم ، وخاطب جان غوسيف أحدهم بصوت هادىء :

ــ تشجع يا إيغور .

وخرجت الأم وسيزوف إلى الأروقة ، فسألها العجوز بالحاح :

ــ هل ترافقينني لتناول قدح من الشاي في المشرب ، فلدينا ساعة ونصف الساعة سنقضيها في الانتظار ؟

ــ كلا ..

ــ حسناً ... وأنا لن أذهب ... أرأيت إلى هؤلاء الفتيان ؟ لكأنهم هم وحدهم الرجال الحقيقيون هنا ، أما الآخرون فليسوا بنظرهم شيئاً مطلقاً . وثيو ...؟ هل لاحظت ذلك ؟

واقترب والد ساموالوف منهما ، وقبعته في يده ، وابتسم ابتسامة فظة :

وولدي غريغوار ؟ لقد رفض توكيل محام ، وهو لا يريد أن يتكلم . إنه هو أول من اكتشف هذه الطريقة ... أليس كذلك ؟ أما ابنك ، يا بيلاجي ، فقد وافق على ضرورة وجود المحامين ، في حين قال إبني أنه لا يريد واحداً منهم ، وقد حذا حذوه أربعة .

وكانت زوجته إلى جانبه ، ترف أجفانها بسرعة ، وتمسح أنفها بطرف منديلها . وتابع زوجها ، ولحيته في قبضته ، وعيناه تحدقان في الأرض :

عندما ينظر المرء إليهم ، إلى هؤلاء الفتيان .. « الملاعين » .. يظن بأنهم يسلكون هذا السلوك في سبيل لا شيء . وأنهم يخاطرون بأنفسهم بلا جدوى ، ثم يتبين له فجأة أنهم ربما كانوا على صواب . إن عددهم في المعمل يزداد باطّراد ، ورغم أنهم ، في كل لحظة ، يصطادون الكثير منهم فيه ، فإنهم يظلون كصغار السمك في النهر .

وهذا ما يدفع إلى التساؤل من جديد : هل هناك من قوة وراءهم تدعمهم ؟

ورد سيزوف :

ــ يعسر علينا أن ندرك هذه الأشياء .

ووافق ساموالوف : ــ نعم .. هذا أمر عسير .

ونشقت زوجته بصوت مسموع وقالت :

ــ يا للأشقياء ... إنهم جميعاً يتمتعون بالصحة الجيدة .

ثم أضافت ووجهها العريض الشاحب يطفح بالبسمة :

ــ لا تغضبي يا نيلوفنا ، لإلقائي ، منذ قليل ، التبعة على إبنك ... فأي عفريت يستطيع أن يعرف ، حقيقةً ، من منهم هو الأكثر إجراماً . لقد سمعت ما قاله الدرك والجواسيس عن إبننا غريغوار ... فله هو أيضاً ... هو الحيوان .. خطيئاته !

وكان واضحاً أنها فخورة بإبنها ، وربما كان ذلك دون تعمد منها ، ولكن الأم كانت تعرف هذا الشعور ، فأجابتها وهي تبتسم بطيبة :

ــ إن القلوب الفتية هي دائماً أكثر قرباً إلى الحقيقة .

وكان الحضور ينتشرون في الأروقة جماعات جماعات ، ويتحدثون بأصوات صماء ، يتحدثون برويةٍ أو انفعال ؛ ولم ينزو أحدٌ منهم ، بل كنت تقرأ بوضوح ، وعلى وجوههم جميعاً ، الرغبة في التحدث والسؤال والإصغاء .

وفي الممر الضيق الذي طُرش ما بين جدرانه باللون الأبيض ، كانوا يعجّون كأنّ ريحاً عاتية قد سُلطت عليهم ، فراحوا يبحثون عن شيء راسخ ثابت يتمسكون به .

وكان الأخ الأكبر لبوكين ، وهو فتى ضخم حائل اللون ، يفرط في حركاته وإشاراته ، ويتلفت بعنف في كل اتجاه مؤكداً :

ــ ان نقيب المقاطعة لا دخل له في هذه القضية .

وينهره والده ، وهو عجوز ضئيل الجسم ، ويتطلع إلى ما حوله بنظرات خائفة :

ــ إخرس يا قسطنطين .
ــ كلا ... وسأقول ما أعرف عنه . يقال إنه قتل في العام الماضي كاتبه بسبب امرأته ؛ وهي تعيش الآن معه . فكيف تفسرون هذا ؟ وفوق ذلك فهو لصٌ محترف ...
ــ أوه .. يا قسطنطين ... يا آلهي ...
وقال ساموالوف :
ــ هذا صحيح . هذا صحيح . إنه قاضٍ غير مستقيم ...
واقترب بوكين الذي كان يسمع ذلك ، اقترب بسرعة وهو يجر الآخرين معه ، وراح يصرخ ، ويكثر من الاشارات ، ودم الانفعال يضرج وجهه :
ــ من أجل سرقة ... أو جريمة يوجد محلفون يحكمون . محلفون من الناس العاديين ، والفلاحين والحرفيين . أما أولئك الذين يعارضون الدولة ، فالدولة هي التي تحاكمهم ، أن هذا أمرٌ لا يستقيم . إنك إذا أهنتني فصفعتك ، وكنت أنت الذي ستحاكمني من أجل ذلك ، فإنني سأكون أنا المخطيء بلا شك ... ولكن البادىء ... من هو ؟ انه أنت .
وفرق الجمع حارسٌ مسن أعقف الأنف ، تزين صدره الأوسمة ، وقال لبوكين وهو يتوعده باصبعه :
ــ هه ... أنت الذي هناك .. لا ترفع صوتك فلست هنا في ملهى .
ــ إسمح لي أيها الفارس ... لقد فهمت ... إسمع لو أنني ضربتك ، وكنت أنا القاضي الذي سيحاكمك فماذا تعتقد ...
فأجابه الحارس بقسوة :
ــ سترى .. سأطردك من هنا .
ــ إلى أين ؟ ولماذا ؟
ــ إلى الشارع لتتعلم كيف تنهق .
فأجال بوكين بصره فيما حوله وقال بصوت خفيض :

ـــ المهم بالنسبة لهم أن نسكت ...

فصاح به العجوز بشراسة :

ـــ ألم تعرف ذلك حتى الآن ؟

ففتح بوكين ذراعيه ، واستأنف بصوت أشد خفوتاً :

ـــ ثم ... لماذا لا يسمح للناس بحضور المحاكمة ؛ بل يسمح بحضورها فقط لذوي المتهمين !؟ لو كانوا يحكمون بالعدل لتصرفوا علناً أمام الناس جميعاً ... إذ لن يكون هناك ما يخيفهم ...

فردد ساموالوف ، ولكن بلهجة أقوى :

ـــ هذا هو الصحيح . إن المحكمة لا ترضي الضمير !.

وكان بود الأم أن تقول له ما كانت قد سمعته من نيقولا عن لا شرعية المحاكمة ، ولكنها كانت قد أساءت فهم ما قال ، ونسيت بعضه ، فابتعدت عن الجميع لتحاول أن تتذكر ما نسيت ، وخلال ذلك لاحظت أن هناك فتىً وضاء الشارب يرنو إليها ، ويده اليمنى في جيبه بنطاله ، مما جعله يبدو كأن كتفه الأيسر أدنى من الأيمن ؛ وقد بدا لها أنها تعرفه ولكنه ، لم يلبث أن أدار لها ظهره ، ولم تلبث هي أيضاً أن نسيته في غمرة ذكرياتها .

وبعد قليل تناهى إلى سمعها سؤال طُرح بصوت خافت :

ـــ أتلك هي ؟

ورد أحدهم بصوت مرتفع وبجذل :

ـــ نعم ..

فتطلعت ... فإذا الرجل المزوّر المنكب ، يستدير نحوها إستدارة جانبية ، ويتحدث إلى جاره وهو فتى أسود اللحية ، يرتدي معطفاً قصيراً ، وينتعل حذاءً ضخماً .

وتحركت فيها من جديد ، وبقلق ، ذكرى لم تستطع أن تتميزها ؛ وتملكتها رغبة طاغية في أن تحدث الناس عن مثل إبنها الأعلى وأن تستمع إلى الاعتراضات التي يمكن أن يوجهوها إليه ، وأن تستخلص من أقوالهم قرار المحكمة .

وراحت تتحدث ... بصوت خفيف وهي توجه كلامها بحذر إلى سيزوف :

ــ أهكذا تكون المحاكمة ؟ إنهم يريدون أن يعرفوا ماذا فعل كل واحد ، أما لماذا فعل ؟ فإن ذلك لا يعنيهم أبداً . ثم أنهم جميعاً طاعنون في السن ، وللحكم على شبان يجب أن يكون هناك شبان ...

وقال سيزوف :

ــ أجل ... إنه لمن العسير علينا جداً أن نفهم هذه القضية ... من العسير ...

ثم هز رأسه ساهماً .

وكان الحارس قد فتح باب القاعة وصاح :

ــ ذوو المتهمين فقط ... أبرزوا بطاقاتكم !

وارتفع صوت كئيب يقول ببطء :

ــ بطاقات !... كما لو كنا في سيرك !

... واجتاح الناس سخط أصم ، واستشعروا في نفوسهم جرأة مبهمة ، ولكنهم بدوا أقل ضيقاً ، فراحوا يضجون ويتجادلون مع الحجاب .

25

وجلس سيزوف على المقعد مغمغماً ، فسألته الأم :

ــ ما بالك ؟

لا شيء . إن الناس بهائم ...

ورنّ جرس ، ثم أعلن صوت بلا مبالاة :

ــ تهيأت المحكمة .

ونهض الجميع ، كالمرة الأولى ، ودخل القضاة بنفس الترتيب وجلسوا في مقاعدهم ، ثم أدخل المتهمون .

ووشوش سيزوف :

ــ الانتباه . سيبدأ النائب العام مرافعته .

ومدت الأم عنقها ، ومالت إلى الأمام بكل جسدها ، ثم جمدت ؛ فإذا بها تسمع من جديد ما يثير الرعب .

وأطلق النائب العام زفرة ، وهو يقف ويدير رأسه نحو القضاة ، ويتكىء بمرفقه على طاولته . ثم راح يتكلم ملوحاً بيده اليمنى في الفضاء بحركات متقطعة. ولم تسمع الأم عباراته الأولى فقد كان صوته خفيضاً ممتلئاً ، غير متناسق النبرة ، فهو تارة بطيء وتارة أخرى سريع . وكانت الكلمات تتمطى في سلسلة طويلة رتيبة ، ثم تتطاير فجأة وتضغط ، وتهوّم كسرب من الذباب الأسود فوق قطعة من السكر ، ولكن بيلاجي كانت لا تجد فيها ما يرعب أو يتوعد ، بل كانت هذه الكلمات تتناثر باردة كالثلج ، كمداءَ كالرماد ، وتنفرط فتملأ جو القاعة بضجر قاحل ، كالرمل الدقيق الجاف .

وكانت هذه المرافعة التي شحت فيها العواطف وخصبت الكلمات ، لا تصل ، بلا شك ، إلى آذان جان ورفاقه الذين كانوا لا يتأذون بها مطلقاً ، والذين كانوا لا ينفكون يتهامسون كالسابق ، آمنين ، ويبتسمون تارة ابتسامة عريضة ، وتارة أخرى يخبئون بسماتهم تحت ملامحهم الباسرة .

وغمغم سيزوف :

ــ إنه يكذب .

ولم يكن باستطاعتها هي أن تقول أكثر من ذلك ، وكانت تصغي إلى النائب العام فتفهم من كلامه أنه يتهم الجميع دونما تمييز ، وعندما أتى على ذكر بول ، راح يتكلم عن ثيو ، ويضعه في نفس الوضع القانوني ، ثم يضم إليهما بوكين بإصرار ، وكان يبدو أنه يحشر المتهمين جميعاً في جراب واحد ، ويسد عليهم بابه ، ثم يهصرهم هصراً ، غير أن المعنى الظاهري لكلامه لم يكن ليرضي الأم ، لا يحركها ولا يخيفها ، ومع ذلك فقد كانت تنتظر ذلك الشيء الرهيب ، فتبحث عنه تحت كلمات النائب العام ، وفي ملامح وجهه ، وعينيه ، وفي يده البيضاء التي كانت تلوّح ببطء في الفضاء . أجل ... لقد كان ذلك الشيء

ماثلًا هناك ، وكان رهيباً ، تحسه الأم ، ولكنها لا تتحسسه ، فهو عصي على التعريف ، يسجن قلبها من جديد في شبكة جافة خشنة .

وكانت تتطلع إلى القضاة ؛ فترى بوضوح أن هذه المطالعة قد أضجرتهم ، وكانت وجوههم الصفراء الكالحة التي لا حياة فيها ، لا توحي إليها بشيء ، وكانت كلمات النائب العام تنشر في الفضاء ضباباً لا تراه العين ، يتكاثف حول القضاة ، ويلفهم بسحابة سميكة من اللامبالاة ، والعياء المستسلم .

وكان رئيس المحكمة جامداً كالمومياء لا يبدي حراكاً ، وكانت البقع الرمادية الصغيرة تختفي بين الفينة والفينة ، وراء زجاج نظارتيه ، وتنصهر في رقعة وجهه ، وإزاء هذا الجمود الجيفيّ ، وهذه اللامبالاة الباردة ، كانت الأم تتساءل بقلق :

ــ هل يحاكمون حقاً ؟

وكان هذا الشك يهصر قلبها ويطرد منه قليلًا قليلًا ، خوفها من ذلك الشيء الرهيب الذي كانت تتوقعه ولكن شعوراً حاداً بالمذلة كان يأخذ بخناقها .

وتوقفت مرافعة النائب العام بغتة ، ولكنه أضاف بضع دمدمات سريعة ، ثم انحنى للقضاة وجلس وهو يفرك يديه ، فأومأ له ماريشال النبلاء برأسه مقلباً عينيه ، ومد العمدة يده ، أما النقيب فراح يتأمل كرشه ويبتسم .

إلا أن مرافعة النائب العام لم ترق ، على ما يظهر ، للقضاة الذين لم تبدر منهم بعدها أية حركة .

وقال العجوز الضئيل وهو يدني ورقة من وجهه :

ــ الكلام الآن لوكيل الدفاع عن فيدوسييف ، وماركوف وزاغاروف .

فوقف المحامي الذي كانت الأم قد رأته عند نيقولا ، وكانت عيناه الصغيرتان تبتسمان وضاءتين في وجهه العريض السمح ؛

وخيل للأم أن تلك النقطتين المستكينتين تحت حاجبيه الأصهبين تنطلقان كالمقص لتقطعا شيئاً ما في الفضاء .

وأخذ يتكلم على مهل ، وبصوت جهوري واضح ، ولكن الأم كانت لا تستطيع أن تسمعه ، فوشوش سيزوف في أذنها :

ــ هل فهمت ما يقول ؟ هل فهمتِ ؟ إنه يقول إنهم معتوهون مختلو الشعور .. فهل صحيح أن تيودور كذلك ؟

ولم تجب ، أرهقها شعورٌ أليم بخيبة الأمل ، وكان شعورها بالمهانة يتزايد فيسحق روحها . لقد أدركت الآن لِمَ كانت تنتظر المحاكمة ؟ لقد كانت تعتقد بأنها ستشهد نقاشاً قانونياً قاسياً بين إبنها وحقيقته ، والقضاة وحقيقتهم ، وكانت تتصور أن هؤلاء سيستجوبون بول طويلاً وبدقة ، وأنهم سيسألونه بتفصيل عن حياة قلبه كلها . وأنهم سيتفحصون بعيون نفاذة أفكاره كلها ، وتصرفاته ، ومشاغله ، وإنهم عندما يلمسون صواب نظرته سيجهرون بعدالة :

ــ هذا الرجل على حق .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ؛ فلقد كان المتهمون ، كما يخيل إليها ، على بعد مئة فرسخ من القضاة . وكان هؤلاء لا يثيرون في المتهمين أي اهتمام ، وكان الجدل القائم لا يروق للأم ، لذلك كانت لا تصغي إليه ، بل تفكر وهي تشعر بالمهانة :

ــ أهكذا يحاكمون الناس ؟

وغمغم سيزوف وهو يومىء برأسه مؤكداً :

ــ إنها تليق بهم !

وانتقل الكلام إلى محامٍ آخر ، ضئيل الجسم ، باهت اللون ، ساخر اللهجة ، ولكن القضاة قطعوا عليه كلامه . ووثب النائب العام ولفظ بصوت سريع مهتاج كلمة « محضر الضبط » ثم راح العجوز الضئيل يتكلم داعياً إياه إلى الهدوء ، في حين كان المحامي يصغي إليهما ، وقد طأطأ رأسه إحتراماً ، ثم لم يلبث أن استأنف الكلام .

وقال سيزوف : ــ اسلخهم جيداً .. اسلخهم جيداً :

وساد الهرج القاعة من جديد ، وانتظم الهياج العنيف الجمهور ، وكان المحامي يسوط جلد القضاة الهرم بكلماته اللاذعة ، فيبدون كأنهم يتجمعون على أنفسهم بشدة وينتفخون ، وينتفشون ليردوا عنهم طعناته الشديدة الواخزة .

ويقف بول فيسود القاعة فجأة صمت غير منتظر ، وتميل الأم بكيانها كله إلى الأمام ، ويبدأ بول كلامه بهدوء :

ـــ إني كحزبي ، لا أعترف بمحكمة إلا محكمة حزبي . لذلك لن أقول شيئاً دفاعاً عن نفسي ، ولكنني ، تحقيقاً لرغبة بعض رفاقي الذين رفضوا توكيل محام ، سأحاول أن أشرح لكم ما استعصى عليكم فهمه . لقد وصف النائب العام تظاهرتنا في ظل علم الاشتراكية الديموقراطية بأنها ثورة على السلطة العليا ، وتحدث عنا كعصاة ثائرين ضد القيصر . ومن واجبي أن أعلن أن الأوتوقراطية ليست بالنسبة لنا القيد الوحيد الذي يشد البلاد إلى اغلالها ، بل إنها القيد الأول الذي نحسه أكثر من سواه ، والذي يجب علينا أن نحرر الشعب منه .

وكان السكون قد ازداد عمقاً عند انطلاق هذا الصوت الحازم الذي بدا كأنه يباعد ما بين جدران القاعة ، كأن بول قد نأى كثيراً عن سامعيه ... ولكن هذا الصوت ، كان في الوقت نفسه جلياً واضحاً .

وتململ القضاة بتثاقل وقلق ، وهمس ماريشال النبلاء بضع كلمات في أذن القاضي ذي الوجه اللامبالي ، فحرك هذا رأسه ، واستدار إلى العجوز الضئيل الذي كان يوشوشه من الناحية الأخرى القاضي ذو الملامح المتألمة ؛ ووجّه العجوز وهو يترنح في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، بضع كلمات إلى بول ، ولكن صوته ضاع في غمرة التيار العريض المتدفق الذي ينساب من فم بول :

ـــ إننا إشتراكيون . وهذا يعني أننا أعداء الملكية الخاصة التي تفكك الناس وتؤلب بعضهم على بعض ، وتخلق بينهم عداءً في المصالح لا نهاية له . أعداء الملكية الخاصة التي تكذب حين تدّعي انها تعطي أو تصفّي هذه الخصومة ، والتي تفسد الناس جميعاً

بالكذب والرياء والحقد . ونحن نقول أن المجتمع الذي يعتبر الانسان أداة لاثرائه هو مجتمع لا إنساني ، مجتمع بغيض بالنسبة لنا ؛ لا نستطيع أن نتقبل أخلاقيته المرائية الكاذبة . إن سفاهته الماجنة وقسوته بالنسبة للشخصية الانسانية تثيران كرهنا ، ونحن نريد أن نناضل ، وسنناضل ضد كل شكل من أشكال عبودية الانسان الجسدية والمعنوية ، في مجتمع كهذا ؛ سنناضل ضد كل الأساليب التي يُسحق بها الانسان في سبيل الجشع . ونحن ، أعني العمال ، نحن الذين يصنع جهدنا كل شيء ، من الآلات الضخمة الجبارة إلى دُمى الأطفال . نحن الذين حرمنا حق النضال في سبيل كرامتنا كبشر ، والذين يدّعى كل واحد ، حقاً له ممتازاً بأن يجعل منا أدوات للوصول إلى غايته . نحن العمال ، نريد الآن أن يكون لنا من الحرية ، ما يمكننا مع الزمن ، أن نظفر بالسلطة كلها . إن شعاراتنا بسيطة : لتسقط الملكية الخاصة . أدوات الانتاج كلها ملك للشعب . السلطة كلها للشعب . العمل إلزامي للجميع !. وهكذا ترون أننا لسنا عصاة متمردين !.

وقال الرئيس بصوت واضح قوي :

ـــ أرجوك ، تكلم في الموضوع !

وكان قد استدار نحو بول وراح يحدق به ، وخيل للأم أن عينه الشزراء الكدراء كانت تلتمع ببريق شرير نهم ، وكان القضاة يرنون جميعاً إلى الفتى بعيون تبدو كأنها تتسمر على وجهه ، وتخترق جسده لتمتص منه الدم ، فتحيى به أجسادهم المهترئة الفانية . أما هو ، فكان يقف منتصباً بكل قامته ، حازماً ، صلباً ، ويمد نحوهم ذراعه ويقول بصوت واضح هادىء :

ـــ نحن ثائرون ، وسنظل كذلك ما دام البعض يأمرون والآخرون يعملون . نحن نكافح ضد مجتمع أمرتم بأن تحموا مصالحه ، مجتمع نحن خصومه الألداء وخصومكم ؛ ولن يحل بيننا الوئام إلا حين ننتصر ، وسننتصر نحن ، نحن العمال . ان موكليكم هم دون ما

يتصورنه منه قوتهم بكثير ؛ وثرواتهم التي يكدسونها ويحمونها بتضحية الملايين من البشر التي يستعبدونها ، وهذه القوة التي تعطيهم السلطان علينا ، كل ذلك يثير فيما بينهم التنازع العدائي ، ويهدمهم مادياً ومعنوياً .

إن الملكية تتطلب جهداً عظيماً جداً لتحمي نفسها ، وأنتم في الحقيقة ، أنتم جميعاً أيها الأسياد ، يا أسيادنا ، عبيد أكثر منا . إن عقولكم هي المستعبدة ، أما نحن فلسنا عبيداً إلا بأجسادنا . إنكم لا تستطيعون أن تتحرروا من نير الأغراض والتقاليد التي تقتلكم معنوياً ، أما نحن فلا شيء يمنعنا من أن نكون أحراراً في ذواتنا : والسموم التي تنفثونها فينا هي أقل خطراً من الدواء الشافي الذي تهرقونه في وجداننا دونما إرادة منكم ؛ وهذا الوجدان يكبر وينمو بلا انقطاع ، ويزداد دوماً تأججاً ، ويجر وراءه كل ما هو أفضل ، وأسلم معنوياً ، حتى ولو كان هذا الأفضل ، وذاك الأسلم من تراث طبقتكم .

أنظروا .. إنكم لا تجدون شخصاً واحداً يستطيع أن يناضل إيديولوجياً باسم سلطتكم ، فلقد استنفدتكم حججكم كلها ، هذه الحجج القمينة بأن تحميكم من هجوم العدالة التاريخية . كما أنكم لا تستطيعون أن تأتوا بجديد في نطاق الفكر ، أي انكم قد ابتليتم بالعقم فكرياً . أما أفكارنا ، أفكارنا نحن ، فإنها تنمو وتتأجج وتزداد إشراقاً ، وتكتسح جماهير الشعب ، وتنظمهم في نضالهم من أجل الحرية .

إن الشعور بالدور العظيم الذي يجب أن تلعبه الطبقة الكادحة ، هذا الشعور يوحّد عمال العالم كلهم ؛ ويجعل منهم روحاً واحدة . ومن المستحيل عليكم أن توقفوا عملية تجدد الحياة إلا بالقسوة والخداع ، ولكن الخداع واضح ، والقسوة تثير النقمة ، والأيدي التي تخنقنا اليوم ستشد أيدينا عما قريب في عناق أخوي .

إن طاقتكم هي الطاقة الآلية لتضخم الذهب ، وهي تلم شتاتكم في جماعات قدر لها أن يفترس بعضها بعضاً ، أما طاقتنا نحن ، فهي قوة الضمير الحية المتنامية أبداً ، النابتة من تضامن الكادحين جميعاً .

إن تصرفاتكم كلها إجرامية لأنكم لا تهدفون من ورائها إلا إلى إسترقاق الناس ، أما عملنا نحن ، فإنه يحرر العالم من الأشباح والغيلان التي يخلقها دجلكم وحقدكم ، ونهمكم ؛ ليرهب بها الشعب . لقد انتزعتم الانسان من الحياة وسحقتموه ، ومهمة الاشتراكية أن تجمع العالم الذي مزقتموه في كلٍ واحدٍ جبار . وسيتحقق ذلك .

وتوقف بول قليلاً ثم ردد بهدوء وبمزيد من القوة :

ـــ سيتحقق ذلك .

وتهامس القضاة فيما بينهم ، وبدت عنهم حركات غريبة ، دون أن يقتلعوا عيونهم الشرهة عن بول ، وأحست الأم كأنهم إنما يدنسون بنظراتهم هذه جسد ابنها اللطيف الصلب ، هذا الجسد الذي يحسدونه على ما ينعم به من عافية ، وقوة ، ونضارة .

وكان المتهمون يصغون بانتباه لكلمات رفيقهم وهم شاحبو الوجوه ، تتألق الفرحة في عيونهم ، وكانت الأم تلتهم هذه الكلمات إلتهاماً فتنحفر في ذاكرتها مقاطع طويلة منها .

وقاطع العجوز القميء بول مرات عدة ، شارحاً له ما لا تدري ، وقد ارتسمت على شفتيه في إحدى المرات ابتسامة حزينة . وكان بول يصغي إليه بسكون ثم يستأنف بصوت صارم ولكنه هادىء ، يرغم القضاة على الاصغاء إليه ، ويخضع إرادتهم لإرادته .

وأخيراً أخذ العجوز يصرخ مشيراً بيده إلى بول ، ولكن هذا اكتفى بالرد عليه بأن قال بصوت تمازجه سخرية خفيفة :

ـــ سأنهي كلمتي . إني لا أقصد أن أوجه إليكم أية إهانة شخصية بل العكس ، أما وقد أرغمت على حضور هذه المهزلة التي تسمونها « محاكمة » فإني أكاد أستشعر بعض الشفقة عليكم . إنكم رغم ذلك كله بشر ، وإنه لشديد علينا دائماً أن نرى أناساً ، وإن كانوا أعداءً لأهدافنا ، ينحدرون ، بشكل دنيء هكذا ، ليكونوا في خدمة الإرهاب ، ويفقدون إلى مثل هذه الدرجة الإحساس بكرامتهم الإنسانية .

وجلس دون أن ينظر إلى القضاة ، وكانت الأم وهي تمسك أنفاسها ، تركز بصرها عليهم وتترقب .

وشد أندريه بقوة على يد بول وهو مشرق الأسارير ، أما ساموالوف ومازين والآخرون جميعهم ، فقد اشرأبوا نحوه . وكان هو يبتسم ، وقد أربكته بعض الشيء حماسة رفاقه ، ثم ألقى نظرة على المقعد حيث كانت تجلس أمه ، فأومأ لها برأسه إيماءة كأنه يسألها :

ــ هل يعجبك هذا ؟

وردت عليه ، وقد غمرتها موجة من الحنان الملتهب ، بزفرة عميقة من الفرح .

وغمغم سيزوف :

ــ لقد بدأت المحاكمة هذه المرة . فلقد جشرهم شر حشرة . أليس كذلك ؟

وهزت رأسها دون أن تجيب ، سعيدة لأن ابنها تكلم بكثيرٍ من الجرأة ، ولعلها كانت أكثر سعادة أيضاً لأنه أنهى كلامه .

وكان هناك سؤال يطرق دماغها :

ــ والآن ... ماذا سيحل بكم ؟

26

ولم يكن ما قاله ابنها جديداً عليها ؛ فلقد كانت تعرف أفكاره ، ولكنها كانت لأول مرة تحس ، هنا ، أمام المحكمة ، قوة إيمانه العجيبة الجارفة . وكان هدوء بول يصعقها ، وخطابه يتكثف في صدرها ، في حزمة مشعة من يقين مضيء ، كان يؤكد لها سداد خطاه وانتصاره . وخطر لها أن القضاة لن يلبثوا أن يناقشوه بضراوة ، ويجابهوه بحقيقتهم غاضبين ، ولكن هو ذا أندريه ينهض ، ويترنح ، ثم يلقي نظرة خاطفة إلى تحت ، ويقول :

ــ أيها السادة وكلاء الدفاع .

ولكن القاضي ذا الوجه المريض صاح به بصوت قوي غضوب :

ـــ المحكمة هي التي أمامك لا وكلاء الدفاع .
وكانت الأم تقرأ في ملامح أندريه أنه يريد أن يمزح . لقد كان شاربه يرتعش ، وفي عينيه يلتمع دعابٌ خبيث خدّاع تعرفه جيداً ، وفرك رأسه بيده الطويلة ، ثم تنهد ، وقال وهو يهز رأسه :
ـــ أليس ذلك ممكناً ؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة بل وكلاء دفاع فقط !
ورد عليه العجوز القميء بجفاف :
ـــ أرجوك تكلم في صلب الموضوع .
ـــ في صلب الموضوع ؟ حسناً . أنا أريد أن أفترض إذن أنكم قضاة حقاً ، ورجال مستقلو الرأي شرفاء ...
ـــ ليست المحكمة بحاجة إلى تقديرك ...
ـــ ليست بحاجة إلى تقديري ؟ هُمْ .... ومع ذلك سأتابع كلامي .... لنفترض أنكم رجالٌ لا أصدقاء لهم ولا خصوم ، رجال أحرار ... وأنه قد مثل أمامكم فريقان : أحدهما يتظلم : « لقد سلبني وحطم سحنتي » ، والآخر يجيب : « إن لي مطلق الحق في أن أسلب وأحطم الرؤوس ... لأنني أملك بندقية . »
وقاطعه العجوز وهو يرفع من صوته :
ـــ هل لديك ما تقوله في الموضوع ؟
وكانت يده ترتعش ، فيبهج الأم أن تراه يغضب ، ولكن الطريقة التي تصرف بها أندريه لم ترق لها ؛ فهي لا ترتفع إلى مستوى دفاع بول ، وكانت بيلاجي تود أن تستمع إلى نقاش حاد مركّز .
ورنا البيوروسي إلى العجوز بصمت ثم قال بوقار وهو يفرك رأسه :
ـــ في الموضوع ؟ ولِمَ أتكلم فيه ؟ إن ما يتوجب عليكم معرفته قد قاله رفيقي ، أما الباقي فسيقوله لك آخرون عندما يحين الوقت ..
فوثب العجوز الضئيل من مقعده وصاح :
ـــ إني أمنعك من الكلام . الكلام لغريغوار ساموالوف .
وتهالك أندريه على مقعده مطبق الشفتين غير مبال ، ووقف إلى

جانبه ساموالوف والهواء يعبث بشعره الأجعد :

ــ لقد وصفنا النائب العام بأننا برابرة ، وأعداء للثقافة ...

عليك ألا تتكلم إلا فيما يتعلق بالقضية .

ــ هذا ما أفعله ؛ فليس هناك من شيء لا يتعلق بالشرفاء . ثم إني أرجوك ألا تقاطعني ، وأسألك ... أن تقول لي إذن ما هي ثقافتكم ؟

وقال العجوز وهو يفغر فمه :

ــ لسنا هنا أمام زميل لنا ... فادخل في صلب الموضوع .

وكان ظاهراً بوضوح أن موقف أندريه قد بدل من مزاج القضاة ، وبدا كأنه قد عفّى على شيء ما في نفوسهم ؛ فظهرت في وجوههم الغبراء بقع ، ولمعت في عيونهم شرارات باردة صفراء . وكان دفاع بول قد أثار حفيظتهم ، ولكن قوته غطت على غضبهم وفرضت إحترامه عليهم ، ثم جاء البيوروسي يفرّج عنهم هذا الضيق ، ويظهر دونما جهد ما كان يخفيه .

وتهامسوا فيما بينهم وكانت ملامحهم تنقبض وتتغضن بشكل غريب ، وغدت حركاتهم كقضاة يشوبها الافراط والمبالغة .

ــ إنكم تدربون الجواسيس ، وتجرون النساء والشباب إلى الفجور ، وتحيلون الانسان إلى سارق وسفاح ، وجر الشعب كله إلى الخبل ، هذه هي ثقافتكم ... ونحن ، أجل ، نحن ، أعداء لهذه الثقافة .

وصاح العجوز الضئيل ولحيته ترتعش : ــ أرجوك ..

ولكن ساموالوف كان يصيح في الوقت نفسه ، محتقن الوجه مشتعل العينين :

ولكننا نحب الثقافة الأخرى ونحترمها ، الثقافة التي تعملون على أن يتعفن في السجن خالقوها ، خالقوها الذين تحيلونهم إلى مجانين ..

ــ إني أسحب منك الكلام ... الكلام لتيودور مازين .

ووثب مازين الصغير كجرذ خرج من حجره وقال بحدة :

ــ إني .. إني أقسم وأعلم .. بأن الحكم عليّ جاهز .

واختنق صوته واصفرّ لونه ولم يعد يُرى في وجهه إلا عيناه ، ثم صاح وهو يبسط ذراعه :

ـــ إني أعطيكم عهد شرف . أرسلوني انّى شئتم . فسأهرب ، وسأعود ، وسأعمل أبداً من أجل القضية طوال حياتي ، أعطيكم عهد شرف ...

وسعل سيزوف بقوة ، وتململ ، وكان الجمهور يزمجر ، فتندّ عنه ضوضاء غريبة . وبكت امرأة ، وسعل أحد الناس ، ثم نشج . وكان رجال الدرك ينظرون إلى المتهمين بدهشة بلهاء ، وإلى الجمهور بغضب . وكان القضاة يتمايلون تارة إلى اليمين وتارة أخرى إلى الشمال ، وأخيراً صرخ العجوز بصوت نحيل :

ـــ غوسيف جان ...

ـــ لا أريد أن أتكلم .

ـــ باسيل غوسيف .

ـــ لن أتكلم .

ـــ بوكين تيودور .

فنهض الفتى ذو الشعر الأبنوسي متثاقلًا وقال بتؤدة :

ـــ يجب أن تخجلوا ، فأنا رجل غير مثقف ... ومع ذلك أفهم ما هي العدالة .

وكان يرفع ذراعه فوق رأسه . ولم يكمل بل أطبق عينيه نصف إطباقة كأنه يعير انتباهه إلي شيء يراه في البعيد .

وصرخ العجوز الضئيل وهو يتقلب على ظهر أريكته ، وقال بدهشة يخالطها الغضب : ـــ ما هذا ؟

ـــ حسناً إني ...

وترامى بوكين على المقعد متجهم الوجه ، فلقد كان في كلماته القاتمة شيء كبير عظيم ، وكان فيها في الوقت نفسه تقريعٌ شجيّ ساذج . ولمس الحضور هذا كله ، وحتى القضاة أصغوا إليه ، كأنهم يترقبون أن يرن في آذانهم صدى يحمل من الوضوح أكثر مما تحمل

كلماته . وعلى مقاعد النظارة جمد القوم جميعهم ، فلا تعلو من صفوفهم نأمة ، سوى نشيجٌ خفيف . وشقل النائب العام كتفيه ، وهو يبتسم بازدراء ، وسعل ماريشال النبلاء بقوة ، وارتفعت الهمهمة من جديد ، ودبت الحركة في القاعة شيئاً فشيئاً .

ومالت الأم على سيزوف تسأله :

ـــ هل سيتكلم القضاة ؟

ـــ كلا فلقد انتهى الأمر ولم يعد هناك إلا إعطاء القرار !

ـــ أبداً لن يتكلموا ؟

ـــ أبداً .

ولم تصدقه .. وكانت والدة ساموالوف تتململ على المقعد قلقة ، وتلكز بيلاجي بمنكبها ومرفقها وتسأل زوجها بصوت خفيض :

ـــ والآن ماذا ؟ أمن الممكن أن ...

ـــ أنت ترين أن ذلك ممكن ...

ـــ ولكن ... ولدنا غريغوار .

ـــ دعيني وشأني .

وكنت تحس أن كلّاً من الحضور كان يعاني شيئاً من الضياع والتحول والانسحاق ؛ وتقرأ الاضطراب في عيونهم الراعشة التي تبدو كأن نوراً شديداً قد بهرها . وكانوا وقد خفي عليهم الاحساس بذلك الشيء العظيم الذي انبثق فيهم فجأة ، كانوا ، يتعجلون فيغدقونه انطباعات حسية ، سهلة الادراك . وكان شقيق بوكين يقول بصوت خفيض ودونما عناء :

ـــ أتسمحون فتقولون لي لِمَ لا يأذنون لهم بالكلام في حين يستطيع النائب العام أن يقول ما يشاء ، وأن يتكلم طويلاً وبالقدر الذي يريد ؟

وكان بالقرب من المقعد حاجب ، فنهره وهو يلوّح بيده :

ـــ على مهلك ... على مهلك .

واستلقى والد ساموالوف إلى الوزاء ، وغمغم وراء ظهر زوجته :

ــ لنفترض أنهم مجرمون حقاً ، فليسمحوا لهم أن يشرحوا وجهة نظرهم ، ليسمحوا لهم أن يقولوا ضد ماذا ثاروا ؟ أريد أن أفهم .. فأنا أيضاً يهمني ذلك ..

وصاح به الحاجب وهو يهدده بأصبعه :

ــ الصمت . الصمت .

وهز سَيزوف رأسه وهو متجهم الأسارير .

ولم ترفع الأم بصرها عن القضاة ؛ وكانت ترى غضبهم يتنامى ، ولا تتميز كلمة من تهامسهم المتآمر . وكان رجع أصواتهم الخادع البارد يلامس وجهها ، فترتعش له وجنتاها ، وتحس في فمها طعم التقزز . لقد كان يخيل إليها أنهم جميعاً يتحدثون عن جسم ابنها وأجسام رفاقه ، عن أطراف هذه الفتوة وعضلاتها التي تفور بالدم الحار والقوة الحية النابضة ؛ وأن هذه الأجساد تضرم فيهم الحسد الكريه ، حسد المتسولين ، وتثير فيهم الشره الشديد ، شره المنهك والمريض ؛ فتتلمظ شفاههم ، ويتحسرون على هذه العضلات القادرة على أن تعمل ، وتثري ، وتتمتع ؛ وتخلق . أما أجسادهم هم ... أجساد هؤلاء العجائز ، فإنها تجفو دورة الحياة الفاعلة وتنكرها ، وتفقد إمكانية التمتع بقوتها ، وإمكانية السيطرة على الحياة والتهامها ، ومن أجل ذلك ، كانت تلك الفتوة تثير في القضاة العجائز ميلًا حقوداً إلى الثأر ، كذاك الميل الذي تثيره في الوحش الجائع رؤية اللحم الطري ، دون أن تكون له القدرة على إمتلاكه ، فيستشعر أنه فاقدٌ لتلك الحيوية التي تملأ الآخرين ، فيزمجر بألم ، ويعوي بيأس ، وهو يرى أود حياته يفلت هكذا من يديه .

وكانت الأم كلما أعارت القضاة انتباهاً أكثر ، كلما اتخذت هذه الفكرة الغريبة الفجة شكلًا واضحاً في رأسها ، ويخيل إليها أنهم لا يعملون على إخفاء ذلك الشره القلق ، ولا ذلك السعار الخوّار ، سعار الجياع الذين لا يتورعون عن التهام كل شيء يجدونه أمامهم ؛ وكان يُرهبها ، كامرأة ، وكأم تحب ، رغم كل شيء ، جسد إبنها أكثر من

ذاك الذي يسمونه روحاً .. كان يرهبها أن ترى تلك العيون المنطفئة تتساحب على وجهه ، وتتلمس صدره ومنكبيه ويديه ، وتحتك ببشرته الملتهبة ، كأنهم إنما ينشدون فيها إمكانية الدفء ، وإذكاء الدم في عروقهم المتصلبة ، وفي عضلاتهم المتهرئة ، عضلات رجالٍ نصف أموات تبعث فيها بعض الحيوية وخزات الشهوة ، شهوتهم إلى تلك الحياة الفتية التي تحتم عليهم أن يدينوها ، وأن يمتلكوها . وكانت الأم تشعر أن ابنها يحس هذا التماسّ الكريه الخضل ، وأنه يتطلع إليها مرتجفاً .

وكان بول يركز عليها عينيه الهادئتين الودودتين ، المتعبتين بعض الشيء ، ويومىء لها برأسه من حين إلى آخر ، ثم يبتسم ، وكانت ابتسامته تقول لها :

ــ سأكون طليقاً عما قريب .

فتدغدغ هذه الابتسامة قلبها .

وفجأة نهض القضاة جميعاً ، وتتبعت الأم تحركهم بصورة غريزية ، وقال سيزوف :

ــ إنهم منصرفون .

ــ لوضع الحكم ؟

ــ نعم .

وتبدد بغتة ذلك التوتر الذي كانت تحسه، وهدّ كيانها إعياءٌ مرهق، وراح حاجبها يرتعش، وتلألأت على جبهتها حباتٌ من العرق، وتفجر في قلبها إحساسٌ ثقيل بالقرف والمهانة، وسرعان ما تحول هذا الاحساس إلى إزدراء شديد الوطأة للقضاة وقرارهم، وشعرت بألم تحت جبهتها، فأمرّت يدها عليها بقوة، ثم أدارت بصرها فيما حولها: لقد كان ذوو المتهمين يقتربون من الحاجز، وكان صخب الأحاديث يملأ القاعة، وتقدمت هي أيضاً من بول، وشدت على يده وانفجرت تبكي وقد امتلأت هوناً وبهجة، وضاعت في خليج من الأحاسيس المتناقضة؛ وحدثها بول حديثاً رقيقاً، أما البيوروسي فقد كان يمزح ويضحك.

وكانت النساء جميعهن يبكين ، ولكن بكاءهن كان في الغالب بدافع العادة لا الأسى ، ولم يكن الألم هو الذي يذهلهن بضربة على الرأس بلهاء ، بضربة وحشية مفاجئة ، بل الاحساس الحزين بفراق أبنائهن ؛ غير أن هذا الاحساس نفسه كان يغرق ويذوب في إنطباعات نهارها ذاك . وكان ذوو المتهمين يرنون إلى أبنائهم وقد استولى عليهم شعورٌ قلق يختلط فيه إختلاطاً عجيباً ارتيابهم بالشباب ، واستعلاؤهم الذي تعودوه ، بضرب من الاحترام ؛ وكانوا يتساءلون بأسىً : كيف تراهم سيعيشون الآن ؟ وكان هذا الخاطر الملحاح يصطدم بالفضول الذي يثيره هؤلاء الشبان الذين كانوا يتحدثون بجرأة ودونما خوف ، عن إمكانية الوصول إلى حياة أخرى ، إلى حياة أفضل . وكانوا ، وهم أعجز من أن يعبروا عن هذه المشاعر ، يستنفدون قواهم في فيض من الكلام ، غير أنهم كانوا يتحدثون عن أشياء بسيطة : عن الغسيل والثياب ، وضرورة الاحتفاظ بالصحة الجيدة .

وكان الابن البكر لبوكين يحث أخاه الأصغر بحركات قوية :

ـ إننا نريد العدالة ... لا أكثر ...

ويجيبه الأخ الأصغر :

ـ اعتن جيداً بالزرزور .....

ـ لا تقلق من هذه الناحية .

وكان سيزوف يمسك بيد ابن أخيه ويقول ببطء :

ـ ها أنت ذا تذهب يا تيودور !

ومال ثيو عليه وأسر شيئاً في أذنه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ، وابتسم كذلك جندي الحراسة الذي يقف إلى جانبهما ، ولكنه لم يلبث أن استرد سحنته القاسية وسعل .

وكالآخرين كانت الأم تتحدث مع بول، وفي المواضيع نفسها: عن غسيله وصحته، في حين كانت تزدحم في نفسها الأسئلة عن ساندرين وعنه، وعنها هي نفسها؛ وفي ظل هذه الأحاديث كان ينمو شعورها بحبها العظيم لابنها، ورغبتها الملحة في إرضائه، في أن تكون أكثر قرباً إلى

قلبه. وكان ترقبها «للشيء الرهيب» قد تلاشى دون أن يترك وراءه شيئاً إلا رعشة مزعجة، كانت تهزها كلما مر في خاطرها ذلك التفكير المتجهم الدفين، التفكير بالقضاة. وكانت تحس بأن فرحاً غامراً وضاءً يولد في نفسها، فرحاً لا تعرف له كنها، ولكنه... يقلقها. ورأت أن البيوروسي كان يتحدث مع أحد الناس، فتوجهت إليه، لأنها أدركت أنه أحوج من بول إلى الكلمة العطوف، وقالت له:

ــ هذه المحاكمة لم تعجبني !

فصاح وهو يبتسم بامتنان :

ــ ولِمَ أيتها الأم الصغيرة ؟ انه طاحون عتيق ... ولكنه يدور ...

وأجابت هي بتردد :

ــ إنها لا تبعث الرهبة ... ولم نفهم معها أين هي العدالة ؟

ــ أوه . أوه ... أهذا ما كنت تريدينه ؟ أتعتقدين أنهم يبحثون عن الحقيقة ؟

فتأوهت ثم ابتسمت :

ــ لقد كنت أحسب أن المحاكمة ستكون شيئاً رهيباً .

وتعالى صوت :

ــ تهيأت المحكمة !

فأسرع الجميع إلى مقاعدهم .

وأخفى الرئيس وجهه بورقة ، وهو يستند إلى الطاولة ، ثم راح يقرأ بصوت هزيل مدندن .

وقال سيزوف وهو يصغي :

ــ إنه القرار .

وخيم الصمت ، ووقف الجميع وقد تسمرت أبصارهم على العجوز الذي كان ينتصب ضئيلًا جافاً كعصا تمسك بها يدٌ غير منظورة ؛ ووقف القضاة أيضاً ، وكان نقيب المقاطعة يحدق في السقف ، وعنقه مائل على كتفه ، وكان العمدة يشبك ذراعيه ، وماريشال النبلاء يمسد لحيته ، أما القاضي ذو الوجه المريض ، وزميله البدين ، والنائب العام

فقد كانوا يحدقون بالمتهمين . ووراء القضاة ، وفوق رؤوسهم كان القيصر يرنو رافلاً ببزته الحمراء الرسمية ، ووجهه الأبيض الأبله الذي كانت تحبو فوقه إحدى الحشرات .

وقال سيزوف وهو يصعّد زفرة عزاء :

ــ النفي ، لقد قضي الأمر أخيراً فشكراً لله . كنا نتوقع أن يُحكم عليهم بالأشغال الشاقة . ولكن ذلك لم يحصل .

وقال بيلاجي بصوت منهك :

ــ لقد كنت أعرف ذلك .

ــ ومع هذا فقد أصبح ذلك أكيداً ... ومن كان يستطيع أن يعرف !

واستدار نحو المحكومين الذين كانوا يخرجونهم من القاعة ، وقال بصوت مرتفع :

ــ إلى اللقاء يا تيو . إلى اللقاء جميعاً . وليكن الله في عونكم .

وأومأت الأم برأسها إلى ابنها ورفاقه ، أومأت لهم وهي صامتة ، وكان بودها أن تنتحب ، ولكنها كانت تخجل من دموعها .

27

...وأدهشها وهي تغادر المحكمة أن ترى الليل قد لف المدينة، والمصابيح مضاءة والنجوم تتألق في السماء. وعلى مقربة من قصر العدل كان الناس يتجمهرون في العراء البارد جماعات صغيرة، والثلج يصر تحت أقدامهم، وأصوات فتية تتعالى فيقاطع بعضها بعضاً. ودنا من سيزوف رجل يرتدي قبعة رمادية وسأله بصوت سريع:

ــ ماذا كان الحكم ؟

ــ النفي .

ــ لهم جميعاً ؟

ــ لهم جميعاً .

ــ شكراً .

وابتعد الرجل . ومال سيزوف على الأم ليقول لها :

ـــ أرأيت ؟ إن الأمر يثير الاهتمام ...

وأحاط بهما فجأة فريق من الشبان والشابات ، وبدأت الهتافات تنهمر ، وتجتذب أشخاصاً آخرين .

وتوقفت الأم وسيزوف . وكان المتجمهرون يودون معرفة الحكم ووقعه على المحكومين ، ومن منهم ألقى خطاباً وفي أي موضوع ، وكان يضج في هذه الأسئلة كلها نفس الفضول النهم ، الفضول الصادق الحار الذي يثير الرغبة في إشباعه .

وقال أحدهم :

ـــ أيها السادة ، هذه هي والدة بول فلاسوف .

وصمت الجميع تقريباً .

ـــ أتسمحين لي بأن أشد يدك ؟

وشدت يدٌ قوية يمين الأم ، واستأنف الرجل كلامه وقد ملأه التأثر :

ـــ سيكون ابنك بالنسبة لنا جميعاً مثلًا أعلى في الشجاعة ...

ودوت صرخة عالية : ـــ يعيش العامل الروسي !

وكانت الأصوات تتضاعف وتتنامى ، وتتفجر هنا وهناك ، والناس يتوافدون من كل صوب ، ويزدحمون حول سيزوف والأم ، وكانت صفارات البوليس تشق الفضاء ولكنها لا تنجح في كبت الصراخ ، وكان سيزوف العجوز يضحك ، أما الأم ، فكان هذا كله يبدو لها كحلم جميل ، فتبتسم ، وتشد على الأيدي ، وتنثر التحايا ؛ وتشرق لهاتها بدموع السعادة ؛ وترتجف ركبتاها من التعب ، ولكن قلبها الذي غمرته بهجة تلقفت كل شيء ، كان يعكس انطباعاتها كصفحة مشرقة لبحيرة صافية ، وعلى قربٍ شديد منها كان صوت متميز يتعالى بعصبية :

ـــ أيها الرفاق . إن الغول الذي يفترس الشعب الروسي قد أشبع اليوم ، من جديد ، نهمه الجشع الطاغي ...

وقال سيزوف :

ـــ هيا بنا نذهب أيتها الأم .

وفي اللحظة نفسها ظهرت ساندرين ، فتأبطت ذراع الأم وجرتها بسرعة إلى الرصيف الآخر :

ـــ تعالي فقد يلجأ البوليس إلى ضرب الناس وتوقيفهم .

ثم سألت :

ـــ النفي ؟ إلى سيبيريا ؟

ـــ نعم . نعم .

ـــ وكيف تكلم ؟ أنا أعرف ذلك من قبل . لقد كان أشدهم بساطة ، وأصلبهم كذلك وأقساهم . إنه حساس ، رقيق ، ولكنه يخجل من إظهار عواطفه .

وكانت حرارة الكلمات التي تنطق بها همساً ، كلمات حبها ، تهدىء من اضطراب الأم ، وتنعش قواها الخائرة .

وسألتها بصوت خافت وحنو وهي تشد يدها :

ـــ متى ستذهبين للالتحاق به ؟

وأجابت الفتاة وهي تركز بصرها أمامها بثقة :

ـــ عندما أجد من يحمل عني عبء عملي ؛ وعلى كل فأنا أيضاً سأحكم وسأنفى بلا شك مثله إلى سيبيريا . وسأصرح انني أرغب في أن أنفى إلى المكان الذي سيكون هو فيه ...

وتعالى من ورائهما صوت سيزوف :

ـــ بلغيه إذن تحياتي ... إنني ادعى « سيزوف » وهو يعرفني . إني عم تيو مازين .

وتوقفت ساندرين واستدارت نحوه وهي تمد إليه يدها :

ـــ أعرف تيو . وإسمي ساندرين .

ـــ واسم والدك ؟

فرنت إليه وأجابت :

ـــ ليس لي أب .

ــ هل هو متوفي ؟
وردت بحرارة ، وفي صوتها شيء من العناد والاصرار ، بديا في ملامحها :
ــ كلا إنه ما زال على قيد الحياة . إنه من أصحاب الأملاك ، وهو الآن مدير الناحية ... إنه ينهب الفلاحين .
فقال سيزوف بإعياء :
ــ هكذا ... إذن .
ثم أردف بعد صمت قليل ؛ وهو يتفحص الفتاة بطرف عينه :
ــ حسناً ، ووداعاً أيتها الأم . سأسلك الشارع الذي على يسارنا . إلى اللقاء يا آنستي . إنك شديدة القسوة على والدك ، وما من شك في أن ذلك من شأنك أنتِ ...
وصاحت ساندرين بانفعال :
ــ لو كان ابنك فتى سوء ، يلحق الأذى بالآخرين لدرجة تثير الرعب ، أما كنت تقول مثل قولي ؟
فأجاب بعد لحظة من التردد :
بلى ... أقول .
ــ إذاً فستكون الحقيقة عندك أغلى من ابنك ، وهي بالنسبة لي أغلى من والدي .
وابتسم سيزوف وهز رأسه ثم قال متأوهاً :
ــ إنك بارعة الجواب ، لا يطول الصراع معك . إنك تعرفين كيف تقهرين الشيوخ فأنت شديدة البأس . وداعاً ، وليحالفك الحظ ، ولتكن معاملتك للناس أكثر حلماً وتسامحاً . وأنت يا نيلوفنا سلاماً . إذا اجتمعت ببول فبلغيه إني استمعت إليه جيداً . صحيح إني لم أفهم كل ما قال ، وانه قد أثار رعبي في بعض المقاطع ، ولكن ما قاله كان حقاً . قولي له ذلك .
ورفع قبعته واختفى متباطئاً في منعطف الشارع .
ولاحظت ساندرين وهي تشيعه بنظرة باسمة :

ــ يبدو أنه رجل طيب .

وأحسـت الأم أن في وجـه الفتـاة تعبيـراً أفضـل من المعتـاد وأكثـر رقـة .

وعندما بلغتا المنزل جلستا على الأريكة متلاصقتين ، واستأنفت بيلاجي الحديث عن خطة ساندرين ، في حين كان كل شيء يستريح في الصمت . أما ساندرين فكانت ترنو إلى البعيد بعينيها الواسعتين الحالمتين ، وقد تسامق حاجباها الكثيفان ، وكان وجهها الشاحب يعكس كالمرآة ما يطيف بنفسها من تأمل هادىء .

وفيما بعد ، عندما يصبح لكما أطفال سألتحق بكما أيضاً لأعتني بهم ، ولن يكون العيش هناك أسوأ من هنا ، إذ سيجد بول عملًا لأن له يدين من ذهب ..

ولفّت ساندرين الأم بنظرة متفحصة :

ــ ألا ترغبين في اللحاق به حالًا ؟

فزفرت بيلاجي :

ــ وماذا يستفيد مني ؟ إني سأسبب له الازعاج فقط إذا ما عزم على الهرب ، ثم إنه قد لا يرضى ...

وهزت ساندرين رأسها :

ــ إنه لن يرضى .

وأضافت بيلاجي بشيء من الزهو :

ــ ثم إن لديّ هنا ما يجب أن أقوم به .

وردت ساندرين بسهوم :

ــ أجل ... وهذا حسن .

وارتعشت فجأة كأنها تتخفف من عبءٍ ثقيل ، ثم قالت ببساطة وبصوت خفيض :

ــ لن يمكث هناك طويلًا ، ولا ريب أنه سيهرب .

ــ ولكن ماذا سيحل بك أنت والطفل إذا كان لكما طفل ؟

ــ سنرى . يجب ألا يدخلني في حسابه ، وعليّ أنا ألا أزعجه .

صحيح أنه سيؤلمني كثيراً أن أنفصل عنه ، ولكن من المؤكد انني سأتغلب على هذا الألم . إني لن أزعجه ، لن أزعجه أبداً .

وشعرت الأم أن ساندرين جديرة بأن تتصرف وفق ما قالت ، فأخذتها الشفقة عليها وضمتها بين ذراعيها :

ــ يا عزيزتي ... سيكون ذلك شديداً عليك .

وابتسمت ساندرين برقة والتصقت بالأم بكل كيانها ...

وأقبل نيقولا منهكاً ، وقال على عجل وهو ينضو ثيابه :

ــ أسرعي يا ساندرين ، وارحلي ما دام لديك متسع من الوقت ، فهناك جاسوسان ما فتئا يلاحقانني منذ الصباح ، وإني ، بصراحة ، أشم في هذا رائحة الاعتقال . إن حدسي يقول ذلك . يجب أن يكون هناك شرٌ قد وقع في مكان ما . وبالمناسبة خذي ، هذه مرافعة بول ؛ لقد تقرر طبعها فاحمليها إلى لوميلا ، وألحي عليها بانجاز ذلك بأسرع ما يمكن . لقد أجاد بول كثيراً يا نيلوفنا ، وأنت يا ساندرين ، حذار من الجواسيس ...

وكان وهو يتكلم يفرك ، بقوة ، يديه اللتين جمدهما الصقيع ، ثم اقترب من الطاولة وأسرع في فتح أدراجها ، وأخرج أوراقاً مزّق بعضها ، ونحّى بعضها الآخر ، وهو مضطرب مغموم :

ــ لم يمضِ وقتٌ طويل على تنظيف هذه الأدراج ، ومع ذلك ، أنظري هذه الرزمة الهائلة التي تكدست فيها . يا للشيطان . إنه من الأفضل بلا شك ، ألا تنامي هنا يا نيلوفنا ، أليس كذلك ؟ إن مشاهدة تلك « المهزلة » شيء يبعث الضجر ، ولن يتورعوا عن اعتقالك أنت أيضاً ؛ ثم إنه يتوجب عليكِ كذلك أن تحملي خطاب بول لتوزعيه ...

ــ قل لي لماذا يعتقلونني ؟

فأجاب نيقولا بثقة وهو يلوح بيده أمام وجهها :

ــ إني أستروح ذلك، وعلى كل، باستطاعتك أن تساعدي لوميلا... أليس كذلك؟ إذهبي إذن قبل أن تقعي في شدق الذئب.

وأجابت وقد أسعدتها فكرة الاسهام في طبع خطاب بول :
ـــ إذا كان الأمر كذلك فإني سأذهب .
ثم أضافت ، ولكن بصوت خافت :
ـــ الآن لم أعد أخشى شيئاً ، فشكراً لك يارب .
وصاح نيقولا دون أن يلتفت إليها :
ـــ رائع ... ولكن آه ... قولي لي أين هي ثيابي وحقيبتي ؟ لقد قبضت على كل شيء ، بيديك النهمتين ، فأصبحت لا أستطيع ، على الاطلاق التصرف بملكي تصرفاً حراً .
وكانت ساندرين تلقي ، وهي صامتة ، الأوراق الممزقة في المدفأة ، وعندما احترقت هذه الأوراق حرصت على أن تخلط رمادها برماد الفحم .
وقال نيقولا وهو يبسط لها يده :
ـــ هيا يا ساندرين إرحلي . إلى اللقاء ، ولا تنسي أن ترسلي لي كتباً إذا ظهر منها ما يثير الاهتمام . إلى اللقاء أيتها الرفيقة العزيزة ؛ كوني حذرة .
وسألته ساندرين : ـــ هل تعتقد أن بقاءك هناك سيطول ؟
ـــ الشيطان وحده هو الذي يعلم ؛ ولكن مكثي سيطول بلا شك ، فهناك أشياء كثيرة تؤخذ عليّ . إذهبا معاً يا نيلوفنا لأنه من الصعب تتبع شخصين ، ألا توافقانني على ذلك ؟
ـــ سأذهب ؛ وها أنذا أرتدي ثيابي .
وكانت تراقب نيقولا بانتباه ، ولكنها لم تلحظ في ملامحه شيئاً إلا ذلك الاهتمام الذي كان يحجب ما في وجهه من طيبة ورقة معتادة ، ولم تر فيه ، هو الذي كان أعز لديها من الآخرين ، لم تر أية إمارة من إمارات العصبية الزائدة ، أو علامة من علامات الاضطراب . لقد كان يولي الجميع نفس الانتباه ، وكان ودوداً متزناً مع الجميع ، ورغم هدوئه ووحدته فقد ظل بالنسبة لأصدقائه ، كسابق عهدهم به ؛ رجلا يعيش حياة داخلية خفية ، حياة يبدو معها كأنه يسبق

الآخرين . ولكنها كانت تدرك أنه أقرب إليها ، وأشد إنسجاماً ، لذلك أحبته حباً حذراً يبدو غير واثق من نفسه . أما الآن فهي تشعر أنها تشفق عليه إشفاقاً يفوق الحد ، ولكنها تسيطر على هذا الاحساس ، لأنها تعلم أنها إذا ما جهرت به وأعلنته ، فإن نيقولا سيفقد سعة صدره وسيعاني القلق ، وينقلب إلى رجل مضحك بعض الشيء كعادته ؛ وهي لا تحب أن تراه كذلك .

وعادت إلى الغرفة ، وكان هو يشد يد ساندرين :

ـــ رائع . أنا واثق من أن ذلك سيكون خيراً لك وله ؛ فقليلٌ من السعادة الشخصية لا يضر شيئاً . هل أنت على استعداد يا نيلوفنا ؟.

ودنا منها باسماً ، وعدّل من وضع نظارتيه :

ـــ حسناً إلى اللقاء . بعد ثلاثة أو أربعة أو ستة أشهر . لنقل ستة أشهر . فإنها شيء كثيرٌ في الحياة . رجائي أن تُعني بنفسك . أليس كذلك ؟ تعالي نتعانق .

ولف بذراعيه عنق بيلاجي ، وحدق في عينيها ضاحكاً وقال :

ـــ سيقال إني وقعت في غرامك ، فأنا أعانقك دائماً .

وقبلت جبينه ووجنتيه دون أن تتكلم ، وكانت يداها ترتعشان فتركتهما تهويان كيلا يلاحظ ارتجافهما .

ـــ كوني حذرة ؛ وأوفدي إليّ ، صباح الغد ، غلاماً لمقابلتي هنا ... عند ليوميلا صبي شاطر ... إلى اللقاء أيتها الرفيقتان ، ولتسر الأمور على ما يرام .

وعندما أصبحت ساندرين في الشارع قالت :

ـــ إذا اضطر لأن يذهب إلى لقاء الموت ، فسيلاقيه بنفس البساطة مسرعاً بعض الشيء ، مثله الآن . وعندما يأتيه الموت ، سيسوي نظارتيه ويقول له : « رائع » ثم يموت .

وغمغمت الأم : ـــ إني أحبه أشد الحب .

ـــ إنه يدهشني ، أما إني أحبه فلا . ولكني أقدره أشد التقدير . إنه جاف بعض الشيء رغم أنه طيب وودود أحياناً ، ولكنه ليس بشرياً

كفاية ... يبدو أن الارصاد يتتبعوننا فلنفترق . لا تذهبي إلى لوميلا إذا رأيتِ أن هناك من يراقبك .

وقالت الأم : ــ أعرف .

ولكن ساندرين أصرت :

ــ لا تذهبي إليها ، ومن الأفضل أن تأتي إلى منزلي ، وبانتظار ذلك ، أستودعك الله .

واستدارت بسرعة ، وعادت على أعقابها .

28

وبعد بضع دقائق كانت بيلاجي تصطلي قرب المدفأة في حجرة ليوميلا الصغيرة ، وكانت هذه ، وقد ارتدت ثوباً أسود يلمه مشدّ جلدي ، تروح وتجيء ببطء ، في الغرفة التي تملأها بحفيف ثوبها ونبرات صوتها الآمر . وكانت النار في الموقد تزفر وتصفر وهي تعبُّ هواءَ الحجرة ، وصوت ليوميلا الرتيب يلعلع :

ــ إن الناس بهائم ، أكثر بكثير مما هم أشرار .. فهم لا يرون ما هو قريب منهم حقير ، وكل ما له قيمة في نظرهم ناءٍ بعيد . إنهم سيفيدون جميعاً بكل تأكيد ، وسيسعدون إذا ما تبدلت الحياة ، وغدت أكثر يسراً ، وغدوا هم أوسع عقلًا ، ولكن يجب علينا ، لبلوغ ذلك أن نتخلى عن الطمأنينة موقتاً ...

وانتصبت فجأة أمام الأم وقالت بصوت أشد خفوتاً كأنها تعتذر :

ــ إني لا أرى إلا القليل من الناس ، لذلك إذا مرّ أحدهم لمقابلتي اندفعت في الثرثرة ... أليس هذا مضحكاً ؟

وأجابت الأم :

ــ لماذا ؟

وكانت تحاول أن تكتشف المكان الذي تطبع فيه ليوميلا المنشورات فلا ترى حولها شيئاً غريباً . ففي الغرفة التي تطل نوافذها الثلاث على الشارع ، توجد أريكة ، ومكتبة ، وطاولة ، وبعض الكراسي ، وسرير

بالقرب من الجدار ؛ وفي إحدى الزوايا مغسلة ، وفي الأخرى مدفأة ... أما الجدران فكانت تغطيها الصور . وكان كل شيء يبدو جديداً ، قوياً ، نظيفاً ، يخلع عليه الشبح الرهباني لربة المنزل ظلّاً بارداً ، ويستشعر المرء كأن هناك شيئاً خبيئاً خفياً ، ولكنه لا يدري أين هو ... وتطلعت الأم إلى الأبواب ؛ لقد ولجت الغرفة من أحدها الذي يطل على رواق صغير ، أما الآخر وهو مرتفع ضيق فقد كان بالقرب من المدفأة .

وشعرت أن ليوميلا تراقبها ، فقالت بارتباك :

ــ لقد جئت بمهمة ...

ــ أعرف ذلك ، فليس هناك من يأتي إليّ لأمر آخر ..

ولمست الأم في صوتها نبرة غريبة ، ورنت إليها فإذا البسمة على حفاف شفتيها الرقيقتين ، وإذا عيناها الخابيتان تلتمعان وراء نظارتيها .

وحولت بيلاجي بصرها عنها ومدت إليها يدها بخطاب بول :

ــ تفضلي . إنهم يرجونك أن تطبعيه بأسرع ما يمكن .

وراحت تحدثها عن تدابير نيقولا الاحتياطية خشية اعتقاله .

ودست ليوميلا الورقة في زنارها بصمت ، وجلست على أحد المقاعد ، فانعكس لهب النار الأحمر على زجاج نظارتيها ، واختالت في وجهها الخالي من كل تعبير بسمة لاهبة ، وبعد أن استمعت إلى حدث الأم قالت بصوت خفيض مصمم :

ــ سأطلق عليهم النار عندما يجيئون إليّ ، فمن حقي أن أدافع عن نفسي ضد العنف ، ويجب عليّ أن أفعل إذا كنت أدعو الآخرين إلى نضاله .

واختفت انعكاسات اللهب على وجهها ، وارتسم في ملامحها شيء من القسوة وظل الكبرياء .

وحدثت الأم نفسها بود :

ــ « إن حياتك ليست مضحكة . »

وأخذت ليوميلا انكبابها على الورق ، وكانت تطرح بعنف الأوراق

التي أنهت قراءتها ، حتى إذا انتهت من قراءة الخطاب ، وثبت من مقعدها واقتربت من الأم قائلة :

ـــ إنه رائع .

وأطرقت برأسها قليلًا ثم أردفت :

ـــ لم أشأ أن أحدثك عن إبنك ، فأنا لم أره أبداً ، ثم اني لا أحب الأحاديث الحزينة ؛ وأعلم ماذا يعني أن يرى المرء أحد ذويه يسير إلى المنفى ؛ ولكنني أود أن أسألك : هل من الخير أن لكِ ولدٌ مثله ؟

وأجابت الأم :

ـــ أجل .

ـــ ولكنه شيء رهيب .. أليس كذلك ؟

وابتسمت الأم برقة :

ـــ كلا .. ليس في ذلك ما يُرهب حتى الآن !

وسوّت ليوميلا بيدها السمراء شعرها الأملس ثم استدارت نحو النافذة ؛ ورفّ فوق وجنتيها ظلّ خفيف ، لعله ظلّ لبسمة مكبوتة .

ـــ سأباشر العمل بسرعة . أما أنت فستضطجعين . لقد كان نهارك شاقاً ، وأنت تعبة . نامي هنا على السرير ، فأنا لن أنام ، وربما أيقظتك أثناء الليل لتساعديني ، وقبل أن تغفي ، أطفئي المصباح .

وألقمت النار قطعتين من الحطب ، ثم نهضت ، وخرجت من الباب الضيق بالقرب من المدفأة ، وأغلقته وراءها بعناية ، وتتبعتها بيلاجي بعينيها ، ثم أخذت تنضو عنها ثيابها وهي تفكر بمضيفتها :

ـــ إنها تقاسي حزناً ما ...

وكان التعب يعصف برأسها كالدوار ، ولكنها مع ذلك كانت تشعر أن نفسها هادئة أشد الهدوء ، وأن كل شيء يتألق في عينيها بضياء ناعم مدغدغ ، ضياء رتيب ساكن ؛ يملأ قلبها . لقد كانت تعرف من قبل هذه الطمأنينة التي تجيء دائماً في أعقاب الانفعالات الكبرى ، والتي كانت من قبل ، ترعبها بعض الشيء ، أما الآن فهي توسّع آفاق نفسها ، وتوثقها بإحساس قوي كبير . وأطفأت المصباح

ورقدت في السرير البارد ، وتجمعت تحت الغطاء ، ثم لم تلبث أن غرقت في سبات عميق .

وعندما فتحت عينيها كان انعكاس النور يملأ الغرفة بضياء أبيض جليدي ، ضياء يوم من أيام الشتاء . وكانت لوميلا تستلقي على الأريكة ، وفي يدها كتاب وكانت ترنو إلى النائمة وعلى شفتيها بسمة لم تتعودها منها .

وصاحت بيلاجي مرتبكة :

ـــ أوه يا آلهي ... هل مرَّ علي وقت طويل وأنا نائمة ؟

وردت ليوميلا :

ـــ طاب صباحك . لقد بلغت الساعة العاشرة ، فانهضي وهيا بنا لتناول الشاي .

ـــ لماذا لم توقظيني قبل الآن ؟

ـــ أردت أن أفعل ، ولكن بسمتك كانت حلوة جداً وأنت نائمة !

ونهضت بحركة ناعمة انتظمت كيانها كله ، واقتربت من السرير ، وانحنت فوق وجه الأم ، فقرأت هذه في عينيها الخابيتين شيئاً فيه ألفة ، وقرب ، ووضوح .

ـــ لقد ندمت لايقاظي إياك ؛ إذ لعلك كنت تغرقين في حلم جميل ؟

ـــ لم أحلم في حياتي أبداً ...

ـــ حسناً ، هذا لا يهم ... ولكن بسمتك أعجبتني ، فهي وادعة جداً ، وطيبة جداً ... وعظيمة جداً ...

وراحت ليوميلا تضحك ، وكانت ضحكتها صماء مخملية .

ـــ لقد بدأت أفكر بك ... فهل حياتك شاقة ؟

وارتعش حاجبا الأم ، وصمتت تفكر .

وسارعت ليوميلا إلى القول :

ـــ حتماً ... إنها شاقة .

وقالت الأم بتردد :

ــ لا أدري ... ويخيل إليّ في بعض الأحيان أنها كذلك . أن هناك كثيراً من الأشياء وكلها جاد ومدهش ، وهي تتعاقب مسرعة ... مسرعة جداً .

وتصاعدت موجة القلق التي نعرفها جيداً ، تصاعدت إلى قلبها فملأته بالصور والأفكار ، ثم جلست في سريرها ، وسارعت تجسد أفكارها تلك .

ــ هذا يروح وهذا يجيء . والنتيجة هي دائماً ذاتها . إن في الحياة لو تعلمين ، كثيراً من الأشياء المؤلمة ، فالناس يتعذبون ، ويُضربون ، يُضربون بقسوة وتُحرم عليهم كثير من المباهج ؛ وهذا لعمري أمر شديد القسوة بالنسبة إليهم .

ورفعت ليوميلا رأسها بتأثر ، ولفّت الأم بنظرة عميقة :

ــ إنك لا تتكلمين عن نفسك .

ورنت إليها الأم ، ثم نهضت ، وأخذت ترتدي ثيابها .

ــ وكيف يمكننا أن نعزل أنفسنا عن الناس عندما نحب واحداً ، ويكون الآخر عزيزاً علينا ، وعندما نخاف من أجلهم جميعاً ، ونشفق عليهم ... إن ذلك كله يصطرع في القلب .. فكيف نبقى في معزل ؟

وظلت ساهمة لحظة ، وهي نصف عارية في وسط الحجرة ، وخيل إليها أنها لم تعد تلك التي اغتمت كثيراً ، واكتأبت كثيراً من أجل إبنها ، وعاشت على أمل الاحتفاظ به سالماً معافى . إن بيلاجي هذه لم تعد موجودة . لقد انفصلت ، ونأت بعيداً إلى مكان لا يعرفه أحد ، ولعل نار الانفعالات قد التهمتها ، ولعل نفسها قد انطلقت متخففة من أثقالها ، مطهرة ، ولعل قوة جديدة راحت تبرىء قلبها من جديد . وكانت تصغي لذاتها وتشتهي أن تكتشف ما يدور في نفسها وتساورها الخشية في أن توقظ من جديد همومها العتيقة .

وسألتها ليوميلا بود وهي تدنو منها :

ــ بمَ تفكرين !

ــ لا أدري .

وصمتت كلتاهما وتبادلتا النظرات وابتسمتا ثم خرجت ليوميلا وهي تقول :

ــ ماذا حدث لابريق الشاي ؟

وسرحت الأم بصرها من النافذة ، وكان يلف الدنيا في الخارج نهار بارد شديد البرودة ، وكان جو قلبها صافياً كذلك ، ولكنه حار . وكانت تشتهي أن تتحدث عن كل شيء ، أن تتحدث طويلًا وبغبطة غامرة ، يحدوها شعور غامض من عرفان الجميل نحو كائن مجهول .. أن تتحدث من أجل ما يساقط في نفسها فيضيئها ، من ألق ارجواني كذاك الذي يسبق شفق الغروب .

وتملكتها رغبة في أن تصلي ، رغبة لم تشعر بها منذ زمن بعيد ، وتذكرت وجهاً فتياً ، وتعالى في خاطرها صوت مرنان : « إنها والدة بول ساموالوف » ، وتألقت في ذاكرتها عينا ساندرين حانيتين مغتبطتين ، وانتصب ضبح ريبين الأسود ، وابتسم وجه بول البرونزي الحازم ، وغمز نيقولا بعينيه مرتبك الملامح . وراحت هذه الصور كلها تتراقص فجأة ، وتحركها نسمة عميقة خفيفة فتختلط وتتمازج في سحابة شفافة غنية الألوان تغمر خواطرها كلها بحس الدعة والاطمئنان .

وقال ليوميلا وهي تعود إلى الغرفة :

ــ لقد كان نيقولا على حق ... فلقد اعتقلوه . لقد أرسلت الصبي كما قلتِ فوجد رجال البوليس عنده ، وكان أحدهم يختبىء وراء الرتاج ، والجواسيس يطوفون حول البيت ، وكان الصبي يعرفهم ...

وقالت الأم وهي تهز رأسها :

ــ آه . يا للمسكين .

وزفرت ، ولكن من غير حزن ، وهذا ما أدهشها بعض الشيء .

وقالت ليوميلا وقد بدا في ملامحها التهجم والهدوء :

ـــ لقد عقد في المدة الأخيرة كثيراً من الاجتماعات عند عمال المدينة ، ومع ذلك كان لديه متسع من الوقت لكي يتوارى ، ولقد نصحه الرفاق بذلك فلم يصغ إليهم . أعتقد أنه في مثل هذه الحالات ينبغي أن يُكره المرء إكراهاً لا أن يُنصح ...

وظهر على العتبة فتى مورد الوجنات ، أسود الشعر ، ذو عينين زرقاوين حلوتين ، وأنف أقنى ؛ وسأل بصوت جهور :

ـــ هل آتي بالشاي ؟

ـــ إذا أردت يا سيرج ... انه ربيبي .

وكانت الأم تلاحظ أن تغيراً قد طرأ على ليوميلا هذا الصباح ، فهي أكثر بساطة وأقل نأياً ، وفي حركاتها الرشيقة ، حركات جسمها المتناسق كثير من الجمال والقوة ، وهذا ما كان يلطف قليلًا من قسوة وجهها الشاحب . وكانت الهالات الزرقاء حول عينيها قد توسعت أثناء الليل فنم ذلك عن الجهد المتواصل الذي تبذل ، وكانت نفسها متوترة ، كحبل مشدود إلى النهاية .

وحمل الصبي ابريق الشاي .

ـــ هذه هي يا سيرج ، بيلاجي نيلوفنا ، والدة ذلك العامل الذي حكم عليه البارحة .

وانحنى الصبي دون أن ينبس بكلمة ، وشدّ يد الأم ثم خرج ، وعاد يحمل بضع قطع صغيرة من الخبز ، ثم جلس إلى المائدة . وأقنعت ليوميلا بيلاجي ، وهي تصب الشاي ، بألا تعود قبل أن يُعرف ما إذا كان رجال البوليس ما زالوا ينتظرون عند نيقولا .

ـــ لعلهم بالتأكيد يريدون أن يستجوبوك أنت ...

وأجابت الأم :

ـــ ليستجوبوني ، وليوقفوني فلن يزيد ذلك من شقائي ، ولكن ينبغي أولًا توزيع خطاب بول في كل مكان .

ـــ لقد صُفّ اليوم ، وسيكون لدينا غداً نسخ كافية للمدينة والضاحية . هل تعرفين ناتاشا ؟

ــ كيف لا أعرفها ؟

ــ احملي إليها من هذه النسخ ...

وكان الصبي يقرأ في إحدى الجرائد ، ويبدو عليه كأنه لا يسمع شيئاً ، ولكن عينيه كانتا أحياناً تستقران على وجه الأم ، فيسرها أن يلتقي بصرها بنظرته الحادة ، ويدفعها ذلك إلى الابتسام .

وعادت ليوميلا إلى الحديث عن نيقولا دون أن يظهر عليها التأثر لاعتقاله ، وبدت لهجتها طبيعية تماماً في نظر الأم . وكان الوقت يمر سريعاً أكثر منه في الأيام الأخرى ، وعندما انتهوا من طعام الفطور ، كان النهارَ قد انتصف أو كاد .

وطُرق الباب بعنف ، فنهض الصبي وألقى نظرة متسائلة على سيدة المنزل وهويقطب حاجبيه .

ــ افتح يا سيرج . من تراه يكون ؟

وبحركة هادئة دست يدها في جيب تنورتها وقالت للأم :

ــ إذا كانوا من رجال الدرك فاجلسي هنا في هذه الزاوية ، وأنت يا سيرج ...

فقاطعها الصبي بصوت خفيض :

ــ أعرف ..

ثم توارى .

وابتسمت الأم ، فهذه الاستعدادات لم تعد تحركها ، لأنها لم تعد تحدس بأي شقاء جديد .

وكان القادم هو الطبيب الصغير الذي سارع إلى القول :

ــ أولا : لقد اعتقل نيقولا . آه . آه . أأنت هنا يا نيلوفنا ؟ ألم تكوني هناك عندما اعتقل ؟

ــ لقد أرسلني إلى هنا .

ــ هُمْ ... لا أعتقد أن هذا سينفعك ... وثانياً : لقد استخرج عددٌ من الشبان ، هذه الليلة ، خمسماية نسخة من الخطاب . ولقد رأيتها ، وأعتقد أن لا بأس بها فهي واضحة مقروءة . إنهم يريدون أن

يوزعوها في المدينة هذا المساء ، أما أنا فأعارض ذلك لأني أفضل توزيع الأوراق المطبوعة في المدينة .. أما هذه المخطوطة فينبغي أن ترسل إلى ناحية أخرى .

وصاحت الأم بحرارة :

ـ حسناً أعطوني إياها لأحملها إلى ناتاشا !

لقد كانت تعاني رغبة في أن تنشر خطاب بول بأسرع ما يمكن ، وأن تغرق الأرض بكلمات ابنها ، وكانت ترنو إلى الطبيب بعينين يقظتين ، ينهل منهما التوسل .

وقال الطبيب بتردد :

ـ آه للشيطان . أنا لا أدري ما إذا كان من المناسب أن نكِلَ إليك هذا الأمر الآن !

وأخرج ساعته ثم تابع :

ـ الساعة الآن الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعون ، وسيصل القطار في الثانية وخمس دقائق ، وستكونين هناك في الخامسة والربع ؛ أي في المساء . ولن يكون الوقت متأخراً على كل حال .... ثم أن القضية ليست هنا ...

ورددت ليوميلا متغضنة الجبين :

ـ كلا ... القضية ليست هنا ...

وسألت الأم وهي تدنو منها :

ـ إذن ؟... الأمر يتوقف فقط على حسن إنجاز العمل .

وركزت ليوميلا بصرها عليها ، وقالت وهي تمسح جبينها :

ـ إن في ذلك خطراً عليك ...

وأجابت الأم بإصرار لاهب :

ـ ولماذا ؟

ورد الطبيب بصوت عجلان ، ولكنه متفاوت النبرة :

ـ السبب هو هذا : لقد تركتِ المنزل قبل اعتقال نيقولا بساعة من الزمن . ويحتمل انكِ كنت في المعمل حيث يعرفونك كعمةٍ

للمدرّسة . وبعد وصولك ظهرت منشورات ممنوعة . إن هذا كله سيكون كالأنشوطة التي تضيق حول عنقك .

وأكدت الأم بحرارة :

ـــ إنهم لن ينتبهوا لي ، وإذا أوقفوني عند العودة ، فليسألوني أين كنت ؟ وتوقفت لحظة ثم أردفت :

ـــ وسأعرف كيف أجيبهم ، وسأنطلق من هناك تواً إلى الضاحية حيث يقيم أحد معارفي ويدعى سيزوف . وسأقول بأني قد توجهت بعد صدور الحكم على الفور إلى منزله ، وبأني كنت حزينة ، وكان هو كذلك ، فلقد حُكم على ابن أخيه مع بول . وسيقول هو نفس القول . أرأيتما ؟...

ولمست الأم أنهما يميلان إلى الرضوخ لرغبتهما ، فراحت تبذل جهدها لاقناعهما نهائياً ؛ وكانت تتكلم بإلحاح متزايد إلى أن رضخوا في النهاية .

ـــ لا حيلة في اليد فاذهبي ...

وكانت ليوميلا صامتة ، تروح وتجيء في الغرفة وهي مطرقة . وكان وجهه هو متجهماً وخداه غائرين ، وعضلات عنقه تبدو مشدودة ، كأن رأسه قد ثقل فجأة ، وتدلى على صدره بصورة لا إرادية .

وتأملته الأم وقالت له باسمة :

ـــ إنكم ترفقون بي كثيراً ولكنكم لا ترفقون بأنفسكم !

وأجاب :

ـــ ليس هذا صحيحاً ، فكلانا بالآخر رفيق ، ويجب أن نكون كذلك . إننا نلوم أولئك الذين يبعثرون قواهم على غير طائل ، أجل يا سيدتي ... ولنعد إلى موضوعنا الآن . سنسلمك نسخ الخطاب في المحطة .

وراح يشرح لها ما يجب عليها أن تفعله ، ثم نظر إليها مواجهة وقال :

ـــ حسناً . أتمنى لك حظاً طيباً .

ومضى ... وقد بدا عليه أنه لم يكن مع ذلك راضياً ؛ وما أن أغلق الباب وراءه حتى دنت ليوميلا من الأم ، وعلى شفتيها بسمة صامتة :

ـــ إنني أفهمك ...

وتأبطت ذراعها ، ثم سارت من جديد بضع خطوات في الحجرة :

ـــ وأنا أيضاً لي ولدٌ بلغ الثالثة عشرة من عمره ؛ وهو يعيش مع والده . إن زوجي وكيل نيابة ، والصبي معه ، وإني غالباً ما أتساءل : ماذا سيكون مصيره ؟

وارتعش صوتها ؛ واستأنفت بصوت ساهم خفيض :

ـــ إن من يشرف على تربيته عدوٌ واعٍ لأولئك الذين اعتبرهم أفضل من حملت الأرض ؛ وقد يصبح إبني ، عندما يكبر ، عدواً لي أيضاً ؛ فأنا لا أستطيع أن آخذه ، لأنني أعيش تحت إسم مستعار ، ولقد مضى عليّ ثماني سنوات لم أره خلالها ؛ ثماني سنوات ... إنه لأمد طويل .

وتوقفت بالقرب من النافذة ، ورنت إلى السماء الباهتة المقفرة :

ـــ لو كان معي لكنتُ أقوى ، ولما كان في قلبي هذا الجرح الذي يعذبني أبداً . وحتى لو كان في عداد الأموات فإن عذابي سيكون أخف وطأة ...

وقالت لها الأم بصوت شديد الخفوت ، وقد هصرت الشفقة قلبها :

ـــ يا صغيرتي المسكينة .

وأردفت ليوميلا باسمة :

ـــ إنك سعيدة . وأنه لرائع أن تمشي أمٌ وابنها جنباً لجنب . وهذا أمر نادر .

وصاحت بيلاجي ، وقد أدهشها هتافها :

ـــ أجل ... إنه لجميل .

وأردفت وهي تخفض من صوتها كأنها تبوح بسر :

ـــ إنكم جميعاً ، أنتِ ونيقولا وكل أولئك الذين يعملون من أجل الحقيقة تسيرون أيضاً جنباً إلى جنب ؛ لقد أصبح الناس ، دفعة

واحدة ، أقرباء أعزاء ، واني لأفهمهم جميعاً . صحيح اني لا أفهم ما يقولون ... ولكني أفهم الباقي كله ... أفهمه ...

وقالت ليوميلا : — نعم .. انه كذلك .

وألقت الأم يدها على كتفها ، وضغطت بلين ثم تابعت بصوت كأنه الغمغمة وكأنها إنما تصغي إلى أفكارها هي نفسها :

— إن الأبناء يتقدمون في الدنيا ؛ هذا ما أدركه ؛ إنهم يتقدمون في الدنيا ، في الأرض كلها ، وفي كل مكان ، نحو هدف واحد . إن أنقى القلوب ، إن العقول الشريفة تزحف بإصرار ضد كل ما هو سيء ، وتسحق الدجل بخطواتها الصامدة ، والشبان ، الشبان الأصحاء ، يوجهون قواهم التي لا تقهر ، في سبيل غاية واحدة هي تحقيق العدالة . إنهم يسيرون نحو الانتصار ، الانتصار على عذاب الناس ، ويمتشقون السلاح ليقضوا على شقاء الكون ؛ ويناضلون ليقهروا الخسة ، وسينتصرون !

لقد قال لي أحدهم: «إننا سنشعل شمساً جديدة»؛ وسيشعلون تلك الشمس. «وسنجمع القلوب الحطيمة كلها في قلب واحد»، وسيجمعون تلك القلوب الحطيمة كلها... في واحد.

وعادت إلى ذاكرتها كلمات من صلوات منسية ، فأذكت إيمانها الجديد الذي كان ينبعث في صدرها كالشرر :

— إن أبناءنا الذين يسيرون في سبيل العدالة والعقل يحملون حبهم إلى الأشياء كلها ، ويريقون الضياء على كل شيء ، ضياء نار لا يمكن أن تخبو ، نار تنبع من أعماق النفس . ومن هذا الحب الملتهب ، حب أبنائنا للعالم كله ، تولد حياة جديدة . فمن ذا يستطيع أن يطفيء هذا الحب ؟ من ؟ وهل هناك قوة مهما سمت تستطيع أن تقهره ؟ ان الأرض هي التي أنبتته ، والحياة كلها تريد له أن ينتصر ، الحياة كلها !

وابتعدت عن ليوميلا وقد أرهقها الانفعال ، وجلست لاهثة ، فجلست ليوميلا أيضاً بهدوء وحذر كأنها تخشى أن تحطم شيئاً ما ،

ولكنها لم تلبث أن نهضت تنتقل في الحجرة بخطى رشيقة ؛ وهي تركز في البعيد نظرة عميقة من عينيها اللتين خبا فيهما الألق ، وبدت كأنها أشمخ قامة ، وأشد استقامة ، وأكثر نحولًا . وكان وجهها الهزيل الصارم منقبض الأسارير ، وكانت تضغط شفتيها بعصبية . وهدّأ الصمت المسيطر ، أعصاب الأم بسرعة ، فسألت وهي ترقب ملامح المرأة الشابة ، سألت بصوت خفيض جبان النبرة :

ـــ لعلني قلت شيئاً ما كان يجب أن أقوله ..؟

فاستدارت ليوميلا بعنف ، ونظرت إليها كالمذعورة ، وسارعت إلى القول وهي تمد يدها كأنها تود أن توقف شيئاً ما :

ـــ كلا ... إن ما قلته صحيح ، ولكن ... دعينا من الخوض فيه ، وليظل كما قلت منذ قليل ...

ثم أردفت وهي أكثر هدوءاً :

ـــ ينبغي لك أن تذهبي باكراً ... فالمكان بعيد ...

ـــ نعم يجب ذلك . آه . لو تعلمين كم أنا مسرورة ؟ فسأحمل كلمات ابني ، كلمات دمي ... إنها عزيزة عليّ كروحي .

وكانت تبتسم ، غير أنه لم يكن لبسمتها سوى انعكاس باهت على وجه ليوميلا ، وكانت تشعر أن تحفظ السيدة الشابة يضفي على غبطتها شيئاً من البرود ، فعصفت بها فجأة رغبة ملحة ، رغبة في أن تصب من وهجها في تلك الروح القاسية ، وأن تشعلها بلهيبها لتهزها هي أيضاً ، تلك الغبطة التي تفعم جوانحها .

وأخذت يد ليوميلا ، وضغطتها بشدة :

ـــ لكم هو جميل يا عزيزتي أن نعرف أن في الحياة نوراً يهدي الناس جميعاً ، وأنه سيأتي اليوم الذي يبصرون فيه هذا النور ، ويعانقونه بكل جوارحهم .

وارتعش وجهها الكبير الطيب ، وتألقت عيناها ، ورفت أجفانها ، كأنها إنما تولد متنامية الحيوية ، وتزدهر متزايدة الضياء أبداً ، في قلبها الخريفي الذي تنيره القوة الخلّاقة لشمس ربيعية .

ـــ لكان إلهاً جديداً قد وُلد ، فالواحد للكل ، والكل للواحد . هكذا أفهمكم .. أنتم الآخرين . إنكم جميعاً ، في الواقع ، رفاق ، وذوو قربي ، وأبناءٌ لأمٍ واحدة هي الحقيقة .

وغمرتها من جديد موجة من الانفعال ، فتوقفت قليلًا لتتنفس ، ثم قالت وهي تفتح ذراعيها كأنها تعانق شيئاً ما :

ـــ وعندما أهمس في نفسي هذه الكلمة « رفاق » أسمع في قلبي غمغمة :

« إنهم يتقدمون » !

... ونجحت خطتها ... فإذا وجه ليوميلا يشتعل بلهب غريب ، وإذا شفتاها ترتعشان ، وإذا بدموع ثقيلة متألقة تنهمر من عينيها .

واحتضنتها الأم بين ذراعيها ، وضحكت بصمت ، وقلبها مفعمٌ بالزهو ، زهو انتصارها .

وعندما افترقنا ، حدقت ليوميلا في عينيها وقال بصوت خفيض :

ـــ هل تعرفين كم يُسعد المرء أن يكون معك ؟

29

... وفي الشارع عصف بها الهواء الجاف البارد ، وشد حنجرتها ، ونقر أنفها ، وحبس أنفاسها في صدرها لحظة ، فتوقفت ، وتطلعت حولها ، فإذا في زاوية الشارع وعلى مسافة غير بعيدة منها ، حوذي يعتمر قبعة من وبر ؛ وعلى مسافة أبعد ، رجل يسير محني الظهر ، يغرق رأسه بين منكبيه ، وأمامه جنديٌ يعدو بوثبات سريعة وهو يفرك أذنيه .

وقالت في نفسها :

ـــ لا شك أنهم أطلقوا هذا الجندي الصغير في سباق !

ومضت في طريقها وهي تصغي بنشوة إلى الصرير الفتيّ الجهور تحت قدميها ، صرير الثلج .

ووصلت إلى المحطة مبكرة ، ولم يكن قطارها قد أُعد بعد ، إلا أن

صالة الانتظار في الدرجة الثالثة ، هذه الصالة القذرة التي سوّدها الدخان ، كانت تعج بالخلق ، فلقد ألجأ البرد إليها عمال الخط ، وعدداً من الحوذيين ، وسيئي الكرة الذين لا مأوى لهم ، فجاؤوها يلتمسون فيها بعض الدفء . وكان فيها أيضاً عددٌ من المسافرين ، وبعض الفلاحين ، وتاجرٌ ضخم يلتف برداء من الفرو وكاهن تصحبه صبية مجدورة الوجه ، وخمسة من الجنود أو ستة ، وبعض البرجوازيين الصغار الذين يبدو عليهم الانهماك .

وكانوا جميعاً يدخنون ويثرثرون ويشربون الشاي والفودكا ، وبالقرب من المقصف كان أحدهم يطلق ضحكة داوية ؛ وكانت سحب الدخان تهيم فوق الرؤوس ؛ والباب يصر عندما يُفتح ؛ ويهتز زجاجه ، ويحدث صوتاً عندما يُصفق ، وكانت رائحة التبغ والسمك المملح تزكم الأنوف بشدة .

واتخذت الأم مكاناً لها بالقرب من الباب ، مكاناً وجيهاً ، وراحت تنظر . وكان كلما دخل داخل تهب معه نفحة من الهواء البارد ينشرح لها صدرها ، فتتنفس ملء رئتيها . وكان الناس يتوافدون ، وفي أيديهم رزم ، وعليهم ثياب ثقيلة فيعلقون بالباب ، وهم يلجونه ، فيشتمون ، ويقذفون بحاجياتهم إلى الأرض أو يلقون بها على أحد المقاعد ، وينفضون نتف الثلج عن ياقات معاطفهم وأكمامهم ، ويمسحونه عن لحاهم وشواربهم ، ويدمدمون ...

ودخل شاب كان يحمل حقيبة صفراء ، فألقى على ما حوله نظرة سريعة ، ثم اتجه مباشرة نحو الأم وسألها بصوت خافت :

— إلى موسكو ؟

— نعم .. لزيارة تانيا .

— حسناً .

ووضع الحقيبة بجانبها على المقعد ، وسحب سيجارة من جيبه ، وأشعلها وهو يرفع قبعته قليلاً ثم خرج من باب آخر دون أن ينبس بكلمة .

وداعبت الأم بيدها جلد الحقيبة البارد ، ثم أسندت إليها مرفقها وراحت تتفحص وجوه الناس مسرورة ؛ وبعد لحظة نهضت لتجلس على مقعد آخر قريب من المخرج الذي يفضي إلى الرصيف . وحملت دون عناء الحقيبة التي لم تكن كبيرة ، وراحت ، شامخة الرأس ، تحدق في وجوه أولئك الذين يمرون أمامها .

واصطدم بها شاب يرتدي معطفاً قصيراً عالي القبة ، ثم ابتعد عنها دون أن يتفوه بكلمة ؛ في حين كانت أصبعه تلامس قبعته . وخيل إليها أنها قد رأته من قبل ، فاستدارت نحوه ، وكانت عين الرجل الصافية تتركز عليها من وراء قبته العالية ؛ واخترقتها هذه النظرة اليقظة ، فارتعشت يدها التي كانت تمسك بالحقيبة ، وأحست بحملها يغدو ثقيلًا فجأة .

وهمست في نفسها : « لقد رأيته من قبل في مكان ما ! » وكانت تقاوم إحساساً كريهاً معتكراً يملأ صدرها ، ولم تشأ أن تحدد ، بكلمات أخرى ، ذلك الشعور الذي كان يهصر قلبها بهدوء ، ولكن بصلف ؛ غير أن هذا الاحساس كان يتنامى ، ويتصاعد ليملأ حنجرتها ، ثم فمها ، بمرارة جافية .

وعصفت بها رغبة لا تقاوم في أن تستدير وتلقي إلى الوراء نظرة أخرى ، فإذا بالرجل ما يزال مكانه ، يستند تارة إلى إحدى رجليه ، وطوراً إلى الثانية باحتراس وحذر ، وكانت يده اليمنى تندس بين أزرار معطفه ، في حين تستقر اليسرى في جيبه ، فيبدو كتفه الأيمن ، وهو في هذا الوضع ، أعلى من الأيسر .

واقتربت متمهلة من المقعد ، وجلست بحذر وبطء كأنها تخشى أن تجتث شيئاً ما في داخلها ، واستحضرت لها الذكرى التي أيقظها حدسها الرهيف بالشقاء ، استحضرت لها هذا الرجل على صورتين : الأولى في الحقول بعد هرب ريبين ، وعلى مقربة من السجن ، والثانية في المحكمة . فلقد رأته فيها إلى جانب رجل البوليس الذي كذبت عليه وضللته حين دلته على الطريق الذي سلكه ريبين .

وظلت تسائل نفسها لحظة :
ــ تُرى ... هل وقعت في الشرك ؟
وفكرت مرتعشة :
ــ ربما كنت لم أقع حتى الآن !
ثم أردفت بعد ذلك :
ــ لقد وقعت !

وتطلعت حواليها فلم تر شيئاً ، وكانت خواطرها تتدفق واحدة بعد الأخرى كالشرر ، ثم تنطفيء في رأسها .

ــ هل أترك الحقيبة ؟ وأمضي في سبيلي ؟
ولكن شرارة أخرى التمعت أكثر تألقاً :
وكلمات إبني ... أطرحها في أيدٍ كهذه ؟
وضمت الحقيبة إلى صدرها :
ــ هل أنجو بها وأهرب ؟

وكانت هذه الأفكار تبدو غريبة لها كأنها إنما أُدخلت إلى رأسها عنوة ؛ وتلذعها ثم تخترق حروقها تلك ، دماغها بألم ، وتحطم قلبها وتفسّخه كخيوط محمّرة ، وتذلها وتنئيها عن نفسها ، عن بول ، عن كل ما كان من قبل متحداً بقلبها . وكانت تشعر أن قوة بغيضة تطبق عليها فتصهرها وتسحق منكبيها وصدرها ، وتنيخها لتغرقها في رعب مميت ، وكانت عروق صدغيها تنبض ، والحرارة تتصاعد إلى جذور شعرها .

وبجهد سريع صلب ، استطاعت أن تخنق كل هذه الومضات الخبيثة الواهنة المسكينة ، وأن تسيطر على نفسها :

ــ عارٌ عليك يا نفسي .

وشعرت بالعزاء يتسرب إلى جوانحها فجأة ، فقوت من عزمها وتصميمها :

ــ لا تكوني عاراً على ابنك ... لا أحد يخاف ..

والتقت عيناها بنظرة حزينة وعديدة ، وتراءت لها صورة ريبين في

لمحة خاطفة ، وبدا لها كأن هذه اللحظات القليلة من الحيرة قد عادت فثبتت كل شيء فيها ، وراح قلبها ينبض بهدوء أكثر من ذي قبل .

وتساءلت وهي تراقب الجاسوس :

ــ ماذا سيحدث الآن ؟

وكان هذا قد أومأ إلى أحد الحراس ثم راح يوشوشه ، وهو يشير إليها بعينه ، فرنا إليه الحارس ثم تراجع إلى الوراء ، ودنا حارس آخر ، وأصاخ بسمعه وقطب حاجبيه ، وكان عجوزاً وقور الشكل ، أشهب اللحية والشعر ، وأومأ إلى الجاسوس برأسه ثم تقدم نحو المقعد الذي كانت تجلس عليه الأم ، في حين كان الجاسوس يتوارى .

وسار العجوز متمهلًا وعيناه الحانقتان تتفرسان بدقة في وجه الأم ، فانكفأت هذه إلى الطرف الآخر من المقعد :

ــ المهم ألا يضربوني .

ووقف بالقرب منها صامتاً ثم سألها بصوتٍ خافت قاس :

ــ إلى مَ تنظرين ؟

ــ لا شيء .

ــ حسناً أيتها اللصة ... لقد بلغت من العمر عتياً ومازلت تمارسين هذه المهنة ؟

ولطمتها هذه الكلمات كصفعتين أليمتين على وجهها ، شريرتين داويتين ، خيل إليهما كأنهما مزقتا وجنتيها ، واقتلعتا عينيها .

وصاحت بكل قوتها :

ــ أنا ؟ أنا لصة ؟ إنك تكذب .

وأخذ كل شيء يدور في دوامة سخطها ، وأسكرت الإهانة المرة قلبها ، فشدت غطاء الحقيبة الذي لم يلبث أن انفتح ، وصرخت وهي تثب : ــ أنظر ... أنظروا جميعاً .

وانتزعت رزمة من المناشير ، ولوحت بها فوق رأسها ؛ وسمعت من خلال الطنين في أذنيها ، هتاف الناس الذين كانوا يتراكضون من كل صوب .

ـــ ما هذا ؟

ـــ يُقال إنها سرقت ...

ـــ إن مظهرها يوحي الاحترام ... إذا كان لا يوحي البؤس !

وعادت الأم تعلن بصوت داوٍ ، وقد هدأ من روعها بعض الشيء منظر الجمهور المحتشد الذي اكتظ حولها .

ـــ لست لصة . لقد حُكم البارحة على بعض السجناء السياسيين ، وكان إبني أحدهم وقد ألقى فلاسوف خطاباً ؛ هو ذا ... إني أحمله إلى الناس ليقرأوه ، وليتمعنوا في الحقيقة ...

واختطف أُحدهم بعض الأوراق من يدها بحذر ، ولوحت هي الأخرى في الهواء ثم ألقت بها إلى الجمهور .

وتعالى صوت مذعور :

ـــ إنهم لن يقدموا لك التهاني من أجل هذا ...

وكانت الأم تلاحظ أنهم يتخطفون الأوراق ، ويخبئونها في معاطفهم وجيوبهم ، وأحست من جديد أنها أشد ثباتاً على ساقيها ؛ فراحت تتحدث ، وهي أكثر هدوءاً ، وقوة ، وتوتراً ، وأشد إحساساً بالزهو الذي كان يتنامى في داخلها ، وبالفرحة العارمة التي كانت تلهب جوانحها ، تتحدث وهي تنتزع من الحقيبة رزم الأوراف ، فتقذفها ذات اليمين وذات الشمال ، وتلقي بها إلى أيدٍ رشيقة نهمة .

ـــ أتدرون لماذا حُكم على ابني ، وعلى كل أولئك الذين كانوا معه ؟ سأقول لكم السبب ؟ وستصدقون قلب أم وشعرها الأشيب : بالأمس حُكم على قوم لأنهم كانوا يحملون الحقيقة إليكم جميعاً . وبالأمس عرفت أن هذه الحقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها ... لا يستطيع أحد .

وكان الحشد الذي سيطر عليه الصمت يتزايد شيئاً فشيئاً ويتكاثف ويحيط بالأم بحلقة حية :

ـــ الفقر والجوع والمرض ... هذا ما يربحه الناس من عملهم . كل شيء يقف ضدنا ، ويوماً بعد يوم نغرق في العمل طوال حياتنا ، نغرق

في الوحل والخديعة في حين يتخم الآخرون ؛ ويتمتعون على حساب شقائنا ، ويستبقوننا كالكلاب في قبضة القيد والجهالة ، لأننا لانعرف شيئاً ؛ ويستبقوننا في قبضة الرعب لأننا نرهب كل شيء ، ان حياتنا هي الليل ... وأنه لليل حالك الظلمة .

وتعالت بعض الأصوات :

ــ هذا هو الواقع .

ــ سدوا شدقها .

وأبصرت الأم الجاسوس وراء الحشد ، يصحبه در كيان ، فأسرعت في توزيع الرزم الأخيرة ، ولكن عندما غاصت يدها في الحقيبة ، التقت بيد أخرى فيها :

ــ خذوا .. خذوا ..

وصاح الدركيان :

ــ تفرقوا ...

واندفعا يبعدان الناس الذين كانوا يرضخون لدفعهما مرغمين ، ولكنهم كانوا يحشرونهما ويضايقونهما بكتلتهم ، وربما كان ذلك عن غير قصد منهم .

وكانت تلك المرأة ذات الشعر الأشهب والنظرة الصريحة والوجه الناضح بالطيبة ، كانت تستهوي الناس استهواء طاغياً ، فإذا بهم ، وهم الذين عزلتهم الحياة وباعدت فيما بينهم ، ينصهرون الآن في كل واحد ، ويبعث فيهم الحرارة لهب كلامها ، هذا الكلام الذي ربما كان الكثيرون منهم قد سمعوه منذ أمد طويل ، ولكن قلوبهم التي أذلتها مظالم الحياة تحس نحوه الآن بظمأ حار مسعور . ولف الصمت أولئك الذين كانوا أقرب إليها من الآخرين ، ولكنها كانت ترى عيونهم اليقظة النهمة ، وتشعر بلهاثهم الفاتر يلفح وجهها .

ــ اغربي أيتها العجوز .

ــ إنهم يوشكون أن يقبضوا عليك .

ــ إنها غير هيّابة !

وصاح الدركيان اللذان كانا يقتربان : ـــ تفرقوا ...

وكان الناس يتموجون متدافعين ، ويتعلق بعضهم بالبعض الآخر ؛ ويخيل للأم أنهم على أتم الاستعداد لفهمها وتصديقها ، وكانت تود أن تقول لهم ، على عجل ، كل ما كانت تعرف ، أن تبوح لهم بكل تلك الخواطر التي تحس زخمها ، والتي تتصاعد من أعماق قلبها دونما عناد ، وتتجمع على شفتيها كأغنية ، ولكنها كانت تتحقق بانكسار ، أن الصوت ينقصها ، فصوتها مبحوح ، يرتعش ويتمزق .

ـــ إن كلمات ابني هي الكلمات الطاهرة ، كلمات فتى أنبتته الطبقة الكادحة . إنها صوت النفس التي لا يشوبها الفساد ، فاعرفوا الرجال النزهاء من جرأتهم !...

ورمقتها عيون فتية بحماس ورعب .

وتلقت ضربة في صدرها ، فترنحت ، وهوت على المقعد ؛ وكانت أيدي الدركيين تلوح فوق الرؤوس ، فتلكم أعناق الناس ومناكبهم ، وتنحّيهم جانباً وتقتلع قبعاتهم وتلقي بها بعيداً .

وترنح كل شيء أمام الأم ، وغرق في الظلمات ، ولكنها استطاعت أن تسيطر على نفسها ، وأن تصرخ بما تبقى لها من صوت :

ـــ ليجمع الشعب قواه في قوة وحيدة !

وأهوى أحد الدركيين بيده الكبيرة الحمراء على عنقها وهزها :

ـــ إخرسي .

وارتطم عنقها بالجدار ، ولفّ قلبها ، للحظة ، دخان من الرعب لاذع ، لم يلبث أن بددته حرارة لهبها الداخلي .

وقال لها الدركي :

ـــ إمشي .

ـــ لا تخشوا شيئاً ، فليس هناك شقاء أشد وطأة من ذلك الذي تتنفسونه طوال حياتكم ...

وأمسك الدركي بذراعها وشدها بضراوة :

ـــ اخرسي ... قلت لك اخرسي .

وأمسك بذراعها الثاني دركي آخر ، وسحباها معاً بخطى سريعة ،
ــ من يقرض كل يوم قلوبكم ، ويجفف صدوركم .
واندفع الجاسوس أمامها ، ولوح في وجهها بقبضته المهددة نابحاً :
ــ ألن تخرسي أيتها العاهرة ؟
واتسعت عينا بيلاجي ، وتطاير منها الشرر ، وارتجف فكها ، وصاحت وهي تثبّت قدميها فوق البلاط الأملس :
ــ إنكم لا تستطيعون قتل روح بعثت من جديد .
ــ أيتها الكلبة .
وصفعها الجاسوس على وجهها ، ولعلع صوت شرير :
ــ حسناً فعلت بهذه الجيفة الشمطاء !
وطمس عيني الأم ، للحظة قصيرة ، سائل أسود اللون أحمره ، وملأ فمها الطعم المالح ، طعم الدم .
وشدد من عزيمتها دويّ من الأصوات الواضحة الصخابة :
ــ لا تضربوها .
ــ أيها الفتيان .
ــ سافل .
ــ اهجموا عليه .
ــ العقل لا يُغرق بالدم !
وكانوا يدفعونها من عنقها وظهرها ، ويضربونها على كتفيها ورأسها فيترنح كل شيء أما عينيها ويدور في دوامة قاتمة من الصراخ وأصوات الصفارات ، والعويل ؛ واخترق أذنيها إحساس بشيء فيه كثافة وصمم ، فملأ حنجرتها ، وسد أنفاسها .
ومادت الأرض تحت قدميها ، وانشقت ، وتقوست ركبتاها ، واختلج جسدها تحت وطأة الألم ، ثم تثاقل ، وترنح ، خائر القوى ، ولكن عينيها كانتا تلتمعان أبداً وترنوان إلى عيون أخرى تشتعل بنار باسلة عنيفة كانت تعرفها جيداً ، نار غالية على قلبها .

ودفعوها من الباب ، فانتزعت إحدى يديها من وثاقها وتمسكت بشيء ناتيء :

ـــ إنكم لن تخنقوا الحقيقة في أعماق بحار من الدم ...

وسقطت على يدها ضربة .

ـــ يا لكم من مجانين . إنكم لن تراكموا إلا الحقد ، وسينصب هذا الحقد عليكم .

وأمسكها دركي من عنقها ، وأخذ يضغط ، فحشرجت :

ـــ يا للأشقياء ...

ورد عليها أحدهم بشهقة .

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11



الأم

كيف إعتنق ماكسيم غوركي تلك الأفكار الثورية وما هي الظروف التي كتب فيها رواية « الأم ».

كانت بواكير إنتاج غوركي بدأت بعد تعكس علاقات القوة الجديدة التي أخذت تنشأ داخل المجتمع الروسي عند نهاية القرن الماضي. إنه كان في أول أمره إشتراكيا بالعاطفة ولكن تشبعه بالنزاهة والشهامة والأنفة الإنسانية والبطولة الفردية من أجل مصلحة الجماعة كلها قد تمخض مبكرا عن نضج روحه الثورية في مؤلفاته.

ف. عماري

961-62-530-9
9 789961 625309



Designer : Med ZOUAOUI